المجتمع المصرى
فى أدب العصر المملوكى الأول

٦٤٨ - ٧٨٤ هجرية

د. فوزى محمد أمين
مدرس الأدب العربى
كلية الآداب - جامعة الإسكندرية

دار المعا

المجتمع المصرى فى أدب العصر المملوكى الأول

المجتمع المصرى
فى أدب العصر المملوكى الأول
٦٤٨ - ٧٨٤ هـ

الدكتور
فوزى محمد أمين
مدرس الأدب العربى
بكلية الآداب ـ جامعة الاسكندرية

١٩٨٢



دار المعارف

بسم الله الرحمن الرحيم

اهـــــداء ...

الى أســـتاذى الدكتور

محمـــد زغلول سلام

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

أعتقد أنه لم يعد هناك من يؤمن بأن الفنان شخص اختصته الآلهة بنعمة الوحي أو الإلهام كما قال أفلاطون ، أو بأنه رهين شيطان يوحي إليه بما لا قبل للناس به كما شاع بين العرب القدماء ، فالواقع أن الإبداع الفني عمل لا يتقدح في وجدان الفنان من فراغ ، أو يقلقه به في روحه من قوة عليا ، وإنما هو عمل تتدخل فيه ألوان من الصناعة والتعقل الواعي ، وطول المراس بآثار السلف وما خلفوه من أنماط فنية ، كما يتدخل فيه استجابات الفنان الواعية وغير الواعية لما يحيط به من ظروف المجتمع وأحوال البيئة ، حتى إننا لا نعدو الحقيقة إذا ذهبنا مع «إيرول جيكز» إلى أن الفن لون من محاولات الإنسان للتكيف مع بيئته ، فالفن الجمالي — على حد قوله — «ليس نوعاً من السلوك المنعزل الذي تمليه قوى مستقلة في الإنسان ، وتساعده عمليات عضوية منفصلة موجهة نحو غاية معينة خاصة ، إنه مرحلة السلوك الإنساني الشامل ، متكاملة متناسقة ، ولا يمكن الخط من شأنها ، وهو جانب من الاستجابة التي يقابل بها الإنسان الأشياء التي يصادفها ، كما أنه يسهم إسهامه الفريد في العملية الخاصة بالتكيف مع هذه الأشياء» (١)

لا سبيل — إذن — إلى الفصل بين الفن والمجتمع ، فالفن أولاً وأخيراً عمل اجتماعي ولعل نشأة الفنون تثبت صدق هذا ، فالفن نشأ استجابة لمطالب الجماعة ، وإشباعاً لرغبات أفرادها ، وفي المجتمعات البدائية قلما كان الفنان

---

(١) الفن والحياة ، ترجمة أسعد حليم وعلي أدهم ، ص ١٠ .

يجنح إلى التعبير عن مشاعره الذاتية الخالصة ، وإنما كان دائماً يجنح إلى التعبير عن مشاعر جماعية (١) ويشهد بصدق ذلك ما وصل إلينا من الشعر الجاهلي الذي كثيراً ما نحس فيه ذوبان المشاعر الذاتية في مشاعر الجماعة ، فالشاعر يشغول عن قضايا عواطفه الخاصة بقضايا الجماعة من حرب وصراع .

وحديث علاقة الفن بالمجتمع حديث طويل تشعبت فيه أقوال الفلاسفة والنقاد ، ومهما غلا هؤلاء الذين يزعمون في تحليلهم للإبداع الفني نزعة إجتماعية إلى حد حطوا فيه من شأن العبقرية ، وطمسوا ذاتية الفنان فلن نستطيع إلا أن نسلم معهم بتلك العلاقة الوثيقة بين الفن والمجتمع ، ولن نستطيع عندئذ إنكار هذه العلاقة ، فليس ثمة فنان يتوجه إلى فراغ أو إلى غير جمهور ، سواء أكان هذا الجمهور واقعاً أم كان متخيلا — كما يرى «لالو» أحد أقطاب هذه النزعة — وإلا فما المقصود بروعة الفن ؟ ومن الذي يصدر الحكم بالروعة على هذا العمل الفني أو ذاك ؟ وهكذا فالفنان دائماً مرتبط بجمهوره لا يتخلص من طغيانه — على حد قول «لالو» — إلا بتصور لجمهور آخر (٢)

هذه نظرة موجزة طرحها بين يدى هذا البحث الذى قام على أساس من هذه العلاقة بين الفن والمجتمع ، وتخيرنا له عنوان «المجتمع المصرى فى أدب العصر المملوكى الأول» .

ونحن وإن كنا نؤمن بالعلاقة بين الأدب والمجتمع لا نذهب إلى طمس ذاتية الأديب أو إلغاء تميزه ، كما أننا نؤمن بأن رؤية الأديب الواقع ليست هى الواقع نفسه ، وإنما هى الواقع كما يحسه الأديب ويشعر به .

كذلك نؤمن بأن لكل أديب دوافعه ونوازعه الخاصة به ، ولكن علينا

---

(١) أنظر : مشكلة الفن . د. زكريا ابراهيم ص ١١٦ .

(٢) أنظر : مشكلة الفن ص ١١٩ .

أن نسلم بأن هناك قدرا من روح الجماعة أو ما يسمى «باللاوعي الجمعي» يسري في عمل كل أديب ، وتنبض به كلماته ، وحتى إذا لم نسلم بذلك فإن إختلاف الدوافع والنوازع بين الأدباء قد يعين على اكتمال الصورة ، ورؤيتها من زوايا مختلفة ، حتى ذلك الأديب الذي يرفض المجتمع ، ويتمرد عليه ، ينبغي أن نتلمس عنده جانبا من جوانب الصورة ، فهو — لا شك — يعكس رأي فريق من أبناء مجتمعه ، ويعبر عن روحه .

نحن لا نتوقع — إذن — أن تكون صورة المجتمع التي يعطيها لنا أدب العصر المملوكي مطابقة للواقع ، وسيتبين لنا مدى ما فيها من خلاف عن الصورة التي تعطيها مصادر التاريخ ، ومباحث علم الاجتماع ، ولكنها — مع ذلك — صورة تفتقدها هذه المصادر ، وتعوز المشتغلين بهذه الدراسات ، لأنها الصورة الحية التي تنقل نبض المجتمع بما اعتراه من أحداث ، وما تلاحق عليه من أفراح وأتراح ، وهي أيضا صورة أكثر نقاء ودقة وتركيزا بل ربما كانت أكثر صدقا ونفاذا إلى الحقيقة ، فالحقائق — كما يرى ارون إدمان — «ما هي الا مدلولات لتجربة مباشرة ذاتية ، ومن المميزات الخاصة للصور الجميلة أنها تكشف عن هذه المدلولات المباشرة بوضوح وتركيز ونقاء يرفعها إلى درجة خاصة من درجات الحقيقة» (١)

ذلك ما يضيفه هذا البحث إلى الدراسات التاريخية والاجتماعية ، أما ما يضيفه إلى الدراسات الأدبية فهو التفسير لأدب العصر المملوكي بإعادة قراءته على ضوء جديد من ذلك الارتباط بين الأديب ومجتمعه ، ولاشك أن مثل هذه القراءة ستكشف النقاب عن كثير من معميات هذا الأدب حين نربطه بجذوره الاجتماعية فنضعه في مكانه الصحيح من الأدب العربي .

---

(١) الفنون والإنسان ص ٥٤ .

ونعلم — بعد ذلك — أن هناك من سيقول : وما قيمة مثل هذا التفسير الاجتماعى للأدب وما جدواه ؟ إن الأدب تعبير فنى جمالى ، ودارسه لا يعنيه ما ينطوى عليه من قضايا اجتماعية بقدر ما يعنيه التعبير الجميل ذاته ، ولكن ، أليس الجمال ذاته قيمة اجتماعية ؟! وهل يمكن تصور القيمة الجمالية إلا فى اطار التوافق الاجتماعى ؟! وإذا سلمنا بأنه ليست هناك معايير ثابتة للجمال فلسن نستطيع إدراك القيمة الجمالية لعمل أدبى إلا فى إطار عصره ، وما اصطلح عليه من معايير جمالية ، ومن ثم نعود فنقول إن تفسيرنا لأدب العصر المملوكى لن يقف عند حد الأحداث والعلل الاجتماعية وراء العمل الأدبى ، بل سيتجاوز ذلك إلى دراسة ذوق العصر ومعاييره الجمالية ، ومدى ذلك فيما خلفه الأدباء من أعمال .

كما ينبغى أن تلفت أننا فى تناولنا هذا لأدب العصر المملوكى وربطه بملابسات عصره لا نفصله عن الحقائق الإنسانية الخالدة أو نجعله حبيس عصره لا يتعداه إلى سواه من العصور ، بل ربما وصله مثل هذا التناول بهذه الحقائق فليست هناك حقائق إنسانية مجردة ، وإنما تتراءى هذه الحقائق على أنق موقف الأديب من قضايا عصره وأحداثه ، فهو يتحدث إلى كل الناس من خلال أبناء عصره كما يرى «سارتر» (١) ، والفن الحق لا ينفى الوعى الطبقى ، ولا يطفىء الشرارة المقدسة كما يقول على أدهم . (٢)

وأدب العصر المملوكى أدب شابه كثير من الغموض ، وأبهمت صورته أحكام نقدية غير متأنية ، وحين اخترت أدب هذا العصر ميدانا للدراسة إنما أردت أن أقف على صورته الصحيحة ، محاولا قدر الإمكان التعرف عليه فى

---

(١) ما الأدب ص ٩٧ .

(٢) الثقافة والمجتمع . مجلة الكاتب . نوفمبر سنة ١٩٤٥ .

ضوء الملابسات التي أحاطت به ، والذوق الجمالي الذي ساد البيئة الأدبية آنذاك

وليس لي أن أدعي فضل السبق إلى هذا الميدان بل يجب أن أنوه بجهود الرواد الذين ارتادوا لنا هذه الطريق ، ومهدوا لنا مواطىء الخطى ، وأخص بالذكر الدكتور عبد اللطيف حمزة ، وأساتذتي الدكتور محمد زغلول سلام ، والدكتور مصطفى الصاوى الجويني والدكتور حسين نصار .

ولا أدعي — أيضا — أن مثل هذا البحث سيقول الكلمة الأخيرة في قضية «شخصية مصر وأثرها في الأدب» التي مازال يدور حولها الجدل ، فأنا أعلم أنه ليست هناك كلمة أخيرة ، ولكن ربما هيأ هذا البحث حجة جديدة لدعاة هذه القضية فيما يذهبون إليه ، ولا أخفي أن من دواعي إلى اختيار موضوع هذا البحث التعرف على شخصية مصر . وما أضفته على الأدب العربي فيها من صبغ مصري ، فالحقيقة التي لا خلاف عليها أن شخصية مصر ظلت متميزة على مر العصور ، فالحضارة المصرية قبل الاسلام كان لها طابعها — الخاص الذي يميزها عن كل ماجاورها من حضارات (١) ، وبعد الإسلام ظل لمصر تميزها ، فهل كان لهذه الشخصية المتميزة أثر على أدبها المصري ؟ هذا سؤال يجيب عنه هذا البحث .

وقد اقتضت طبيعة هذا البحث أن يكون بناؤه وفقا لجوانب المجتمع المختلفة من سياسية وعقدية ودينية ومعاشية وأدبية ، وقد رأيت أن يكون هذا البحث فصولا متتابعة يختص كل فصل منها بجانب من جوانب المجتمع أو قضية من قضاياه فالفصل الأول اختص بالحكم ، والثاني بالجهاد ، والثالث بالثروة وانهيار القيم ، والرابع بالتيارات العقدية ، والخامس بالنزعات الطائفية

---

(١) أنظر The Priests of Ancient Egypt . P.7

والسادس بالشخصية المصرية والحياة العامة ، والسابع بالتهو والجون ، والثامن بالذوق الأدبي وانتهت هذه الفصول بخاتمة تسجل أهم ما توصل اليه البحث من نتائج .

والله الموفق إلى سواء السبيل ،،،

دكتور فوزى محمد أمين

الإسكندرية — سيدى بشر — يوليو ١٩٨٠

الفصل الأول

الحكم

١ ــ الخلافة :

لم يكن إحياء الظاهر بيبرس للخلافة العباسية بالقاهرة سنة تسع وخمسين وستمائة لفكرة عارضة أو خاطرا طارئا ، ولكنه كان عملا مخططا له ، وضرورة اقتضتها ظروف الحكم الناشيء .

وقد كان هدف بيبرس من وراء الخلافة أن يسبغ الشرعية على حكمه للبلاد الإسلامية والحجازية ، وأن يسبغ الشرعية أيضا على جهاده فى سبيل تحرير الأرض الإسلامية ، أو قل : إنه أراد زعامة العالم الإسلامى مغلقا بذلك باب الأمل فى وجه بقايا الحكم الأيوبى . (١)

وما أظن ذلك الأمير العباسى أحمد بن الظاهر والذى لقب فيما بعد بالمستنصر إلا كان مدركا لما يراد به ، وما يرجى من ورائه ، وما أظنه كان يرجو أن تكون له فى مصر كلمة نافذة أو حكم فعال ، ولكنه سعى لهذا المنصب آملا فى أن يسترد له بيبرس بغداد ، ويصل ما انقطع من ماضى الخلافة فيها ، وحتى إذا لم يكن ذلك فليس منصب الخلافة فى مصر بالقليل لهذا الأمير العباسى المنكوب .

ولعلنا سنكشف كل ذلك من التقليد الذى كتبه فخر الدين بن لقمان لبيبرس

---

(١) أنظر العلاقات السياسية بين المماليك والمغول ص ٢٣ ، ص ٢٥ ـ د. فايد عاشور ط دار المعارف ٧٦ .

على لسان الخليفة المستنصر بعد أن بويع بالخلافة . فى بداية التقليد تنهال آيات الثناء على «بيبرس» الذى أحيا الخلافة ، وأعاد الزمن لها سلما بعد أن كان عليها حربا :

«ولما كانت هذه المناقب الشريفة مختصة بالمقام العالى المولوى السلطانى الملكى الظاهرى الركنى شرفه الله وأعلاه ، ذكره الديوان العزيز النبوى الإمامى المستنصرى أعز الله سلطانه ، تنويها بشريف قدره ، واعترافا بصنعه الـذى تنفد العبارة المسهبة ولا تقوم بشكره . وكيف لا وقد أقام الدولة العباسية بعد أن أقعدتها زمانة الزمان ، وأذهبت ما كان من محاسن وإحسان ، وأعتب دهرها المسىء لها فأعتب ، وأرضى عنها زمنها وقد كان صال عليها صولة مغضب» . (١)

ثم تمضى فى التقليد فإذا هى خلافة مفرغة ، وإذا بهذا الخليفة لا يملك حلا ولا عقدا وإنما الأمر كله مفوض لبيبرس :

«وأمير المؤمنين يشكر لك هذه الصنائع ، ويعترف أنه لولا اهتمامك لاتسع الخرق على الراقع . وقد قلدك الديار المصرية والبلاد الشامية والديـار البكرية والحجازية واليمنية والفراتية ، وما يتجدد من الفتوحات غورا ونجدا ، وفوض أمر جندها ورعاياها إليك حين أصبحت بالمكارم فردا ، ولا جعل منها بلدا من البلاد ولا حصنا من الحصون يستثنى ، ولا جهة من الجهات تعد فى الأعلى ولا فى الأدنى» . (٢)

إذن لقد قلد بيبرس كل شىء ولم يبق له شىء اللهم إلا هذه الوصـايا

---

(١) السلوك لمعرفة دول الملوك للمقريزى جـ ١ / ٢ ص ٤٥٢ ، ٤٥٤ نشر محمد مصطفى زيادة ط ١٩٤١ .

(٢) السلوك للمقريزى جـ ١/٢/ ص ٤٥٤

بالعدل ، ومراقبة الهال والجهاد ، ومثل هذه الوصايا ربما كان القصد منها أن تحفظ على الخلافة بعض الرمق ، وأن تعطف إليها أفئدة الناس .

غير أن التقليد يمضى فيلفت بيبرس إلى قيمة الخلافة ، وينبهه على ما خصه الله به من فضلها ، لكي يرعى بيبرس حرمتها ويوقر جانبها :

«فاحمد الله على أن وصل إلى جانبك إمام هدى أوجب لك مزية التعظيم ، ونبه الخلائق على ما خصك الله به من هذا الفضل العظيم ، وهذه أمور يجب أن تلاحظ وترعى» . (١)

تلك إذن هي الخلافة كما أراد منها «بيبرس» وكما أراد لها ، ولعل فريقا من الشعب بارك هذا العمل وهش له ، ولعل فريقاً آخر كان ينظر إلى الأمر فى سخرية مريرة وقد بات يشك فى جدوى الخلافة العباسية بعد أن برهنت الأحداث على عجزها ، فضلا عن أنه يشك فى صحة نسب هذا الخليفة المزعوم إلى بنى العباس ويرتاب فى إدعاماته . (٢)

وفى مواجهة هذا الفريق الأخير ربما احتاج بيبرس أن يرد قضية الخلافة العباسية إلى أساسها من جديد ، ويعيد إلى الأذهان مآسى الدولة الأموية وما صنعته بآل البيت مستغلا بذلك تعلق الناس بآل البيت ، ضاربا على وتر حساس تجد أنغامه صدى فى كل نفس ، قاصدا بذلك إثارة العاطفة من جديد تجاه العباسيين الذين هبوا للثأر لأهل البيت ، ممهدا من ثم للخلافة العباسية التى أزمع أن يقيمها فى مصر .

وربما أوعز بيبرس بطريق أو بآخر إلى بعض الشعراء أن يضربوا على هذا

---

(١) السلوك للمقريزى جـ ١/٢/ ص ٤٠٦ .
(٢) أنظر دولة بنى قلاوون فى مصر لجمال الدين سرور ص ١٠١ .

الوتر ، وأن يجيدوا عزف هذه الأنغام القديمة ، ولعل فى هذا ما يلقى الضوء على قول العزازى بلسان الصالحية :

ولــو أنا شهــدنا آل حرب ... لخالفنـــا أميــة أجمعينـــا
وتابعنــا وبايعنا عليـــا ... أبا حسن أميــر المؤمنينا (١)

ولعل العزازى قد كتب فى هذه الأثناء قصيدته التى يمدح فيها آل البيت ويتطرق إلى ما أوقعه بنو أمية بآل البيت من محن فيقول

أللبــاغى عليهـــم يوم فخــر ... كأصلهـــم وفرعهم الزكى ؟
أللســاعى بهم نحــو المنـــايا ... كقدرهم ومجـــدهم العـلى ؟
أتقــدر ظلمـــة الليـل الدجـــى ... تغطى آية الصبح الجلـــى ؟

ثم يستعيد مقتل الحسين فيعيده فى صورة نابضة حية بكل أبعاده إذ يقول.

تـرى بعد الحسين يسـوغ مـــاء ... ويحلـــو مورد العيش الهـــنى ؟
وأية عيشة تحلـــو وتصفـــــو ... وقد جار العـــدو على الــولى ؟
لقد ظلمـــوا وما حازوا حقوقـــا ... لفاطمـــة البتـــول ولا الوصـــى
فويلهـــم بمــا اجترمـــوا وباءوا ... وما ارتكبـــوا من الأمر الفـــرى
أيحســـن أن يموت حسين ظـــامى الجوانح والروى ابــن الضـــــوى ؟
أيجمـــل أن تســـاق مهتكـــات ... بنـــات الهـــاشمى الأبطحـــى؟
إذا أنـــا لم أذب حرقـــا عليهـــم ... فمـــا أنا بالمحب ولا الوفـــــى
جعلت فـــدى حسين حسين ولــى ... محاسن وجهـــه الطلـــق الوضـــى
ومن لى بالفـــداء وقـــد رمتـــه ... أمـيـــة المنـــايا عـــن قســـى
عجبت لـــكل قلب كيف أضحى ... سليما يـــوم جاءوا بالنعـــــى

---

(١) الديوان ص ٦٥ مخطوط بدار الكتب تحت رقم ٢٨٤ شعر تيمور .

هـو منهوه ورد المـاء شجـا وتلـك عـلامة الخـلق الـدنى
سـقى دمـع ضريحـاً حـل فيه وجادتـه شآبيـب الحـبى
فجعنا بالإمـام ابن الإمام الشـريف الطـاهر الورع التـقى (١)

وقد يظن أن الشاعر على معتقد الشيعة لأنه وصف عليا رضى الله عنه بالوصى ، ولكن لم يذكر أحد ممن ترجموا له ذلك ، وما أظن هذه الكلمة إلا من الألفاظ التى شاعت فى الأوساط الشعبية وفقدت دلالتها العقدية .

وعلى هذا الوتر ضرب أيضاً البوصيرى فى همزيته إذ قال :

فأبكـهم ما استطعت إن قليـلا فى عظـيم من المصـاب البـكاء
كـل يوم وكـل أرض لكربى منهـم كربـلا وعاشـوراء
آل بيت النـبى إن فـؤادى ليس يسليـه عنـكم التأسـاء
غير أنى فوضت أمرى إلى الـله ، وتفويض الأمـور بـراء
رب يـوم دبكـر بـلاء مسىء خففت بعـض وزره الـزوراء
والأعـادى كأن كـل طـريح منهـم الزق حـل عنه الوكاء(٢)

ولعلنا لحظنا إشارة البوصيرى إلى إنتقام بنى العباس من بنى أمية ، بعد أن بكى واستبكى على آل البيت .

ولعل نغمة أخرى كانت تعزف إلى جانب هذه النغمة ، تصور الناس نكبة بغداد على يد التتار ، وما حل بدار الخلافة من شنائع ، والقصد من ذلك إثارة عاطفة الناس تجاه الخلافة ، وقد عزف على هذه النغمة الخليفة الحاكم بأمر الله حين تولى الخلافة بعد قتل المستنصر فقال يخطب الناس : «ولو شاهدتم

---

(١) القصيدة بديوان الجزار ص ٦ ، ٧ ، ٨ .
(٢) ديوان البوصيرى ص ٢٢ تحقيق محمد سيد كيلانى الطبعة الأولى ١٩٥٥

أعداء الإسلام حين دخلوا دار السلام ، واستباحوا الدماء والأموال ، وقتلو الرجال والأبطال والأطفال ، وهتكوا حرم الخليفة والحرم ، وأذاقوا من استبقوا العذاب الأليم ، فارتفعت الأصوات بالبكاء والعويل ، وعلت الضجات من هول ذلك اليوم الطويل فكم من شيخ خضبت شيبته بدمائه ، وكم طفل بكى فلم يرحم لبكائه» . (١)

ومهما كان من أمر فقد ظل فريق من الناس ينظر إلى عمل بيبرس ساخرا مرتابا ، وربما وجدنا في الأدب التمثيلي لهذا العصر ما يعكس موقف هذا الفريق ويصور ريبته وهزءه . فقد ألف ابن دانيال تمثيلية (بابة) تمثل على مسرح خيال الظل سماها «طيف الخيال» وواضح من مقدمة هذه البابة بما تقرره من إغلاق الحانات وإراقة الخمور وتتبع الشذاذ والمنحرفين أن صاحبها كتبها في بداية حكم «بيبرس» حيث حرص «بيبرس» على ذلك منذ توليه الحكم ، فتشدد في منع الخمور وتعقب المنحرفين ، وبلغ تشدده ذروته سنة ٦٦٤ هـ .

إذن فالبابة كتبت في هذه الأثناء ، وهي تعكس كثيرا من أحداثها التاريخية .

وقد سلك ابن دانيال في بابته مسلكا هزليا ، ولكن ينبغي ألا يذهب بنا الظن أن هذه البابة محض خيال ، أو مجرد هزل أريد به تلهية الناس ، ولكنها في أغلب الظن صورة تمثيلية يسقط الشاعر عليها رأيه في ما يجري من أحداث ، فنرى في شخوصها الهازلة أقنعة لشخصيات المجتمع الجادة ، ولعل ابن دانيال كان يشير إلى ذلك بقوله :

واعلموا أن لكل شخص مثال ، وقد قيل في الأمثال إنه يوجد في الأسقاط

---

(١) السلوك جـ ١/٢ ص ٤٧٨ .

مالايوجد فى الأسماط ، على أن لكل أسلوب طريقة وتحت كل خيال حقيقة(١)

وقصة البابة تتلخص فى أن الأمير «وصال» يعلن توبته بعد حياة حافلة باللهو والمجون . ويرغب فى حياة من الطهر والاستقامة ، فيرسل فى طلب الخاطبة «أم رشيد» لتنتقى له عروسا وفى ليلة الزفاف يفاجأ الأمير «وصال» بدمامة زوجه «شبة بنت معتاح» فما إن يكشف عن وجهها الخمار حتى تشهق فى وجهه كشهقة الحمار «وإذا هى من أكبر الدواهى بأنف كالجبل ، ومشافر كشافر الجمل ، ولون كلون الجمل ، وأجفان مكحولة بالعمش» (٢)

ويرجح الدكتور فؤاد حسنين أن الأمير وصال بطل البابة ما هو إلا رمز الخليفة العباسى (٣) ويقوى هذا الظن ما يخلعه ابن دانيال على الأمير وصال من صفات دينية فى معرض عرضه الساخر لشخصيته فهو «صاحب القبوس والناموس ، والكابوس والسالوس» (٤) وهو «الأمير الأوحد عين الدين ، فخر البله والجانين .. من تتجمل بطلعته المجالس» . (٥) .

ويقرأ «بابرج» كاتب الأمير وصال تقليدا بما تقلده الأمير من أمور الحكم فيقول :

«فوضنا إليه أمور القبور ، وجعلناه أميرا على مساخرة الجمهور وأضفنا

---

(١) خيال الظل — ابن دانيال ص ١٤٨ — ١٤٩ دراسة وتحقيق ابراهيم حماده ط الهيئة المصرية العامة ١٩٦١ م .

(٢) خيال الظل — ابن دانيال ص ١٧٤

(٣) أنظر قصصنا الشعبى — د فؤاد حسنين . ص ٨٤ نشر دار الفكر العربى سنة ١٩٤٧

(٤) خيال الظل — ص ١٥٤

(٥) خيال الظل — ص ١٥٨ .

إليه من الولايات ما يأتي ذكره من غرائب هذه الجهات ، وهي ولاية مصر القديمة والسنباب ، مع ما دثر من الجدران والخراب ، وسد عمائر الأهرام ، وما يجاورها من التلال والآجام» . ثم يقول :

فليباشرها ويستخدم نسيبه ولا يدع من البدع المضحكة بابا مقفلا ولا عملا من أعمال المساخرة معطلا» . (١)

ولا أرى ابن دانيال يقصد بهذا إلا «منصب الخلافة الذى أصبح مجرد هيكل خرب ، وأصبح الخليفة لا يزيد عن دمية مضحكة تحركها أصابع السلطان .

ولعل «ضبة بنت مقتاح» تلك العروس الدميمة ما هي إلا رمز الخلافة ، وكأن ابن دانيال يريد أن يبين أن الآمال التي عقدها المستنصر على الخلافة في مصر ليست إلا سرابا

ويعرض ابن دانيال شخصية الأمير في سخرية مرة ، ويرسم له صورة زرية ، فيجعله يخرج على الناس «في شربوش وسباله منقوش» (٢) ويجرى الحديث على لسانه فيقول «وأنا أطمع من كبش ، وأنتن من وحش ، أنا أشرف من نماس وألوط من أبي نواس» (٣) ويصف إفلاسه فيقول على لسانه «مال المال وحال الحال ، وذهب الذهب ، وسلب السلب وفضت الفضة ، وقعدت النهضة ، وفرغت الكاس بطون الأكياس وبعت العقار برشف العقار» (٤) .

وتبلغ السخرية مداها حينما نرى مصر بعره الشاعر يستهين به في شعره ويستخف بوعيده قائلا :

---

(١) خيال الظل — ص ١٥٩ .
(٢) خيال الظل ص ١٥٤ .
(٣) خيال الظل ص ١٥٤ .
(٤) خيال الظل ص ١٦٧ .

أتوصلني الهوان فليت شعري ... أهذا منك جائزة لشعري ؟

فماذا الهجاء ؟ تركت مدحا ... يبان به أخو نظم ونثر

وإن يك ذا الوعيد بأخذ روحي ... كما أوحشتني يا طول عمري (١)

ويمدحه شاعره مرة أخرى فيبدأ مدحه ببيتين من المديح الرائق يتحدث فيهما عن الرخاء الذي عم البلاد ، والعدل الذي غمرها فيقول :

إن البلاد التي أصبحت واليها ... أضحت ولا جنة المأوى ضواحيها

وعمرت منك بالعدل العميم إلى ... أن طاب حاضرها سكنى وباديها

ثم يتبع ذلك ببيت ثالث يحدث به مفارقة تقلب هذا المديح هجاء فيقول :

من بعد ما أصبحت طير الحراسيا ... على أسافلها تبكي أعاليها (٢)

ولعل هذه المفارقة تعكس ما لمحه المؤلف من مفارقة أخرى تثير السخرية بين الضجة التي افتعلها «بيبرس» في استقبال المستنصر وما رسم له من مراسم ومواكب وبين حقيقة هذا المنصب الخاوي إلا من اسمه .

ولقائل أن يقول : إذا كان ابن دانيال يقصد بالأمير وصال شخص الخليفة العباسي فما باله أظهره في هيئة الجندي ؟ وما باله لم يجعل الأمير وصال يرتدي «العمامة» بدلا من الشربوش ؟ وهذا اعتراض شكلي ، ولعل ابن دانيال أراد بذلك أن يصنع حجابا على الرمز ، ثم إن الخلفاء في هذا العصر كان يروق لهم أحيانا أن يظهروا في زي أمراء الجند . (٣)

---

(١) خيال الظل ص ١٦٠ .

(٢) طيف الخيال من (خيال الظل) ص ١٥٩ — ١٦٠ .

(٣) الملابس المملوكية — ل. أ. ماير — ترجمة صالح الشيتي ط. الهيئة المصرية ص ٢٢ .

وأغلب الظن أن هذا العرض الساخر لشخصية الأمير وصال ، إنما يعكس ما كان يتندر به الناس على الخليفة ، وما كانوا يتحدثون به فى مجالسهم فيسخرون منه حينا ويرثون له أحيانا .

وأيا ما كان الأمر ، وسواء أكانت شخصية « وصال » رمزا للخليفة أم لغيره فإن الذى لاشك فيه أن الخلافة التى قامت فى مصر كانت ضعيفة عاجزة

وإذا كان بعض الباحثين يرى أن الخليفة كان يمثل الجانب المهيب الذى يشعر الشعب تجاهه بالتبجيل (١) فإنا نرى سلاطين المماليك عمدوا واحدا بعد الآخر إلى تحطيم هذه الهيبة ، وبإزاحة الخليفة عن أى مكان يحتله فى نفوس الناس بإظهار الخليفة دائما فى صورة الإنسان الذى لا يملك لنفسه ضرا ولا نفعا .

وكثيرا ما ضيق السلاطين على الخلفاء فحجبوهم عن الناس كما فعل بيبرس بالخليفة الحاكم بأمر الله (٢) وكما فعل الناصر محمد بالمستكفى إذ نفاه إلى قوص هو وأهله (٣) وكأنما لم يبق من الخلافة إلا اسمها ، ولم يبق للخليفة إلا أن «يزين به فى المواقف الرسمية العامة ليتمم الحاشية» . (٤)

إذن فليطنطن كتاب الإنشاء بما شاءوا من مجد الخلافة وعزها وليشققوا الكلام كما شاء لهم فإنه ، فى النهاية ، لن يثير إلا السخرية والإشفاق ، وأى

---

(١) أنظر السياسة والحرب – برنارد لويس ص ٢٠١/ ق ١/ تراث الإسلام ط الكويت ١٩٧٨ .

(٢) السلوك ٢/١ ص ٤٤٥ .

(٣) حسن المحاضرة / ج ٢ / ص ٥٢ .

(٤) تاريخ دولة المماليك – وليم موير ص ٤٣ ترجمة محمود عابدين وسليم حسن ط ١٣٤٢هـ ١٩٢٤ م

إشفاق نفسه على الخليفة وأى سخرية تملؤنا حينما نقرأ قول تاج الدين اليمانى على لسان الخليفة المستكفى :

«وهذا وإن الدين الذى فرض الله على الكافة الانضمام إلى شعبه ، وأطلع فيه شموس هداية تشرق من مشرقه ولا تغرب فى غربه جعل الله حكمه بأمرنا منوطا ، وفى سلك أحكامنا مخروطا ، وقلدنا من أمر الخلافة سيفا طال نجاده وكثر أعوانه وأنجاده ، وفوض إلينا أمر الممالك الإسلامية فإلى حرمنا يجبى ثمراتها ، ويرفع إلى ديواننا العزيز نفيها وإثباتها . (١)

وما أجمل هذا الكلام . وما أحلى رنين سجعه !! لولا أنه حديث خرافة وتهويمات فى فردوس الخلافة المفقود .

ولم يقف أمر السلاطين مع الخلفاء عند حد النفى أو الحجر بل تعداه إلى تنحية صاحب الحق منهم ، وتنصيب غيره بدلا منه ، لا لشىء إلا لأن السلطان يريد ذلك حتى لو كان هذا البديل سيىء السيرة والسمعة . وهذا ما حدث عندما نحى السلطان الناصر محمد «أحمد بن المستكفى» ونصب بدلا منه «إبراهيم بن محمد بن الحاكم» ولقبه بالواثق ، وكان إبراهيم سيىء السيرة ، لقبه العامة بالمستعطى بالله لأنه كان يحتال على الناس ويشترى سلعا لا يوفى أثمانها .

ونجد فى أدب هذا العصر صورة قبيحة زرية لهذا الخليفة يرسمها ابن فضل الله العمرى حيث يقول :

«وما نشأ إلا فى تهتك ، ولا دان إلا بعد تنسك ، أغرى بالقاذورات ، وفعل

---

(١) نهاية الأرب للنويرى جـ ٨ / ص ١٠٣ .

ما لم تدع إليه الضرورات ، وعاشر السفلة والأرذال ، وهان عليه من عرضه ما هو باذل ، وزين له سوء عمله فرآه حسنا ، وعمى عليه فلم ير مسيئا إلا محسنا وغواه اللعب بالحمام ، وشرى الكباش النطاح ، والديوك النقار ، والمناقرة فى المعز الزرائبية الطوال الآذان ، وأشياء من هذا ومثله مما يسقط المروءة ، ويثلم الوقار ، وانضم إلى هذا سوء معاملة ومشترى سلع لا يوفى أثمانها ، واستئجار دور لا يقوم بأجرها ، وتحيل على درهم يملأ به كفه ، وسحت يجمع به فمه ، وحرام يطعم منه ويطعم حرمه حتى كان عرضة للهوان ، وأكلة لأهل الأرانة » (١)

وربما كانت استهانة السلاطين بالخلفاء دافعا إلى تعاطف فريق من الناس مع هؤلاء الضعفاء المغلوبين على أمرهم ، والمصائب يجمعن المصابين ، ونحس صدى لمشاعر هذا الفريق فى عالم الأدب فنرى ابن الوردى يقول حينما أخرج الخليفة المستكفى منفيا إلى قوص بالصعيد :

أخرجوكم إلى الصعيد لمصر ... غير مجد فى ملتى واعتقادى
لا يغيركم الصعيد وكونوا ... فيه مثل السيوف فى الأغماد (٢)

ونحس ارتياحا وبهجة فى حديث ابن فضل الله العمرى عند رجوع السلطان الناصر محمد إلى الحق وقد حضرته الوفاة حيث أمر برد الخلافة لابن المستكفى وعزل ابراهيم الواثق :

« فكان مما أوصى به رد الأمر إلى أهله ، وإمضاء عهد المستكفى لابنه ،

---

(١) تاريخ الخلفاء للسيوطى ص ٤٨٩ تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد ط المكتبة التجارية

(٢) ديوان ابن الوردى ص ٢٨٣ ط الجوائب ١٣٠٠ هـ

وقال : الآن حصحص الحق ، وحنا على عاتقيه ورق ، وعزل ابراهيم وعزل وكان قد رعى البهم ، وستر القوم بثياب أهل الكرم ، وتسمن وشحم ورم!!(١)

الآن حصحص الحق . هكذا يستخدم ابن فضل الله هذا التعبير القرآنى الذى يعيد إلى الذهن قصة امرأة وقعت فى حبائل الشيطان . فكأن صورة السلطان الناصر اقترنت فى وجدان ابن فضل الله بصورة تلك المرأة ، وكأنه بذلك يعرض بالسلطان الناصر نفسه من وراء حجاب لما أقدم عليه من سلب الحق أهله ، واقصاء ذويه .

تلك هى مسألة الخلافة ، وحظها من أدب هذا العصر ضئيل ، ولعلنا نعجب لخلافة تخلو ساحتها من الشعراء ، فلا نجد مدحة لمادح أو مرثية لراث وربما يزول هذا العجب حينما ندرك أن هؤلاء الخلفاء كانوا شبه محجور عليهم منعوا عن الناس ، ومنع الناس عنهم .

٢ — السلطنة

يجد القارىء لأدب هذا العصر أصداء متباعدة تعكس منطق الحكم المملوكي وروحه ، وتصور لنا صراعاته الظاهر منها والخفى ، كما توضح موقف الشعب من هذه الصراعات ، ونظرته لأولئك الحكام .

وقد اعتبر سلاطين المماليك أنفسهم حماة الاسلام والموكلين بالدفاع عنه فلا غرابة أن يخلع الشعراء عليهم ما يرضى فيهم هذه النزعة فيكيلون لهم النعوت الدينية كيلا ، فالسلطان هو ركن الدين وحاميه وهو الذى أعزه وقوى أركانه إلى آخر ذلك مما كان الشعراء يقولونه ربما طموحا للمثل الأعلى للحاكم وربما لأن هذا ما يريد الحاكم أن يعرفه عنه رعاياه .

---

(١) تاريخ الخلفاء للسيوطى ص ٤٩٠ .

ومن هذا المنطلق ربما أحس المماليك بأنهم وحدهم هم الملوك ومن سواهم تبع لهم ، فمصر – وبخاصة بعد إحياء الخلافة العباسية – هي قبلة الإسلام أو هي أم القرى كما يقول القيراطي في مدح الناصر حسن

فالملك والإسلام منه آب قد غدت

مصر بأمن زمانه أم القرى

وكل الممالك تزدرى إلى جانب ملك السلطان كما يقول القيراطي أيضا

يأيها السلطان يا من ملكه   في جنبه كل الممالك تزدرى (١)

وإذا كان سلاطين المماليك يحسون في أنفسهم هذا الاستعلاء الذي صور لهم أنهم سادة ملوك العرب والعجم (٢) فلا على الشعراء أن يطلقوا العنان لخيالهم في هذه السبيل فنرى البوصيري مثلا يصف قلاوون بأنه سلطان البسيطة

فإنه سلطان البسيطة إنه   مليك يسير النصر حيث يسير (٣)

ويصف الشهاب محمود الأشرف خليل بأنه ملك الدنيا فيقول .

بشراك يا ملك الدنيا لقد شرفت   بك الممالك واستعلت على الرتب (٤)

ويصور صفي الدين الحلي الملوك تسعى إلى الناصر محمد طائعة له مقرة بتفوقه فيقول :

إلى بابه تسعى الملوك فإن عدت   تعدى إليها القتل والنهب والأسر

لقد شهدت أهل الممالك أنه   مليك له من فوق قدرهم قدر (٥)

---

(١) ديوان القيراطي ص ٣٢ مخطوط بدار الكتب المصرية تحت رقم ٥٢٩ شعر

(٢) أنظر د. إبراهيم حسن تاريخ المماليك البحرية ص ١٥٨ ط مكتبة النهضة ١٩٤٨

(٣) الديوان ص ٩٨ .

(٤) تاريخ ابن الفرات ص ١١٧/ج ٧ تحقيق قسطنطين زريق – بيروت ١٩٤٢

(٥) الديوان ص ٢٧٨

ونادرا ما نقرأ في أدب هذا العصر وصفا لسلطان من السلاطين بأنه سلطان مصر ، أو حتى سلطان مصر والشام وكأن ذلك حطة لهم ، بل مضى الشعراء يؤكدون نزعة الاستعلاء هذه ، ويشيعون مهمها في أنفس السلاطين ، وكثيرا ما راق لهؤلاء السلاطين أن تقترن أسماؤهم بأسماء الفاتحين العظام ، والحكام الكبار فمضى الشعراء في هذه السبيل فنرى صدر الدين بن الوكيل يقول في الناصر محمد

إسكندر الدنيا وكسرى عصره لو عاش تبع مات من تبعاته (١)

ويقول ابن نباته في الناصر حسن

سلام على إسكندر الوقت إن يفح
شذا الذكر عنه فالسلام على العصر(٢)

ويقصد الشاعر هنا الإسكندر ذا القرنين وتابعه الخضر بما لهما من ظلال دينية وأسطورية .

ويسلك القيراطي هذه السبيل في مدحه للناصر حسن وأبنائه الذين سيبلغون مبلغ أبيهم من المجد ولا ريب ، فيقول :

ولك البنون بكل قصر منهم قمر يلوح على الأسرة مزهرا
إن يلبسوا في الفضل مطلع شمسه فلقد رأينا منهم الإسكندرا

ويمضي في أبياته فيجعل كسرى وقيصر بين يدي السلطان في موقف الخائف الوجل

---

(١) تاريخ ابن الوردي جـ ٢ / ص ٢٦٠ .
(٢) الديوان ص ١٩٦

وأقامت الأيــام فى أيديكـــم   كسرى مقــام الخاقين وقيصرا (١)

هذا جانب مما شغف سلاطين المماليك بسماعه ، أو قل : شغفوا بأن يسمعه الشعب حتى يلقوا فى روعه مهابتهم ، وحتى لا يطمع إلى ما فى أيديهم من سلطان .

كذلك شغف هؤلاء السلاطين بأن يتغنى الشعراء بما أسس عليه حكمهم من عدل وانصاف ، وما قامت عليه سيرتهم من تقى وورع وعفاف . فيقول بعض الشعراء فى قلاوون .

كم ملكـــت مصـــر ملوك وكم   جادوا وما جادوا ولا أسرفوا
ما قدمـــوا مثـــل تقــاه ولا   مثل الــذى خلفــه خلفــوا (٢)

أما ابنه الناصر محمد فيصوره الشعراء عادلا ورعا لا يظلم الناس نقيرا . فيقول صفى الدين الحلى فى ورعه

يا ملكـــا فاق المـــلوك ورعـــاً   إن شان أهل الملك طيش ورعن (٣)

ويقول مصورا عدله :

مـــلك عـــلا جداً وقدرا وسنا   فجاء فى طـــرق العـــلا على سنن
لا جـــور فى بلاده ولا عـــداً   إلى عدن فى العدل زبيد وعـــدن (٤)

ويقول من قصيدة أخرى :

---

(١) ديوان القيراطى ص ٤٧ .
(٢) تاريخ ابن الفرات جـ ٨ ص ٩٩ .
(٣) الديوان ص ١٠٦ .
(٤) الديوان ص ١٠٥ ، ١٠٦ .

الناصر الملك الذى فى عصره　　　شكر الظباء صنيعة السرحان (١)

وقال فيه أيضا بعض الشعراء :

ملك الزمان ومن رعية ملكه　　　من عدله لا يظلمون نقيرا(٢)

وقال آخر :

أنسيتنا بالعدل كسرى ولن　　　نرضى لنا جبرا به كسرى(٣)

هكذا وكأنه المهدى المنتظر الذى ملأ الأرض عدلا بعد أن ملئت جورا . ولكنه خيال الشعراء فما كان الناصر محمد — كما تحدثنا كتب التاريخ إلا سفاكا للدماء ، ضاربا رقاب الناس بالريبة والظن .

ولا تختلف صورة الناصر حسن فى خيال الشعراء عن صورة أبيه ، فأعماله تفيض بالتقى والورع كما نلمس فى قول ابن نباته :

مليك ورث أعماله سير التقى　　　عن الملك المصرى عن الحسن البصرى

ويقول من القصيدة نفسها

مليك التقى والعلم والبأس والندى　　　فمدح على مدح وشكر على شكر(٤)

ويقول من قصيدة أخرى :

يا من إذا شغل الأملاك لهوهم　　　فعنه بالتقى والملك فى شغل (٥)

ويقول القيراطى محدثا عن عدله :

---

(١) الديوان ص ١٠٠ .

(٢) الخطط المقريزية ط الرغائب — جـ ٣ / ص ١٣٠.

(٣) المرجع نفسه ط الرغائب — جـ ٣ / ص ١٣٠.

(٤) الديوان ص ١٩٦ ، ١٩٧ .

(٥) الديوان ص ٢٨١

عم البرية فضـــلا فاغتدوا وهـــم ... من عدله من أذى الأيام في حرم(١)

ولكن أين الناصر حسن من كل ذلك ، إنه لم يكن في شغل شاغل كما قال ابن نباته أو بالعدل كما قال القيراطي ولكنه كان في شغل مع النساء اللاتي شغف بحبهن وما تلك الصورة التي رسمها له الشعراء إلا الصورة التي أرادها السلطان أن تكون له في أعين الشعب .

وجانب آخر حرص سلاطين المماليك على أن ينوه به الشعراء وهو الرخاء والأمن ، ولا ينبغي أن نستهين بهذا الجانب فهو دعامة من دعائم استقرار الحكم ، فلا عجب أن نقرأ في مدح ابن نباته للناصر حسن .

سلطان مصر الرخا والأمن عم لها ... ما سوى النيل قطاع على السبل(٢)

ولا عجب أن نقرأ الوداعي في مدح السلطان لاجين :

يأيها العـــالم بشـــراكم ... بدولـــة المنصور رب الفخار

فالـــه قد بارك فيهـــا لـــكم ... فأمطر الليل وأضحى النهار(٣)

ولعل هذا يفسر ما نقرؤه في الأدب الرسمي لهذا العصر حينا يقرن الكتاب بين وفاء النيل وبين سير السلاطين . وكأن وفاء النيل هذا الذي يجرى بفضل الله منة من منن السلطان ، وفضل من أفضاله ، ولنقرأ هذه البشارة التي كتبت سنة ٦٧٩ هـ بفيضان النيل على عهد قلاوون إذ يقول كاتبها

«والله سبحانه قد علم حسن نيتنا في رعيتنا فأجراهم على عوائد ألطافه في

---

(١) الديوان ص ١٠٠ .
(٢) الديوان ص ٢٨٠ .
(٣) النجوم الزاهرة / جـ ٨ / ص ١٠٨ .

أيام دولتنا ، والعالم بالثناء مبتهجون ، وبالدعاء الصالح لأيامنا مبتهلون ، قد عاد إليهم زمن الابتهاج والسرور ، ووثقوا بنصر الله إذ خلفهم من بلهـــم ومنا السماح والمنصور» . (١)

ويقول شهاب الدين محمود من شارة بوفاء النيل على لسان السلطان :

«وقد وثقت الأنفس بفضل الله العميم ، وأصبح الناس بعد قطوب اليأس تعرف فى وجوههم نضرة النعيم ، تيمنا ببركة أيامنا التى أعادت إليهم الحيرج وأعاذتهم مما ابتلى به غيرهم من الخوف والجوع» . (٢)

تلك هى الصورة المثلى التى أرادها الحكام لأنفسهم ، وأرادوا أن تنظر إليهم الرعية من خلالها . وعلى هدى منها تتحدد العلاقة المرجوة بينهم وبين الشعب .

وننتقل إلى العلاقة بين هؤلاء السلاطين وبين أبناء طبقتهم من المماليك ، ولعلنا واجدون فى أدب هذا العصر الرسمى صورة لهذه العلاقة التى كانت تقوم على مبدأ الزمالة أو (الخشداشية) بلغة القوم ولعلنا نرى هذا المبدأ قائما فى تلك الرسالة التى بعث بها بيبرس إلى بعض أمرائه :

«إنا بحمد الله ما خصصنا عنكم براحة ولا دعة . ولا أنتم فى ضيق ونحن فى سعة . ما منا إلا من هو مباشر الحروب الليل والنهار ، وناقل الأحجار ومرابط الكفار ، وقد تساوينا فى هذه الأمور ، وما ثم ما تضيق به الصدور» (٣)

هكذا يتساوى الجميع لا فرق بين سلطان وأمير ، وإذا كانت هـــذه

---

(١) تاريخ ابن الفرات جـ ٧ / ص ١٨٢ .

(٢) نهاية الأرب للنويرى / جـ ٥ / ص ١٤٥ .

(٣) السلوك / جـ ١ / ٢ / ص ٥٢٥ .

الرسالة تسوى بين الجميع فى المشقة والعمل ، فلا أقل من أن يتساووا فى النعمة والنعم ، وهذا ما تشير اليه الرسالة التالية من بيبرس لأمرائه بعد فتح قيسارية :

«ولما كان بهذه المثابة ، وقد فتح الفتوحات التى أجزل الله بها أجره ، وضاعف ثوابه ، وله أولياء كالنجوم ضياء ، وكالأقدار مضاء ، وكالعقود تناسقا ، وكالوبل تلاحقا إلى الطاعة وتسابقا رأى ألا ينفرد عنهم بنعمة ، ولا يتخصص ولا يستأثر بغنيمة غدت بسيوفهم تستفاد ، وبعزائمهم تستخلص ، وأن يؤثرهم على نفسه ، ويقسم عليهم الأشعة من أنوار شمسه» (١)

وإذا كانت هذه الرسالة توضح مبدأ الزمالة القائمة بين القوم ، فهى أيضاً تبين أن الجميع يجب أن يدينوا بالطاعة والولاء للسلطان

وفى تقليد كتبه محى الدين بن عبد الظاهر بولاية عهد قلاوون إلى ابنه ، نراه يوصيه بكبار الأمراء أن يوقر جانبهم ، ويضاعف حرمتهم ، ويشاورهم فى مهات الأمور ، ونحس فى سطور الرسالة أصداء لتلك العصبية التى قسمت المماليك إلى طوائف ، كل طائفة تنتمى لسيدها :

«وأمراء الإسلام الأكابر وزعماؤه ، فهم بالجهاد والتدب هم العباد أصفياء الله وأصفياؤه ، فضاعف لهم الحرمة والإحسان واعلم أن الله قد اصطفانا على العالمين وإلا فالقوم إخوان ، لا سيما أولى السعى الناجح والرأى الراجح ، ومن إذا فخروا بنسبة صالحية قيل لهم نعم السلف الصالح فشاورهم فى الأمر ، وحاورهم فى مهات البلاد فى كل سر وجهر» . (٢)

---

(١) السلوك للمقريزى — ١ / ٢ / ٥٣٦ .
(٢) تاريخ ابن الفرات — ٧ / ١٨٩ .

وهكذا أبرزت هذه النصوص مبدأ الزمالة الذى هو أساس العلاقة بين السلطان وأمرائه ، ولكنها أيضاً لم تغفل الطاعة والولاء والسعى الناجح .

بل ربما على أساس من الولاء والطاعة فقط تتحدد علاقة السلطان بأمرائه على هدى منها يبعد من يبعد ، ويقرب من يقرب ، ولعلنا واجدون فى نسخة المنشور الذى كتب على لسان الناصر محمد إلى «أقوش» الأشرف ما يدل على صدق ذلك . يقول الكاتب :

«واحتفلت حوارفنا بالملاحظة لعهده الوثيق العرى ، والمحافظة على سالف خدمته التى ما كان صدق ولائها حديثا يفترى ، وسبق له فى الإخلاص ما يرفعه من خاطرنا مكانة عالية الذرى ، من أضحى من السابقين الأولين فى الطاعة ، والباذلين فى أداء الخدمة والنصيحة لدولتنا جهد الاستطاعة ، والمالكين الممالك بحسن الخلة وجميل الاعتزام ، والحافظين على تشييد قواعد الملك بآرائه وراياته التى لاتسامى ولا تسام» . (١)

إذن فعلاقة الزمالة تتحلل فلا يبقى منها إلا صورتها المثلى ، فإذا هبطنا إلى أرض الواقع فليس ثم إلا الطاعة والولاء والعمل على تأييد دعائم السلطان .

بل كان من سلاطين المماليك من حرص على أن يتخلص من كبار أمرائه لا لشىء إلا لأنه لا يريد أن يترك فى دولته من يطمح ببصره إلى السلطة ، أو يرد على خاطره مجرد هذا الوهم كما فعل الناصر محمد باستشهر كرجى . (٢)

وفى مثل هذا الجو المشحون بالريبة تعد على الأشخاص حركاته وسكناته ،

(١) صبح الأعشى للقلقشندى جـ ١٣ / ص ١٨٣ ، ١٨٤ .
(٢) السلوك للمقريزى جـ ٢ / ١ / ٩٤ .

وتصغى الآذان لكل همسة ونأمة . ولعل ما وصف به المقريزى الناصر محمد من أنه كان لا يكذب فى الشر خبرا يكاد ينطبق على معظم سلاطين المماليك ويمثل طبيعة حكمهم . (١)

ولعل الأدب يعكس لنا هذا الجو المتوجس المستريب الذى لا يوثق فيه بوال أو أمير ، فسرعان ما يولى حتى يعزل ويحل غيره فيعزل !!

ولنقرأ قول ابن الوردى :

هذى أمـور عظـام ... من بعضها القلب ذائب
ما حـال قطـر يليـه ... فى كـل شهرين نائب (٢)

وأنظر أيضاً إلى هذه الصورة الساخرة :

كم ملك جاء وكم نائب ... يا زينة الأسواق حتى متى ؟
قد كرروا الزينة حتى اللحى ... ما بقيت تلحق أن تنبتا (٣)

كل يوم يأتى نائب جديد فتقام له الزينة ، إنه أمر سريع متتابع !! لا يستغرق حتى مقدار ما تنبت لحية حليقة !!

ولعل مبدأ الزمالة هذا كان المحرك لكل الصراعات التى دارت فى دولة المماليك حول كرسى السلطنة ، فكل مملوك يرى أن السلطان لا يزيد عنه إلا بما امتلكه من قوة . لذلك ما إن تتهيأ لأحدهم القوة حتى يثب على السلطة محاولا انتزاعها لنفسه . وظل الأمر كذلك على الرغم من محاولات بيبرس وقلاوون والناصر محمد فى أن يكون الحكم وراثيا فى أبنائهم . وصحيح أن

---

(١) أنظر السلوك / ج ٢ / ١ / ٢٨٢

(٢) تاريخ ابن الوردى / جـ ٢ / ص ٣٤٧ .

(٣) تاريخ ابن الوردى / ج ٢ / ص ٣٤٧ .

السلطة انحصرت أو كادت تنحصر فى أسرتى بيبرس وقلاوون طوال الدولة الأولى التى يعرض لها هذا البحث ، إلا أنه ظل هناك — دائماً — من ينكر مبدأ الوراثة ويسعى إلى السلطة كلما سنحت الظروف .

ويصور لنا الأدب هذه الصراعات . ولكنه لا يعطينا تعاطفاً حقيقياً مع أى من الفرق المتصارعة ، فهو دائماً مع الغالب المنتصر . وكأن الأدباء — يسيرون بفلسفة ابن الوردى التى تحذر من الدفاع عن ظالم دالت دولته :

كم وكم دولـــة تـــــرعت منهـــا ثم زالت لأنهـــــا لم تكنهـــا
وإذا نعمة الظـــلوم تداعــــت لزوال فأحذر عن الذب عنها (١)

وربما كانت المرة الوحيدة التى تعاطف فيها الأدباء مع واحد من — المتصارعين هى تلك التى استعاد فيها الناصر محمد عرشه بعد أن كان قد أقصاه عنه بيبرس الجاشنكير بمعاونة سلار . ونرى الشعراء يصفون ابتهاج مصـــر بقدوم الناصر محمد وفرار الجاشنكير مذموماً مدحوراً مروعاً حتى من أنصاره كما يقول أحد الشعراء :

تثـنى عطف مصـــر حين وافى قـــدوم الناصر الملـــك الخبيـــر
فـــذل الجاشنكـــير بــلا لقــاء وأمسى وهـــو ذو جأش كبيــر
إذا لم تعضـــد الأقـــدار شخصاً فـــأول مايــراع من النصيــر (٢)

ولم يكن تعاطف الناس مع الناصر تميزاً له عن بقية أقرانه من المماليك ، ولكنه كان تفاؤلاً لا أكثر بوجهه ، فإنه حين اعتلى كرسى الحكم فاض النيل وعم

(١) ديوان ابن الوردى ص ٣٠٢ .
(٢) النجوم الزاهرة / جـ ٨ / ص ٢٧٥ .

الرخاء ، وحينما تتابع من بعده مغتصبو عرشه صادف حكمهم جدب ، وغلاء وكتبغا الذى اغتصب عرشه أول مرة بلغ الغلاء فى عهده أقصاه حتى جأر الناس بالشكوى ، وعبر عن ذلك محمد بن دينار بقوله :

ربنا اكشف عنا العذاب فإنا قد تلفنا فى الدولة المغلية
جاءنا المغل والغلا فانسلقنا وانطبخنا فى الدولة المغلية (١)

وبيبرس الجاشنكير المغتصب الثانى لعرش الناصر محمد لم يف النيل فى عهده ، وتفشت فى الناس الأوبئة والأمراض (٢) وتشاءم الناس بطلعته فكان العامة يرددون فى الشوارع .

سلطاننا ركين ونائبنا دقين
يجينا الماء من أين
جيبوا لنا الأعرج يجى الماء يدحرج (٣)

و«دقين» لقب لقبت به العامة «سلار» أتابك بيبرس الجاشنكير من قبيل التهكم حيث كان أجرد فى حنكه بعض شعرات ، وأما الأعرج فهو الناصر محمد حيث كان يعانى من عرج خفيف بساقه . (٤)

ولعل هذا التفاؤل ينعكس على أبيات الشارمساحى التى قالها مهنئا الناصر محمد بعودته :

---

(١) الخطط / جـ ٢ / ص ١٣٩ وانظر لمزيد من التفصيل عن هذا الغلاء إغاثة الأمة بكشف الغمة للمقريزى ص ٣٢ ، ٣٣ ، ٣٤ نشر زيادة والشيال ط ١٩٥٧ م .
(٢) أنظر النجوم الزاهرة جـ ٨ / ص ٢٤٣ .
(٣) النجوم الزاهرة / جـ ٨ / ص ٢٤٤ .
(٤) النجوم الزاهرة / جـ ٨ / هامش ص ٢٤٤ .

ولى المظفر لما فاته الظفر ... وناصر الحق وافى وهو منتصر

وقد طوى الله من بين الورى فتنا ... كادت على عصبة الإسلام تنتشر

فقل لبيبرس إن الدهر ألبسه ... أثواب عارية فى طولها قصر

لما تولى تولى الخير عن أمم ... لم يحمدوا أمره فيهم ولا شكروا

وكيف تمشى به الأحوال فى زمن ... لا النيل وافى ولا وافاهم المطر؟!(١)

ونرى الشعراء فى استقبالهم للناصر محمد يشيرون إلى حقه الشرعى فى الحكم منكرين حق بيبرس وغيره ممن أرادوا إغتصابه ، فالحق رجع إلى أربابه والناصر لم يسد سدى بل ورث الحكم عن أبيه . فيقول شمس الدين محمد بن على الداعى :

الحق مرجعه إلى أربابه ... من كف غاصبه وإن طال المدى

يا وارث الملك العظيم تهنه ... واعلم بأنك لم تسد فيه سدى

من غير أسلاف ورثت سريره ... فوجدت منصبه السرى ممهدا

يا ناصرا من غير منصور أتى ... كمهند خلف الغداة مهندا (٢)

وشمس الدين الداعى بتأكيده حق الوراثة إنما يرد على بعض من أنكر هذا الحق مناصرا الجاشنكير مغتصب العرش .. فقد حرص الجاشنكير على أن يشيع أن الملك عقيم لا وراثة فيه وربما كان الخليفة المستكفى ينطق بما لقن من ذلك حينما كتب لبيبرس الجاشنكير عهده بتجديد البيعة ذاك الذى قال فيه «واعلموا — رحمكم الله — أن الملك عقيم ليس بالوراثة لأحد خالف عن

(١) النجوم الزاهرة / جـ ٩ / ص ١٠ .

(٢) النجوم الزاهرة / جـ ٩ / ص ٨

سالف ، ولا كابر ، وقد استخرت الله ووليت عليكم الملك المظفر . (١)

وربما ظل إرساء قواعد الوراثة السلطنة مسألة تشغل أبناء الناصر محمد واحدا تلو الآخر ، فهم حريصون على أن يؤكدوها ويرسخوها لا في أذهان العامة فالعامة لا تطمح إلى الحكم ، ولكن في أذهان أمراء المماليك ، ففي عهد الناصر حسن ، وهو قد تعرض لما تعرض له أبوه من العزل ، نرى ابن نباته يلح على هذه القضية مرة أخرى إذ يقول :

إلى ناصر من ناصـر وكـذا على	مدى جده المنصور مسترسل النصر
أجل بيوت الملك بيت قلاوون	وأنت أجل البيت يا وارث الدهر
فملكك حق واضح الصبح أشرقت	سعادته كالظهر يا واحد العصـر
مراد البرايا أن تدوم وإن نسـوا	وسر الثك الباقي إلى ملك الحشر (٢)

وأيا ما كان الأمر فقد بدأت الدولة تتهاوى بعد السلطان الناصر محمد ، وهذا أمر طبيعي يعرفه دارسو الحضارة ، فالذي أعطى هذه الطبقة حق الحكم هو الجهاد والحرب ، أما وقد وضعت الحرب أوزارها أو كادت في عصر الناصر محمد فقد فقدت هذه الطبقة مبرر وجودها وأصبحت عاجزة عن الحيلولة دون تداعي بنائها (٣) ، إذ ارتدت قوتها إلى ذاتها فأخذ يأكل بعضها بعضا .

ومما زاد الأمر سوءا أن خلفاء الناصر محمد من أولاده وأحفاده كانوا ضعافا صغار الأسنان سيطر عليهم أتابكتهم المتصارعون ، وأصبحوا هم

---

(١) النجوم الزاهرة / حـ ٨ / ص ٢٦٣

(٢) الديوان ص ١٩٩ ط بيروت

(٣) أنظر د. حسين مؤنس، الحضارة ط الكويت ١٩٧٨ ص ٢٢٥.

المدبرين لأمرهم ، القابضين على زمامهم ، يجلسون على عرش السلطان من شاءوا وينحون من شاءوا ، وكأن هؤلاء السلاطين دمى تعبث بها أصابع الأتابكة ، تلهو بها حينا وقد تسأم اللهو بها فتهشمها . وأصبح الصراع الحقيقي هو الصراع بين الأمراء . كل منهم يريد أن ينتزع منصب الأتابكية ، فإذا بلغه أتى ومعه سلطانه المفضل ، ويحسن أن يكون طفلا حتى لا يكون له من الأمر شيء ، وقد بلغ الأمر أن جلس على عرش مصر أطفال دون السابعة مثل الأشرف «كجك» والأشرف «شعبان» . وقد ضاق الناس بهؤلاء السلاطين الأطفال ، وعبر الشعراء ساخرين عن هذا الضيق فقال بعضهم :

سلطاننا اليوم طفل ، والأكابر في ... خلف وبينهم الشيطان قد نزغا
فكيف يطمع من تغشيه مظلمة ... أن يبلغ السؤل والسلطان ما بلغا(١)

ووقف الناس يرقبون ملهاة الصراع الدامية في كثير من الدهشة ، يكادون يخفون الشماتة ، وهم يرون أمر هذه الطبقة آخذا في الانحلال ، ويرون بيت قلاوون وقد انفرط عقده ، وعبثت بأبنائه أيدي الأمراء قتلا وتذبيحا حتى كأن سعادته كانت عاجلا بلا آجل كما يقول الصفدي :

بيت قلاوون سعاداته ... في عاجل كانت بلا آجل
حل على أملاكه للردى ... دين قد استوفاه بالكامل (٢)

و«الكامل» يورى بها الشاعر عن «الكامل شعبان» الذي قتل على يد أخيه حاجي بإيعاز من الأمراء .

وصور لنا الشعراء في لقطات قصيرة سريعة تقلب أمور الحكم ، فلا يكاد

---

(١) النجوم الزاهرة / جـ ١٠ / ص ٢٢ .
(٢) النجوم الزاهرة / جـ ١٠ / ص ١٤١ .

سلطان يستقر حتى يعزل أو يقتل ، ولا يكاد أمير يلمع نجمه حتى يهوى سريعا إلى أفول أبدى ، لا يسلم حتى يودع كما يقول شهاب الدين بن العطار فى وصف «يلبغا آص» الذى ولى أتابكا فى عهد الأشرف شعبان فلم يستقر أكثر من أسبوع :

يلبغا آص تـولى جمعـة ... ليتى واختـار حربا وادعـى
ويبـع من جـاء لحـكم زائرا ... ثم ما سـلم حتى ودعـا (١)

وكذلك صور الشعراء تلك البهجة التى كان يحسها العامة وهم يشهدون مصارع هؤلاء الطغاة ، ونرى الشعر تسهل ألفاظه ، وتقصر أوزانه، ويقرب من لغة العامة ، وتكاد تنحصر القطعة فى بيتين أو ثلاثة أشبه بهتافات ترددها الجماهير ، أو بأغنيات يتغنى بها العامة وهم يطوفون الشوارع ، وانظر مثلا على ذلك قول المعمار فيما رآه من صنع تجار الحلوى قطعا على هيئة قوصون بعد أن قتل ، وهذه عادة مازالت لها بقايا فى مصر حتى الآن :

شخص قوصـون رأينـا ... فى العلاليـق مصـر
لعبنـا منـه لمـا ... جـاء فى التصبير سكـر (٢)

وانظر إلى قوله فى طشتمر (حمص أخضر) الذى قتله الناصر أحمد بعد أن كان بلغ شأوا عاليا :

جئـت بالملك لـنا ... أتـاك بالبسط ماجنـى
وقد أمنـت البـالى ... يا حمص أخضر وناجى (٣)

---

(١) بدائع الزهور فى وقائع الدهور — ابن إياس — ص ١٩٣ ط الشعب .
(٢) النجوم الزاهرة / ج ١٠ / ص ٤٨ .
(٣) بدائع الزهور ص ١٥٤ .

فهو يقترب من لغة العوام ، بل إنه يستخدم اسم الأشارة «ذا» غير مضبوط كما يستخدمه العامة فيقول «وداجن» ويقصد «وهذا جن» .

ويصور لنا ما نقرؤه من شعر هذا الصراع الناس وكأنهم يشاهدون بعض المباريات الرياضية ، فهم يصفقون ويتقدون كما يصفق رواد الملاعب على لعبة جيدة أو ينتقدون لعبة سيئة ، وكل ذلك يتم في تهكم ساخر مرير ، يستعين الشعراء على إبرازه بما يستخدمون من فنون «التورية» وما تحدثه من مفارقات فهذا «يلبغا آص» يصنع السمن لتحمله هو وسلطانه «أنوك» ليسرقها منه الفريق الآخر وسلطانه «شعبان بن حسين» ... ويل ليلبغا من ألسنة العامة إنه لم يكن لاعبا ماهرا ، ولم تنعمه أمواله التي اخترتها في منزله بالكبش ..

بدا شـقا يلبغـا وعـــدت	عـداه فى صفـه إليــــه
والكبش لم يعــده وأضحت	تنوح غربانـــه عليــه(١)

وهذا «إينال اليوسفي» تسرع فهجم على «برقوق» قبل أن يأتي «بركة» فيعينه ... أخطأ إينال ... لماذا أتى بهذا ؟ ..

ما بـال إينـال أتـى	فى مثل هـذى الحركـة
مـع علمـه بأنهـا	عاليـة مـن بركـه (٢)

لقد ألقى المشاهدون فن اللعبة ، وأصبح في استطاعتهم التنبؤ بنتائجها فهاهو شهاب الدين السعدي الأعرج يتنبأ بقتل الجاي اليوسفي الذي كان زوج أم الأشرف شعبان فلما ماتت كان لابد من صراع هو ضحيته . إن الأمور تشير إلى ذلك ..

---

(١) بدائع الزهور ص ١٨٨ .

(٢) النجوم الزاهرة / جـ ١١ / ص ١٦٩ .

في مستهل العشر من ذي الحجة كانت صبيحة موت أم الأشرف
فالله يرحمها ويعظم أجره ويكون في عاشوراء موت اليوسفي(١)

وقد ينهض وسط هذا الصخب صوت جاد وقور يدعو الناس إلى التفكر والتأمل ، والتماس العبرة والعظة ، وربط الأسباب بالنتائج كما نرى في قول الصفدي حينما ذبح الملك المظفر «حاجي» وكان شغوفا بلعب الحمام :

أيها العاقل اللبيب تفكر في المليك المظفر الضرغام
كم تمادى في البغي والغي حتى كان لعب الحمام جد الحمام (٢)

ويقول حينما قتل قوصون وكان قد سمت رتبته في عهد الناصر محمد ، وولديه أبي بكر وكجك :

«قوصون» قد كانت له رتبة تسمو على بدر السما الزاهر
فحطه في القيد «أيدغمش» من شاهق عال على الطائر
ولم يجد من ذلة حاجبا فأين عين الملك الناصر؟
صار عجيبا أمره كله في أول الأمر وفي الآخر (٣)

ويقول في مقتل طشتمر (حمص أخضر) :

طوى الردى طشتمرا بعد ما بالغ في دفع الأذى واحترس
عهدي به كان شديد القوى أشجع من يركب ظهر الفرس
ألم تقولوا «حمصا أخضرا» ؟ تعجبوا بالله كيف اندرس ! ! (٤)

---

(١) النجوم / ج ١١ / ص ٦٠
(٢) النجوم الزاهرة / ج ١٠ / ص ١٧٣ .
(٣) النجوم الزاهرة / ج ١٠ / ص ٤٨ .
(٤) بدائع الزهور ص ١٠٤ .

وما أظن صاحب هذا الصوت الوقور يتوجه إلا إلى الامراء المتصارعين ، والسلاطين الذين انغمسوا فى لهوهم ، منبها لهم أن الاستقامة أساس دوام الأمر لأصحابه ، وأن القوى لا ينبغى أن يخدع بقوته .. فأين «قوصون» ؟ ألم يكن حبس الملك الناصر ؟ وأين «طشتمر» ؟ ذاك الذى كان أشجع من يركب الفرس ؟

ومهما كان من أمر فما أظن هذه الشواهد الأدبية التى أوردناها إلا ممثلة لذلك الانفصام الذى كان بين الحكام والمحكومين ، والذى بلغ فى بعض الأحيان الحد الذى يتشفى فيه الناس بمصارع الحكام .

٣ — الوزارة :

نقرأ الأدب الرسمى لهذا العهد فتطالعنا صورة مشرقة للوزير ولمنصب الوزارة ، فالوزارة كما يقول التقليد هى :

«ذروة الدولة وسنامها ، وتاج المراتب وإكليلها ، وعماد الخزائن الجامع دقيق المصالح الإسلامية وجليلها» . (١)

ويمضى هذا التقليد الصادر بوزارة سيف الدين «بكتمر» على عهد السلطان أبى بكر بن الناصر فيبينه وزيرا نافذ الأمر مطاع القول فى شرق الدولة وغربها

«فليستقر فى هذه الرتبة السنية استقرار الدرر فى أسلاكها ، والدرارى فى أفلاكها ، نافذ الأمر فى مصالح شرقها وغربها ، مطاع القول فى بعد أماكنها منه وقربها» (٢)

تلك الصورة المثلى للوزارة على عهد الدولة المملوكية رسمها هذا التقليد

---

(١) صبح الأعشى للقلقشندى / جـ ١١ / ص ١٠١ .
(٢) صبح الأعشى للقلقشندى / جـ ١١ / ص ١٠٢ .

كما شاء له خيال كاتبه ، أما الواقع فربما كان مخالفا لذلك أشد المخالفة ، فالوزير في هذه الدولة كان مقيد الإرادة محدود السلطة ، إذ تقدم عليه منصب آخر هو منصب نيابة السلطان ، ويصف ابن فضل الله العمرى مدى ما اعترى هذا المنصب من هزال فيقول :

ولكنها لما حدثت عليها النيابة تأخرت وقعد بها مكانها ، حتى صار المتحدث فيها كناظر المال لا يتعدى الحديث فيه ، ولا يتسع له التصرف في مجال ، ولا تمتد يده في الولاية والعزل لتطلع السلطان إلى الاحاطة بجزئيات الأحوال» . (١)

ويبين ابن خلدون ترفع كثير من أمراء المماليك عن الوزارة وتطلعهم لمنصب النيابة حيث أصبح الوزير كل اختصاصه جباية المال .

«فصارت مرءوسة ناقصة فاستنكف أهل هذه الرتبة العالية في الدولة عن اسم الوزارة ، وصار صاحب الأحكام والنظر في الجند يسمى عندهم بالنائب لهذا العهد ، وبقى اسم الحاجب في مدلوله ، واختص اسم الوزير عندهم بالنظر في الجباية» . (٢)

ولم يكن أمراء المماليك وحدهم هم الذين ترفعوا عن منصب الوزارة ، بل كان من أبناء الشعب المصريين من ترفع عنها ، وزهد فيها ، ورأى أن العلم أرفع منها بل هو الرتبة التي تنحط دونها كل الرتب . ونرى هذه النظرة متمثلة في مدح البوصيري لزين الدين احمد :

---

(١) صبح الأعشى للقلقشندى / ج ٤ / ص ٢٨ .
(٢) مقدمة ابن خلدون ص ٢١٣ ط الشعب .

عجبت لزهدك في الوزارة معشر   فأجبتهم عجباً إذا لم يزهد
ما ضر حبرا قلدته أئمة   إن لم يكن لمناصب بمقلد
وإذا سما باسم العلوم فلا تسل   عن حظ نفس بالحضيض الأوهد
ما المجد إلا حكمة أو ليتها   ينحط عنه قدر كل ممجد
يا رتبة لا ترتقى بسلالم   وسيادة ما تشترى بالعسجد
عمي المناصب ما العيون كليلة   عنه وما الأيدي له لم تمدد (١)

بل ليس أدل على هون هذا المنصب وضعفه من سخرية الشارمساحي بأبي بكر الشاني الذي تولى الوزارة على عهد الناصر محمد ، وذلك إذ يقول :

مرقوا منصب الوزارة حتى   لزقوها في وقتنا بالشاني(٢)

ومن قبل الشارمساحي سخر ناصر الدين بن النقيب بأحد الوزراء فقال :

أيكم قلدوه أمر الرعايا   وهو من حلية الوزارة عطل
فهو بالبوق في الوزارة طبل   وهو في الدست حين يجلس حطل(٣)

وسخر محيي الدين بن عبد الظاهر بالوزارة وأشباهها من المناصب بعد أن استأثر الملوك بالأمر فقال :

مرض الزمان وقد تمكن طبعه   من شر قولنج به يتمغص
حقنته آراء الملوك فجاءه   أهل المناصب كل شخص مجلس(٤)

ولقائل أن يقول : إن هناك من وراء هذا العهد من تمتع بنفوذ واسع ،

---

(١) ديوان البوصيري / ص ٨٠ ، ٨١ .
(٢) السلوك لمعرفة دول الملوك للمقريزي جـ ١/٢/ص ١٦٨ .
(٣) الغيث المسجم في شرح لامية العجم جـ ٢ ص ١٨٥
(٤) المرجع نفسه ص ١٨٥ .

وهابه أمراء الدولة كالشجاعى على عهد قلاوون ، وابن السلعوس على عهد الأشرف خليل . ونحن نعلم ذلك ، ونعلم أن الشجاعى كانت تضرب على بابه «الطبلخاناه» وهو أمر لم يعهد لغيره من وزراء هذا العهد ، ونعلم أن ابسن السلعوس «أظهر من العظمة والكبرياء والعجب والخيلاء أمرا كبيرا ، وجرد فى خدمته بعض المماليك السلطانية ، فكانوا يركبون فى خدمته ، ويقفون إذا جلس فى مجلسه ، وصار يركب فى موكب كبير من الجند وأصحاب الدواوين وغيرهم من المتعممين» . (١)

غير ان الشجاعى وابن السلعوس لا ينبغى أن يقاس عليهما ، فالشجاعى كان أميرا من أمراء المماليك ، وابن السلعوس كان صديقا ونديما للأشـرف خليل .

وعلى الرغم من ضعف هذا المنصب وهزاله فقد دار حوله الصراع ، وبخاصة فى أوقات ضعف السلطنة ، واختلال قواها ، وتصور الآثار الأدبية لهذا العصر بعض جوانب هذا الصراع وبعض أبعاده .

ولم يكن هذا الصراع يسير على وتيرة واحدة فكان منه العاصف المدمر ، وكان منه المستكن الهادىء ، الذى يعمل فى خفاء ، ولا يكاد يعلن عن نفسه.

ومن أمثلة ذلك اللون العنيف المدمر ما كان بين الشجاعى وابن السلعوس فقد انتهى أمر ابن السلعوس على يد الشجاعى ، وكان ذلك جراء تكبره وتيهه وثقاء استهانته بخصمه رغم تحذير المخلصين ، فقد بعث اليه أحد أقاربه ينبهه إلى مكمن الخطر قائلا :

---

(١) زبدة الفكرة فى تاريخ الهجرة – بيبرس الدوادار ورقة ١٩٥ ب مخطوط بجامعة القاهرة تحت رقم ٢٤٠٢٨ .

تنبـه يا وزيـر الأرض واعـلم ... بأنـك قـد وطئت على الأفاعى
وكن بالـله معتصمـا فـإنى ... أخاف عليك من نهش الشجاعى(١)

والشجاع هى الحية الذكر . ويورى بها الشاعر عن «الشجاعى» ، وبين اللفظ وما يورى به عنه علائق لا تخفى على عين بصير ، فقد كان الشجاعى عسوفا جهولا ، فرح الناس بمقتله ، وشيعوه باللعنات ، وقال الوراق فى ذلك

أبـاد الشجاعى رب العبـاد ... وشيع باللعن فى نار مـالك
عصـا ربه فالعصـا نعشـه ... وعقباه فى الحشر أضعاف ذلك(٢)

وفى هذا الصراع كثيرا ما كان يؤخذ أصحاب الوزير المقتول وأتباعه بجريرته ، فيقتل منهم ، ويعزل بين سجين وطريد ، فشرف الدين النصيبى كان من أتباع حمزة الأصفونى الذى ولى الوزارة على عهد المنصور قلاوون ثم قتل غدرا ، ونرى النصيبى يصف حاله وحال رفاقه من أتباع الأصفونى ، نادما على تلك العلاقة التى جمعته بهـذا الوزير سىء الطالع ، مشئوم الـرأى فيقول :

هى وقفـة قصرت وطال بلاؤها ... فكأنمـا هى دولـة الأصـفونى
يا حمـزة بن محمـد ألقيتنـا ... فى ذل أحزان وضيق سجـون
لم نحـش هونا فى الأمـور فكلنـا ... من شـؤم رأيك فى عذاب الهون
ما بين مطـرود عن الأوطـان لا ... يـأوى بها خوفا وبين رهين

---

(١) النجوم الزاهرة / جـ ٨ / ص ٥٩ .
(٢) المنهل الصافى لابن تغرى بردى / جـ ٢ / ورقة ٩٩ أ — مخطوط بمكتبة كلية الآداب — جامعة الإسكندرية مصور عن دار الكتب .

تجني وتؤخذ بالجناية هكذا العقلاء مأخوذون بالجنون (١)

وكثيرا ما كان يحيق الغضب بوزير فيهيم على وجهه متخفيا في الأزقة والحارات ، أو في الزوايا والمساجد ، يريد النجاة بحياته من يد غرمائه وذلك ما حدث للتاج الملكي على عهد المنصور علاء الدين علي بن شعبان حيث طارده مبادر الأعسر وأمسكه متخفيا في مسجد عمرو بن العاص ، فقتله وسجل هذه الواقعة ابن العطار فقال :

ألملكي مات واستراحت   من نجسه أنفس الوزارة
وقالت الميضأة ابعدوه   من أين ذا الكلب والطهارة (٢)

ووافق مقتله عيد النيروز فأبى ابن العطار إلا أن يسجل ذلك أيضا بقوله :

قضى الملكي في النيروز نحبا   وراح مصادراً ومضى وسارا
وعم المسلمين به سرور   وتم بموته عيد النصارى (٣)

هذه ألوان من الصراع العنيف حول الوزارة ومنصبها ، أما الصراع الهادىء الذي هو أشبه بالتنافس فكان بين المعممين من أرباب الأقلام وبين الأمراء من أرباب السيوف .

والمعروف أن منصب الوزارة — إذ ذاك — كان يتعاور عليه هؤلاء وهؤلاء ، فإذا كان الوزير من أصحاب الأقلام سمي بالصاحب ، وإذا كان من أرباب السيوف اكتفي بتلقيبه بالوزير . (٤)

---

(١) الطالع السعيد للأدفوي / ص ٢٣١ — تحقيق سعد محمد حسن ط ١٩٦٦
(٢) إنباء الغمر بأنباء العمر / ابن حجر العسقلاني / جـ ١ ص ٢١٧ ط القاهرة ١٩٦٩ .
(٣) المرجع نفسه / جـ ١ / ص ٢١٧ .
(٤) علي إبراهيم حسن — دراسات في تاريخ المماليك البحرية ص ٢٢٥ .

وكثيرا ما كان يعين وزيران فى وقت واحد أحدهما للصحبة ، والآخر من أرباب السيوف . ولنا أن نتخيل ما كان يصطرع فى نفس كل من الوزيرين من أحقاد وضغائن ، فكل منهما يود أن تكون له الكلمة المسموعة والقول النافذ .

ولو دققنا النظر فى أدب هذه الحقبة لوجدنا صدى من ذلك الصراع أو قل التنافس بين المعممين وبين أرباب السيوف . فنرى البوصيرى يمدح زين الدين أحمد بن فخر الدين الذى ولى وزارة الصحبة على عهد بيبرس فيقول :

تفديه أقـــوام كـــأن وجوههـــم عند السؤال صحـــائف الآثـــام
كم بين ذكـــر الصاحب بن محمد فينـــا وذكر أولئك الأقـــوام (١)

وما أظن الأقوام الذين يعرض بهم البوصيرى هنا ، ويشبه وجوههـــم بصحائف الآثام إلا أولئك الأمراء من أرباب السيوف . ويمضى البوصيرى فيشير إلى عزة قلم صاحبه فيقول :

شرفا لمـــا مست أناملـــه فيـــا هـــون النصار وعزة الأقـــلام (٢)

ويشير إلى مكانة هذا القلم فى تحقيق العلا وتفريج الكرب فيقول :

لـــه أقـــلام الوزير فإنهـــا نظـــم العلا ومفاتح الإظـــلام (٣)

ويوضح البوصيرى أن النصر إنما يتحقق لبيبرس بقلم صاحبه ، وحسن رأيه :

---

(١) ديوان البوصيرى ص ٢٠٣ .
(٢) الديوان ص ٢٠٥ .
(٣) الديوان ص ٢٠٥ .

وعقدت رأيك فيهم ففتهم   فردا بجيش لا يطاق لهام (١)

وربما اتسعت دائرة هذا التنافس فشمل المعممين كلهم ، وأرباب السيف كلهم على اختلاف مراتبهم من السلطة ، ونحن لا نبعد بذلك عن ساحة الوزارة لهي معقد العيون ، ومطمح الأبصار لكثير من هؤلاء المتنافسين .

وقلما نقرأ مدحة في معمم إلا وجدنا فيها إشادة بقلمه ، وتفضيلا له على السيف ، وبيانا لما لكتبه من فعل في العدو يفوق فعل الجيوش ولنقرأ قول القيراطي في مدح ابن الشهيد :

مدبر الملك في سر وفي علن   منه أبدت لنا الرايات آراء

وإن غدا صعدة في الحرب فهو بما   تبديه من وشيه في الكتب إنشاء

تكتبت تحته يوم الوغى فلها   إلى المعالي بليل النقس إسراء

فيها من القول أجناد مجندة   وفي حروف الهجا للخصم هيجاء

إن صبحت أرض أعداء طلائعها   مستهم عند ليل النقس بأساء (٢)

ويقول ابن نباته في شهاب الدين بن فضل الله العمري

وذو القلم الذي إن قال أغنى   عن استماع قعقعة السلاح (٣)

ويقول في بني فضل الله :

والفاتحين بالسلام لهم وطنا   ممالكا لم يحلها عزم فتاح

فإن حموا بيضة الاسلام أنهم   من سادة في صميم العرب أقحاح

---

(١) الديوان ص ٢٠٤ .
(٢) ديوان القيراطي (مطلع النيرين) ص ٤٣ ، ٤٤ . مخطوط
(٣) ديوان ابن نباته ص ١٠٣ .

أو كلموا بعواصيهم وألسنهم   فإنهم أهل إصلاح وإفصاح (١)

وهكذا يكشف ابن نباته عن بعض أبعاد خفية فى هذا الصراع حين يشير إلى أصل عدوحيه العربى وأنهم سادة أعاجم من صميم العرب ، فكأن الصراع من منظور آخر هو صراع بين العرب وغير العرب .

ولا يخفى على القارىء مغزى ما يقرأ من تلك المفاخرات بين السيف والقلم التى شغف بها أدباء هذا العصر ، فهى ولاشك — تعكس أصداء هذه المعركة الصامتة بين أهل القلم وأرباب السيف .

وربما أتاحت لنا هذه المفاخرات أن نقف على دعوى كل فريق ، وما يراه فى نفسه من جدارة واستحقاق ، وما يجده فى خصمه من حطة ومنقصة .

ولابن نباته رسالة مطولة فى المفاخرة بين القلم والسيف أوردها ابن حجة فى خزانة الأدب . وتبدأ المفاخرة بحديث القلم حيث يرى أنه منار الدين ، وسفير الملك ، وبه رقم الله كتابه ، وهو يعد ويفى ويوعد فيخيف ، وهو المجاهد والسيف نائم ، وهو الجارى بما أمر الله من العدل والإحسان ، وهنا مغمز لأرباب السيوف وما اتسموا به من الظلم والعسف ، ثم تمضى الرسالة فينقلب التعريض هجوما ، وإذا بالقلم يصم السيف وأربابه بأنهم مخربون عابثون لا يملكون الرحمة ، وإنما هم أهل بطش وجهل :

وأتفاخرنى وأنا الوصل وأنت القطع ، وأنا العطاء وأنت المنع ، وأنا الصلح وأنت الضراب ، وأنا العمارة وأنت الخراب ، وأنا المعمر وأنت المدمر وأنت المقلد وأنا صاحب التقليد ، وأنت العابث وأنا المجرد ، ومن أولى من

---

(١) ديوان ابن نباته ص ١٠٩

القلم بالتجويد ، فما أقبح شبهك !! وما أشنع يوما ترى فيه العيون وجهك !! أمثل مثلي يشق القول ؟ ويرفع الصوت والصول ؟ وأنا هو اللفظ المكين ، وأنت ممن دخل تحت قوله تعالى أو من ينشأ في الحلية وهو في الخصام غير مبين» . (١)

وغير خفي ما في هذه الفقرة من تعريض بطبقة المماليك ووصفهم بالعجمة وعدم الإبانة ، وغير خفي أيضا ما يسري تحت عباراتها من إحساس بالفرق العربي ، وتمضي مع القلم فإذا حديثه يشف ويكشف ، ويكاد يعبر لا عن شعور المعممين وحدهم ولكن عن شعور الشعب كله تجاه هؤلاء المماليك القساة الغلاظ ذوي العيون الزرقاء :—

«قد سلبت الرحمة وإنما يرحم الله من عباده الرحماء ، وجلبت القسوة فكم هيجت سبة حمراء ، وأثرت دهماء ، وخمشت الوجوه ، وكيف لا وأنت كالظفر كونا ؟ وكلمت الذات ولم لا وأنت كالصبح لونا ؟ أين بطشك من حلمي ؟ وجهلك من علمي ؟ وجسمك من جسمي ؟

شتان ما بين جسم صيغ من ذهب ... وذاك جسمي ، وجسم صيغ من ورق

أين عينك الزرقاء من عيني الكحيلة ؟ وزرقتك الشنعاء من رؤيتي الجميلة» (٢)

أما السيف فيبدأ في بيان فضله من أنه زند الحق الوري وزنده القوي ، به ظهر الإسلام وأخمدت الفتن ، وبه حرز السلطان ثم يبدأ في الحط من شأن القلم ، فيبين ضعة مكانته وخمول شأنه ، فهو في مكان الخادم ، وهو مزور مؤتفك ، وهو لم يخلق للأعمال الجليلة ، وإنما أمره لا يتعدى شئون الفلاحة ، وصون الطعام :

(١) خزانة الأدب لابن حجة الحموي ص ١٢٢ ط بولاق ١٢٧٣ هـ .
(٢) خزانة الأدب ص ١٢٢ .

«أو لست الذى طالما أرعش السيف لهيبة عطفك ، ونكس الحطام رأسك وطرفك ، وأمر بعض رعيته وهو السكين فقطع لسانك وشق أنفك ، ورضك فى مهمات خاملة وحطك ، وجذبك للاستعمال وقطك ، فليت شعرى كيف جسرت ، وعبست على مثلى وبسرت ، وأنت السوقة ، وأنا الملك ، وأنا الصادق وأنت المؤتفك ، وأنت لصون الطعام وأنا لصون الممالك ، وأنت لحفظ المزارع وأنا لحفظ المسالك ، وأنت للفلاحة وأنا للفلاح ، وأنت حاطب ليل من نفسه وأنا سارى الصباح ، وأنا الباصر وأنت الأرمد وأنا الخادم الأبيض وأنت الخادم الأسود» . (١)

ويمضى السيف فى هذه اللهجة المستعلية فيعيب القلم تفاهة قدره فى الدول ، وقلة جدواه ، ويعيره بفقره وعوز أصحابه :

«وهل أنت فى الدول إلا خيال تكتنف الهمم بطيفه ، أو إصبع يلحق بها الرزق إذا أكل الضارب بقائم سيفه ، وساح على رأسه قل ما أجدى ، وسار بما أعطى قليلا وأكدى ، أين أنت من حظى الأسنى ، وكفى الأغنى ، وما خصصت به من الجوهر الفرد إذ ميزت من العرض الأدنى(٢)» .

ولا ريب أن حديث السيف يمثل لنا شعور الاستعلاء الذى كانت تموج به صدور المماليك ، كما يمثل نظرتهم إلى البلاد من مصريين وغير مصريين من أنهم ما خلقوا إلا للفلاحة والحرث ، والقيام على شئون هذا السيد الأبيض الذى يملك أسباب القوة ، ولا يملك أهل البلاد تجاه هذا القوى المختال إلا المداراة والتنحى عن طريق الصراع ، كما رأى القلم فى ختام هذه الرسالة

---

(١) خزانة الأدب ص ١٣٤

(٢) خزانة الأدب ص ١٣٤ .

أدرك أن الدهر دهر صاحبه ، والقدر على حكم الوقت قدره .

٤ — القضاء :

والقضاء — إذاك — هو السلطة الشرعية ، والقائم على حدود الدين . وقد بقيت مناصب القضاء قصرا على أولى العلم من أهل البلاد ، ومن هنا كانت خطورتها ، ومن هنا أيضا كان حرص السلاطين على الحد من سلطة القضاء ، وعلى التدخل في شئونه ، فالقاضي كانت له مكانته الدينية ، وكان قادرا — لو أدرك في نفسه هذه المكانة — على هز عروش السلاطين ، وتأليب القلوب عليهم .

ولعل بيبرس كان صادقا كل الصدق حينا قال وقد مات عز الدين بن عبد السلام «اليوم تم لى ملكى» .. ومن ثم كان اتجاه بيبرس — فيا أعتقد — لتفتيت سلطة القضاء ، وتنصيب قضاة أربعة لكل مذهب من المذاهب قاض

ودعك مما يذكره المؤرخون من أسباب حدت ببيبرس إلى ذلك ، فما أظن هذا العمل كان الدافع إليه تشدد قاض أو تعنته ، وإنما هو أمر أحكم ودبر له لضرب سلطة القضاء ، وإثارة الإحن والشحناء بين القضاة .

ولا يخفى على عين ذى بصر بالسياسة أن هذه سبيل السلطان لتصبح الخيوط كلها فى يديه يجذب منها ما شاء ، ويرخى ما شاء .

ويعكس لنا الأدب استياء الناس لتفتيت سلطة القضاء ، وتعيين قضاة أربعة حيث يعلن الأدباء عن استيائهم فى أسلوب ساخر متهكم لاذع ، فيقول بعض الشعراء :

الشافعى من الأئمة قائل　　اللعب بالشطرنج غير حرام

وأبو حنيفة قال وهو مصدق ... في كل ما يروى من الأحكام
شرب المثلث والمربع جائز ... فاشرب على أمن من الآثام
وأباح مالك الفقاح تكرما ... في ظهر جارية وظهر غلام
والحبر أحمد حل جلد عميرة ... وبذاك يستغنى عن الأرحام
فاشرب ولط وازن وقامر واحتجج ... في كل مسألة بقول إمام (١)

والأبيات على الرغم مما فيها من عري وتبذل تعبر عن شعور الناس بتشعب الأمر، وتضارب الآراء، والحيرة التي تملكتهم إذ اضطربت المعايير فما عادوا يعرفون إلى أي المذاهب يحتكمون.

بل اعتبر بعض الفقهاء ذلك نذير شؤم وخراب، وربما كان بعضهم في ذلك مدفوعا بعصبيه للشافعية الذين سلب عنهم التفرد بسلطان القضاء. فيقول السبكي: «وقال أهل التجربة: إن هذه الأقاليم المصرية والشامية والحجازية متى كان البلد فيها لغير الشافعية خربت، ومتى قدم سلطانها غير أصحاب الشافعي زالت دولته سريعا، وكأن هذا السر جعله الله في هذه البلاد كما جعل الله مالك في المغرب». (٢)

وكثرت الرؤى والأحلام بهذا الصدد، وهي — ولاشك — لون من أدب الحكاية يترجم عن عواطف الناس وتتجسد فيه آراؤهم وأفكارهم، أو هي كما يقول فرويد مصابلة فريدة لمادة الفكر قبل اللاشعورية، حيث تتكشف

---

(١) معيد النعم ومبيد النقم للسبكي ص ١٠٢ تحقيق النجار وشلبي وأبي العيون ط دار الكتاب ١٩٤٨ م.

(٢) حسن المحاضرة للسيوطي ج ٢ / ص ١٠٠ ط المطبعة الشرقية ١٣٢٧.

عناصرها ، ويزاح تأكيدها النفسي ، وتترجم بأسرها إلى صور بصرية أو تشخص» . (١)

فيقال عن بيبرس :

«ثم إنه ندم على ما فعل وذكر أنه رأى الشافعي في النوم لما ضم إلى مذهبه بقية المذاهب وهو يقول : تهين مذهبي ؟ البلاد لي أو لك ؟ قد عزلتك وعزلت ذريتك إلى يوم الدين» ويعقب راوي الحلم فيقول «فلم يمكث إلا يسيرا ومات ولم يمكث ولده السعيد إلا يسيرا وزالت دولته ، وذريته إلى الآن فقراء» .(٢)

وفي حلم آخر رئي بيبرس «فقيل له : ما فعل الله بك ؟ قال : عذبني عذابا شديدا لجعل القضاة أربعة ، وقال فرقت كلمة المسلمين» . (٣)

وأما الأدب الرسمي فقد صور الأمر على وجه آخر ، فبين أن تعدد القضاة أمر كان لازما في بلد كمصر أصبح يمثل قلب العالم الإسلامي حيث تلتقي وفود المغرب والمشرق ، ولابد — والأمر كذلك — أن تتسع ساحة القضاء في مصر لكل المذاهب الإسلامية . ولعلنا نفهم ذلك من وصايا ابن فضل الله العمري لقضاة القضاة ، فنراه في وصيته للقاضي المالكي يفهمه أن أهل مذهبه غرباء وفدوا من المغرب وأصحاب السفر ، فعليه أن يحسن إليهم ، ويترفق بهم .

«وفقهاء مذهبه في هذه البلاد قليل ما هم ، وهم غرباء ، فليحسن مأواهم وليكرم بكرمه مثواهم ، وليستتر بهم الثرى في كنفه ، فقد ملوا طول الدرب

---

(١) حياتي والتحليل النفسي — فرويد — ترجمة زيور والمليجي ص ٣٤ ط دار المعارف

(٢) حسن المحاضرة للسيوطي ج ٢ / ص ١٠٠ .

(٣) المصدر نفسه ج ٢ / ص ١٠٠ .

ومعاناة السفر الذى هو أشد من الحرب ، وليشملهم أوطانهم ببره ، ولا يدع فى مآقيهم دمعا يفيض على الغرب» . (١)

ويقول فى وصية قاضى الحنفية :

«وليحسن إلى فقهاء مذهبه الذين أدنى إليه أكثرهم الاغتراب وحلق بهم إليه طائر النهار حيث لا يحلق البازى ، وجناح الليل حيث لا يطير الغراب ، وقد تركوا وراءهم من البلاد الشاسعة والأمداد الواسعة ما يراعى لهم حقه إذا عددت الحقوق» . (٢)

ولسنا ننكر أن هذا — ربما — كان هدفا من أهداف بيبرس فى جعل القضاة أربعة ، ولكنه لا يسقط ما ذهبنا إليه آنفا من قصد بيبرس لتفتيت سلطة القضاء .

وعلى الرغم مما يطالعنا به الأدب الرسمى لهذا العهد من إظهار للحرص على العدالة ، وتحمس للإنصاف ، وتشديد على القضاة فى إحقاق الحق ، وإقامة المساواة ، ومراقبة الوكلاء والعمال — وهذا ، ولا شك ، وجه الدولة أمام الناس — فالحقيقة شىء آخر ، وقد دأبت السلطة على التدخل فى شئون القضاء فأتيح للحاجب أن يتدخل فى اختصاصات القاضى حتى أصبح يفصل بنفسه فى القضايا (٣) . وأصبح القضاة يتعرضون لعبث السلاطين وكبار الأمراء .

نقرأ فى الأدب الرسمى من وصية قاض لابن فضل الله العمرى :

«وليتحر فى استيفاء الشهادات ، فرب قاض ذبح بغير سكين ، وشاهد

---

(١) التعريف بالمصطلح الشريف لابن فضل الله العمرى ص ١٢١ ط مصر ١٣١٢ هـ .
(٢) التعريف بالمصطلح الشريف لابن فضل الله العمرى ص ١٢٠ .
(٣) انظر على إبراهيم حسن : دراسات فى تاريخ المماليك البحرية ص ٢٨٩ .

قتل بغير سيف ، ولا يقبل منهم إلا من عرف بالعدالة وألف منه أن يسري أوامر الشرع أشد التعدي له . وغير هؤلاء ممن لم تجر له بالشهادة عادة ، ولا تصدى للارتزاق بسحتها وهي حق على الشهادة ، فليقبل منهم من لا يكون في قبول مثله ملامة .قريب عدل بين منطقة وسيف ، وفاسق في فرجيته وعمامة» .(١) ويوصيه عن الحجبة والوكلاء فيقول :

«والوكلاء هم البلاء المبرم والشياطين المولون لمن توكلوا له بالباطل ليقضى لهم به ، وإنما يقطع لهم قطعة من جهنم ، فليكف عنهم أيدي وساوس أفكارهم ، ومساوئ فجارهم ، ولا يدع يجنى أحد منهم ثمرة إلا ممنوعة ، ولا يد اعتداء تمتد إلا مغلولة إلى عنقه أو مقطوعة» . (٢)

ويوصيه أيضا عن الحجبة عماله الذين يمدون أيديهم إلى الرشوة :

«وليطهر بابه من دنس الرسل الذين يمشون على غير الطريق ، وإذا رأى واحد منهم درهما ود لو حصل في يده ووقع في نار الحريق» . (٣)

هذه هي صورة الدولة التي تود أن يراها الناس بها . ولسنا ننكر أن بعض قضاة هذا العصر ، بوازع من نفسه لا من الدولة ، حقق هذه الصورة المثلى فاضطلع بعبء العدالة ، ونزه يده ومكانه ، وحفظ للقضاء حرمته ، إلا أنه في سبيل ذلك تعرض من بلاء السلطة لما لا يطيق فهذا تقي الدين بن بنت الأعز يرفض ما طلب منه ابن السلعوس من تعيين أحد أتباعه ، فيلقى جزاء هذا أن يصرف عن القضاء ، ويتهم في عرضه ودينه ، وينكل به ، وبعد أن تنجلى

---

(١) التعريف بالمصطلح الشريف ١١٧

(٢) المرجع نفسه ص ١١٧ .

(٣) التعريف بالمصطلح الشريف ص ١١٧ .

هذه الفترة يذهب إلى مكة حاجا ثم يزور قبر الرسول ، ويبث هناك آلامه في قصيدة يمدح بها الرسول — صلى الله عليه وسلم — وقد أورد ابن شاكر الكتبي بعض قطع منها تعكس آلام الرجل وعنته ، فيقول في أثناء مدحه الرسول عليه السلام وكأنه يعرض بضلال المماليك ومرض قلوبهم :

وأخو الهوى في طرفه وفؤاده   مرض يصد عن الطريق الأرشد

ويقول وكأنه يعزى نفسه عما أصابه ملتمسا في ذلك الأسوة من سيرة الرسول :

ومحبة المولى هي الأصل الذي   لم يبق حزمك فيه رأى مفند

ويرى في موقف الحسن والحسين — سبطى الرسول — عليه السلام — في وجه الطغيان ، واختيارهما الطريق الأشق الأجهد حجة على كل من يلي أمور المسلمين ويلتمس الذرائع لتهاونه أو تغاضيه من قوة ترغمه ، أو طغيان يحدق به .. فيقول :

قاما بنصرك في الحياة عبادة   وجلادة أزرت على المتجلد

وتكفلا بعد الممات بنصرة الدين الحنيف على الكفور الملحد

وتقلدا الأمر العظيم فأصبحا   حججا على كل امرىء متقلد

تالله قد جهدا وما ونيا ولا اختارا الأخف على الأشق الأجهد (١)

وهكذا دأبت السلطة على التدخل في شئون القضاء ، وكان من القضاة من موقف في وجه التدخل وصبر للمحنة ، وقد رأينا موقف ابن بنت الأعز

---

(١) أورد ابن شاكر بعض مقطعات من هذه القصيدة في كتابه فوات الوفيات / ج ٢ ص ٢٨٠ — ٢٨١ / تحقيق إحسان عباس .

وشبيه به موقف ابن دقيق العيد الذى ثقلت وطأته عليهم لعدله وتزاهته وكان وصف الإدفوى له حقا إذ يقول :

وتمسك من التقوى بالسبب الأقوى ، وقام بوظيفة التحقيق والتدقيق التى لا يطيقها غيره من أهل زمنه ولا عليها يقوى ، مع ترك المباهاة بما عليه من الفضائل والسلامة من الدعوى ، وجعل وظيفة العلم والعمل له ملة حتى قال بعض الفضلاء من مائة سنة ما رأى الناس مثله» . (١)

لكن الذى لاشك فيه مع ذلك أن الرجل كان غير خفيف على القوم كما يقول النصيبى القوصى فى رثائه :

كان الخفيف على تقى مؤمن لكن على الفجار غير خفيف (٢)

وربما كان الموت خلاصا له من معاناته مع هؤلاء المماليك كما يقول النصيبى :

وخلصت من كيد الحسود ورؤية الجانى البغيض وجزت كل مخوف(٣)

وفى الجهة المقابلة كان هناك من القضاة من رضخ ومالأ السلطة ،وأعانها على تنفيذ مآربها متجاوزا أحكام الدين ، طامعا فى ريف الجاه والمال .

وأصبح من المألوف أن يعزل قاض ويولى آخر لا لشىء إلا أن المعزول كان نزيها نقى العرض ، لا يمالىء السلطة ، ومالأتها أمر مهم كما يقول ابن الوردى حين عزل «عمر بن محمد البلقيانى» وكان المصريون لا يعدلون به فى الفتوى أحدا من عصره :

كان والله عفيفا نزهاً وله عرض عريض ما اتهم

(١) الطالع السعيد ص ٥٦٩ تحقيق سعد محمد حسن
(٢) الطالع السعيد ص ٦١٩ .
(٣) الطالع السعيد ص ٦١٩ .

كان لا يدرى مــداراة الــورى ومداراة الــورى أمر مهــم (١)

وضاق الناس بعزل القضاة وتوليتهم حتى قال بعض الشعراء :

أهــل الشـآم استرابوا من كــثرة الحــكام
إذ هــم جميعا شمــوس وحالهــم فى ظــلام (٢)

من أجل ذلك ساءت نظرة الناس فيمن تولى القضاء ، ورأوا فيه طالبا الدنيا ، راكنا إليها ، ورأوا فى مثل هذه المناصب بلاء يكلف الإنسان دنياه ، أو يكلفه دينه حتى كان ابن دقيق العيد يقول : «والله ما خار الله لمن يلى بالقضاء» (٣) ، وكتب إلى بعض نوابه يوقظ ضمائرهم :

«والله إن الأمر لعظيم ، وإن الخطب لجسيم ، ولا أرى مع ذلك أمنا ولا قرارا ولا راحة ، اللهم إلا رجلا نبذ الآخرة وراءه ، واتخذ إلهه هواه ، وقصر همه وهمته على حظ نفسه من دنياه ، فغايته مطلب الحياة ، والمنزلة فى قلوب الناس ، وتحسين المرأى والملبس ، والركبة والمجلس ، غير مستشعر خسة حاله ولا ركاكة مقصده ، فهذا لا كلام معه فإنك لا تسمع الموتى ، وما أنت بمسمع من فى القبور» . (٤)

وعلى الرغم من تورع ابن دقيق العيد هذا لم يسلم من لسان معاصريه ، فقال فيه برهان الدين المصرى :

وليت فــولى الزهـد عنك بأسره وبان لنا غير الذى كنت تظهــر

---

(١) الدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة . ابن حجر العسقلانى جـ ٣ / ص ٢٦٣ تحقيق محمد سيد جاد ط دار الكتب .
(٢) النجوم الزاهرة / جـ ٧ / ص ١٣٧ .
(٣) الطالع السعيد / ص ٥٩٦ .
(٤) تاريخ ابن الفرات / جـ ٨ ص ٢٠٦ ، ٢٠٧ .

وركنت إلى الدنيا وعاشرت أهلها ... ولو كان من جبر لقد كنت أعذر(١)

وسوء الظن في مثل هذه المناصب نراه في بعض أشعار أخرى لهذا العهد فيقول الإدفوي :

لا تلبس الدهر أمر الورى ... واقنع من الرزق ببعض النوال
لو لم يكن في الحشر فيه سوى ... طول وقوف المرء عند السؤال
لكان أمراً مؤلماً عرضه ... يلهيك عن أهل وجاه ومال(٢)

ويرى برهان الدين القيراطي شيخ الشافعية في عصره أن من محامده الكبرى هجره المناصب ، وتنزهه عنها ، وكشفه عما تبديه من زخرف خادع ، وبهرج زائف :

لقد هجرت صاد المناصب بعده ... كما هجرت راء الحجا نفس واصل
تنزه عنها وهي لا تستفزه ... بزخرفها الخداع خدع الغافل
وما مد عيناً نحوها إذ تبرجت ... تبرج حسناء الحلي في الغلائل(٣)

وربما اتسع نطاق سوء الظن هذا فطبع نظرة الناس لكل مناصب الدولة سواء منها ما اتصل بالقضاء أو بغيره فهي طريق إلى غضب الله ، وطلابها أهل غي ولدد ، وأيسر الطرق أن يترك الإنسان البلد حاكه المشئوم وينجو بنفسه ودينه . كما نرى في قول ابن نباته :

أصبحت لا أجتري عيش الخمول ولا ... إلى المراتب أرى طرف مجتهد
جسمي إلى جلق مهواي من كثب ... فكيف يعجبني مهواي من صعد

---

(١) الطالع السعيد ص ٥٨٥ .
(٢) الطالع السعيد ص ٥٩٧ .
(٣) حسن المحاضرة / ج ١ / ص ١٨٣ .

لا تخدعن بشهد العيش ترشفه ... فأى سم ترى فى ذلك الشهد

ولا تراع أخا دنيا يسر بها ... ولا تمار أخا غى ولا لدد

وان وجدت غشوم القوم فى بلد ... حلا ، فقل أنت فى حل من البلد

لأنصحنك نصحا إن مشيت به ... فياله من سبيل العلا جدد

إغضاب نفسك فيما أنت فاعله ... رضى مليكك فاغضبها ولا ترد(١)

٥ - التيارات والحركات المعارضة :

كان المجتمع المصرى فى عصر المماليك يموج بتيارات متباينة ، ويضطرب بصراعات شتى ، ولكى تتمثل حقيقة هذه الصراعات وأبعادها يجب أن نكون على ذكر من أن المجتمع المصرى فى هذا العصر كان يتألف من عناصر عدة ، وأجناس متباينة .

فالمماليك الذين يمسكون بمقاليد الحكم طبقة غريبة دخيلة تشكل خليطاً من جنسيات مختلفة ، وإن كان يغلب عليهم جميعا اسم «الترك» لكثرة من ينتمى إلى هذا الجنس بينهم ، وقد سبقت الإشارة إلى أن هؤلاء المماليك ـ وإن كان قد تم لهم السلطان ، وانتزعوا كرسى الحكم من بنى أيوب ـ ظلوا متصارعين فيما بينهم ، كل منهم يعد العدة ليوم يكون فيه سيد القلعة وصاحب مصر .

وفى الناحية الأخرى كان هناك الشعب بطوائفه المختلفة التى يؤلف بينها شعور الكراهية للحاكمين .

فالقبائل العربية التى أتت مع الفتح ، واستقرت فى مناطق عديدة من صعيد مصر وإقليمى الشرقية والبحيرة ، وذاب بعضها فى الشعب المصرى

---

(١) ديوان ابن نباته ص ١٢٦ .

وبعضها عاش فى مجتمعات مغلقة أو شبه مغلقة كانت ترى أنها الأولى بالسلطة وأن المماليك — شأنهم فى ذلك شأن الأيوبيين — مغتصبون الحكم

وأما شعب مصر من المسلمين وغيرهم — فقد ظل يرقب عن كثب هذا الصراع الدائر ، لا يعنى إلى حومته ، ولا تستثيره دواعيه إلا فى القليل النادر وكل ما كان يرجوه هو جو من الاستقرار يتيح له أن يمارس حياته فى هدوء ويسر ، وكأن تاريخه الطويل على هذه الأرض خلق فى نفسه ألوانا من الصبر والأناة ، وأورثه ثقة لا تتزعزع بأن الزمن كفيل بعلاج كل هذه الأمور .

على أن هذا لا يمنع أن يكون لأبناء هذا الشعب رأيهم فيما يجرى من أحداث وأن يكون لهم ثقلهم فى ميزان الأمور ، وبخاصة إذا مالوا إلى فريق دون فريق أو رجحوا كفة واحدة من المتصارعين على آخر ، أو تصدوا للسلطة حينما يمس الأمر جوهر القيم والعقائد أو ينذر بزوال الاستقرار .

وإذا ذهبنا نتلمس أصداء هذه الصراعات فى الآثار الأدبية لهذا العصر تطالعنا أول ما تطالع ذلك الحنين إلى الأيوبيين وعهدهم ، والذى تمثل فى تلك الأنغام الباكية لبعض الشعراء ، فى رثاء «توران شاه» ، آخر سلاطين بنى أيوب والذى قتل غدرا بسيوف المماليك ، فجمال الدين بن مطروح يصور ذلك الحزن الذى اعتراه بعد مقتل «توران شاه» ، فعاش فى ليل طويل ورأى الدنيا ولت على أثر توران شاه ، ثم يمضى فيبين أن المماليك ما قتلوه إلا حسدا وغيرة حينما رأوه يتفوق عليهم وهو مازال غض الشباب .

يا بعيد الليل من سحره ‍ ‍ ‍ ‍ دائما يبكى على قمره
خل ذا واندب معى ملكا ‍ ‍ ‍ ‍ ولت الدنيا على أثره

كانت الدنيا تطيب لنا — بين باديه ومحضره

سفكته المماليك أسرته — واستووا غدرا على سريره

حملوه حين فاتهم — في الشباب الغض من عمره (١)

ولا يعني الشاعر بأسرة توران شاه سوى هؤلاء المماليك الذين جلبهم والده نجم الدين أيوب ليكونوا له ولأبنائه من بعده عونا ، فإذا بهم يغدرون بابن سيدهم ، ويغتصبون منه سرير الملك .

ويلم الشاعر نور الدين سعيد ببعض هذه المعاني ، وتغلب عليه مشاعر الحسرة لفقد هذا الملك العزيز ، ويتمنى لو أنه ظل في حصن «كيفا» ولم يسر إلى حتفه في مصر :

ليت المعظم لم يسر من حصنه — يوما ولا وافى إلى أملاكه

إن المناصر إذ رأته مكبلا — حسدته فاجتمعت على إهلاكه (٢)

ولا ريب أن الحنين إلى الأيوبيين وحكمهم كان يمثل نزعة فريق من المصريين فالأيوبيين كانوا غرباء — شأنهم في ذلك شأن المماليك — فهم أحرار خلص ، وبعض الشر أهون من بعض . ويحدثنا التاريخ أن المصريين تباشروا لما أشيع أن عز الدين أيبك أول سلاطين المماليك قد هزم على يد السلطان الناصر الأيوبي الذي جاء يثأر لابن أخيه توران شاه . (٣)

ولكن هذا الميل للأيوبيين — فيما أعتقد — كان نزعة عارضة ، لا عاطفة شعوب صورتها في الأدب . وما أظن هذه النزعة بقي منها شيء بعد استقرار

---

(١) فوات الوفيات جـ ١ / ص ٢٦٥ تحقيق إحسان عباس .

(٢) المصدر نفسه جـ ١ / ص ٢٦٥

(٣) النجوم الزاهرة جـ ٧ / ص ٩

الأمر للماليك ، وربما كان يغذي هذه النزعة الطارئة ، بعض أمراء الماليك ليفرضوا على عز الدين أيبك شريكا له من بنى أيوب يحد من سلطته ، ويضعف من شوكته ، فلما انتهى أمر هذا الصراع وثبتت الأرض تحت أقدام عز الدين أيبك لم نعد نسمع في الأدب من ذكر لبنى أيوب أو حنين لأيامهم

على أن العرب من سكان مصر ويشاركهم في ذلك فريق كبير من المصريين كانوا يرون غير ذلك ، إذ كانوا يعيشون أيام الأيوبيين مترقبين ليوم الخلاص منهم ، فلما جاء الماليك شعروا بخيبة الأمل ، ورأوا أنهم ما تخلصوا من شر إلا ليواجهوا شرا آخر ، ولعلنا نحس بشيء من مشاعر هذا الفريق في قول البهاء زهير :

دولــة كنتم قد سألتم	ربنـا الخـلاص منهـا
وفرحنا حين راحت	جاءنا أنحس منهـا(1)

أو حين يقول :

وثقيل ما برحنا	نتمنى البعد عنه
غاب عنا فرحنا	جاءنا أثقل منه (2)

ولا أظن الشاعر في البيتين الأخيرين يتحدث عن ثقيل من أولئك الثقلاء الذين تضيق بهم صدور المجالس ، ولكنه يتحدث عن السلطة والحكم متمثلين في طبقة الجند ، وكان العامة من أبناء مصر يسمون الجندى بالثقيل لثقل ما عليه من آلة الحرب . في كلمة «ثقيل» تورية ، ولا يغيب عنا شغف أدباء هذا العصر — وخاصة في مصر — بهذا اللون من البديع .

---

(1) ديوان البهاء زهير ص ٢٨٨ .
(2) ديوان البهاء ص ٢٦٢ .

وربما عبر المقريزي عن هذه النظرة في صورة مباشرة إذ يرى أنـه لا مفاضلة بين الأيوبيين والمماليك فكلاهما سارق ، وبعضهم أظلم من بعض .

«وأنت إن أمعنت النظر ، وعرفت ما جرى تبين لك أن ما القوم إلا سارق من سارق ، وغاصب من غاصب . بالله عرفني فإني غير عارف من منهم لم يسلك في أعماله هذا السبيل غير أن بعضهم أظلم من بعض» . (١)

ولم يقف الأمر عند حد هذا التبرم الحبيس ، بل رأينا بعض القبائل العربية أو (العربان) — كما كان يطلق عليهم إذ ذاك — رفعوا راية العصيان من أول يوم لحكم المماليك ، واعتبروا المماليك خارجين مغتصبين ، وتحدثنا كتب عن وقائعهم المتكررة التي كان يذهب ضحيتها العديد من أبنائهم وبناتهم ويجردون فيها من أموالهم» . (٢)

وقد ظلت عين السلطة ترقب تحركاتهم في ريبة وقلق ، ويتواصى السلاطين بحسم مادتهم واستئصال شأفتهم ، ففي التقليد الذي صدر عن قلاوون لابنه علاء الدين بولاية العهد ينصحه بمراقبة العربان والتشديد عليهم ونزع سلاحهم وتأديب الخارج منهم :

---

(١) الخطط المقريزي جـ ٢ / ص ٢٢٥ ط العرفان

(٢) لمزيد من التفصيلات عن هذه الوقائع انظر السلوك جـ ١ / ٢ ص ٣٨٦ ، ٣٨٧ ، ٥٢٠ ، النجوم الزاهرة جـ ٨ / ١٥٣ ، ١٥٥ ، وبدائع الزهور ص ١٧١ ، ١٧٢ ، ٢١٥ ، ٢١٦ ، ٢١٧ وانظر كذلك البيان والاعراب عما بأرض مصر من الأعراب المقريزي تحقيق وتأليف د. عبد المجيد عابدين ص ١٠ ، ٣٨ ، ١٢٢ ، ١٢٣ ، ١٢٨ ، ١٢٩ ، ١٣٠

وأهم ثورات الأعراب هي ثورة الشريف حصن الدين ثعلب سنة ٦٥١ هـ . وثورة أخرى تزعمتها جهينة سنة ٦٩٨ هـ ثم ثورة أخرى بزعامة محمد بن واصل الأحدب واستمرت خمس سنوات (٧٤٩ — ٧٥٤ هـ) وثورة ابن سلام سنة ٧٨٢ هـ .

«العربان في البلاد تحسم موادهم ، وتؤخذ رهائنهم ، ويحترز عليهم ، ويكتب إلى النواب والولاة في الأعمال بأن أحدا لا يحمل منهم سيفا ولا رمحا ولا سلاحا ، ولا يفسح لأحد منهم في ابتياع ذلك من القاهرة ، ومن خالف ذلك وحمله في سفر من بلد إلى بلد تستهلك تلك العدة ويؤدب» . (١)

بهذا الحسم كانت وصية قلاوون لابنه بشأن العربان ، وكأنها أوامر عسكرية لا يجوز الجدل حولها .

ويصف البوصيري ألوان العقاب التي كان يتعرض لها هؤلاء الخارجون من العربان فيقول في أثناء مدحه «لأيدمر» الذي تولى ولاية القاهرة سنة ٦٧٨هـ ونكل بالعربان في إحدى الوقائع تنكيلا مروعا :

زجرتهم بعقوبات منوعة ... وفي العقوبات للطاغين مزدجر
كأنهم أقسموا بالله أنهم ... لا يتركون الأذى إلا إذا قهروا
فمعشر ركبوا الأوتاد فانقطعت ... أمعاؤهم فتمنوا أنهم نحروا
ومعشر قطعت أوصالهم قطعا ... فما يلفقها خيط ولا إبر
ومعشر بالظبا طارت رءوسهم ... عن الجسوم فقلنا إنها أكر
ومعشر وسطوا مثل الدلاء ولم ... تربط حبال بها يوما ولا بكر
ومعشر سمروا فوق الجياد وقد ... شدت جسومهم الألواح والدسر
وآخرون فدوا بالمال أنفسهم ... وقالت الناس خير من عمى عور
موتات ستر تلقوها بما صنعوا ... ومن وراء تلقيهم لها سقر(٢)

ويبعث تاج الدين السبكي برسالة إلى برهان الدين القيراطي يصف له

---

(١) تاريخ ابن الفرات جـ ٧ ص ١٩٩ .

(٢) الديوان ص ٩١ تحقيق محمد سيد كيلاني ط الحلبي ١٣٧٤ هـ — ١٩٥٥ م .

وقعة من وقائع العربان حدثت سنة ٧٦٥ هـ يقول فيها :

«ولقد شبت بين العرب والترك نار لا تفرق بين القراع ، ولقد نهضت الدهماء واصطراب النقع المثار ، واشتبه المتبوع بالأتباع ، ولقد بكت البيض ورعقت السمر فى يوم أسود يطيب به الموت الأحمر»

ثم يمضى فيصف ما حل بالعربان من قتل وتذبيح حيث برزت نساؤهم كل منهن تبحث عن زوجها فتجده وقد أطاحت السيوف برأسه فيقول :

ولقد قامت الحرب على ساق ورقت سماء الأعراب ولكن على الحياة حين رأين الأنفس إلى الحمام تساق ، وكم ذات خدر فقدت واحدها بين الرفاق فكرت تتبعه فصادفت على دمه ومصرعه السباع من كل مهند لمع وكأنه البرق الخاطف ، وجرد فكأنه القضاء الجارى فى المواقف ، وصل فكأنه الأسد الضارى فى الخلوف ، وكل رديني هز فكأنه الغصن تناثرت ثماره ، وخطر فكأنه قد الحبيب تدانى مزاره ، وطعن فكأنه وخز الشيطان تضرمت ناره .

من كل أبيض فى يديه أبيض أو كل أسمر فى يديه أحمر

ولقد طاحت الغربان برؤس العربان ، وصاحت بالويل والثبور بسبات طارق لطوارق الحدثان ، وراحت بالأرواح أقوام تعرف الحقيقة لا بحد ورسم بل بحد وسنانه . (١)

هكذا كان يكل بالعربان ، ويمثل بهم شر تمثيل ليكون ذلك عبرة لأحيائهم حتى لا يشخصوا ببصرهم إلى ساحة السلطان وكانت معاملة الدولة

---

(١) طبقات الشافعية الكبرى — تاج الدين السبكى جـ ٦ / ص ٨٠ ط المطبعة الحسينية .

هؤلاء العربان فيها كثير من الامتهان ، حتى المهادنات كانت تفسر على أنها ضرب من الإذلال ، فهي فرصة للعربان يكثرون فيها من أموالهم وبنيهم لتأخذه الدولة غنيمة سهلة . يقول بعض الشعراء حينما أمن السلطان حسن «ابن الأحدب» زعيم العربان فى الصعيد :

ما هادن السلطان أعداءه	إلا لأمر فيه إذلالهم
حتى له تكثر أموالهم	ولما تكثر أطماعهم (١)

وغير خاف أن هذا الصراع كان غير متكافئ ، بين دولة تملك الجيوش المدربة المعدة ، وبين عدة قبائل من البدو شبه العزل ، الذين ربما لا يتسلحون بغير الحمية والنخوة — وكثيرا ما حلا لبعض أدباء هذا العصر الشعبيين أن يتندروا بأولئك العربان وتسليحهم . ولا بأس هنا أن نورد نصا من الأدب الشعبي للغبارى كبير زجالي العصر يصف ما عليه هؤلاء العربان من هزال وجوع ، ويسخر من أسلحتهم التي أعدوها من الخوص والليف والجريد وقصع الخشب ، وهم يزحفون خلف زعيمهم ابن سلام إلى البحيرة سنة ٧٨١ هـ وذلك إذ يقول :

جا ابن سلام معو رجال	كل حد شهوتو رغيف
دا حل رقبتو كفتال	ودا فى رقبتو اشليف
ودا لو درع ميسبان	ودا لو درع خوص وليف
والقسى قسى من نخيل	وخرائطهم العجب
وصواريهم الجريد	وخوذهم قصع خشب (٢)

---

(١) بدائع الزهور ص ١٢٣ .

(٢) بدائع الزهور ص ٢١٢ .

وبون بعيد بين هذه الصورة المزرية وبين صورة الجنود المماليك .

ونحن إذا كنا قد أحسسنا فيما قرأناه من نصوص بعدم تعاطف مع هؤلاء العربان ، فما كان ذلك راجعا إلى ما يدعون اليه من حق عرقى ، وإنما هو راجع إلى ما انتحلته بعض قبائل العربان التى آثرت حياة البداوة من أساليب النهب والسلب وقطع الطرق ، فهم كانوا يحومون حول مصر كما لو كانوا دائما جائعة تحوم حول فريسة دسمة على حد قول دى بوا إيميه (١) ولا ريب أن مثل هذا الأسلوب كان يحسب على الحركة العربية فى مصر ، ويشوه صورتها ، فلا غرابة أن نسمع قول البوصيرى فى قصيدته الرائية التى أوردنا منها بعض أبيات فيما سبق :

تنشروا ثم قالوا إننا عرب	فقلت لا عرب أنتم ولا حضر
ولا عهود لكم ترعى ولا ذمم	ولا بيوتكم شعر ولا وبر
وأى برية فيها بيوتكم	وهل هى الشعر قولوا لى أم المدر
وليس ينجى امرأ راموا أذيته	منهم فرار فقل كلا ولا وزر
يشكو جميع بنى الدنيا أذيتهم	فهم بطرقهم الأحجار والمدر (٢)

فنحن نرى أن البوصيرى إنما ينكر أسلوبهم الذى انتحلوه ، مما جعله يستنكر كونهم عربا ، وكأنه يرى أن العرب يجب أن يكونوا على غير ذلك

أما خارج نطاق هذا الصدام المسلح فإننا نحس فى شعر هذه الحقبة بنعمة عربية مقهورة يعزفها الشعراء على أوتار متنوعة ، فمنهم من يتخذ سبيله إلى ذلك سب الدهر والسخط عليه ، ومنهم من يبكى اللغة العربية وما آل إليه أمرها بين قوم أعاجم ..

---

(١) وصف مصر لعلماء الحملة الفرنسية — ترجمة زهير الشايب ج ٢ / ص ١٣٦

(٢) الديوان ص ٩٠ / ٩١ .

ونبدأ من هؤلاء الشعراء بمجير الدين المعطي فنراه يبكي فساد الدنيا فيقول :

لقد صدئت أحوالهم بترفع الأسافل منهم وانحطاط ذوي القدر

متى ارتفع الأذناب بان نقيصها   لعينيك عورات تتاح مدى الدهر

فلا ساد نذل في الأنام ولا علا   فإن علو النذل مما به يزري(1)

فما قصد المعطي بالأسافل والأذناب والأنذال ؟ أليسوا هم الذين يروحون ويغدون في أروقة القلعة وطباقها ؟ ثم أليس ذلك سبب الفساد أو قل الإفساد أن يرتفع هؤلاء الأرقاء بينما العرب الخلص من أمثال المعطي يحسون القهر والذلة ؟!

وإذا مضينا مع المعطي وجدنا هذا الإحساس يتضخم عنده فيحس بالعزلة ، ويرى نفسه غريبا ليس له من صديق سوى كتبه التي يجد فيها عزاءه عما يقرؤه من صفحات المجد العربي .. يقول :

أصيحك إني بين أهلي وجيرتي   (أبيت)(*) وحيدا عادما ود مشفق

أقلب طرفي لا أرى لي مؤنسا   لعمرك فيهم غير طرس منمق

يحدثني عن حسن أحوال من مضى   ويخبرني عن قبح أحوال من بقي(2)

ونجد في شعر المعطي حنينا دائما إلى الماضي الذي اقترن — ولاشك — في وجدانه بالمجد العربي . وربما جسم له خياله هذا الماضي واقعا محسوسا وشخص له أهله فتية عاشرهم وعاشروه ، وطاب معهم وطابوا معه ، حتى إذا أفاق ندب حظه وبكى ماضيه ، وانقلب ساخطا على الدنيا :

---

(1) الطالع السعيد للأدفوي ص ٤٥٤ .

(*) أضفنا ما بين القوسين ليستقيم الوزن .

(2) الطالع السعيد ص ٤٥٣ .

ما أنس لا أنس حينا قد ظفرت به   مع فتية كوجوه الأنجم الزهـــر

كنا قعودا على حـــال نسر بـــه   من التواصل إخوانا عـــلى سـرر

ففـــرق الدهر شمـــلا كان يجمعنا   وفاجأتنا على أمـــن يـد الغــــير

صبى صيام فقد شالت نعامتهـــم   وغودروا بين سمع الأرض والبصر

لم يبق عطر عروس بعـــد فقدهم   ولا طلـــوع لبانات من الوطـــر

أعزز عـــلى بأنى لا أرى أحـــدا   من بعـــدهم يرتجى للنفع والضـرر

رأى شنشنة فى المجـــد أعرفهـــا   لهـــم وما فوقها فخر لمفتخر (١)

ونغمة أخرى حزينة نجدها فى شعر القمطى تبكى لغة العرب التى أصبحت غريبة ، وضاعت بين قوم لا يفهمونها ، منهم عصبة كالحمير تبحث عن الشعير لا الشعر ولا تفهم إلا لغة الصفير :

من بنى الدهر عصبة كالحمـــــير   فدع الشعر والفهم بالشعـــــير

لا تخاطبهـــم جهـــارا إذا مـــــا   رمت أن يفهموا بغير الصفير (٢)

أما أبناء مصر فكانوا يفهمون الشعر ، ومنهم شعراء ومتأدبون كثيرون فمن هم أولئك الذين يشبهون الحمير ؟

ولا ريب أن أسى هؤلاء على اللغة العربية وما آل إليه أمرها من انحســـار وغربة إنما يعكس الأسى على المجد العربى بأسره عما كان له من سيادة واستعلاء فلا غرابة بعد ذلك أن نرى شعراء هذا التيار يبثون آلامهم فى بكائيات حزينة تندب حظ اللغة العربية ، وتأسى وقد أخذت لغات أخرى وافدة تعرف طريقها إلى آذان الناس ، ولعلنا نحس بشىء من ذلك فى قول البهاء زهير :

---

(١) الطالع السعيد ص ٤٥٤ .

(٢) الطالع السعيد ، ص ٤٥٦ .

تكلمني بالأرمنية جارتي … أيا جارتي ما الأرمنية من طبعي
ويا جارتي لم آت بيتك رغبة … ولا أنت من يرجى لنفع ولا ضر
دعاني إليك الليل والأين والسرى … فصادفت أمرا ضاق عن حمله وسعي
كلامك فيه وحشة لي كآبة … كأن صخورا منه تقذف في سمعي
لك الله مالاقيت يا غريبتي … وماذا الذي عوضت بالنأى والجزع
سأدعو على الجرد الجياد لأنها … سرت بي فأشقتني واديا غير ذي زرع(١)

فما أظن حزن الشاعر على لغته العربية إلا معقدا لحزنه على ما آل إليه أمر العرب في مصر تحت سلطان المماليك ، وما أظن هذه الجارة الأرمنية إلا تجسيدا رمزيا لدولة المماليك . والأبيات — بعد ذلك — توحي بكثير . توحي بعدم الرغبة في هؤلاء الحكام ، ويا جارتي لم آت بيتك رغبة ، وتوحي بأن الذي أتى بهؤلاء الحكام أمر جلل ضاق وسع الجماعة عن حمله وأدركها العجز دونه :

دعاني إليك الليل والأين والسرى … فصادفت أمرا ضاق عن حمله وسعي

ويواكب هذا الأسى على العروبة ولغتها سخط جارف على المماليك وحكمهم وأخلاقهم . فهم سواسية لا يفضل أحدهم الآخر ، وليس فيهم من يحمد . ويعز على العرب أن ينأوا عن بلاد أصبح فيها السادة هم هؤلاء ، ويكاد البهاء زهير يصرح بذلك لكنه يعمم فيهم الخطاب إذ يقول :

تساويتم لا أكثر الله منكم … فما فيكم والحمد لله محمود
رأيتكم لا ينجح القصد عندكم … ولا العرف معروف ولا الجود موجود

(١) ديوان البهاء زهير ص ١٠٢ ، ١٠٣ تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم - محمد طاهر الجبلاوي - دار المعارف ١٩٧٧

وددت بأني ما رأيت وجوهكم　　　وأن طريقا جئتكم منه مسدود
متى تبعدني عن حدود بلادكم　　　مطهمة جرد ومهرية قود ؟
وأصبح لا يجري ببالي ذكركم　　　ويقطع ما بيني وبينكم البيد (١)

ويتشبث شعراء هذا التيار بكل ما يصلهم بماضي العرب أو يغذي فيهم إحساس العرق ، فهم دائما مشدودون إلى الجزيرة العربية يرون في أماكنها أسبابا تصلهم بمجدهم ، فهم في حنين متصل إلى هذه الأماكن ، يذكرون بها عهودهم الخوالي ، ويتعزون بها عن واقعهم المر ، فيتردد ذكر نجد وغير نجد من أماكن الجزيرة والحجاز ، ومن ذلك ما نراه في قول مجاهد الخياط التميمي :

أعد يا برق ذكر أهيل نجد　　　فإن لك اليد البيضاء عندي
أشيمك بارقا فيضل عقلي　　　فوا عجبا تضل وأنت تهدي
ويبكيك السحاب وأنت عين　　　تحمل بعض أشواقي ووجدي
بعثت مع النسيم لهم سلاما　　　فما عطفوا على لـه برد (٢)

ويقول ابن دقيق العيد :

في أرض نجد منزل لفؤادي　　　عرفته شوقي وصدق ودادي
ما كان أقربه على من رامه　　　عمرة لولا اعتراض أعادي
أصبو إليه مع الزمان فكيف لا　　　أصبو وتلك منازلي وبلادي
أرض بها الشرف الرفيع وغابة العز المنيع ، ومسكن الأجواد
أو طئتها فخرجت منها عنوة　　　بمكائد الأعداء والحساد (٣)

---

(١) ديوان البهاء زهير ص ٧٨ .
(٢) فوات الوفيات / جـ ٣ / ص ٢٣٣ تحقيق إحسان عباس .
(٣) ابن دقيق العيد حياته وشعره . علي صافي حسين ص ١٢٢ ط دار المعارف ١٩٦٠ .

أرأيت إلى هذا المنزل بنجد وكيف أن الشاعر أمسك شوقه ووده ولم يخرج منه إلا عنوة ؟ أهو بعد ذلك منزل أم منزلة هبط عنها الشاعر وقومه بعد أن اعترضتهم عوادى الدهر ، وعرقت عظمهم الأعداء والحساد ؟! وإذا كانت نجد ترمز فى وجدان الشاعر إلى المنزلة السامقة التى يبتغى الوصول إليها فان الطريق صعب ، يحتاج إلى صدق العزمة ويعبر عن ذلك ابن دقيق العيد فى موضع آخر من قصيدته فيقول :

طيب الحياة بنجـد إلا أنـــه ... من دون ذاك تفتت الأكبـاد
فأجدها صدق العزمة إنمـــا ... تحن المسالك أنفس الأجواد (١)

وقد وجد شعراء هذا التيار فى المدائح النبوية متنفسا لمشاعرهم فهـم يفاخرون بعروبة الرسول عليه السلام وانتمائه اليهم ، ويتخذون من هذه المدائح تكئة للحديث عن العرب بعد طغيان سلطان الأعاجم على مقاليد الأمور (٢) . وإلى ذلك يشير الدكتور على صافى حسين إذ يقول : وهذا على أن العرب فى مصر والشام كانوا يشعرون فى قرارة أنفسهم — دون شك — بالمرارة والألم لزوال السلطان والملك عنهم فى تلك الديار وصيرورته إلى الأيوبيين ومن بعدهم المماليك ، وهم جميعا من عناصر آرية يختلفون فى الجنس واللغة وأصل الدار عن العرب تمام الاختلاف فلذلك رأينا شعراء العرب فى مصر والشام يكثرون من مديح رسول الله فخر العرب ومصدر مجدهم لما فى ذلك من تعلة لهم وتعزية عما فقدوه من الملك والسلطان . (٣) وربما وجدنا

---

(١) ابن دقيق العيد ص ١٧١ .
(٢) أدب الدول المتتابعة — عمر موسى باشا ص ٤٦٦ ط لبنان ١٩٦٧ .
(٣) ابن دقيق العيد ص ١١٤ .

صدق هذه النظرة في قول شهاب الدين العزازي مادحا الرسول عليه السلام .

نمته من هاشم أسد ضراغمة	لها السيوف بيوت والقنا غيل
إذا تفاخر أرباب العلا فهم الغر	المغاوير والصيد البهاليل
لهم على العرب العرباء قاطبة	به افتخار وترجيح وتفضيل
قوم عمائمهم ذلت لعزتها القعساء	تيجان كسرى والأكاليل (١)

فانظر إلى تفضيل الشاعر العمائم على تيجان كسرى والأكاليل ، وما ينطوي تحته من معان .

ويستهل محمد بن عبد المحسن الأرمنتي مدحته الرسول عليه الصلاة والسلام بحديث عن العرب الذين هم خير الشعوب فضيلة وفصيلة واللذين هم رأس الأمر وسنامه ، وغاية الفخار ومنتهاه :

أمسى المشوق تسوقه أشواقه	نحو الحمى أم كيف لا يشتاقه
نادى السراة السادة العرب الألى	بهم أثيل المجد شيد رواقه
خير الشعوب فضيلة وفصيلة	وأولو مصال لا ينال لحاقه
أبناء آباء تحاكي جودهم	جود الحيا ويفوقه إغداقه
هم رأس أمر إمارة الحي الألى	بلغوا النهاية في الفخار وساقه (٢)

ويبدأ الشاب الظريف (محمد بن سليمان العفيف التلمساني) مدحته للرسول عليه السلام مشيدا بالعرب ، معليا من شأنهم على كل من سواهم بقول :—

أرض الأحبة من سفح ومن كثب	سقاك منهمر الأنواء من كثب

---

(١) فوات الوفيات جـ ١ / ص ٩٦ .
(٢) الطالع السعيد ص ٥٤١

ولا عـــدت أملك النائين من غصـــن الصبــا تحية على القلــب مكتئــب

قوم هم العرب الحمســـى جارهم   فلا رعى الله إلا أوجــه العـــرب

أعز صدى من صحبي ومن بصرى   كأنني بيــن أم منهــــم وأب

إن كان أحسن ما فى الشعــر أكذبه   فحسن شعرى فيهم غير ذى كذب(٢)

هذا هو التيار العربي وأبناه ينعكس بوضوح على الإنتاج الأدبي للعصر منسابا فى نغمات حزينة مقهورة ، متشبثا بالماضى ، رافضا لواقعه الذى أصبح زمامه فى يد الأعاجم .

---

(١) ديوان الشاب الظريف ص ٥ ط بيروت ١٨٨٥ م .

الفصل الثانى

الجهـــاد

تحمل المماليك عبء الجهاد عن العالم الإسلامى فى عصر أحدقت فيـه الأخطار بالإسلام من كل جانب ، فالمغول - وإن كانوا قد هزموا هزيمة ساحقة فى عين جالوت على يدى قطز أحد سلاطين المماليك - ما فتئوا يعاودون الكرة تلو الكرة فى عناد لا يفتر ، وفى دأب مستميت ، وكل هدفهم مصر ذلك المعقل الحصين الذى تتحطم على صخوره غزواتهم واحدة تلو الأخرى .
والصليبيون ما تزال لهم بقية من الإمارات تجثم على بقاع عزيزة من أرض الإسلام فى الشام متحفزة مترقبة ، تطل برأسها حينا ، وتواريه أحيانا ، وتمد أيديها للتتار كلما رأت كفتهم راجحة فى ميزان الحرب .

وإذا كان المصريون قد ارتضوا المماليك حكاما ، وملكوا هذه الطبقـة من الأرقاء المجلوبين من أسواق النخاسة رقابهم ، فما كان ذلك إلا لأنهم رأوا أن هذه الطبقة التى نشئت تنشئة عسكرية ، ولقنت فنون الحرب والقتال هى الوحيدة القادرة على القيام بعبء الجهاد ، ودرء خطر الأعداء المحدقين بهم من كل جانب ، والشاخصين إلى الإسلام بأعين طامعة متربصة ، فكأن المصريين بذلك كانوا يغلبون مصلحة الإسلام والمسلمين على ما سواها من اعتبـارات أخرى .

والمماليك ، على ما كان فى حياتهم الخاصة من تحلل دينى وفساد خلقى(١)

---

(١) دراسات فى تاريخ المماليك البحرية د. على إبراهيم حسن ص ٢٥ .

حرصوا أن يظهروا أمام الشعب فى صورة حماة الإسلام المجاهدين عنه ، وكأنهم بذلك يعلنون أنهم ملتزمون بذلك العقد غير المكتوب بينهم وبين الشعب

وتمثل لنا الكتابات الصادرة من دواوينهم هذه الظاهرة خير تمثيل . فهذا «بيبرس» يقلد ابنه «بركه خان» ولاية العهد ، ويعد الناس أن هذا الابن سيقتفى أثر أبيه فى بسط العدل ، وجهاد الأعداء ، وغزو بلاد الكفار ، وأنه سيكون قرة للمجاهدين ، وطليعة لصفوفهم :

«ومن شيمته الاقتداء فى بسط الإحسان والعدل ، وإحياء سنتنا مما يضفيه على الأولياء من ملابس الفضل ، واقتفاء آثارنا فى غزو بلاد الكفار ، والجاهد الذى تطول به أيدى الكفاة بالسيوف القصار» . (١)

وكذلك حرص قلاوون حينما عهد لابنه بولاية العهد أن يوصيه بجيوش الإسلام ويلزمه بالجهاد لا يحيد عنه «هو ديدن المماليك» ، ويحثه على غزو الأعداء والفتك بهم ما استطاع إلى ذلك سبيلا . ويقول هذا التقليد وهو من إنشاء محيي الدين ابن عبد الظاهر :

«والجهاد ، فهو الديدن من حين نشأتنا ونشأتك فى بطون الأرض وعلى ظهور الخيل ، فمل على الأعداء كل الميل . وصبحهم من فتكاتك بالويل بعد الويل ، وارمهم بكل شهرى قد هجر من يده عن الساعد ، ومن ركبه عن الساق ، ومن جوانحه الذيل» . (٢)

وما فتئ المماليك يفخرون بانتصاراتهم وحروبهم ، ويثبتون فضلهم على الإسلام ، وكأنهم بذلك يذكرون الناس أنهم ماضون على الطريق . فهم الذين

---

(١) دراسات فى تاريخ المماليك البحرية – الملاحق ص ٣٧٣ .
(٢) نهاية الأرب فى فنون الأدب – النويرى – ٨ ص ١٢١

هزموا الصليبيين فى موقعة المنصورة فطالت بذلك يد التوحيد . وهم الذين ما برحوا يغيرون على هؤلاء الصليبيين فيمعنون فى قتلهم والتنكيل بهم ، ثم هم الذين تصدوا للمغول وجرعوهم مرارات الهزيمة ، وثأروا بذلك للعالم الإسلامى وللخلافة العباسية فى بغداد . وهذه المعانى ألم بجملة منها شهاب الدين العزازى فى بعض من قصيدته التى نظمها معارضا معلقة عمرو بن كلثوم ، والتى قرحها عليه جماعة من المماليك الصالحية — كما يذكر بين يدى القصيدة — فراح يقول على لسانهم ذاكرا بأسهم فى وقعة المنصورة ، مشيدا بجهادهم ضد الصليبيين :

أتونا كالآتى إذا تـوالى ... وقد ملأوا السواحل والعيونا

وظنوا قهرنا والظن شك ... فحققنا بقهرهم الظنونا

وريدا فرنس يقدمهم بصدر ... صفين يا له صدرا صفينا

وأقسم لم يدع شيخا كبيرا ... من الإسلام أو طفلا جنينا

بعينا أحنته وأحوجته ... سيوف الصالحية أن يمينا

وبالمنصورة انتصرت وطالت ... يد التوحيد فوق المشركينا

لقينا زرقهم منا بسمر ... أبت يوم الكريهة أن تلينا

وبيض كالمنايا أو كأن المنايا الحمر كن لها قيونا

سيوف كلما ظمئت لورد ... تفجر فى نحورهم عيونا

وبادرنا البطارق شاهرين الصفائح والكنود ملدجينا

فهزوا عند حملتنا سيوفا ... فخلنا أنهم هزوا غصونا

وما ندرى وقد حملنا عليهم ... صفاحا جردوها أم جفونا

كأنا لثياب الموت حمرا ... فخروا بالدماء مضرجينا

ولم نترك بحصون القوم إلا ... قتيلا أو طريحا أو طعينا

ويصف العزازي جهادهم ضد المغول فيقول على لسانهم :

وقاتلنا جيوش المغل حتى	شفينا منهم الداء الدفينا
برمي من سهام خارقات	تشق بها من الحدق الحصونا
وطعن من أسنتنا دراكا	تحل بها الجواشن والقضونا
وضرب من سيوف قاطعات	تقد به الأباطل والمتونا
وأبطال من الأتراك شوس	كماة في الحروب مجربينا
تحف بهم ملائكة كرام	كأن أمامها الروح الأمينا
فولت فرقة منهم يسارا	وفرت فرقة منهم يمينا
وضاقت بالفضاء الأرض حتى	أفاضت «عين جالوت» عيونا
وسقنا خلفهم حتى أعدنا	جياد الخيل واقفة صفونا
أعدنا ثأر بغداد وجئنا	على حلب و(ميا فارقينا) (١)

ومن هذا المنطلق أقام بيبرس الخلافة العباسية في مصر ، ووصل من أمرها ما انقطع . ولا ريب أنه كان سعيدا كل السعادة وهو يسمع صنيعته الحاكم بأمر الله الخليفة العباسي بالقاهرة يخطب الناس بقوله :

«وهذا السلطان الملك الظاهر ، السيد الأجل ، العالم ، العادل ، المجاهد ، المرابط ، ركن الدين والدنيا ، قد قام بنصرة الإمامة عند قلة الأنصار ، وشرد جيوش الكفر بعد أن جاسوا خلال الديار ، فأصبحت البيعة باهتمامه منتظمة العقود ، والدولة العباسية به متكاثرة الجنود ، فبادروا عباد الله إلى شكر هذه النعمة ، وأخلصوا نياتكم تنصروا» . (٢)

---

(١) القصيدة بكاملها في ديوان شهاب الدين العزازي ص ٦٣ — ٦٩ .

(٢) السلوك لمعرفة دول الملوك جـ ١ / ٢ / ٤٧٨ .

كان بيبرس سعيدا بهذه الخطة ، فهذا هو الخليفة مما لشخصيته من ظلال دينية وأسر روحي ينهي إلى الرعية أن بيبرس يسير على السنن ويجاهد ويرابط ، ويمزق جيوش الكفر . وماذا الرعية عليه بعد ذلك ؟! ليس لهم إلا الشكر وإخلاص النوايا .

إذن فالقضية برمتها هي قضية الإسلام ، ولم تكن الصيحة التي أطلقها قطز في «عين جالوت» إذ صرخ «وا إسلاماه» إلا تجسيدا لجوهر القضية التي يصطرع حولها المتحاربون — والتي ظلوا يصطرعون حولها طوال هذا العصر ، فالحرب الدائرة حرب بين التوحيد والشرك على اختلاف صوره . فالصليبيون — في نظر المسلمين — قوم مشركون انحرفوا عن عبادة الإله الواحد ، وهم — بعد ذلك — هادفون إلى محو العقيدة الإسلامية . والمغول لا يختلفون عن الصليبيين في شيء فهم قوم وثنيون لا عقيدة تجمعهم على وجه التحديد ، ومن ثم فنظرة المسلمين لهؤلاء وهؤلاء تكاد تكون نظرة واحدة ، والمعركة — أيضا — ضد هؤلاء وهؤلاء ، تكاد تكون معركة واحدة وإن اختلفت الرايات ، وتباينت مواقع الفرسان . بل كثيرا ما وحد العداء بين هؤلاء وأولئك فاجتمعوا على حرب الإسلام في عديد من الوقائع .

ونحن إذا رجعنا إلى الآثار الأدبية لهذا العصر رأينا صدق هذا الزعم فنظرة المسلمين إلى الصليبيين والتتار نظرة واحدة ، تصمهم جميعا بالشرك والكفر لا تفرق بين أي منهم فانهزام التتار في «عين جالوت» كان هلاكا للكفر ، وإحياء للإسلام فيقول أحد الشعراء مشيدا بقطز :

هلك الكفر في الشآم جميعا   واستجد الإسلام بعد دحوضه

بالمليك المظفر الأروع سيف الإسلام عند نهوضه

ملك جاءنا بعزم وحزم   فاعتززنا بسمره وبيضه

أوجب الله شكر ذاك علينا   دائما مثل واجبات فروضه(١)

ويصف جمال الدين بن مصعب يوم عين جالوت بأنه يوم ذل فيه الكفر وامتهن ، وحصدت السيوف رءوس أصحابه فيقول :

إن يوم الحمراء يوم عجيب   فيه ولى جيش الطغاة العتاة

دار كأس المنون لما مزجنا   عين جالوت بالدما للسقاة

يا لها جمعة غدا الكفر فيها   سجدا للسيوف لا للصلاة (٢)

ويوم الحمراء هو يوم وقعة عين جالوت .

وحينما هزم بيبرس التتار فى موقعة «الفرات» نجد محى الدين بن عبدالظاهر يصف جيوش الأعداء التى تجمعت من كل صوب بأنها جيوش الشرك فيقول :

تجمع جيش الشرك من كل فرقة   وظنوا بأنا لا نطيق لهم غلبا

وجاءوا إلى شاطىء الفرات وما دروا   بأن جياد الخيل تقطعها وثبا (٣)

ولا يكاد ما قيل من الوقائع الصليبية يختلف عن ذلك فمن شعر البوصيرى قوله مصورا انتصار قلاوون فى واقعة المرقب :

لقد جهلت داوية الكفر بأسه   وغرهم بالمسلمين غرور

فلا بوركوا من إخوة إن أمهم   وإن كثرت منها البنون نزور(٤)

---

(١) تاريخ ابن الوردى جـ ٢ ص ٢٠٧ .

(٢) عقد الجمان للعينى ورقة ٤٣٤ / قسم ٣ / جـ ٢٠ .

(٣) فوات الوفيات للكتبى جـ ١ / ص ٢٢٨ .

(٤) ديوان البوصيرى ص ٩٦ .

وهكذا لا نكاد نميز بين ما قيل في التتار وما قيل في الصليبيين إلا بما نجده أحيانا من ذكر الصلبان والكنائس والرهبان والبطارقة والتثليث حينئذ ندرك أن المقصود هم الصليبيون . فنحن مثلا ندرك أن العزازي يصف معركة صليبية حين يقول في فتح أنطاكية على يد بيبرس :

أقبل الصبح وهي شرك وما أمسى إلا وكلها توحيد
وأراها بالأمس كانت قصورا عاليات واليوم فهي لحود
قتل حزب الصليب هذا عدو الله قد حان يومه الموعود (١)

فهو يصفهم هنا بأنهم حزب الصليب . وفي قصيدة أخرى يذكر فيها فتح طرابلس على يد قلاوون يصفهم بأنهم عصبة عيسوية .

ومانع عنها عصبة عيسوية على الحرب مغداها وفيها رواحها (٢)

ونرى بدر الدين المنبجي يذكر «التثليث» في إشادته بفتح عكا على يد الأشرف خليل بن قلاوون .

بالأشرف السيد السلطان زال عنا التثليث ، وابتهج التوحيد بالجدل (٣)

ويصفهم شهاب الدين محمود بأنهم «دولة الصلب» في حديثه عن الوقعة نفسها :

الحمد لله زالت دولة الصلب وعز بالترك دين المصطفى العربي

ويصفهم في القصيدة نفسها بأنهم «عباد عيسى» .

أغضبت عباد عيسى إذ أبدتهم لله أي رضى في ذلك الغضب (٤)

(١) ديوان العزازي ص ٩١ .
(٢) الديوان ص ٧٣ .
(٣) تاريخ ابن الفرات هـ ٨ / ص ١١٥
(٤) تاريخ ابن الفرات هـ ٨ / ص ١١٥ ، ١١٦ .

وكل هذه أمور تعين على التحديد والتمييز ، ولكنها لا تدل على فارق في النظرة ، على أننا ينبغي أن نكون على حذر ، فليس كل ما ذكر فيه الصليب أو الكنيسة ، أو ما يتصل بالدين المسيحي يتعلق بوقعة صليبية ، وينبغي بهذا الصدد ـ ألا يغيب عن أذهاننا أن المسيحية اعتنقها بعض التتار ، وأن من زعمائهم من دان بها ، فقيلة «كتبغا» مقدم جيش المغول في الشام كانت قد اعتنقت المسيحية منذ قرن . و «أبغا» بن «هولاكو» كانت أمه مسيحية تعتنق المذهب النسطوري . (١) وهو قد تزوج من ابنة «ميخائيل» امبراطور ــ القسطنطينية (٢) . وكان عطوفا على المسيحيين بل يقال . إنه اعتنق الدين المسيحي . (٣) إذن فلا عجب أن نقرأ في مقامة جمال الدين الرسعني التي يصف فيها هجوم التتار على حلب وتخريبهم لها في عهد بيبرس قوله :

«وحنا العدوان في حش بيضة الإسلام ، ورفعت الصلبان على المساجد ، ووضعت الأديان والمعابد ، حتى بكى على الوجود الجلمد ، وشكا إلى المعبود السرمد» . (٤)

فها نحن نرى حديثه عن رفع الصلبان والوقعة تترية .

وإذا كانت هذه نظرة المسلمين التتر والفرنج فما نظرة التتر والفرنج المسلمين ؟ وهذا سؤال قد يخطر على الذهن ، وللإجابة عنه تعوزنا النصوص إلا أننا قد نستشف نظرة هؤلاء المسلمين من قول الأرتاري في رثاء دمشق وهو يصف ما صنعه التتار من عسف بأهلها :

---

(١) العلاقات السياسية بين المماليك والمغول ص ٩٠ .

(٢) المصدر نفسه ص ٩٤ .

(٣) دراسات في تاريخ المماليك البحرية د. على ابراهيم حسن ص ١٦٠

(٤) تاريخ ابن الوردي جـ ٢ ص ٢١٥ ، ٢١٦ .

والحصار الشديد والحبس والخوف مع قسادة العراة المكادي

ويوزن الأموال من غير وجد   باعتساف الشم الغلاظ الشداد

كافر انجا خوار أنت يا خبة   محمود غازان لنا آن البلاد (١)

وترجمة البيت الأخير من هذه الأبيات وقد كتب بلغة القوم « هات أيها الكافر الحقير المراج فأنت عدو خان البلاد محمود غازان » . إذن فهم أيضاً ينظرون إلى المسلمين على أنهم كفار .

وإذا كانت هذه نظرة التتار إلى المسلمين ، فلا ريب أن نظرة الفرنج كانت تماثلها فالمسلمون في نظر الفرنج أو «الصليبيين» وثنيون ، وقد صورت الأعمال الأدبية في أوروبا — إذ ذاك — المسلمين على أنهم عباد أو أوثان ، ولذ للشعراء الجوالة أن يسخروا من الإسلام ورسوله (٢) وليس هنا مجال الإفاضة في ذلك ، وإنما حسبنا هذه الإشارة التي تعين على تمثل ما نحن بصدده من أمر هذه الحرب العقدية .

وطبيعي في حرب كهذه محورها العقيدة أن تعبأ كل القوى الروحية ، وأن تحاط الوقائع بهالة من الحمية الدينية ، ولذلك سعى سلاطين المماليك إلى استثارة الشعور الديني بمختلف الوسائل ، فكان الخليفة العباسي يخرج مع كل غزاة يحث المحاربين ، ويحفز هممهم ، ويعدهم بإحدى الحسنيين ، فهذا الخليفة المستكفي بالله يصحب السلطان الناصر محمد في وقعة مرج الصفر ، وحين احتدم القتال طاف على صفوف المحاربين يخطبهم قائلا :

---

(١) نهاية الأرب النويري جـ ٥ ص ٢٢٨ .

(٢) أنظر : مكسيم رودنسون — مقال الصورة الغربية والدراسات الغربية للإسلام «تراث الإسلام» جـ ١ ص ٢٥ ترجمة محمد زهير السمهوري ط الكويت ١٩٧٨ م .

«يا مجاهدون ، لا تنظروا لسلطانكم ، قاتلوا عن دين نبيكم صلى الله عليه وسلم وعن حريمكم» . (١)

كذلك كان القراء يصحبون الجيش ويتلون آيات الجهاد من القرآن الكريم(٢) بل حرص بعض سلاطين المماليك على اصطحاب جماعات من الصوفية في معاركهم . فكان بيبرس يلازمه في كل معاركه رجل صوفي يدعى الشيخ خضر وقد صور ذلك بعض الشعراء بقوله :

ما الظاهر السلطان إلا مالك	الدنيا بذاك لنا الملاحم تخبر
ولنا دليل واضح كالشمس في	وسط السماء بكل عين تبصر
لما رأينا الخضر يقدم جيشه	أيقنا علمنا أنه الاسكندر (٣)

والشاعر هنا يشير إلى أسطورة الاسكندر ذي القرنين الذي كان يقدم دائما أمام جيوشه الخضر .

وصورت لنا الآثار الأدبية — أيضا — ما كان يصحب هذه الوقائع من ابتهالات وصلوات وأدعية يستمد بها الناس العون الإلهي لجيوشهم المحاربة فيقول محيي الدين بن عبد الظاهر مصورا الأجواء الدينية التي أحاطت وقعة حمص تلك التي انتصر فيها قلاوون على التتار :

«وكان المسلمون في سائر البلاد في تلك الساعة قد طرقوا أبواب السماء وجردوا سلاح الأنبياء من الدعاء ، ولا مشهد ولا مسجد في تلك الساعة في القاهرة ومصر ودمشق والأقاليم إلا وصفوف المتهجدين في ذلك الوقت قائمة

---

(١) السلوك لمعرفة دول الملوك جـ ١ / ٣ / ٩٣٣ .
(٢) السلوك لمعرفة دول الملوك جـ ١ / ٣ / ٩٣٣ .
(٣) فوات الوفيات جـ ١ / ٤٠٦ .

مزاحمة بالمناكب ، كما صفوف المجاهدين ثابتة متصافة فى تلك المواكب» .

ويمضى ابن عبد الظاهر فى رسالته هذه فيبين أن هذه التوسلات والأدعية كانت عونا على النصر وطريقا اليه ، وأن الله سبحانه لم ينصر الجيوش الإسلامية إلا ببركة هؤلاء المتهجدين المتوسلين :

«فنظر الله إلى خلقه ببركة تلك الجباه الركع ، وبمن قدم إلى الله به التوسل من الأطفال الرضع ، فأرسل الله ملائكة النصر ترى ، وجرد سيوف الظفر تحز الرقاب وتدمى» . (١)

وفى الناحية المقابلة اعتبر المسلمون أن الهزائم التى تحل بهم على يد أعدائهم إنما هى جزاء التقصير ، والتفريط فى أمر الدين ، والانصراف إلى الدنيا . ولعلنا نحس ذلك بوضوح فى قول أبى عبد الله محمد بن حسن الشاطبى حين دهم القبارصة مدينة الاسكندرية سنة ٧٦٧ هـ ، وأعملوا فيها القتل والأسر والنهب والتخريب :

لقــد ظفـر القــوم اللئام بمعشـر	كـرام ، ولكن قد سرت بظنـون
خطـايا تقضت أثـمرت بارتكابهـا	قـلى مُد نما فى أشهـر وسنين
إباحـة قبـح وارتـكاب جرائـر	وتضييـع أحـكام وخـون أميـن
ويمـد فأمـر الله مـا مـنـه مهـرب	ولا معقـل من حكمـه بحصين (٢)

فنحن مع هذا الشاعر نرى أن الفاجعة التى حلت بمدينة الاسكندرية كانت ثمرة الخطايا التى ارتكبت على مدى الأشهر والسنين ، ونتيجة لإباحة المنكرات وتضييع أحكام الدين ، وخون الأمناء على هذه الأحكام .

---

(١) تاريخ ابن الفرات جـ ٧ ص ٢٢٤ .
(٢) الإلمام بما جرت به الأحكام المقضية فى واقعة الاسكندرية ورقة ١٨٧ أ .

ومثل هذا ما نجده في مرثية علاء الدين الأوتاري لدمشق حين دهمها التتار سنة ٦٩٩ هـ . فهو يتجه إلى الرسول — صلى الله عليه وسلم — يطلب منه العون ، معترفا بالذنب ، ملتمسا التوبة وذلك إذ يقول :

غير أن الفساد يكسب ذلا	ويعمى الفساد طرق السداد
وارتكاب الفساد يورث فقرا	وخراب البيوت عقبى الفساد
يا حبيب الإله لا تحمل	عن عصاة غرتهم بالأيادى
يا حبيب الإله قد مسنا الضـ	ـر فجد بالإسعاف والإسعاد
يا حبيب الإله تبنا إلى الله	ه وأنت الشفيع حتى المعاد(١)

وهكذا يخرج بنا أدب الجهاد لهذه الحقبة إلى رحاب دينية واسعة . لا تكاد تنفصل فيه نغمات الحروب عن صلوات العباد . ولا تكاد تفترق فيه ميادين الوقائع عن محاريب المساجد . واقرأ معي قول شمس الدين الطيبي

لا عيش الا لفتيان إذا انتدبوا	ثاروا ، وإن يحصروا في غمة كشفوا
يبنى بهم ملة الإسلام ناصرها	كما يقى الدرة المكنونة الصدف
قاموا لنصرة دين الله ما وهنوا	لما أصابهم فيه وما ضعفوا (٢)

فأنت ترى الشاعر معجبا بقوة هؤلاء الفتيان ، ولكنه لا يعجب بها إلا لأنها مسخرة لوقاية الدين وحمايته ، ونصرة الإسلام وكشف غمته .

وإذا مضينا مع النصوص وجدناها تؤكد هذا الامتزاج . فالخيل خيل الله ، والجنود جنوده ، والدين دينه ، وعناية الله سابغة على من يحاربون لنصرته . فقلاوون حينما يهب لمقاتلة التتار إنما يهب غاضبا للدين ، مخلصا

---

(١) نهاية الأرب جـ ٥ / ص ٢٢٨ / ٢٢٩ .
(٢) المنهل الصافي والمستوفى بعد الوافي — ابن تغري بردى جـ ٣ / ورقة ١٩٤ أ

عزيمته لوجه الله لا يبغي إلا المثوبة كما يقول الجزارى

لما سمعت أحاديث الذين بغوا   وخالفوا واجترؤا في الظلم واجترموا

غضبت للدين ثم استنهضتك له   حمية نارها بالحقد تضطرم

قبالها عزمة لله خالصة   وهمة صغرت في جنبها الهمم(١)

ويصف البوصيري خيل قلاوون بأنها خيل الله :

وتأتيه خيل الله من كل وجهة   يؤيد منها بالنصير نصير (٢)

ويصف شهاب الدين محمود جنوده بأنها جنود الله :

فاجأتها جنود الله يقدمها   غضبان لله لا للملك والنشب (٣)

وهذه الفتوح التي يفتحها المسلمون إنما هي إعلاء للدين ، ورفع لمناره ، وإعادة لأمجاده ، ونقرأ ذلك في قول شرف الدين القدسي يبشر بفتح إحدى القلاع :

فليأخذ حظه من هذه البشرى التي أصبح الدين بها عالي المنار ، بادي الأنوار ، ضاربا مضارب دعوته على الأقطار ، ذاكرا بموالاة الفتوح أيام الصدر الأول من المهاجرين والأنصار . (٤)

وإذا كان الأمر كذلك فلا شك أن الرسول — عليه السلام — قد قرت عينه بهذه الفتوح ، وأشرفت روحه عليها راضية مطمئنة ، وابتهجت أرض الإسلام المقدسة وكعبه الغراء ، كما نرى في قول شهاب الدين محمود يصف فتح عكا على يد الأشرف بن قلاوون :

وأشرف المصطفى الهادي البشير على   ما أسلف الأشرف السلطان من قرب

---

(١) الديوان ص ٧٠ .

(٢) ديوان البوصيري ص ٩٩ .

(٣) تاريخ ابن الفرات جـ ٨ / ص ١١٦ .

(٤) تاريخ ابن الفرات جـ ٨ ص ١١٦ .

فقر عينا بهذا الفتح وابتهجت ... بشره الكعبة الغراء فى الحجب(١)

وحلا لبعض الشعراء أن يمثلوا جيوش المسلمين بجيش النبي — صلى الله عليه وسلم — وهم فى ذلك شاخصون إلى الهدف الذى من أجله سعى كل من الجيشين ، ونرى ذلك فى قول بعضهم عن جيش بيبرس :

فأتاهم جيش النبي يؤمهم ... ملك الزمان الظاهر الأواه (٢)

ولا عجيب بعد ذلك أن تسبل عناية الله على سلاطين المماليك الذين هبوا لنصرة الدين حجبا من الوقاية تقيهم ضربات الأعداء وطعناتهم ، كما نرى فى وصف محيى الدين بن عبد الظاهر لبيبرس فى إحدى معاركه .

حيث الصفوف على الصفوف وماله ... عن موقف يرضى الخليفة معدل

والكفر قد حشروا له إذ أبصروا ... حجباً عليه من الوقاية تسبل (٣)

ولعلنا الآن نستطيع أن نلمح تفسيرا لما نجده فى المدائح النبوية لهذا العصر من ذكر لحروب الرسول وغزواته وأسلحته ، فهذا — فضلا عن أنه يستثير المشاعر الروحية وينعشها — كان يرسم المثل الأعلى للمحاربين ، ويحلق بهم عبر آفاق الزمن ، يصل الماضى بالحاضر ، مبينا أن جوهر القضية واحد لم يتغير ، فمنذ ظهور الإسلام والمعركة محتدمة بين التوحيد والشرك ، وكما يجاهد المحاربون الآن جاهد الرسول وصحبه من أجل الهدف نفسه ، وأولى بالمحاربين أن يتمثلوا هذه المعارك ، ويستمدوا منها الدليل والهدى .

وعلى هذا مضى الشعراء يصورون معارك الرسول ، ويمجدونها صورا

(١) تاريخ ابن الفرات جـ ٨ ص ١١٢ .
(٢) عقد الجمان للعينى جـ ٢٠ / ق ٣ / ص ٥٧٩ .
(٣) تاريخ ابن الفرات جـ ٧ / ٩١ .

نابعة هادية رائدة ، فقرأ البوصيرى فى بردته يصف الرسول وصحبه :

هم الجبال فسل عنهم مصادمهم ... ماذا رأى منهم فى كل مصطدم

وسل حنينا وسل بدرا وسل أحدا ... فصول حتف لهم أدهى من الوخم

المصدري البيض حمرا بعد ما وردت ... من العدا كل مسود من اللمم

والكاتبين بسمر الخط ما تركت ... أقلامهم حرف جسم غير منعجم(١)

ويقول فى قصيدة أخرى مخاطبا الرسول ذاكرا وقعتى حنين والأحزاب :

جاهدت فى الله أبطال الضلال إلى ... أن ظل للشرك بالتوحيد تبطيل

شكا حسامك ما تشكو جسومهم ... فيه منها وفيها منه تفليل

لله يوم حنين حين كان به ... كساعة البعث تهويل وتطويل

ويوم أقبلت الأحزاب وانهزمت ... وكم خبا لهب بالشرك مشعول(٢)

وظلت هذه الأنغام الروحية متلاحقة متصلة طوال هذا العصر ، تصف معارك الإسلام ، وتحفز المجاهدين إلى النصر ، وتهون عليهم وقع الهزيمة ، فالحق فى النهاية لابد أن ينتصر . وهذا برهان الدين القيراطى يصف انتصار المسلمين فى بدر وفى حنين حين أيد الله المسلمين بجنود من الملائكة فتحقق النصر ، وبطلت الغواية بعد أن حوم شبح الهزيمة ، واهتزت بعض النفوس الضعيفة .

كم ببدر تحت النجوم نجوم ... تركوها للنسر والعراء

صدقوا فيهم الجلاد إلى أن ... جندلوهم صرعى وباءوا بباء

ورأوهم بكل أبيض عضب ... ليس ينبو وصعدة سمراء

---

(١) ديوان البوصيرى ص ١٩٨ .

(٢) ديوان البوصيرى ص ١٧٩ .

ثم للخيل ملعب في حـنين ألبس الكافرين ثوب الشقاء
حين جاءت جنود ربك حتى أقعدتهم في موطن الإزدراء
كلموهم بالسن من ظباهم لقطتهم حرصا على الخرساء
وعلى حرها جرت حين نجلا * نجيا على .. الخنساء *
أظهروا الدين بالعزائم لما أبطلوا سر كل ذى إغواء(١)

وبين البوصيرى فى القرن السابع ، والقيراطى فى القرن الثامن شعراء كثيرون يمموا بشعرهم شطر الساحة النبوية لكن أعينهم ترقب ما يجرى فى عصرهم ، وقلوبهم متعلقة بقضيته ، فهم إن اتجهوا لماضى الإسلام فإنما كانوا يلتمسون فيما يضىء حاضرهم ، ويرشد لمستقبلهم .

ولعلنا نصل من أمر قضية الجهاد إلى مسألة بالغة التعقيد والطرافة ، فقد بدأ الاسلام يغزو قلوب التتر ، واعتنقه بعض زعمائهم من أمثال أحمد تكودار وغازان ، وذلك على عهدى قلاوون وابنه الناصر محمد .

ولقد كان ظن المماليك فى بادىء الأمر أن المعركة انتهت وسقطت براعتها ويتضح ذلك من رسالة قلاوون إلى أحمد تكودار .

«وأما القول منه إنه لا يجب المسارعة إلى المقارعة إلا بعد إيضاح الحجة ، وتركيب الحجة ، فبانتظامه فى سلك الإيمان صارت حجتنا وحجته متركبة على من غدت طواغيه عن سلوك هذه الحجة متنكبة ، فإن الله سبحانه وتعالى والناس كافة قد علموا أن قيامنا إنما هو لنصرة هذه الملة ، وجهادنا واجتهادنا إنما هو لله ، وحيث قد دخل معنا فى الدين هذا الدخول فقد ذهبت الأحقاد ،

---

* لعل فى البيت كلمة ساقطة فالوزن غير مستقيم
(١) ديوان مطلع النيرين لبرهان الدين القيراطى ص ١٥ ، ١٦ .

وزالت النحول . وبارتفاع المنافرة تحصل المظافرة . فالإيمان كالبنيان يشد بعضه بعضا ، ومن أمام مناره فله أهل بأهل وجيران بجيران بكل أرض»(١)

ولكن الأمور سارت على غير ما توقع قلاوون فاستمرت المعارك ، واحتدم أوراها بين غازان الذي اعتنق الاسلام وبين الناصر محمد ، ووجدنا أنفسنا أمام فريقين كل منها يدعي نصرة الإسلام ، والحفاظ على العدل ، وكل منها يكيل التهم للآخر ، فالمماليك ، في نظر غازان ، خارجون عن الدين ، مفسدون في الأرض ، مهلكون الحرث والنسل ، ونقرأ ذلك في عهد غازان الذي كتبه إلى سيف الدين قبجق بنيابة الشام بعد أن هزم المماليك في وقعة الخازندار :

«ولما أن صح عندنا أن حكام مصر والشام خارجون عن طريق الدين ، غير متمسكين بأحكام الإسلام ، ناقضون لعهودهم ، حالفون بالأيمان الفاجرة ليس لديهم وفاء ولا ذمام ، ولا لأمورهم التئام ولا انتظام ، وكان أحدهم إذا تولى سعى في الأرض ليفسد فيها، ويهلك الحرث والنسل والله لا يحب الفساد»(٢)

وفي رسالة منه الناصر محمد يبين أن الذي حمله على غزو الشام هو ما رآه من مجاهرة المماليك بالمعاصي ، والخروج عن جادة الدين ، وخرق ناموس الشريعة :

«ليعلم السلطان المعظم الملك الناصر ، أنه في العام الماضي بعض عساكركم المفسدة دخلوا أطراف بلادنا ، وأفسدوا فيها لعناد الله وعنادنا كما ردين وبواجيها ، وجاهروا الله بالمعاصي فيمن ظفروا به من أهلها ، وأقدموا على

(١) صبح الأعشى للقلقشندي جـ ٧ / ص ٢٣٩ .

(٢) النهج السديد والدر الفريد فيما بعد تاريخ ابن العميد لابن أبي الفضائل ص ٥٠٠ / ٩ نقلا عن د. علي ابراهيم حسن ص ١١٨ دراسات في تاريخ المماليك البحرية .

أمور بديعة ، وارتكبوا آثارا شنيعة من محاربة الله وخرق ناموس الشريعة فأمنا من تهجمهم ، وغرنا من تقحمهم ، وأخذتنا الحمية الإسلامية فجذبتنا إلى دخول بلادهم ، ومقاتلتهم على إفسادهم » . (١)

ويرد الناصر محمد على غازان ، معددا مزاعمه ، مبينا له أن حميته التى يعتبرها حمية إسلامية إنما هى حمية جاهلية لأنها تأخذ البرىء بالمسىء ، وتدمر الأماكن المقدسة بجموع ملفقة مختلفة الأديان ، ليس لها هم إلا الانتقام ، وليس هذا بغريب على غازان وقومه فآباؤهم وأجدادهم هم من هم فى الكفر والنفاق .

« وقد كان آباؤكم وأجدادكم على ما علمتم من الكفر والنفاق . وعدم المصافاة للإسلام والوفاق ، وحيث جعلتم هذا ذنبا فالحمية الجاهلية وحاملا على الانتصار الذى زعمتم أن هممكم به ملية فقد كان هذا القصد الذى ادعيتموه يتم بالانتقام من أهل تلك الأطراف التى أوجب ذلك فعلها . والاقتصار على أخذ الثار ممن ثار ، اتباعا لقوله تعالى وجزاء سيئة سيئة مثلها . لا أن تقصدوا الإسلام بالجموع الملفقة على اختلاف الأديان ، وتطئوا البقاع الطاهرة بعبدة الصلبان ، وتنتهكوا حرمة البيت المقدس الذى هو ثانى بيت الله الحرام ، وشقيق مسجد رسول الله عليه الصلاة والسلام » . (٢)

وهكذا نمضى مع الفريقين نرى كلا منهما يتخذ من الإسلام ذريعة يتذرع بها ، ويمضى بها الشرعية على حربه . وربما كانت العامة متهيئة لأن ترحب بالتتار ، لو صح ما يدعونه من إسلام — وما كان ذلك يعنى أكثر من استبدال غريب بغريب . ثم ألم يكن من بين سلاطين المماليك من هو تترى الأصل ؟ ولذلك ذهب جملة من فقهاء دمشق إلى غازان مستأمنين ، وقبلوا الأرض بين

---

(١) صبح الأعشى القلقشندى ج ٨ ص ٦٩ .

(٢) صبح الأعشى القلقشندى ج ٧ ص ٢٤٤ .

يديه ، ويقال إن الناس سروا حينا تليت عليهم وعود التتار البراقة ، ولكن الذى صرف القلوب عنهم ما رأوه من كذب وعودهم ، ومناقضة فعلهم لقولهم حينئذ أدرك الناس أن المماليك — على ما هم عليه — هم حماة الإسلام الحقيقيون . وأن هؤلاء القوم ليسوا من الإسلام فى شىء .

وكانت القسوة طابع هذه الحروب ودينها ، لا نستثنى فى ذلك طرفا من الأطراف فالأمر من أى الجهات نظرت إليه وجدته أمر دين يريد طمس دين ، ولن يكون ذلك إلا بتدمير كل مقومات الحضارة والثقافة — ومن هنا كان عنف التتار ، ومن هنا أيضا كان عنف الصليبيين ، ومن هنا قابلهم المسلمون عنفا بعنف ، وبادلوهم قسوة بقسوة .

وقد صور الأدب بعض هجمات التتار وما اتسمت به من سلب ونهب ، وتخريب وتدمير ، وقتل بلا رحمة ، ولا ريب أن قلب المجتمع المصرى قد رجف رجفة هائلة حينما تناهت إلى آذانه تلك الرسالة التى بعث بها هولاكو إلى قطز ، وكانت بمثابة إنذار أن يلقى سلاحه ويقى نفسه وشعبه سوء المصير

وقد تتابعت جمل هذه الرسالة قصيرة سريعة ، فى إيقاع مرعب ، كأنه ضربات السيوف أو طعنات الرماح ، ويخيل لمن يقرؤها أن الأرض ضاقت عليه برحبها ، وأنه لا مفر من هؤلاء القوم إلا إليهم ، فهم غلاظ شداد ، لا تعرف الرحمة طريقها إلى قلوبهم ، فضلا عما يملكونه من سلاح قاهر ، وعدد وافر .

تقول الرسالة :

«فنحن ما نرحم من بكى ، ولا نرق لمن شكا ، وقد سمعتم أننا قد فتحنا البلاد ، وطهرنا الأرض من الفساد ، وقتلنا معظم العباد ، فعليكم بالهرب وعلينا الطلب ، فأى أرض تأويكم ؟! وأى طريق تنجيكم ؟! وأى بلاد

تحميكم ؟! فما من سيوفنا خلاص ، ولا من مهابتنا مناص ، فخيولنا سوابق ، وسهامنا خوارق ، وسيوفنا صواعق ، وقلوبنا كالجبال ، وعددنا كالرمال ، فالحصون لدينا لا تمنع ، والعساكر لقتالنا لا تنفع » .

وتمضي الرسالة متلفقة متوعدة ، تنضح ألفاظها صلفا وغرورا ، وتعكس إحساس القوم بالتفوق ، وثقتهم في الغلبة والظفر ، وتحقيرهم لخصومهم ، ثم يختمها كاتبها ببيتين من الشعر يجسدان أماني القوم وأوهامهم ، وما في نفوسهم من رغبة في الفتك وتعطش للدماء :

ألا قل لمصر ها هلاوون قد أتى   بحد سيوف تنتضى وبواتر
يصير أعز القوم منها أذلة   ويلحق أطفالا لهم بالأكابر(١)

وهكذا لأول وهلة ندرك ما طبع عليه المغول من غلظة وقسوة فلا ندهش بعد ذلك لما نقرؤه في أدب هذه الحقبة من تصوير لشناعتهم ، وانتهاكهم لكل المحارم ، فها هو هولاكو يغير على حلب بجيوشه الكثيفة الجرارة . يقتل رجالها بلا رحمة ، ويريق الدماء التي تحيل الأرض عندما ، ويعبث بكل المقدسات ، فيهدم المساجد ، ويمزق المصاحف مبعثرا أوراقها المطهرة . ثم يتجه إلى النساء فيجز منهن الشعور ، ويأخذ السبايا لا يرق للوجوه الجميلة تلطخت بالدماء ، ولا يلين للأصوات الصيحة تستغيث مولولة شاكية . تلك صورة لما صنعه في حلب نراها في قول ابن العديم :

أتوها كأمواج البحار زواخرا   ببيض وسمر والقتام مخيم
فلو حلب البيضاء عاينت تربها   وقد عندم الحصى من تربها دم
وقد سيرت تلك الجبال وسجرت   بهن بحار الموت والجو أقتم

---

(١) السلوك للمقريزي جـ ١ / ٢ ص ٤٢٨ ، ٤٢٩

وقد عطلت تلك العشار وأذهلت ... مراضع عما أرضعت وهي هيم

فيالك من يوم شديد لغامه ... وقد أصبحت فيه المساجد تهدم

وقد درست تلك المدارس وارتمت ... مصاحفها فوق الثرى وهي تهضم

وقد جزرت تلك الشعور وضمخت ... وجوه بأمواه الدما وهي تلطم

وكل مهاة قد أصبيت سبية ... وقد طالما كانت تعز وتكرم

تنادي إلى من لا يجيب نداءها ... وتشكو إلى من لا يرق ويرحم(١)

لاشك أنه كان يوما عصيبا على حلب وأهلها ، ولابد أن الناس تمثلوا به يوم الحشر ، فابن العديم لا يجد ما يصف به هذا اليوم إلا الوصف القرآني القيامة . فالجبال سيرت ، والعشار عطلت ، وكل مرضعة تذهل عن ترضعه بل يمضي فيصف هذا اليوم بأنه الصاخة الكبرى :

فأيقنت أن الأرض مادت وأقبلت ... بها الصاخة الكبرى والآن التقم

ونرى في مقامة الشيخ جمال الدين الرسعني تصويرا لهذه الوقعة وأن بدا باهتا لغلبة الصنعة عليه ، وهو في جملته لا يخرج عما عبر عنه ابن العديم يقول .

«وقد نزلت صروف البلاء بالشام ، وهطلت عيون العناء كالغمام ، وصار وسام الإسلام كالوشام ، وعرام الأنام في غرام ، وخبت آثار المآثر ودرست وطفئت أنوار المنابر وطمست ، وحليت العيون دامعا على حلب ، وسكبت الجفون دماءها من الصبب . والتف عليها الخطل والاختلال ، واحتف بها القتل والوبال ، واختطف من أعيانها عرائس الشموس والأقمار ، واقتطف من أغصانها ثمائل النفوس والأعمار . (٢)

---

(١) عقد الجمان للعيني جـ ٢٠ / ق ٢ / ص ٤٨٦ .

(٢) تاريخ ابن الوردي جـ ٢ / ص ٢٦٥

وبلغ من تبجح هؤلاء القوم بالإثم ، وجاهرتهم بالشر ، أنهم سخروا أهل الشام فى هدم قلاعهم وحصونهم (١) ، وكان العوام يرددون فى أسى ظاهر وهم يهدمون قلعة المزّ .

رفقاً عليها قلعة مبجلة	يهدمها من هو من حزبها
غاية المفرط فى سلمها	كغاية المفرط فى حربها
تحتشنا فى هدمها أعجم	وتشتكى منا إلى ربها
فيسلة الأرواح من جرحها	وهلة الأجسام من تربها
لما رأوها أسرفت فى العلا	كان علاها منتهى ذنبها (٢)

ولا يقلل من تأثير هذه الأبيات أنها تحكيه على قصيدة المتنبى المعروفة :

آخر ما الملك معزى به	هذا الذى أثر فى قلبه (٣)

وتضمن بعض أبياتها وشطراتها ، بل إن نسجها على هذا المنوال لدلالته النفسية التى ينبغى أن نلاحظ فأبيات المتنبى تعكس جوا من التسليم والعجز كذلك الذى عمه هؤلاء المسخرون وهم يهدمون قلعتهم بأيديهم .

ولم يكن غازان وجنوده أرحم من هولاكو ، أو أقل منه وحشية وقسوة على الرغم من ادعائه الإسلام ، وتشدقه بألفاظ العدالة والإصلاح ، وفى قصيدة الأوتارى شاهد على ما فعله جنود غازان بدمشق سنة ٦٩٩ هـ من تخريب وهدم وإحراق وحصار واغتصاب للأموال ، ثم هؤلاء الأسرى الذين لا يحصيهم عد ، وفيهم الأطفال والصبية الذين لم يخلوا ليباعوا بأسواق النخاسة يقول الأوتارى :

---

(١) تاريخ ابن الوردى — ٢ / ص ٢٠٥ .
(٢) تاريخ ابن الوردى — ٢ / ص ٢٠٧
(٣) ديوان المتنبى — ١ ص ٣٣٥ .

وبأنس بقاسيون وبالس   أصبحوا مغنما لأهل الفساد

طرقتهم حوادث الدهر بالقتل ونهب الأموال والأولاد

وبنات محجبات عن الشمس تناءت بين أيدي الأعادي

وقصور مشيدات تقضت   في ذراها الأيام كالأعياد

وبيوت فيها التلاوة والذكر وعالي الحديث بالإسناد

حرقوها وخربوها وبادت   بقضاء الإله رب العباد

ثم تمضي القصيدة في لهجة عاجزة شاكية متحسرة مصورا كثرة أعداد الأسرى ومصيرهم ، وهيئتهم التي تستجلب الدمع من كل عين

من لأسرى كسرى حيارى دهتهم   دهمتهم جياد أهل العناد

وأصبح القسط في الحساب عناه   لم يطق حصر كثرة الأعداد

منهم الطفل والصبية والشا   ب ينادي فمن يجيب المنادي

وينادي عليهم برغيف   ويزر هني بسوق الكساد

عوضوا عن سرورهم بشرور   وقصور البلاد سكنى البوادي

وبأهل الوداد شر أناس   وبلين المهاد شوك القتاد

أي عين عليهم ليس تبكي؟   أي قلب عليهم غير صادي؟ (١)

ودون قصيدة الأوتاري نرى أبياتا لبضعة من الشعراء يصورون هؤلاء القوم المغيرين متحسرين على مدينتهم . فكمال الدين الزملكاني ينظر إلى أعمال القوم ، ويستبعد أن تكون أعمال بشر وإنما يفرّتهم إلى جنس الجن :

طغى على جلق بالشر ما لقيت   من كل علج له في كفره فن

---

(١) القصيدة بتمامها في نهاية الأرب للنويري جـ ٥ ص ٢٢٧ وما بعدها .

بالطبم والرم جاءوا الا حديد لهـم قاطع بعضهم والمن والبن (١)

ويعدد ابن قاضي شهبه القسم السبع التي صحبت غازان ، ولنلحظ التورية في كلمة سبع التي تصرف الذهن إلى الفتك والافتراس :

رمتنا صروف الدهر حقـا بسبعة فما أحد منا من السبع ســالم
غــلاء وغازان وغــزو وغارة وغــدر وإفشان وغم مــلازم(٢)

وينظر الوداعي إلى الأمر في سخرية مرة ، سخرية الإنسان الـذي ألف مثل هذه الغارات ، وحلت في قلبه المرارة الساخرة محل الخوف والهلع ، فهو ينظر إلى غازان وما فعله جنوده من تجريد الناس من أموالهم على أنه دعوة التوبة والزهد فكأن معه شيخ مسلك من شيوخ الصوفية الذين يدعون إلى الطريق . ولا يخفى علينا أن الشاعر بذلك يسخر من غازان ومن ادعائه الإسلام والعدالة :

أتى الشام مع غازان شيخ مسلك على يده تاب الورى وتزهدوا
تخلـوا عن الأمـوال والأهل جملة فما منهم إلا فقـير مجـرد(٣)

ولم يكن الصليبيون أقل وحشية من المغول ، وذلك بشهادة حكم منهم هو وليم موير إذ يقول : «وقد كانت المرة العجيبة لهذه الحرب المقدسة الوحشية والقساوة اللتان سارتا جنبا إلى جنب مع التقوى المشوبة بالتعصب»(٤) والأدب شاهد آخر على قسوتهم . وحسبنا أن نقرأ أصداء ذلك الهجوم الذي شنه بطرس الأول على الاسكندرية سنة ٧٦٧ هـ ، وفي غفلة من أولى الأمر

---

(١) النجوم الزاهرة لابن تغري بردي جـ ٨ / ص ١٢٦
(٢) النجوم الزاهرة جـ ٨ ص ١٢٦ .
(٣) النجوم الزاهرة جـ ٨ ص ١٢٦ .
(٤) تاريخ دولة المماليك في مصر وليم موير ، ترجمة محمود عابدين وسليم حسن ص ١

نزل رجاله إلى المدينة فقتلوا ونهبوا ، وأخذوا من أهلها خمسة آلاف أسير(١)

ويصور ابن أبي حجلة التلمساني أسطول المغيرين الذي هجم على حين غفلة بمراكبه السبعين التي أحالت زرقة البحر سوادا بما تحمله من رجال وعتاد :

ألا في سبيل الله ما حل بالثغر   على فرقة الإسلام من عصبة الكفر
أتاها من الإفرنج سبعون مركبا   وضاقت بها الغربان في البر والبحر
وصير منها أزرق البحر أسودا   بنو الأصفر الباغون بالبيض والسمر
أتوا نحوها هجما على حين غفلة   وباعهم في الحرب يقصر عن فتر(٢)

ويصور الشاطبي (أبو عبد الله محمد بن حسن) ما فعله المغيرون من نهب وهتك للحرم ، وقتل بلا وازع من رحمة حتى امتلأت الشوارع بجثث القتلى وترملت النساء بعد فقد رجالهن :

لقد شاهدت عيني العجائب ما رأت   كثير قتال وانهزام بحين
ومد عدو كافر باع بغيه   لخرق سياج وارتكاب مصون
وهتك رجال وانتهاب ذخائر   وهتك حريم في الخدور مصون
لقد قطعت مني المفاصل مذ رأت   لكل قتيل ظل غير دفين
وحرمت الأجفان نومي، وحق لي   على حرم فارقتهن كل حنين

ويستمر الشاطبي باكيا مدينته التي خلت من الأنس ، وخيم عليها جو قاتم نادبا أحبابه الذين فارقوه إما للقتل أو الأسر ، ويصور لنا على لسان الأسرى

---

(١) المزيد من التفاصيل عن هذه الحملة يرجع إلى
– دولة بني قلاوون في مصر – د. جمال الدين سرور ص ٢٤٦ وما بعدها
– الإلمام بما جرت به الأحكام وهي مخطوطة تدور كلها حول هذه الواقعة
(٢) بدائع الزهور ص ١٨٥ .

ما يحسونه من ذل وهوان وهم فى يد الأعداء :

يقــول فقيــد الأهل بالحــال معلنــا ألم تر حــرب الشرك قد ملكــونى ؟
فها أنا بعد العز فى ذل أسرهــــم وبعد سراحى فى مضيق سجــونى
وبعد انشراحى فى هنا لذة المــنى أقاسى تقــى القلب غير حصــون(١)

وشاعر آخر من شعراء الثغر هو أبو عبد الله الإخميمى يهوله ما يرى من فظائع القوم ، وتحجر قلوبهم ، فلم يرحموا شيخا مسنا ولا طفلا بريئا عاجزا بل أعملوا فيهم المدى تذبيحا وتقتيلا فيقول مصورا ذلك :

كم أرقــوا مــن دم فيــه ومــا رق قلــب منهــم ولا انزجــر
ولــكم شــيخ تفنى عمــره ذبحــوه بالمــدى ذبــح البقر
وصغــير بصغــره ثم مــا رحمــوا مــن كفــرهم منه الصغر
ولــكم طفــل نجيــب قــارىء حسبــه مــن عمــره درس السور
أعملــوه ثم لا يرحمـــــه أحــد منهم إليــه قــد نظــر (٢)

أما النويرى فيسجل هذه الواقعة فى منظومة طويلة يبدؤها بقوله :

عــاذلى لا تــلم وخل ملامى فعيــونى بعــد الدمــوع هــوامى
حــق أن أبــل الدمــوع غــزارا وأطيــل النــواح طــول دوامى

والمنظومة على وزن وقافية قصيدة ابن الرومى فى وصف خراب البصرة على أيدى الزنج ، وكأن النويرى بذلك أراد أن يقرن فى ذهن قارئه بين الواقعتين ، وما فيهما من قتل وسلب وتخريب . والمنظومة — وإن لم تحتشد بالمعنى الصحيح ، حيث يغلب عليها التسجيل المباشر ، ولا ترتقى إلى مستوى

---

(١) القصيدة فى الإلمام بما جرت به الأحكام للنويرى السكندرى ورقة ١٨٧ آ ، ب
(٢) الإلمام بما جرت به الأحكام ورقة ١٩٠ ب .

الأسلوب الشعرى لضعف عبارتها ، وركاكة جملها ، وكثرة الأخطاء الأسلوبية واللغوية والنحوية فيها — تعد وثيقة دامغة لما فعله الفرنجة بالثغر فى هذه الهجمة ، فضلا عن أن فى بعض أبياتها ومضات شعرية كتلك التى نراها فى وصف النويرى للأسرى الذين أخذهم الصليبيون مقيدين فى أغلالهم ، وفى تصويره المدينة وقد عاث فيها القوم فسادا ، وانتهاكا للحرمات ، وتخريبا وإحراقا . وذلك إذ يقول :

لهف نفسى على الأسارى جميعا ... أصبحوا بعد عزة واحترام
فى كبول الحديد قد قيدوهم ... بقيود الحديد فى الأقدام
لهف نفسى على مدينة قوم ... عبدوا المهيمن العلام
كيف أمست بها الفرنج النصارى ... الكلاب العباد للأصنام
ينهبوها ويأسرون رجالا ... ونساء مع جملة الخدام *
تركتها الفرنج يبكى عليها ... بحريق مفرج بقتام (١)

هذه واقعة من وقائع الصليبيين رأينا كيف صورها الأدب ، ولنا أن نقيس عليها بقية الوقائع . ومن المدهش بعد ذلك أن نجد موير وهو يؤرخ لهذه الحقبة يتهم بيبرس وغير بيبرس من سلاطين المماليك بالقسوة والوحشية وهو الذى شهد على قومه أنهم بأنهم البادئون (٢) أفليس من حق المدافع أن يرد على نفسه ، وأن يبادل عدوه قتلا بقتل وتخريبا بتخريب ، أو تستنكر بعد

---

* فى البيت خطأ نحوى واضح ، إذ كان المفروض على الشاعر أن يقول (ينهبونها) بدلا من (ينهبوها) ولكن الوزن اضطره إلى ذلك .

(١) القصيدة بكاملها فى مخطوط « الإلمام بما جرت به الأحكام » للنويرى ورقة ١١٧ ، ١١٨ ، ١١٩ .

(٢) انظر صفحات ١٤ ، ٢٨ ، ٤٧ ، ٤٨ من كتاب تاريخ دولة المماليك لوليم موير

ذلك روح الثأر التي سيطرت على الشعور الإسلامي والتي سجلها أدباؤه ؟!
إن القارىء لأدب هذه الحقبة ينبغي أن يكون على وعي بالمنطلق الذي يصدر عنه ، وبالمشاعر التي تمليه على أصحابه .

وكما صور الأدب روح هذه الحروب ومنطلقها الديني فإنه صور لنا وقائعها وما دار فيها من صراع مرير . ومن معارك ضارية ضد المغول حينا وضد الصليبيين حينا آخر . وقد حرص الأدباء على أن يبرزوا صعوبة هذه المعارك ، ومقدار ما بذله الجيش من تضحية في سبيل إحراز النصر

وقد ركز الأدباء في وصفهم للمغول على عنصري الكثرة والإستماتة في القتال ، وأنهم قد اختيروا بدقة شديدة . فيبين محيي الدين بن عبد الظاهر أن الآلاف التي تصدت للجيش الإسلامي في قيسارية كل واحد منهم اختير من بين ألف مقاتل :

«وهؤلاء المغل كان طاغية التتار «أبغا» — أهلكه الله — قد اختارهم من كل ألف مائة ، ومن كل مائة عشرة ، ومن كل عشرة واحدا لأجل هذا اليوم وعرفهم بسيما الشجاعة ، وعرضهم لهذا اليوم» . (١)

ثم يستمر في هذه الرسالة الطويلة التي أرسلها مبشرا بالفتح فيصف استماتتهم في القتال ، ومقاومتهم حتى آخر سهم في كنائنهم ، وحتى تكسرت رماحهم ، وتحطمت سيوفهم فيقول :

«وصاروا مع عدم ذكر الله بأفواههم وقلوبهم يقاتلون قياما وقعودا وعلى جنوبهم . فكم من شجاع ألصق ظهره إلى ظهر صاحبه وحامى . وناضل ورامى ، وكم فيهم من شهم ما سلم قوسه حتى لم يبق في كنانته سهم ، ورمى

(١) صبح الأعشى للقلقشندي جـ ١٤ ص ١٤٠ .

من طارح به فما طرحه حتى تثلم ، وذى سيف حادثه بالصقال فما جلى محادثه حتى تكلم ، وأبانوا عن نفوس فى الحرب أبية ، وقلوب كافرة وغزوة عربية(١)

وأما الغزازى فيصور حشود المغول فى هذه الوقعة من المرازبة الشجعان الذين حجبوا الأرض . ويشير إلى تحالف المغول والصليبيين فيتحدث عن إختلاط الألسنة من فارسية ورومية . ولا يفوت الغزازى أن يسجل شيئا من أوصافهم الجسدية ، وما تميزوا به من ضيق فى العيون .

وقد حشد الأعداء وأشتد بأسها ⠀⠀⠀ وسار بها جبارها وعشومها
فجاءت بجيش يحجب الأرض كثرة ⠀⠀⠀ كما حجبت شمس السماء غيومها
مرازبة خزر العيون كأنها ⠀⠀⠀ أسود شرى قد ضاق عنها حريمها
إذا زجرت بالفارسية خيلها ⠀⠀⠀ تجاوب هاتيك الزماجر رومها
فشد عليها شدة ظاهرية ⠀⠀⠀ إلى أن حوت أثقالها وقرومها (٢)

ونراه فى وقعة «حمص» التى خاضها قلاوون مع المغول ، يركز أيضاً على عنصر الكثرة . فهم قد اغتروا بجمعهم الذى لا يحصيه عد ، ويندفع كالسيل المنهمر . ويشير الشاعر إلى قوتهم الجسدية وطاعتهم لقوادهم ، فيصفهم بأنهم كالبهائم أجساما ، وكصغار النمل انسياقا :

وغرهم ذلك الجمع الذى جمعوا ⠀⠀⠀ حتى إستمروا على العزم الذى عزموا
وأقبلوا فى خميس ما له عدد ⠀⠀⠀ كالسيل فى سعة البيداء يزدحم
خزر النواظر . أعلاج ، مرازبة ⠀⠀⠀ مثل البهائم إلا أنهم بهم (٣)

---

(١) صبح الأعشى للقلقشندى جـ ١٤ ص ١٤٦ .
(٢) ديوان الغزازى ص ٩٢ .
(٣) ديوان الغزازى ص ٧١

وفى وقعة «مرج الصفر» التى انتصر فيها السلطان الناصر محمد يصف شهاب الدين محمود جموع التتار التى إحتشدت بأنها سيل كالرمال ، ورغم قتلام الكثيرين فإن جموعهم تعاود الكرة تلو الكرة .

«فكانوا بعد كثرة من قتل منهم فى المعركة الأولى أوفر من أول الليل ، جمعاً يناهز الأربعين ألف فارس ، فأصبحوا يعاودون القتال ويبرلون إلى أطراف الحبال النزال ، والجيوش المنصورة تلزمهم من كل جانب ، وتحكم فى أبطالهم القنا والقواضب» . (١)

وإذا كانت الكثرة والإستماتة هما موطن الصعوبة فى المعارك ضد التتار ، فقد كانت المواقع الحصينة ، ووعورة الطرق المؤدية إليها تمثل الأمر نفسه مع الصليبيين ، وهذا شىء طبيعى ، فالصليبيون كانوا قد استقروا فى مواقعهم منذ أمد طويل ، وبنوا القلاع والأبراج الشاهقة وحصنوها ما شاءت لهم قوتهم وأمانيهم فى البقاء . فحصن المرقب الذى فتحه قلاوون سنة ٦٨٣ هـ كان حصناً شاهقاً مرتفعاً كأنه وهم تمثله الأفكار ، وكأن نهر المجرة هو الماء الذى يسقى أهله كما يقول الشهاب محمود :

أوردتها المرقب العالى وليس سوى	ماء المجرة فى أرجائها نهـــــر
كأنـه وكـأن الجســـر يكتفـه	وهـم تمثلـه فى طيهـــا الفكـــر

وكم حاولت الريح أن تصل إليه أو تحيط بأخباره فعجزت

تعلو الرياح إليه كى تحيـط بـــه	خبراً وتدنو ومـا فى ضمنها خبر

ويمضى الشاعر فيبالغ فى وصف إرتفاع هذا الحصن فيبين أن أهله لا يرتوون من ماء السحب إلا إذا إنحدروا إليها :

---

(١) نهاية الأرب النويرى ـ ٥ / ص ١٦٣ .

وليس يروى عنه السحب مصعدة ... إليه من فيه إلا وهو منحدر (١)

أما قلعة الروم التي فتحها الأشرف خليل فكانت تستقر في مكانها المنيع يحيط بها الماء ، وتعلو شامخة في الأفق . والطرق إليها صخرية صماء تتعثر فيها الرياح ، ويزل عنها الذر ، ويضل فيها القطا . كما يقول الشهاب محمود

لها طرق كالوهم أعيا سلوكه ... على الفكر حتى ما يخيله الفكر
إذا خطرت فيها الرياح تعثرت ... أو الذر يوما زل عن متنه الذر
يضل القطا فيها ويخشى عقابها العقا ... ب ويهوى في مراقيها النسر (٢)

ولم تكن عكا التي فتحها الأشرف خليل – أيضا – بأقل تحصينا ومنعة ، فقد دار حولها سوران من البر والبحر ، ووقف فرسانها يحيطونها بسيوفهم ورماحهم ، والمجانيق منصوبة حولها ترمى بالنار كل من يدنو منها يقول الشهاب محمود :

سوران بر وبحر حول ساحتها ... دارا وأدناهما أنأى من القطب
خرقاء أمنع سوريها وأحصنه ... قلب الكماة وأقواه على النوب
مصفح بصفاح حولها شرف ... من الرماح وأبراج من اليلب
مثل الغمام تهادى من صواعقها ... بالنبل أصناف ما تهدى من السحب
كأنما كل برج حوله فلك ... من المجانيق ترمى الأرض بالشهب (٣)

ومن البديهي أن مبالغة الأدباء في بيان شجاعة العدو ، ومنعة حصونه ، واستماتة رجاله ، إنما تشير من طرف خفي إلى عظمة الانتصار وبطولة المنتصرين

---

(١) النجوم الزاهرة جـ ٧ / ص ٣١٨ .
(٢) فوات الوفيات جـ ١ / ص ٤١٥ .
(٣) تاريخ ابن الفرات جـ ٨ / ص ١١٦ .

وفى الصورة المقابلة أبرز لنا الأدب قوة جيش المسلمين ، وبأس رجاله وما هم عليه من العدد والعدد ، ويصور العزازى جيش بيبرس الذى تقدم به إلى «قيسارية» بأنه عظيم العدد ، رجاله يرون فى الموت حياتهم وفى الشقاء نعيمهم ، ويندفعون كالسيل تبرق فى خلاله الأسلحة التى يحملها الفرسان ، إنهم المماليك الظاهرية الذين يلبون كل صيحة للحرب إذا تقاعست الأبطال :

وأقبل من فسطاط مصر بجحفــل	عظيم ، ومنصور الجيوش عظيمها
رجـال تـرى أن الحمام حياتـهـا	غـداة جهـاد والشقاء نعيمهـا
سحائب سيل والخيــول بروقهـا	وأقمار ليـل والعوالى نجومهـا
إذا قيـل يـا للظاهريــة بـــادرت	إلى الخيـل والأبطال باد وجومها(١)

ويصف «الأشرفية» مماليك الأشرف خليل الذين تقدم بهم لفتح عـكا بأنهم ركبوا خيولهم المسرعة كالبروق ، وتتابعت سهامهم فبدت كالسحاب المتراكم يمطر العدو ، وبدت وجوههم فى خلال النقع فأشبه الليل المقمر ، إنهم آساد ينطلقون نحو فرائسهم ، وأين منهم من سمعنا عنه من أبطال العرب ، إن زيد الفوارس لو رأى أحدهم لفر مدبرا فهو أشد منه عزيمة وأصبر على وطيس الحرب :

وعـساكـر الـــترك إسلاميــة	نصرت وحق لمثلهـا أن ينصــرا
ركبت بروقـاً الخيـول وأرسلت	منهـا غمامـا للقسى كنهـــورا
وتسارعت نحـو الهياج وأسفرت	تحت العجاج فخلت ليلا مقمرا
إن قيـل يـا للأشرفية أقبلـــت	نحـو الفرائس مثل آساد الشرى
من كـل أغلب لـو رآه مقبــلا	زيـد الفـوارس فـر عنـه مدبـرا
إن شد كـان أشد منه عزيمــة	وأكر إن حمى الوطيس وأصبرا(٢)

---

(١) ديوان العزازى ص ٦٢ .

(٢) ديوان العزازى ص ٣٥ .

أما بدر الدين المنجي فيشبه هذا الجيش في صحابته بالليل ، نجومه السيوف والرماح ، يغطي الأرض سهولها وآكامها . وفرسانه فوق الجياد كأنهم أسود على قمم الجبال ، وهم في دروعهم لا تبدو منهم سوى العيون

في جحفل لجب كالليل أنجمه تبدو لرائية من قضب ومن أسل

عم المهامه من وعر ومن أكم وطبق الأرض من سهل ومن جبل

تحالهم وجياد الخيل تحملهم كالأسد في الروع آسادا على قلل

لا تنظر العين منهم إن هم لبسوا لامات حربهم يوماً سوى المقل (١)

وقد وجه بعض الشعراء عناية خاصة لوصف الخيل فتحدثوا عن ألوانها ودربتها ومرانها ، وحركتها في ساحة المعركة حيث تخيل الأحياء من العدو أمواتا على حد قول محيي الدين بن عبد الظاهر :

يركضون الجياد في حلبة النصر فأكرم بظلهم راكضينا

كل شقراء كالسلاف وصفراء كتبر قد سرت الناظرينا

وجياد من الأداهم والشهب تريتنا ليلا وصبحا مبينا

وكميت قد راح حتى كميت من عدو بها لدى العابرينا (٢)

ويصور صفي الدين الحلي دربة الخيل في جيش «الناصر محمد» ذلك السلطان الذي كان مغرما باقتناء الخيول الأصيلة فيصفها بأنها تطير كالصقر ، وتخطر مختالة كالطاووس ، وتروغ كالخطاف ، وتعلو ببصرها إلى السماء منتظرة الإشارة من فارسها لتعرج إليها لو أراد ، أو تمشي فوق الصراط إذا شاء :

يأتي يحمي الكشف ثم يطيعه فتراه بين تمرع وتسوان

(١) التريخ ابن الفرات جـ ٨ / ص ١١٤ ، ١١٥ .
(٢) التريخ ابن الفرات جـ ٧ / ص ٣٢ .

قد أكسبته رياضة فرسانه   حتى تكاد تركضه بغير عنان
كالصقر في الطيران والطاوو   س في الخطرات والخطاف في الروغان
يرنو إلى حبك السماء توهما   أن المجرة حلبة الميدان
لو قيل عج نحو السماء مبادرا   وطئت يداه دوائر النيران
أو قيل جز فوق الصراط مسارعا   لمشى عليه مشية السرطان (١)

هذا شأن الجيوش المتحاربة ، ولا شك أن المعارك بعد ذلك ستكون ضارية شديدة . ونقرأ في كتابات الأدباء وأشعارهم صورا مختلفة لهذه المعارك فمنهم من يصور التحام الجيوش ، ومنهم من يبرز تصارع الفرسان وقرع السيوف بالسيوف ، ومنهم من يركز على تهاوي المعاقل والحصون . وذلة الهزيمة تكسو الوجوه . وقد حفظت لنا كتب الأدب ودواوين الشعراء كثيرا من صور من هذه المعارك .

ونبدأ بهذه البشارة التي انطلقت تزف إنتصار المصريين في «عين جالوت» وتصور فقرة من فقراتها اضطرام نار الحرب ، وامتلاء ساحة المعركة بالرماح والأسنة حيث تهطل السهام ، ويثور النقع ، ويرتفع صهيل الخيل ، ويختطف الموت الأبطال . ونحس بفرحة غامرة تشيع في ألفاظ هذه الفقرة وصورها . حيث يقول كاتبها الذي أهملت المصادر اسمه :

«إلى أن تراءت العين بالعين ، واضطرم نار الحرب بين الفريقين ، فلم تر إلا ضربا يجعل البرق نضوا ، ويترك في بطن كل من المشركين شلوا ، حتى صارت المغاور دلاصا ، ومراتع الظبا الظبا عراصا . واقتنصت آساد المسلمين المشركين إقتناصا ، ورأى المجرمون النار فظنوا أنهم مواقعوها ولم يجدوا

---

(١) ديوان صفي الدين الحلي ص ١٠١ ، ١٠٢ .

منها مناصا ، فلا روضة إلا درع ، ولا جدول إلا حسام ، ولا غمامة إلا نقع ولا وبل إلا سهام ، ولا مدام إلا دماء ، ولا نغم إلا صهيل ، ولا عربيد إلا قاتل ، ولا سكران إلا قتيل » . (١)

وتكاد تجرى حروب المسلمين مع المغول على نسق واحد ، فهى صدام مباشر فى ساحة مكشوفة ، يزحف المغول فيهب الجيش الإسلامى للقائهم ، ويلتحم الجيشان ثم يتم النصر ، تلك هى الصورة الغالبة مما نقرؤه من وصف لمعارك التتار ولا يكاد يشذ عن هذا النسق إلا ما نراه من وصف معركة « البيرة » التى خاضها بيبرس مع التتار ، حيث كان لها ملابساتها الخاصة إذ إقتحم « بيبرس » بفرسانه نهر الفرات ، وكان هذا عملا رائعا ألهب خيال الأدباء فأبرزوه فى بعض صور نابضة كما نرى فى قول بدر الدين يوسف بن المهمندار :

لو عاينت عيناك يوم نزالنا ... والخيل تطفح فى العجاج الأكدر

وقد اطلخم الأمر واحتدم الوغى ... ووهى الجبان وساء ظن المجترى

لرأيت سدا من حديد ما يرى ... فوق الفرات وفوقه نار تسرى

طفرت وقد منع الفوارس مدها ... تجرى ولولا خيلنا لم تطفر

ورأيت سيل الخيل قد بلغ الزبى ... ومن الفوارس أبحرا فى أبحر

لما سبقنا أسهما طاشت لنا ... منهم إلينا بالخيول الضمر

لم يقتحموا المسرى منهم أحيا ... حتى كحلى بكل لدن أسمر

فتسابقوا هربا ولكن ردهم ... دون الهزيمة رمح كل غضنفر

ما كان أجرى خيلنا فى إثرهم ... لو أنها بروسهم لم تعثر (٢)

---

(١) صبح الأعشى للقلقشندى جـ ٧ ص ٣٦٢ .

(٢) فوات الوفيات جـ ١ / ص ٢٢٩ .

فهى مطاردة يمر فيها العدو يلاحقه جيش بيبرس ، ولذلك يركز الشاعر على فعل الرماح (كحلى بكل لدن أسمر) . ((دم رمح كل غضنفر) وفى الأبيات تصوير جيد لولا ما نجده من بعض ألفاظ خشنة مثل (اطلخم) فى البيت الثانى ، وما نجده من ضعف فى بعض العبارات مثل (سبقنا أسهاطاشت لنا منهم إلينا) فحروف الجر المتتابعة أحدثت غموضا فلا يستطيع القارىء فهم العبارة بيسر .

وكذلك صور لنا الأدب ما كان يلجأ إليه الجيش المملوكي من استخدام لأسلوب «الكمين» فى حرب التتار . وحدثنا محي الدين بن عبد الظاهر عن ذلك الكمين الذى أعده قلاوون فى وقعة حمص سنة ٦٨٠ ﻫ فيقول

«ومولانا السلطان وجوده فى خيلهم رابضون ، وعلى سيوفهم قابضون يستجرونهم ليقع شركهم من توسط البلاد الإسلامية فى شرك ، ويستدرجونهم ليقصروا من أسعل نار الموت فى درك ، فلما قربوا من حماة المحروسة . وبيسوا بنيانها من قراها . واستدنتهم حمص لقراها . وثب مولانا السلطان وثبة شيبت منهم الوليد ، وأقدم عليهم إقداما كان سلوقه فيه خالد بن الوليد» (١)

كذلك أشار الأدباء إلى بعض التحالفات التى كان يعقدها التتار مع الأرمن . مما كان يحدو سلاطين المماليك إلى غزو أرمينية المرة بعد المرة ، ونهب عاصمتها «سيس» وتمزيق هذا الحلف ويصور محي الدين بن عبد الظاهر كيف هجم بيبرس على «سيس» فولى حاكمها مهينا ذليلا بعد أن خذله أحلافه من التتار ، وولوا هاربين :

وتـولى ليفـــوت مـــنه حسيرا ... خائناً خائفــاً لعينـــا مهيـــنا

---

(١) تاريخ ابن الفرات حـ ٧ / ص ٢٢٣ ، ٢٢٤

وكذاك التتار خوفاً ورعبا ... قد تولوا من بأسه هاربينا

آه لو أنهم أقاموا فقالوا ... أى يوم لشره قد حيينا

أنذروا بالجيوش أيضاً فولى ... هارباً لا يكذب الناقلينا (١)

ويبدو أن هؤلاء الأرمن كانوا مغرمين بالمتاعب ، يلقون بأنفسهم دائماً إلى التهلكة حيناً مع التتار ، وحيناً مع الفرنج وفى كلا الحالين تهوى على رءوسهم ضربات الجيش المملوكى .

وإذا كان ابن عبد الظاهر صور تحالفهم مع «أبغاء» زعيم التتار وما جر عليهم ، فالعزازى يصور تحالفهم مع الفرنج ، وماذا كان من أمر هؤلاء المتحالفين ، فقد سقطت «سيس» ولم يغن عنها حلفها ، بل كان الفرنج أول من فر من ساحة المعركة :

يا يوم وقعة سيس سار ذكرك فى ... أقصى العراق وأقصى الصين واليمن

جاء الكتاب بنصر المسلمين ضحى ... والله ما جاز أحلى منه فى أذن

ولى الفرنج على أعقابهم هرباً ... لا يعطفون على إلف ولا سكن

طارت بهم من كماة الترك طائفة ... تهوى اللقاء هوى المشتاق للوطن (٢)

أما الحروب ضد الصليبيين فكانت تتسم بأنها حرب هجومية ، وكانت تتمثل فى انقضاضات مباغتة على حصن من الحصون أو معقل من المعاقل ، حيث تنصب المجانيق ، ويضرب الحصار الذى قد يطول وقد يقصر . وقد يسلم أهل الحصن فينجون بحياتهم ، وقد يركبون العناد فيسلمهم إلى الموت

ويصور علاء الدين بن الزكى فى بشارة كتبها لأخيه كيف أحدق بيبرس

---

(١) تاريخ ابن الفرات جـ ٧ / ص ٣٢ .

(٢) ديوان العزازى ص ٥٨ ، ٥٩ .

وجنوده بصفد ، حيث كان فرسانه فى تشوق القتال يهزون رماحهم ،ويلوحون بسيوفهم ، بينما المجانيق تصب حجارتها على المدينة صبا : «وحماة الحرب قد وقفت فى مراكزها ، وكماة الهيجاء قد استعدت لأخذ فرص النصرومناهزها والرماح قد اهتزت شوقا إلى لقائهم ، والسيوف قد آلت أنها لا توافق على مقامهم ، والمجانيق تزور حمامهم ، وتلك الزيارة لشقائهم ، وتدمر بحجارتها عليهم تدميرا ، وترميهم من بأسها يوما عبوسا قمطريرا ، وتصير بهم إلى الهلاك وتصليهم جهنم وساءت مصيرا» . (١)

ويطول الحصار ويستيئس العدو فيطلب الأمان ، فتكف الأيدى ، وتتوقف الحرب ، ويخرج هذا الرسول المفزع ترتعد منه مفاصله ، ولا تكاد تحمله ساقاه ، يخترق الصفوف برسالة قومه .

«وقيل إن الكافر قد طلب الأمان ، وإنه ركب ظهر المذلة مذ ناوله الجزع العنان ، وإن الكفر قد ذل للإيمان ، وإن شيطانه قد نكص على عقبه لما تراءت الفئتان ، فأمسكت المجانيق عن ضربها ، وكفت الحنايا عن إرسال شهبها ، وأقصرت ليوث الحرب الضارية عن وثبها ، فما كان إلا هنيهة وقد خرج رسولهم حيث لا تنفع الرسائل ، واخترق وشيج القنا ، وشوك النصال ، وظبا المناصل . ورأى كثرة حالته فكادت تنفد منه المفاصل ،ومشى إلى السلطان خاضعا وأخيا على السلاطين بقوم كلما «وجه الأفاكل» . (٢)

أما البوصيرى فيتمثل فى صورة ناطقة حصار «قلاوون» لحصن «المرقب» وكيف طال الحصار على أهله ، وحجارة المجانيق تمطرهم ، والفرسان ينقبون أسواره من كل جانب ، فلما استيأس الفرنج وقفوا على الأسوار يصيحون طالبين الأمان بعد أن تيقنوا من مصير هادم الحصون :

---

(١) نهاية الأرب النويرى ج ٥ ص ١٥٢ .
(٢) نهاية الأرب النويرى ج ٥ ص ١٥٤ .

فلم يرقبوا من صرح هامان مرقباً — بناه بـرد السحاب بكور
وصب عليهم عارض من حجارة — وبيل وكل بالعذاب مطير
وساموه خسفاً من ثقوب كأنها — أثافٍ لها تلك البروج قدور
فذاقوا به مس الحصار فأصبحوا — لهم ذلك الحصن الحصين حصير
يصيحون أهل السور ـ وهاً كصائح — سقى عنه سور المقلتين صبير
وماذا يرد السور عنهم وخلفه — من الخيل سور والصوارم سور
وليس لهم إلا إلى الأمر ملجأ — وإلا إلى ضرب الرقاب مصير
فلما أحسوا بأس أغلب همة — غدو إليهم بالردى وبكور
دعوه وحبل النصر منهم ممزق — أماناً وجلباب الحياة قصير (١)

ومثل هذا الأسلوب . الحصار والنقب ، والمجانيق نجده في كل الهجمات على الصليبيين وإذا شئت فاقرأ قول شهاب الدين محمود في فتح عكا فلن نجد خلافاً عن الصورة السابقة سوى ما يبدو من جمود على أبيات شهاب الدين محمود وما تتسم به من روح السرد :

رجتها بجيوش كالسيول على — أعلامها بين آكام من القضب
وحطتها بالمجانيق التي وقفت — أمام أسوارها في جحفل لجب
ورضتها بنقوب ثلثت لهما — منها وأبدت عياها بلا نقب
وبعد صيحتها بالزحف فاضطربت — رعباً وأهوت محدبها إلى الترب (٢)

والقارئ لأدب هذه الحقبة يحس أن نظرة سلاطين المماليك إلى التتار كان يخالطها شيء من الوجل والخوف . بينما كانت نظرتهم إلى الصليبيين نظرة

(١) ديوان البوصيري ص ٩٧ .
(٢) تاريخ ابن الفرات جـ ٨ ص ١١٤ .

استعلاء . وهذا راجع إلى أن التتار كانوا ما يزالون فى حفواتهم ، بينما كان الصليبيون يقتربون من النهاية ، وتفتك بإماراتهم أمراض الشيخوخة من خور وعجز خلاف ومن هنا نستطيع تفسير هذه النغمة المتهكمة الساخرة التى نسمعها فى كتابات سلاطين المماليك إلى ملوك الصليبيين وأمرائهم ، ولنقرأ معى رسالة بيبرس إلى صاحب حصن الأكراد بعد فتح حصنه ، وأنا على ثقة من أنك ستحس بروح الإستعلاء والثقة التى تملأ بيبرس ، وتفيض بها ألفاظه سخرية وتهكما :

«نعلمه بما سهل الله من فتح حصن الأكراد الذى حصنته وبنيته وخليته ، وكنت الموفق لو أخليته ، وتكلمت فى حفظه على إخوتك فما نفعوك ، وضيعتهم بالإقامة فيه فضيعوه ، وما كانت هذه العساكر تنزل على حصن ويبقى أو تخيم سعيدا ويشقى» . (١)

ولعلك لحظت هذه التورية فى كلمة «سعيد» إذ قصد بها ابنه «السعيد بركة» الذى كان قائد هذه الهجمة .

وربما كان مما يمت إلى الحروب الصليبية بصلة تلك الحرب التى دارت وقائعها على حدود مصر الجنوبية ونقصد بها حرب النوبة ، فقد قامت فى بلاد النوبة مملكة مسيحية كثيرا ما كانت تثير القلاقل فى الجنوب ، وتغير على أهل الصعيد . وقد حدا ذلك «بيبرس» أن يبعث إليها بحملة تأديبية ، ويعزل ملكها ويولى مكانه ملكا آخر من بنى قرابته

وتصور الرسالة التى كتبها محي الدين بن عبد الظاهر مبشرا بإنجاز مهام هذه الحملة أن النظرة إلى هذه الحرب لا تفترق عن النظرة إلى الحروب الدائرة

---

(١) السلوك للمقريزى جـ ١ / ٢ ص ٥٩١ الملحق .

فى الشمال مع الصليبيين والمغول ، فهى حرب دينية ، وأهل هذه المملكة — أيضا — أهل رجس وفساد وكفر ولعل ذلك يتضح من بعض سطور هذه الرسالة حين تقول :

« وتفهمه أنا علمنا أن الله بمصله طهر البلاد من رجسها ، وأزاح الفساد ، وحسم مادة معظمها الكافر وقد كاد وكاده . (١)

فهى الروح نفسها التى نلمسها فيا كتب عن سائر وقائع هذا العصر .

إلا أن هناك شيئاً آخر توضحه رسالة ابن عبد الظاهر هو تلك الـروح العنصرية التى اتسم بها المماليك ، والتى تشى بها سطور الرسالة وإيحاءات ألفاظها فنحس إعتزاز هؤلاء المماليك بلونهم الأبيض وإزدراءهم اللون الأسود الـذى يتصف به أهل النوبة . فيقول الكاتب :

« وأهلك العدو الأسود بعيون طائر النصر الأبيض » (٢) . ويقول فى موضع آخر « وبين خيط السيف الأبيض من الخيط الأسود من فجر فجورهم » ويمعن قوله بالسخرية حين يصف قتلاهم السود الذين أصبحوا كأنهم أضحية عيد النحر . فيقول : « وعجل عيد النحر بالأضحية بكل كبش يبرك فى سواد وينظر فى سواد ، ويمشى فى سواده . (٣)

وهذه العنصرية تتجلى — أيضا — فى تسمية أهل النوبة بالعبيد ، وكأن هناك فرقا بين العبد والمملوك ، فالعبد هو صاحب اللون الأسود حتى ولو لم يمسسه رق ، والمملوك هو ذلك الفارس الذى يتيه بلونه وهو فى الحقيقة أحرى بأن يسمى عبدا ، ويمثل لنا ابن النقيب نظرة المماليك حين يقول فى وقعة دنقلة :

---

(١) تراث الرفيات / ﺣ ٢ / ص ١٨٠

(٢) تراث الرفيات ﺣ ٢ / ص ١٨١ .

(٣) تراث الرفيات ﺣ ٢ / ص ١٨٠ .

يا يوم دنقلة وقتل عبيدها   في كل ناحية وكل مكان
كم فيه زنجي يقول لأمه   نوحي فقد دقوا لها السودان (١)

ويبدو أن مملكة النوبة لبثت زمنا تثير الشغب والقلاقل ، ففي عهد قلاوون توجه إليها حملة تأديبية ثانية . ويصف الحرازي هذه الحملة فيصور فرسانها وقد شرعوا رماحهم ، وارتفعت راياتهم ، وأخذوا يضربون في مسالك وعر وطرق مجهولة يضل بها السليك بن السلكة لو رام فيها سيرا ، ويجبن عنترة عن قصد مثلها ، فإذا وصل هؤلاء المحاربون «دنقلة» هدموا حصونها وقلاعها وكنائسها ، وأقاموا الأذان بعد أن ظلت نواقيس الكنائس تدق بها زمنا . ثم يصف الشاعر هزيمة أهل دنقلة (العبيد) ، وفرارهم ، وهوان ملوكهم وعودة الجيش بالسبي مقيدين يثقلون الركب ، وتنوء بهم السفن :

والجيش قد أشرعت كتائبه   من حوله السمهرية اللدنا
في مسلك لو سرى «السليك» به   لضل فيه . أو «عنتر» جبنا
وهد منها حصونها المشمخرا   ت وأوهى القلاع والمدنا
ثم أقام الأذان في بيع   دقت نواقيسهم بها زمنا
ولم يدع قط في كنائسها   لا حجرا قائما ولا وثنا
وفر جمع العبيد مذ ركبوا   من صولة الترك مركبا خشنا
وهان منهم ومن ملوكهم   أصعبهم في مقادة رسنا
ولو أراد الأمير لافتتح الهند ولو شاء دوخ اليمنا
فيالها غزوة مباركة   تقضى بها الواجبات والسنا
وعاد بالسبي في الجبال وقد   قام لسلطانه بما ضمنا

---

(١) فوات الوفيات جـ ٢ / ص ١٨٢

حتى لقد أثقلوا الركائب في السبر وفي البحر ضيقوا السفنا (١)

وأنت تلمح في أبيات الفزازى النظرة نفسها لأهل النوبة فهم أهل شرك ووثنية ، وتلمح أيضا الصالح نفسه فأهلها عبيد لا قيمة لهم سوى أنهم يثقلون سير الركب .

وقد حرص الأدباء في تصويرهم لحروب هذا العصر سواء ما كان منها مع المغول ، وما كان منها مع الصليبيين أو من يمت إليهم بسبب، على تصوير بلاء الجيوش الإسلامية ، وما أنزلته بالعدو من فواجع وخسائر ، وركز معظم الأدباء على إبراز كثرة قتل العدو ، وما سال من دماء جنوده على أرض المعركة وكأن الأدباء كانوا يجدون في ذلك شفاء للنفوس الموتورة ، وريا لروح الثأر الصادية .

ففي وقعة «البيرة» التي انتصر فيها بيبرس على التتار يصور لنا شهاب الدين محمود دماء العدو وقد سالت فمنعت تصاعد الغبار ، ووددت الآساد والأطيار أن تشكر مساعي السلطان بما هيأه لها من وليمة :

رشت دماؤهم الصعيد فلم يطر منه على الجيش السعيد غبار
شكرت مساعيك المعاقل والورى والترب والآساد والأطيار (٢)

وفي فتح قيسارية يرى محيي الدين بن عبد الظاهر بعد أن يتحدث عن قتل العدو وكثرتهم ، يصور لنا مشهدا رهيبا ، حيث جمعت رءوس القتلى لدى دهليز السلطان تدوسها الخيل ، وتبعثرها بأرجلها ، والسلطان ينظر إلى هذه الرءوس متفرسا في وجوه أصحابها :

---

(١) ديوان الفزازي ص ٩٨ .
(٢) النجوم الزاهرة / ج ٧ / ص ١٦٠ .

«وكأنما رءوسهم المجموعة لدى الدهليز المنصور أكر تلعب بها صوالجة من الأيدي والأرجل من الخيل :

ألفت إليـــنا دماء المسل طاعتها	فلو دعونـــا بلا حرب أجـــاب دم

فكم شاهد مولانا السلطان منهم مهيب الهامة ، حسن الوسامة ، تتفرس في جهامة وجهه الصحامة ، قد عض الرمح فاه فقرع السن على الحقيقة ندامه(١)

ثم يمضي ابن عبد الظاهر في تصوير بقية المشهد حيث يقبل الأسرى على رءوس أصحابهم ، يتعرفون عليها . ويتحسرون على أصحابها وما كان لهم من شجاعة .

«وأقبل بعض الأحياء من الأسارى على الأموات يتعارفون ، ولأخبار شجاعتهم يتواصفون ، فكم من قائل هذا فلان وهذا فلان ، وهذا كان وهذا كان ، وهذا كان يحدث نفسه بأنه يهزم الألوف ، وهذا يقرر في ذهنه أنه لا تقف بين يديه الصفوف» . (٢)

ولم يقتصر تصوير الأدب للفواجع التي نزلت بالعدو على وصف كثرة القتلى ، وسيل الدماء ، وإنما راح الأدباء يتحدثون في نشوة غامرة عما نزل ببلاد العدو من تخريب وتدمير ، فالجزازي يصور ما حل بسيس في إحدى الوقائع الصليبية حيث أخذ الملوك في الأسر صاغرين ، يلتفتون إلى الوطن في أسى ، وأخذت النساء ليعرضن في أسواق النخاسة بأزهد الأثمان ، ويختم الشاعر الأبيات متشفيا في هؤلاء القوم الذين أوقعهم بغيهم في سوء المصير .

قل للبطارق عقبى البغي أوقعكم	في محنـــة أصبحت من أعظم المحن
قد قلت بعد ارتواء صــي دمائـــكم	ما شاء من حادثات الدهر فليكن

---

(١) صبح الأعشى ــ ١٤ / ص ١٤٨

(٢) صبح الأعشى ــ ١٤ / ص ١٤٨ .

هذي ملوككم تنقاد صاغرة   وذي فرانسيكم تساق في قرن

لها الصبات إلى أوطانها أسفاً   كما تلفتت الأنعام للعطن

يبعث بناتكم في كل ناحية   يبيع للهوان بمنزور من الثمن

لم ينجكم ما ادخرتم من مطهمة   جرد ومن سابريات ومن جنن

ذوقوا العذاب عذاب الله وانتهوا   ومن يغالب قضاء الله يمتهن (١)

ويقف بدر الدين بن المنجى ينظر إلى عكا حينما فتحها الأشرف خليل منتشيا بمرآها يرى فيه لذة عينه ، ومتعة نفسه . ولعله قد ربط بين ما حدث لعكا على يد الأشرف خليل ، وما حدث لعمورية على يد المعتصم ، وتمثلت في ذهنه قصيدة أبي تمام في هذا الموقف فانثالت منها عليه بعض الصور والعبارات فقال :

فأصبحت بعد عز الملك خاضعة   من ذلة الملك طول الدهر في حلل

فلست برحًا عنها وقد عطلت   ألذ للطرف من حلي ومن حلل

ومحو آثارها منها وقد خربت
أشهى إلى النفس من روض الربى الخضل (٢)

أما شهاب الدين محمود فيصور السبايا من نساء الفرنج ، وقد أخذن قسرا بعد أن برزت أمامهن الرءوس ، وهن يتصعبن ثم لا يجدن بدا من الإذعان والتسليم فيقول :

وأبرزت كل خود كاعب برزت   لها الرءوس وقد زفت بلا طرب

فاتت وقد جاورتنا ناشراً وغدت   طوع الهوى في يدي جيرانها الجنب (٣)

---

(١) ديوان الغزازي ص ٩٥ .

(٢) تاريخ ابن الفرات ج ٨ ص ١١٥

(٣) تاريخ ابن الفرات ج ٨ ص ١١٨ .

ويجرنا الحديث عن السبايا إلى الحديث عن الأسرى ، فقد كان يساق عظماؤهم بين يدى موكب السلطان المنتصر فى ذلة ووجل ، ويصورهم محيى الدين بن عبد الظاهر فى أحد هذه المواكب يحجلون فى قيودهم ، تشيعهم صرخات نسائهم وحسراتهن ، فيقول مصورا موكب بيبرس المنتصر فى دمشق :

وأتى دمشق وكل قائد جحفل ... متذلل فى أسره متدلل
كم ذات حجل قد رأت مولى لها ... فى القيد ما بين المواكب يحجل
قالت له هذا هو الملك الذى ... ما كان عمى منه يوماً معقل (١)

ويصورهم مرة أخرى فى صورة نثرية فى موكب قلاوون حيث تقدموا الموكب السلطانى متهالكين ، ومن خلفهم رماح الجيش المنتصر تحمل رءوس القتلى : «وثنى مولانا السلطان العنان ، وملوك المغل الأسارى يساقون بين يديه سكارى وما هم بسكارى ، وقد أثمرت رءوس الرماح بكل بطل كم كان يحسن رأساه . (٢)

ويرسم علاء الدين بن عبد الظاهر صورتهم مقرنين فى الأصفاد يساقون بين يدى الناصر محمد بعد وقعة مرج الصفر ، وهم ينظرون إلى عظمة مصر والندم يأكل قلوبهم :

«والأسارى قد جعلوا بين يديه مقرنين فى الأصفاد ، يشاهدون مدينة ماثلت إرم ذات العماد التى لم يخلق مثلها فى البلاد» . (٣)

وقد يساق الأسرى ركوبا ، أسيرين على كل بعير ، كما يشير إلى ذلك بيت البوصيرى :

(١) تاريخ ابن الفرات ج ٧ ص ٩١
(٢) تاريخ ابن الفرات ج ٨ / ص ١١٨ .
(٣) نهاية الأرب ج ٣٠ / ورقة ٢٣٢ ب

فلو شاء سلطان البسيطة ساقهم　　لمصر وتحت الفارسين بعير (١)

وقد لا يقف أمر الأسرى عند هذا الحد بل قد يبالغ فى إهانتهم فيجرسونهم فى صورة مزرية وقد أركبوا الحمير ، وأحاطت بهم العامة يسبونهم ويوبخونهم ولعلنا نلمح شيئاً من ذلك فى أبيات النويرى السكندرى

يا راهب الدير صرت اليوم فى حزن　　لأجل فرقة قاع الدير والوطن

وصرت فى قبضة الإسلام مرتهناً　　كأنك الميت فى قطن وفى كفن

ماذا ضللت من الإفرنج تجمعوا　　على عبادة صلبان إلى وثن

جازاك كفرك بالتجريس فى ملأ　　على حمار طويل الذيل والرسن

فالعلم تلاصقة تلمذتهم أبيدها　　إلى الجحيم كما قدمت من فتن (٢)

وإذا تركنا حديث الأسر والسبى إلى ما سوى ذلك من الغنائم المادية وجدنا النصوص الأدبية وخاصة الشعرية منها تغفلها أو تأتى بإشارات عاجلة مقتضبة ولعلهم فى ذلك كانوا محكومين بالقيم الخلقية التى انحدرت إليهم عبر الآثار الأدبية للعرب فى الجاهلية والإسلام . ولعلهم كانوا على ذكر من قول عنترة :

يخبرك من شهد الوقيعة أننى　　أغشى الوغى وأعف عند المغنم

وقول أبى تمام :

إن الأسود أسود الغيل همتها　　يوم الكريهة فى المسلوب لا السلب

ولعلنا نجد أصداء هذه المعانى فيما نقرؤه من أدب هذه الحقبة كذلك الذى نراه من قول شهاب الدين محمود فى فتح عكا :

تمكنت صعدت فيهم نواصيها　　قتلا وصدت طاويا عن السلب (٣)

---

(١) ديوان البوصيرى ص ٩٨ .

(٢) الإلمام بما جرت به الأحكام ورقة ١٠٢ ، ١٠٣ .

(٣) تاريخ ابن الفرات جـ ٨ / ص ١١٧ .

وعلى أي حال فقد أشار الأدب إلى أن هذه الغنائم كانت كثيرة بحيث تتبع الغنى كما نلمح في قول ابن النقيب :

ولما ترامينا الفرات بخيلنا ٭ سكرناه منا بالقوى والقوائم
فأوقفت التيار عن جرياته ٭ إلى حيث عدنا بالمنى والغنائم (١)

كما أشار الأدباء إلى ألوان هذه المغانم المادية وأنواعها، فهي تارة خيول العدو المهزوم وسلاحه وما يحرزه من أموال ومعادن ثمينة كما نرى في قول ابن عبد الظاهر :

« وأما العدو فضاعت الأيدي ما يحطونه من الصواهل والصوافن وما يصولون به من سيوف وقسي وكنائن ، وما يلبسونه من خوذ ودروع ، وجواش ، وما يتمولونه من جميع أصناف المعادن » (٢)

وهي تارة تتمثل فيما ينهبه الجنود من الماشية كما نرى في قول محيي الدين ابن عبد الظاهر أيضا :

يا ويح سيس أصبحت نهبة ٭ كم سوق الجاري بها جارية
وكم بها قد ضاق من مسلك ٭ يستوقف الماشي بها الماشية (٣)

ولعل الحديث عن نهب الماشية بسيس، عاصمة أرمينيا يمثل هدفا من أهداف مهاجمتها ، حيث كانت أرمينيا سوقاً للحنطة والبغال كما يقال.(٤)

وأشار ابن عبد الظاهر — أيضا — إلى أنه كانت هناك فرق تتبع الجيش في غزواته تعرف بالكسابة ما إن ينتصر الجيش حتى تدخل على العدو دياره فتعمل فيها النهب والسلب وذلك في قوله :

---

(١) النجوم الزاهرة جـ ٧ / ص ١٦٠ .
(٢) صبح الأعشى جـ ١٤ / ص ١٤٧ ، ١٤٨ .
(٣) تاريخ ابن الفرات جـ ٧ / ص ٣٣ .
(٤) انظر العلاقات السياسية بين المماليك والمغول ص ٩١ .

وطلعت سناجق الإسلام الصفر على أسوارها ، ودخلت عليهم مـن أقطارها ، وجاست الكتابة خلال ديارها» . (١)

وسجل لنا الأدب أيضا ما كان يروق لبعض سلاطين المماليك من تخليد بعض معاركهم بأن ينقشوا لوحات لها فى قصورهم وأواوينهم ، ومثال ذلك تلك اللوحة التى نقشها السلطان الأشرف خليل فى ديوانه الذى بناه ، والتى تصور إحدى وقائعه ، ولعلها وقعة عكا ، فهى المعركة الوحيدة التى قدر للأشرف أن يخوضها ، وقد وصف ابن دانيال الموصلى هذه اللوحة،حيث امتطى الجنود فيها جيادهم فى وضع الاستعداد ، محدقين بأعينهم كأنهم ينتظرون إشارة البدء لخوض المعركة ، ولم يفت ابن دانيال أن يشير إلى جمال هؤلاء الجنود وفتنة وجوههم حتى ليحسبهم الناظر حورا وولدانا ، ولم يفته كذلك أن يسجل براعة الرسام الذى جعل اللوحة ناطقة بالحياة حتى ليحس الرائى أن الجيش سيدهمه . يقول ابن دانيال :

صورت جيشك فيـه مثـل عادتـه ... كأنهم فى ظهور الخيـل سـكان

لا يسأمون ركوب الخيل فى طلب الأعداء يوماً ولا يلهيهم شــان

قـد حدقـت لامتثال الأمر أعينهم ... فليس تطبـق منهـم قـط أجفان

سيوفهم بدمـاء الكفـر قـد رويت ... سمكاً وكـل إلى الميجاء عطشـان

كأنهم فى غيـاض مـن رماحهـم ... تحت البنـود وهـم حور وولدان

صورتهم فإذا رسل الملـوك رأوا ... جمالهم فتنـوا والحسن فتـان

وأطرقوا ثم قالـوا خصصوا وقفوا ... فها هنـا اليوم للحيطـان آذان

مثال ذا صنعوا تلك المعاقل من ... حيطانها وهـم رجـل وفرسان

لولا الأمـان لداستنـا جيوشهـم ... واستخطفتنا من الحيطان عقبان(٢)

(١) نهاية الأرب جـ ٥ / ص ١٠٩ .

(٢) التذكرة الصفدية جـ ١٤ / ص ٢١ .

ولعل سؤالا يتبادر إلى الذهن بعد ذلك ، لم يعن الأدب بتصوير البطولة في هذا العصر ؟ وللإجابة عن هذا ينبغي أن نكون على ذكر من أن هؤلاء المحاربين طبقة من الأرقاء ، وأن متطلبات الجهاد هي التي تقدمت بهم إلى صفوف الحكم كما سلف القول — وفي الحقيقة أنهم حملوا عبء الجهاد دون وهن ، ولكن أهل البلاد — مع ذلك — كانوا يحسون بالنفور منهم ، بل ربما شعروا في قرارة أنفسهم بنوع من الاستعلاء عليهم . وإذا كان بعض السلاطين قد تمكن من تألف قلوب العامة حوله مثل « بيبرس » و « قلاوون » وابنه الناصر محمد فقد بقيت الطبقة المثقفة تحس بالاستعلاء على هؤلاء الحكام . وظل هذا الشعور مسيطرا على أنفسهم لم ينتزعه ما أبداه المماليك من ضروب الشجاعة ، ومن بلاء في الذود عن الإسلام .

لقد حقق « قطز » النصر العظيم على التتار في « عين جالوت » ومزق جموعهم المتشبثة بمصر النصر ، فماذا قال عنه الشعراء ؟! قال شهاب الدين أبو شامة :

غلب التتار على البلاد فجاءهم *** من مصر تركي يجود بنفسه
بالشام أهلكهم وبدد شملهم *** ولكل شيء آفة من جنسه (١)

الأمر إذن لا يعدو أن يكون شرا يصد شرا ، وآفة تدفع آفة ، والبيتان بعد ذلك يفصحان بكثير من مشاعر الازدراء والنفور .

وغني عن البيان بهذا الصدد أن الأدباء الذين تصدوا لحديث الحرب والسياسة كانوا بين فريقين . فريق يتمثل في كتاب الديوان وهذا عمله وظيفته وفريق يتكسب بأدبه . يبغي المنفعة المادية وتدفعه ضرورات العيش أن يطأطىء كبرياءه ، ويطامن من خيلائه واستعلائه فيقول بلا عاطفة ، وينظم بلا إعجاب وهذا وهم نرى صدقه في أدب كلا الفريقين حيث نلمس جدب العاطفة ،

---

(١) المنهل الصافي ج ٣ / ورقة ٢٠ .

ونحس أنه فى مجموعه أدب تلفيق يتكىء بشدة على التراث الموروث ويستلهمه فى كثير من المعانى والصور يؤلف بينها على نحو من الأنحاء ، وخذ مثلا على ذلك قصيدة شهاب الدين محمود فى بيبرس :

كذا فلتكن فى الله تمضى العزائم وإلا فلا تجفو الجفون الصوارم

فهى على نسج قصيدة المتنبى :

على قدر أهل العزم تأتى العزائم وتأتى على قدر الكرام المكارم

وقصيدته فى فتح عكا :

الحمد لله زالت دولة الصلب وعز بالترك دين المصطفى العربى

فهو ترديد لما قاله أبو تمام فى عمورية .

ومثل آخر هو قصيدة بدر الدين المنبجى فى فتح عكا :

بلغت فى الملك أقصى غاية الأمل وفقت شأو ملوك الأعصر الأول

فهى نسج على منوال مسلم بن الوليد فى مدحه ليزيد بن مزيد الشيبانى ، ودوران حول كثير من معانى أبى تمام فى فتح عمورية .

وفى مثل هذه الأعمال لا ينبغى أن نجهد أنفسنا بالبحث عن صور البطولة والأبطال فهى أعمال يطبعها الطابع الذهنى ، ولا يعدو جهد الأديب فيها الصياغة ، وجمع النظير إلى نظيره . وإذا كان فى بعض مواضع من هذه القصائد أو ما ماثلها حرارة أو نبض فهذا يرجع إلى الشعور الدينى وإلى أن المعارك معارك إسلامية أولا وأخيرا ، أما البطولة والأبطال فقلما تجد شاعرا يقف ليبدع لنا صورة نابضة ، أو يصور فى إعجاب بطلا من أبطال الجهاد.

وعمل الذهن واضح فى كثير من حديث هؤلاء الأدباء عن البطولة ،

وإلا فماذا ترى فى قول الشيخ شمس الدين بن غانم فى الأشرف خليل حين فتح عكا :

مليكان قد لقبا بالصلاح   فهذا خليل وذا يوسف
فيوسف لا شك فى فضله   ولكن خليل هو الأشرف (١)

فهل فى هذا شىء سوى العبث اللفظى ؟!

وشبيه بهذا العبث اللفظى العبث اللفظى الذى نراه فى قول شهاب الدين محمود فى فتح عكا :

ليت أبى أن يرد الوجه عن أمم   يدعون رب الورى سبحانه بأب
كم رامها ورماها قبله ملك   جم الجيوش فلم يظفر ولم يصب
لم يلهه ملكه بل فى أوائله   نال الذى لم ينله الناس فى الحقب

فهل تحس هذه الأبيات بعضا ؟! وهل ترى فيها سوى ذلك العبث اللفظى بين (أبى ــ أب) ، (رامها ــ رماها) ، ثم هذا القلق فى البيت الأخير ، وسيطرة الوزن على الشاعر . فالأشرف نال ما لم ينله الملوك لا ما لم ينله الناس ، وبون بعيد بين العبارتين .

ثم أين المراثى ؟! ألم يستشهد فى هذه المعارك من جنود الإسلام كثير من الأبطال والفرسان ؟! ألم يكن واحد منهم حريا بمرثية من المراثى تخلد بطولته؟ إن المديح ربما لا يدل على صدق فى العاطفة كذلك الذى يدل عليه الرثاء . فالرثاء مبعثه الحزن الخالص والإعجاب الخالص على عكس المديح الذى قد تسوق إليه الرغبة أو الرهبة فى بعض الأحيان . ولكن أنى لنا بالحزن الخالص

---

(١) تاريخ ابن الفرات جـ ٨ / ص ١٦٨ .

أو الإعجاب الخالص فى نفوس شعراء يرون أن الأمر كله لا يعدو أن يكون مهمة رسمية ، حتى هؤلاء الشهداء كانوا هم أيضا فى مهمتهم الرسمية . فإذا وجدنا مرثية بعد ذلك وجدناها شاحبة باهتة وربما تثير الضحك أكثر مما تستدر الدمع ولنقرأ مرثية محي الدين بن عبد الظاهر فى بيبرس والتى يقول فيها :

يا قبر من فجعت به الأيام … نقرا عليك تحية وسلام
الظاهر السلطان من عصابه … عبد الهدى وتأثر الإسلام
وغدت دمشق بقبره وحلوله … فيها تتيه على الوجود الشام
قبر الذى لو أنصفته قلوبنا … ما أصبحت عمرة تستام
بالله يا من فى صنائع جوده … عاشوا ، ومن بلغوا به ما راموا
يا من به خدمتهم الأيام والأقدار … ر والأرزاق والأقوام
لم لا شققتم مثل ما شق الدجى … جيب الصباح وشقت الأقلام ؟
أيس البكاء على الذى كانت له … عند الخلائق حرمة وذمام ؟!
أين المدامع يا جفون أما ترى … قرن الرجال ثوت عليه رجام ؟!(١)

ونستطيع أن نقول أى شىء سوى أن الشاعر حزين ، فنحن لا نرى إلا مبالغات ممجوجة ، واستجداء للدمع فضلا عن ضعف الألفاظ وتفكك العبارات .

كل هذا يثبت ما ذهبنا إليه آنفا من شحوب عنصر البطولة فى أدب هذا العصر والذى عللنا له باستعلاء فريق من الأدباء على طبقة الحكام . وإحساس فريق آخر بأنه يؤدى عملا رسميا حين ينظم أو يكتب فأصحابه لا يترجمون عن خواطرهم بقدر ما يؤدون المطلوب منهم قوله .

---

(١) تاريخ ابن الفرات جـ ٧ ص ١٤٣ .

ولعل شعور الاستعلاء هو الذى يفسر لنا كيف وقف بعض الأدباء من السلطة موقف صاحب العمل من الأجير ، فهو راض عنه طالما أدى ما عليه ، أما إذا قصر فى عمله أو تهاون انقلب عليه ساخطا لائما موبخا . فحينما هجم القبارصة على الإسكندرية سنة ٧٦٧ هـ وهزموا حاميتها ، انقلب فريق من الأدباء ساخطين على المماليك ، يرمونهم بالتخاذل والجبن وتشتت الرأى ، كما نرى فى قول الشاطبى :

عجبت لمن أثنى السلاح جبانــة ... وولى بوجـه كالمسـح ومهـين
إذا دارك المسول بلطف عبيـده ... أمدوا بعقل فى الخطوب رصين
وإن خذلوا فالرأى منهم مشتـت ... ولو أنهم فى الحرب أسد عرين(١)

ويعرض ابن أبى حجلة التلمسانى بضعف المماليك وغرورهم ، ويقـول : إنه لو حضر أسطول سبته وتولى جنوده الدفاع لما حدث ذلك :

فمن لى بأسطول به أهـل سبتـة ... يغربانهم مثـل النسور إذا تسرى
ومن لى بفرسان الجزيرة عندمـا ... تقاتل أهل الكفر فى البحر بالسحر(٢)

وينصح بعض الشعراء من رغبته فى عزل والى الثغر فيقول :

إسكندرية قـالت ... يا سائلى عن دماكـا
لقـد تغير ثغـرى ... واحتجت فيه سواكا (٣)

إذن فماذا بقى من حديث البطولة ؟! ونرى أن الذى بقى منه هو ما يمثل فكر المماليك ، وما يودون سماعه ، وما كانوا يحثون عليه الأدباء بوسيلة أو بأخرى .

---

(١) الالمام بما جرت به الأحكام ورقة ١٨٧ ب
(٢) الالمام بما جرت به الأحكام ورقة ١٧٠ ، ١٧٩ .
(٣) بدائع الزهور فى وقائع الدهور ص ١٨٥ .

وأول ما نراه هو أن السلطان لا ينفرد بكل المديح والإشادة ، بل يأخذ من حوله من الأمراء والقواد قسطا من ذلك ، ولذلك حلا لبعض الشعراء أن يصوروا السلاطين كالأهلة بين النجوم كما نرى في قول محيي الدين بن عبد الظاهر :

إذ تبدى السلطان بين نجـوم من بني التـرك يشفقون المنونـا
يركضـون الجيـاد في حلبـة النصر فأكـرم عليهـم راكضيـنا (١)

كذلك وصفوا قواد المنصور تحيط به الكتائب كأنها البحر تتلاطم أمواجه :

كتائب كالبحر الخضم ، جيادها إذا ما تهادت ، موجه المتلاطم
تحيط بمنصور اللواء مظفر له النصر والتأييد عبد وخادم(٢)

ووصفوه بين جنوده الذين لا تبعد عليهم مسافة ، ولا تعجز خيولهم عن ارتقاء صعب من الصعاب :

«وجاءها بنفسه النفيسة والسادة قد أحرست عيونها ، وتلك الخافق كلهن أمان ، وقد اتخذ من إقدامه عليها خير حبائل ومن معاجاته لها أمد عنان وفي خدمته جنود لا تستبعد مفازة ، وكم راحت وغدت وفي نفوسها للأعداء حرارة فامتطوا بخيولهم من جبال لبنان شيحاناً لها صافنتها الثلوج» (٣)

وكذلك كان حرص الأدباء على إظهار السلطان لا يميز نفسه عن جنوده فهو يعمل معهم ، ويتقدم مع من يتقدم منهم :

---

(١) تاريخ ابن الفرات جـ ٧ / ص ٣٢ .
(٢) النجوم الزاهرة جـ ٧ / ص ١٧٠
(٣) نهاية الأرب جـ ٥ / ص ١٥٨ .

«ومولانا السلطان لا ترى جماعة مقدمة ولا مقدمة إلا وهو يرى بين أولئك» .(١)

ولعل ذلك مرجعه إلى أن المماليك كانت تحكمهم فكرة الزمالة أو — (الخشداشية) كما سبق القول ، وهذا يعطينا التفسير لما إتسم به الحديث عن البطولة من صفة الجماعية التي لاحظها بعض الباحثين (٢) ، وقد مر بنا في نصوص هذا الفصل ما مدح به الجزارى بطولة الصالحية خشداشية بيبرس ، والأشرفية مماليك الأشرف بن قلاوون .

كذلك صور لنا الأدباء اعتزاز المماليك بانتمائهم إلى الجنس التركى ،وهذا يعكس نزعة عنصرية شعوبية لدى المماليك ، فلم يكن الشعراء يكررون فى قصائدهم وصف المماليك بالترك إلا إرضاء لرغبة القوم ، وإشباعاً لنزعتهم العنصرية .

يقول شهاب الدين محمود :

من الترك أما فى المغانى فإنهم ... شموس وأما فى الوغى فضراغم(٣)

ويقول :

جيش من الترك ترك الحرب عندهم ... عار وراحتهم ضرب من الوصب(٤)

ويقول الجزارى :

جيش من الترك فى أدراعهم أسد ... لها السيوف نيوب والقنا أجم (٥)

---

(١) نهاية الأرب جـ ٥ / ص ١٥٩

(٢) مقالات فى الشعر المملوكى — بكرى شيخ أمين ص ١٢٨ .

(٣) النجوم الزاهرة جـ ٧ / ص ١٧٢ .

(٤) تاريخ ابن الفرات جـ ٨ / ص ١٨٦ .

(٥) ديوان الجزارى ص ٧٠ .

ويقول البوصيرى :

تـرك تزينت الدنيـا بذكرهـم ... فهم لها الحلى إن غابوا وإن حضروا (١)

وحلا لبعض الشعراء أن يفضلوهم على فرسان العرب فى الشجاعة كما مر بنا من قول العزازى :

فى مسلك لـو سرى السليك بـه ... لضـل فيـه أو عنتر جبنـا

وكقوله :

من كـل أغلب لـو رآه مقبـلا ... ريد الفوارس فرعنه مدبـرا

إن شـد كـان أشـد منه عزيمـة ... وأكر إذ حمى الوطيس وأصبرا

كذلك أحب المماليك أن يوصفوا إلى جانب الشجاعة بالجمال ، وكأن كلا منهم لم يزل ذاكرا لذلك اليوم الذى عرض فيه فى سوق النخاسة ، وكـان الجمال أحد الأمور الرئيسية فى تقويمه ، لذلك لا نعجب إذا وصفهم شهـاب الدين محمود بأنهم شموس المغانى ، أو بأنهم غصون البان فوق السروج ، ووجوههم كالبدور .

فى كـل سرج غصن بان مهفهف ... وفى كل قوس مد ساعده بدر (٢)

ولا عجب أن يقول العزازى فى قلاوون :

وما البـدر إلا وجهـه وضيـاؤه ... وما البحر إلا كفه وسماحها (٣)

ومرة أخرى يصور العزازى جنود الأشرف خليل بأنهم الأقمار فى ليـل النقع :

(١) الديوان ص ٨٩ .

(٢) فوات الوفيات جـ ١ / ص ٤١٥ .

(٣) الديوان ص ٧٤ .

وتسارعت نحو المياج وأسعـــرت تحت العجاج فحلت ليلا مقمرا(١)

ولعل في هذا ما يكشف عن سر تشبيه ابن الزكي لهم بالظباء في قوله :

«وقد أحدقت بهم كماة الترك كأنها ظباء بأعلى الرقمتين قيام» (٢) وفي هذا أيضاً ما يكشف عن تشبيه ابن دانيال الموصلي لهم بالحور والولدان والحديث عن حسنهم الفتان في أبياته التي سبق ذكرها .

هذا حديث البطولة نختم به هذا الفصل الذي خصصنا به الجهاد في هذا العصر ، ومهما كان من أمر فقد استطاع الأدب أن يعطينا صورة واضحة القسمات لمعارك هذا العصر وحروبه ، ومنطلق هذه الحروب وروحها .

---

(١) الديوان ص ٧٥ .

(٢) نهاية الأرب حـ ٥ / ص ١٥٢ .

الفصل الثالث

الثروة وانهيار القيم

عاش المماليك وأعوانهم من رجالات الدولة والقائمين على الأمر فيها طبقة مستعلية ، تتفيأ ظلال النعيم ، وتلهو بالمال تبعثره يمنة ويسرة ، بينما الشعب الكادح يرزح فى أغلال الفقر ، ترهقه الضرائب ، وتثقل خطوه أعباء الحياة وتفصل بينه وبين الأمل حواجز من اليأس والقهر .

وحينما قسم المقريزى الناس فى مصر سبعة أقسام : أعلاها أهل الدولة وأدناها ذوو الحاجة والمسكنة ، وبين هؤلاء وأولئك أناس مختلفو الدرجات ، متباينو المراتب من تجار وباعة وسوقة وفلاحين وعلماء . (١) إنما كان معياره فى ذلك الثروة وتوزيعها ، أو قل سوء توزيعها ، فهى تكاد تنحصر فى أيدى قلة هم أهل الدولة ، أما من دون ذلك فهم يقتاتون بالفتات ، وتختلف درجاتهم بمقدار ما استحوذت عليه كل طبقة من فضلة الكئوس ، وبقايا الموائد .

والمقريزى له عذره فى اتخاذه الثروة معيارا لتقسيمه ، فالحقيقة أن المماليك كانوا لا يهتمون إلا بها ، وما من سبيل توصلهم إليها إلا سلكوها ، فأسرفوا فى فرض الضرائب ، وفتحوا خزائنهم للرشا ، لم يتعفف عنها صغير منهم أو كبير (٢) ، أما أنات المحرومين ، وصرخات المعوزين فلا تلقى لهم بالا ، ولا

---

(١) إغاثة الأمة بكشف الغمة ص ٧٢ .

(٢) انظر البذل والبرطلة زمن سلاطين المماليك د. أحمد عبد الرازق أحمد (الكتاب كله إحصاء لما لحقه من رشا) .

تحرك منهم ساكنا ، وحسبهم ما يتمتعون به من رغد الحياة ، وما يملأ خزائنهم من ذهب وفضة ، وما تعج به قصورهم من جوار وعبيد . وإن شئت فاقرأ فى خطط المقريزى عن ثروات الأمراء ، ولنأخذ مثلا لذلك «قوصون» صهر السلطان الناصر محمد . وحسبك أن تعلم أنه بعد أن نهبت العامة داره انحط سعر الذهب حتى بيع المثقال بأحد عشر درهما لكثرته فى أيدى الناس . (١) وما قوصون إلا أمير من أمراء الناصر محمد بن قلاوون فاظنك بثروة السلاطين

إنه المال — إذن — ما كان يحرص عليه هؤلاء ، ولهم فى كل إقليم عامل موكل بجمعه ، يكلف الناس فى ذلك من أمورهم شططا حتى يملأ بيت المال وخزائن الأمراء .

ونرى فى أدب هذا العصر صورا لهذه الأموال التى كانت تتدفق على بيت المال من كد الفلاحين وعرقهم ، يقول البوصيرى فى مدح عز الدين أيدمر الذى وكل بإقليم المحلة :

ملأت فيها بيوت المال من ذهب	وفضة صبرا يا حبذا الصبر
والمال يجنى كما يجنى الثمار بها	حتى كأن بنى الدنيا لها شجر
وتابعت بعضها الغلات فى سفر	بعضا إلى شون ضاقت به الفكر
وسيقت الخيل للأسواق مسرجة	لم تحص عدا وتحصى الأنجم الزهر
والمجن تحسبها حبا مفوفة	فى الخلق منها قضاه الجو منحصر
وكل مقترح ما دار فى خلد	يأتى إليك به فى وقته القدر
وما همت بأمر غير مطلبه	إلا تيسر من أسبابه العسر
والعاملون على الأموال ما علموا	من أى ما جهة يأتى وما شعروا

(١) انظر الخطط المقريزية ج ٣ ص ٤٨٢ .

وما أرى بيت مال المسلمين درى   من أين تأتى له الأكياس والبدر (١)

والبوصيرى كشاعر مادح مسترفد لاشك يمدح هذا الأمير بما يعلى من قدره عند أولى الأمر . وهل يعلى من قدر أمير عندهم شىء أفضل من أن يحسن عمله فى جمع المال ؟ ! . ثم أرأيت إلى هذا المال المتدفق ، وإلى هذه الغلات التى يتابع بعضها بعضا ، وإلى هذه الخيل المحملة التى تفوق النجوم عدا ، وإلى هذه المخازن التى يضيق بها الفضاء ؟ ! . كل هذه أموال تتدفق لتستحيل بعد ذلك إلى مجالس قصف ولذة ، لقد صدق البوصيرى حين شبه الناس بالشجر ، فهكذا هم فى نظر الحكام ولا يرعون .

وإذا كان البوصيرى قد ركز على مقدار المال وكثرته وكأنه يهر به ، فابن دانيال الموصلى يعطينا صورة حية للكيفية التى كان يتم بها جمع هذا المال . وكان ابن دانيال يعمل معاونا لأحد الأمراء الموكلين بجمع الغلال ، ويورد له هذه القصيدة التى يصور فيها سفرة من أسفاره فى سبيل ذلك :

صاح لولا عناه قبض الغلال   ما تعبنا فى هذه الأشغال
لا ولا كنت قائماً فى هجير   ذا ضلال من جلة فى الظلال
كل يوم لى سفرة ورحيل   للقرى مثل رحلة الرحال
فوق جحشى الخرج المشاق كأنى   بائع القطر النبا بالحمال
هو قبض لكنه قبض قلب   وهو شغل لكنه شغل بال
فى حصول لو حازه أهل قارون   لكدوا جميعهم بالحصالى
يا لها سفرة بها سود الرحمن   عرضى وصورتى وقذالى
ساءه فيها خلقى وخلقى إلى أن لم   يسو رآنى العدو يوما رثى لى

(١) الديوان ص ٩٣ ، ٩٤ .

ثم من بعد ذا وذا جطلوقي   شاهداً في ديوانهم بامتثال
عند من ترعد الفرائص منه   وتخر الرجال خر الجبال
كيف لا أنكر الشهادة من قو   م أرادوا مصعي ونتف سبالي
ورفيقي فيها الدلاصي دلو البيسري انكو صطل من الأصطال
لو أتوه بخط قط بن سوح   قال : هذا خطي وهذا مقالي
بين قوم لو قلت : إني ابن سينا   ضرطوا في شوارب الغزالي
منهم السيد الكبير كثير   وصويد وزهير بن الحبال
ذا ينادي قال الأمير اطلبوا الديوان واستعجلوا على الكيال
فرال اليه وهو من العجب بأنف على الوزارة عال
فينادي حجابه اقبضوا لا تتقصوا دون قبض رسم السؤال
واحذروا أن ينظروا غلة قط بلوح في الربيع أو كربال
فأنادي ان كان لابد من ذا   فاقبضوها بطارة الزبال
واتركوا عصف الرياح لكيلا   تجدوها كدارس الأطلال
غل لا أحصل القوت فيه   قط إلا بحيلة البطال
وبودي أني خلصت كفافاً   منه يوماً ولا علي ولا لي (١)

ونلتمس لابن دانيال العذر في شكواه من هذا العمل ، فهو يجبي لغيره ، ولعله رق لما رآه من بؤس الناس الذين ترتعد فرائصهم خوفاً ورعباً ، ولعله — أيضاً — ضاق لما يراه من عنت رفقائه وادعائهم على الناس ، ولعلنا نلاحظ أنه أعطى هؤلاء الرفقاء أسماء تجسد ما هم عليه من سوء في الخلق والخلقة فمنهم الدلاصي دلو الدين ، وزهير ، وصويد ، وهم أناس لا يقيمون لغير المال

---

(١) التذكرة الصفدية جـ ١٤ / ص ٨٧ ، ٨٨ .

وزنا ، وعلم ابن سينا للبيع أو الغزالى لا يساوى شيئاً .

ولاشك أن ابن دانيال — وهو الفنان الشاعر — كان ساخطا فى أعماقه على هذا العمل لدرجة سخط فيها على نفسه .

يا لهـا سخـرة بهـا سود الرحمـن عرضـى وصـورتى وقـذالى
ساء فيهـا خلقى وخلقى إلى أن لـو رآنى العـدو يوما رثى لى

إن هذا السخط فى أعماق ابن دانيال يستحيل إلى تهكم مرير ينفثه ساخرا من هذا الزوال المتعنت المتعالى الذى كل همه أن يطاع أمره ولو كان خاطئا ، ولو جمعت الغلال بطارة الزبالة كما يقول ابن دانيال فى تعبيره الشعبى الساخر .

وطبيعى أن يتفشى هذا الشره ، وتسرى عدواه من الكبير إلى الصغير ، فيصبح كل من ولى أمرا من أمور الناس وقد أطلق يده فى السلب والنهب مستغلا منصبه ، محتميا به ، لا يردعه خلق ، ولا ترغبه همة .

ونقع فى أدب هذه الحقبة على صور صارخة من جشع العمال والمستخدمين حتى بين أولئك الذين فرض فيهم العفاف والنزاهة كالقضاة ، والقائمين على الحسبة ، وإليك ما قاله الشارمساحى فى حال القزوينى ، قاضى القضاة وحال أولاده ، إذ جاروا على أموال الأوقاف ، وأمعنوا فى ملذاتهم بينما الشعب يعانى ما يعانى من الجوع : (١)

يموت عديم القوت بالجوع حسرة ويشبع بالأوقاف أهل الطيالس
فيا أحمد إلا وحشو حسابه من السحت نار دونها نار فارس

(١) انظر تفصيل قصة القزوينى فى «تاريخ الملك الناصر محمد بن قلاوون وأولاده» للشجاعى ص ٣٠ ط فيسباد ١٩٧٨ م .

وهذا ابن قاضي المسلمين موكل ... بعشق ورباح في ظلام الحنادس
وما ذاك إلا أن والده لامرؤ ... جسوح لما يرضى به غير عابس
وإن رام منه مال وقف يصيبه ... فما هو للأموال عنه بحابس
ومستتر بجلا هام في زمن الصبا ... بكل صبي فاتر الطرف ناعس
فكم صاد غزلانا من الترك دونها ... فوارس حرب يالها من فوارس
وكم باع أموال اليتامى لقربها ... توصد المردان فوق الطنافس
فسل مودع الأيتام ما صنعوا به ... وقد كنسوه عامدا بالمكانس
وجامع طولون فما كان وقفه ... له زد أتاه غير لحية لا حس (١)

أما القائمون على الحسبة ، فحسبنا أن نقرأ ما كتبه المقريزى فى وصف نجم الدين محمد الطنبدى الذى ولى حسبة القاهرة فى دولة حاجى بن شعبان لنعلم إلى أى حد صارت الأمور ، وأصبح بعض هؤلاء القائمين على أمور الدين لا يفهمون منه إلا لبس الجبة وإرخاء العذبة ، وضرب عباد الله بالدرة ، أما ما سوى ذلك فيد مفترحة ، وفم يأكل السحت . يقول المقريزى :

«كان شيخا جهولا ، وبلهانا مهولا ، سيء السيرة فى الحسبة والقضاء ، متهافتا على الدرهم ولو قاده إلى البلاء ، لا يحتشم من أخذ البرطيل والرشوة ، ولا يراعى فى مؤمن إلا ولا ذمة ، قد ضرب على الآثام ، وتجمد من أكل الحرام ، يرى أن العلم إرخاء العذبة ، ولبس الجبة ، ويحسب أن رضا الله — سبحانه — فى ضرب العباد بالدرة وولاية الحسبة ، لم تحمد الناس قط أياديه ، ولا شكرت مساعيه ، بل جهالاته شائعة ، وقبائح أفعاله ذائعة . (٢)

وفى أبيات لقطينة الشاعر الأسفونى نرى صورة أخرى من صور الاغتصاب

---

(١) الدرر الكامنة ج ١ / ص ١٢٢ .
(٢) الخطط ج ٣ / ص ٢٢٢ .

والسطو ، فإنه يصف ما ارتكبه الشهود وأمين الحكم في أسفون — وهم الذين وكلوا برعاية العدالة — من اغتصاب بيت زوجه ، ويجأر قطبية شاكيا لوالى قوص ، مطالبا بإعادة الحق لأصحابه :

ظهرت بالجانب البحرى طائفـة	فـول وجهك يا مـولاى قبلتهـا
وانزل بأسفون واكشف عن قضيتها	وكف كف شهود أصبحوا فيها
عندى بليمة تركى ظفـرت بها	لما من الله جـدران تواريهـا
تعاونـوا مع أمين الحكم واغتصبوا	أحوا وثالث فحوى خطهم فيها
حتى أبيحت عليها نصف حصتها	ما حيلتى وأمين الحكم شاريهـا
ما زلت أفحص عن تلك الوثائق بها	مولاى حتى أبان الله عافيهـا
وها هى الآن عندى وهى ثابتـة	فامض الولاية فيما كان يؤذيها (١)

وتصدى البوصيرى للمستخدمين كاشفا عارهم ، معريا أساليبهم فى نهب الأموال ، وفى ديوانه قصائد عدة يتناول فيها هذه الظاهرة ، وتجرى بقصيدته النونية التى تصور أخلاق المستخدمين وجناياتهم على الناس ، يقول البوصيرى

ثكلـت طوائـف المستخدمينا	فـلم أر فيهـم رجـلا أمينـا
فخـذ أخبارهـم عنى شفاهـا	وأنظـرنى لأخـبرك اليقينـا
فقـد عاشرتهـم ولبثـت فيهـم	مـع التجريب من عمرى سنينـا

ثم يمضى البوصيرى فيحدثنا عن تلك الطائفة التى حوتها بلبيس ، ويصمهم بالصوص يفوق الواحد منهم مئات ممن نعرف ، ويعدد من أعمالهم فرحينا والصق وأيا يفطون والنثو :

---

(١) الطالع السعيد للإدفوى ص ٢٢٥ .

حوت بلبيس طائفة لصوصاً عدلت بواحد منهم مئينا
فرجى والصفىّ وصاحبيه أبا يقطون والنشو السمينا
فكتاب الشمال هم جميعاً فلا صحبت شمالهم اليمينا

ويصور البوصيرى كيف يستحيل هذا المال المنهوب إلى ثياب حريرية ، وخمور جيدة ، ومردان ملاح :

وجل الناس خوان ولكن أناس منهم لا يستترونا
ولولا ذاك ما لبسوا حريرا ولا شربوا خمور الأندرينا
ولا ربوا من المردان قوما كأغصان يقمن وينحنينا

ويبين البوصيرى كيف أن هؤلاء العمال مدوا على الأمراء السبيل لتحصيل أموال إقطاعاتهم ، بحيث صار الأمير يبيع إقطاعه لهم بالربع ، ولا يجديه دون ذلك ما يقدمه لهم من برطيل :

ولم ينفعهم البرطيل شيئاً وما ازدادوا به إلا ديونا
كأنهم نساء مات بعل له ولد فورثن الثمينا
ولقد تعبت خيول القوم مما يطوفون البلاد ويرجعونا
عذرتهم إذا باعوا حوالا تهم بالربع المستخدمينا
وأعطوهم بها عوضاً فكانوا لنصف الربع فيه خاسرينا

ثم أنظر إلى «ابن قطية» وكيف يصوره البوصيرى ، إنه لا يترك بلدا إلا بعد أن ينهب مالها ، ويترك جرونها خواء ، وكل همه تحصيل الذهب ، هذا الذى كان الجبن مطلبه قبل ذلك :

وما ابن قطية إلا شريك لهم فى كل ما يتخطفونا
أغار على قرى فاقوس منه بجور يمنع النوم الجفونا
وجاس خلالها طولا وعرضا وغادر عاليا منها حزونا
فسل «أذنين» «والبروق» عنه ومنزل حاتم وسل المرينا

لقد نسف التلال الحمر تبنا ... ولم يترك بعرصتها جروبا
وصير جبتها حملا ولكن ... لمنزله وعلتها خزينا
وأصبح شغله تحصيل تبر ... وكانت رازه من قبل نوسا (١)

وتعد هذه القصيدة — بحق — وثيقة دامغة توضح إلى أى مدى وصلت أخلاق العمال والمستخدمين فى عصر البوصيرى .

ودون هذا التصوير المسهب للبوصيرى نجد أبياتا للوداعى علو السلطان من ابن نوح الذى كان مرتشيا خائنا :

قل للمليك أمده ... رب العلا منه بروح
إن الذى وكلته ... لا بالنصيح ولا الفصيح
وهو ابن نوح فاسأل القـرآن عن عمل ابن نوح (٢)

والوداعى قد اكتفى فى أبياته بالإشارة الخاطفة ، والتلميح الذكى ، ولعله آثر ذلك تأدبا فى مخاطبة السلطان فهو أدرى بمن يولى ، وهو يعرف ابن نوح معرفة ربما تفوق معرفة الوداعى .. ولكنه المال .. !!

وأصبحت الرشوة عرفا سائدا ، ولا غرابة فى ذلك ، طالما أصبح المال هو المطلب الأسمى ، والقيمة العليا ، وأصبح الدرهم شفيعا لا يمكن رده ، وبلسما شافيا لكل جرح على حد تعبير أثير الدين أبى حيان :

أتى بشفيع ليس يمكن رده ... دراهم بيض للجروح مراهم
تصير صعب الأمر أهون ما ترى ... وتقضى لبانات الفتى وهو نائم(٣)

وأصبح الدرهم — أيضا — هو الطريق إلى قلوب الأمراء ، وإلى أبوابهم ،

---

(١) القصيدة كاملة بديوان البوصيرى من ص ٢١٨ — ٢٢٣ .
(٢) الوافى بالوفيات جـ ٢ / ص ٢٣٧
(٣) الدرر الكامنة جـ ٥ / ص ٧٢ .

وانظر إلى هذه السخرية المرة لسراج الدين الوراق ، وقد أراد الدخول على أحد الأمراء .

قلت لبواب على بابه   مشوه الخلقة والشكل
تطفل عليه الآن قال استرح   ذا باب محذ منى ولا محد لى(١)

ويسخر كمال الدين الإدفوى من الزين الدمشقى الذى ولى تدريس الحديث وهو من الجهل بمكان ، كل ما هنالك أنه قدم الشفيع الذى لا يمكن رده :

بالجاه تبلغ ما تريد فإن ترد   رتب المعالى فليكن لك جاه
أو ما ترى الزين الدمشقى قد ولى   درس الحديث وليس يدرى ما هو(٢)

وأمر طبيعى أن تنهار كل القيم طالما الحال على ذلك ، فيحتل المناصب من لا يستحقها ، ويتقدم من لا يستحق التقدم ، ويصبح الناس فى سباق ، يأكل بعضهم لحم بعض ، وكل يريد أن يهدم الآخر ليعلو هو ، لا وازع من الدين يمنع ، ولا تورع عن الحرام يردع . ولعلنا نحس بأصداء هذه المحنة الأخلاقية فى قول ابن دقيق العيد :

قد جرحتنا يد أيامنا   وليس غير الله من آسى
فلا ترج الخلق فى حاجة   ليسوا بأهل لسوى الياس
ولا تزد شكوى إليهم فما   معنى لشكواك إلى قاسى
فإن تخالط منهم معشرا   هويت فى الدين على الراس
يأكل بعض لحم بعض ولا   يحسب فى الغيبة من باس
لا ورع فى الدين يحميهم   عنها ولا حشمة جلاس
لا يعدم الآتى إلى بابهم   من ذلة الكلب سوى الخاسى

---

(١) سلوك السنن ، ابن أبى حجلة لوحة ٤ .
(٢) الدرر الكامنة جـ ٢ / ص ٢٣٨ .

فاهرب من الناس إلى ربهم   لا خير في الخلطة بالناس (١)

وفي أبيات أخرى له يحس بآثار هذه المحنة ، وكيف استشرى أمرها ، فاضطربت المعايير ، وأصبح لا يقدم إلا صاحب المال ، أما أهل العلم فلا مكان لهم في الساحة :

يقولون لي : هلا نهضت إلى العلا   فما لذ عيش الصابر المتقنع
وهلا شددت العيس حتى تحلها   بمصر إلى ظل الجناب المرفع ؟
ففيها من الأعيان من فيض كفه   إذا شاء روى سيله كل بلقع
وفيها قضاة ليس يخفى عليهم   تعين كون العلم غير مضيع
وفيها شيوخ الدين والفضل والألى   يشير إليهم بالعلا كل إصبع
وفيها ، وفيها ، والمهانة ذلة   فقم واسع واقصد باب رزقك واقرع
فقلت نعم أسعى إذا شئت أن أرى   ذليلا مهانا مستخفا بموضعي
وأسعى إذا ما لذ لي طول موقفي   على باب محجوب اللقاء ممنع
وأسعى إذا كان النفاق طريقتي   أروح وأغدو في ثياب التصنع
وأسعى إذا لم يبق في بقية   أراعي بها حق التقى والتورع (٢)

أرأيت إلى هذا الانهيار الأخلاقي الذي يتحدث عنه ابن دقيق العيد ، الاستخفاف بالعلم وأهله ، النفاق ، الرياء ، تحلل الدين وانفصام عراه ، وما كل ذلك إلا لأن المال وضع على الرأس في قائمة القيم ، وشغل الناس بالدنيا ، وألهتهم المادة يحصلونها بأي وسيلة ومن أي طريق .

ولا نترك ابن دقيق العيد دون أن نورد له هذه الأبيات التي تصور انقلاب الموازين ، وتشعرنا بما كان يعانيه الرجل من ألم يحاول أن يتعزى عنه :

---

(١) الطالع السعيد / ص ٥٨٩ ، ٥٩٠ .
(٢) معيد النعم ومبيد النقم للسبكي / ص ٧٠ ، ٧١ .

أهل المناصب في الدنيا ورفعتها … أهل الفضائل مرذولون بينهم
قد أنزلونا لأنا غير جنسهم … منازل الوحش في الإهمال عندهم
فما لهم في توقي ضرنا نظر … ولا لهم في ترقي قدرنا همم
فليتنا لو قدرنا أن نعرفهم … مقدارهم عندنا أو لو دروه هم
لهم مريحان من جهل وفرط غنى … وعندنا المتعبان العلم والعدم (١)

وترددت هذه المعاني في شعر الشعراء ، فنرى القيراطي يصور في أسى ضياع العلم والعلماء ، بينما يتقدم الجهلاء ويحوزون برغد العيش :

كم من فتى بالعلم حاز غنى … معطلا من رتبة عاليه
وعاطل من حلية العلم في … حال بأنواع الحلى حاليه
وفرقة راكبة شهبها … لجهلها عدت من الماشيه (٢)

وإذا كنا لمحنا الألم يتمثل في شعر ابن دقيق العيد والقيراطي وهما يريان إهمال العلم ورجاله ، فإننا نرى هذا الألم ينقلب سخرية دامغة عند الجزار حينما رأى أنه سلك سبيل العلم ، وأضاع عمره في فهم غوامضه ، وكشف معمياته ، ثم لم يجن من وراء ذلك إلا الخمول ، وإهمال الذكر :

قرأت النحو تبيانا وفهما … إلى أن كدت منه وضاق صدري
فما استنبطت منه سوى محال … يحال به على زيد وعمرو
فكان النصب فيه علي نصبا … وكان الرفع فيه لغير قدري
وكان الخفض فيه جل حظي … وكان الجزم فيه لقطع ذكري (٣)

وتباينت مسالك الأدباء في معالجة هذه المحنة الأخلاقية ، فمنهم المنكر

---

(١) معيد النعم ص ١٥٥ .
(٢) الديوان ص ١٨٦
(٣) فوات الوفيات / جـ ٤ ص ٢٨٥ .

المتشدد ، ومنهم الهادى الباحث عن العلل والأسباب ، ومنهم الناصح ، ومنهم البائس ، ومنهم الساخر . وقد يسلك الأديب كل هذه الدروب فهو مرة منكر متشدد ، وهو مرة ناصح ، وهو ثالثة ساخر حسبما تقتضيه الظروف ، وتطلبه الأحوال .

فالشيخ تقي الدين السبكي يقف موقف المنكر المتشدد ، وهو ينظر للأمر من منظور ديني ، فيرى أن هذه النقم التي تحل بالمسلمين إنما ترجع لانحرافهم عن الجادة ، وتكالب أولى الأمر على الدنيا ، وجريهم وراء المتع العاجلة من الملبس والزينة بينما الشعب يتضور جوعا . وهو في تناوله للأمور يبدأ برسم الصورة المثلى لما ينبغي أن يكون . ثم يتبعها بما وصل إليه الأمر من انحراف ، محذرا من العاقبة الوخيمة ، والمصير السيء . فيقول مثلا في أمر السلطان :

«ومن وظائفه أن ينظر في الإقطاعات ، ويضعها مواضعها ، ويستخدم من ينفع المسلمين ، ويحمى حوزة الدين ، ويكف أيدى المعتدين ، فإن فرق الإقطاعات على مماليك اصطفاها ، وزينها بأنواع الملابس والزراكش المحرمة ، والفضة يركبونها بين يديه ، وترك الذين يحمون الإسلام جياعا في بيوتهم ثم سلبه الله النعمة ، وأخذ يبكى ويقول : ما بال نعمتى زالت ، وأيامى قصرت ؟ فيقال له : يا أحمق أما علمت السبب ؟ أو لست الجاني على نفسك؟»[1]

ويشدد السبكي النكير على ما يراه من ألوان الانحراف كتسخير إمكانات الدولة للأهواء الشخصية ، وتراه يعرض لما يلجأ إليه الحكام من استخدام خيول البريد في جلب الجوارى والمماليك الملاح والمغنين ، أو في السعي لإيقاع الأذى بإنسان مظلوم فيقول :

«والآن أكثر ما تهلك خيول البريد وتساق للأغراض الدنيوية من شراء

---

(١) معيد النعم ص ١٧ .

المماليك ، وجلب الجوارى والأمتعة ، وإذا ركب الفقيه فرساً أنكر عليه ذلك وقيل : أخطأ السلطان أو نائبه فى إركابه ، فإن البريد لا يساق إلا لمهات السلطنة كأنهم يعنون بمهات السلطنة ما اعتادوا من شراء مملوك مليح ، او استدعاء من حسن الصوت ، أو خراب بيت شخص أنهى عنه مالا صحة له . (١)

ويعرض السبكى لما وصل إليه حال الحكام من الاستلانة للشهوات المحرمة ، والرغبات الدنسة ، ومثال ذلك ما يتخذه السلاطين من «الجمدارية» الذين وكل إليهم السلاطين أمر الثياب ، ولهم فيهم مآرب أخرى . يقول

«وأكثر ما يكونون صبيانا ملاحا مردا يتعاناهم الملوك ، وكذا الأمراء ، يكونون بالنوبة مع المخدوم ، يلازمونه حتى وقت نومه ، وقد تناهت الرغبة فيهم لإستيلاء شهوة المرد على قلوب أكثر أهل الدنيا ، وصارت الجمدارية تشرع فى الملابس المهيجة الشهوات البشرية ، ويتزينون فيربون فى ذلك على النساء» . (٢)

وينظر السبكى مستاء وهو يرى ما يضيع من أموال المسلمين فيا ينفق فيه رجال الدولة من تذهيب الأطرزة ، وزخرفة البيوت ، وهم فى سبيل ذلك يخسرون كثيرا من المال كان يمكن أن يعيش به الناس فى رخاء ، ويشتد غضب السبكى فيعلن أن هذه سبيل الهلاك ، وأن من يفعل ذلك لا ينبغى أن يتوقع من الله نصرا أو عونا . يقول :

«ومن قبائحهم ما يذهبونه من الذهب فى الأطرزة العريضة ، والمناطق وغيرها من أنواع الزراكش التى حرمها الله — عز وجل — وزخرفة البيوت سقوفها وحيطانها بالذهب ، وقد لعن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — من

---

(١) معيد النعم ص ٣٢ .
(٢) معيد النعم ص ٣٥ .

ضيق سكة المسلمين . وأنت إذا اعتبرت ما يذهب من الذهب فى هذه الأغراض الفاسدة تجده قناطير مقنطرة لا يحصيها إلا الله تعالى ، فإنه لابد فى كل منطقة أو طراز ونحوه من ذهاب شىء — وإن قل جداً — تأكله النار ، وهو فى الأبنية أكثر . فإذا ضممت ذلك القليل إلى قليل آخر على اختلاف فى البقاع والأزمان لم يحص ما ضاع من القناطير المقنطرة من الذهب إلا الله تعالى ، ثم القدر الذى يسلم ولا يصبح يصير محبوسا عندهم ، أطررة ومناطق ، وسلاسل ، وكنابيش ، وسروجا ، وغير ذلك من المحرمات المختلفة ، ولو كان مضروبا سكة يتداوله المسلمون لانتصروا به ، ورخصت البضائع ، وكثرت الأموال ، ولكنهم احتجروا ، وفعلوا هذه القبائح ، وطلبوا من الله — تعالى — أن ينصرهم» . (١)

وينتقد السبكى بشدة ما يراه من صنيع كتاب الديوان ، وما يلجئون إليه من التشبه بالماليك فى ملابسهم ، وفى تزيين أقلامهم ودويهم بالذهب ، وما يتهجون فى وظائفهم من تقديم العون للماليك على ظلم الناس ، ويحذر السبكى من عاقبة هذا البغى ومآله :

«فإذا رأيت ديوانا من وزير أو غيره يخرج من بيته بعد أن امتلأ باطنه بالحرام ، وهو لابس الحرام ، ويجلس على الحرام ، وفتح الدواة الحرام ، وأخذ بيد الأقلام الحرام ، ثم عاقب الحرام ، أفليس حقا إذا رأيته بعد زمن يسير مضروبا بالمقارع ، يطاف به فى الأسواق ويجنى عليه» (٢)

والأمر الذى أغضب السبكى غضبا شديداً هو ما رآه من الزراية بأهل العلم واستكثار الأرزاق عليهم ، والحط من شأنهم ، وقد مر بنا فيما عرضناه

---

(١) معيد النعم ص ٤٩ ، ٥٠ .
(٢) معيد النعم ص ٣٠ .

من كلام السبكي إنكاره على المماليك تركهم العلماء يتضورون جوعا ، واستياؤه لما يلحظه من استكثار المماليك على عالم من العلماء أن يركب خيول البريد في مهمة دينية . وهو لا ينفك في كتابه «معيد النعم ومبيد النقم» يلح على هذه الظاهرة ويشير إليها من آن لآخر . مبينا أن الزراية بالعلم وأهله من أكبر قبائح الحكم المملوكي . فيقول مستنكرا متهكما :

«ومن قبائح كثير من الأمراء أنهم لا يوقرون أهل العلم ، ولا يعرفون لهم حقوقهم ، وينكرون عليهم ما هم يرتكبون أضعافه . وما أحمق الأمير إذا كان يرتكب معصية ووجد فقيها يقال عنه مثلها أن ينتقصه ويعيبه ، وما له لا ينظر إلى نفسه مع ما خوله الله تعالى من النعم !! أما علم أن القبيح عند الله — تعالى — حرام بالنسبة إلى كل أحد» . (١)

ويعود في موضع آخر فيشير إلى استكثار الأرزاق على العلماء ، ويحذر رجال الدولة من مغبة هذا الأمر ، ومن غضب من الله يحل بهم ، فيقول :

«ومن قبائحهم استكثارهم الأرزاق — وإن قلت — على العلماء ، واستقلالهم الأرزاق — وإن كثرت — على أنفسهم . ورأيت كثيرا منهم يعيبون على بعض الفقهاء ركوب الخيل ، ولبس الثياب الفاخرة . وهذه الطائفة من الأمراء يخشى عليها زوال النعمة عن قريب . فإنها تتبختر في أنعم الله مع الجهل ، والمعصية . وتنقم على خاصة خلقه يسيرا مما هم فيه ، أفما يخشون ربهم من مقتهم ! ولو اعتبر واحد منهم رزق أكبر فقيه لوجده دون رزق أقل مملوك عنده» (٢)

ولا ريب — بعد ذلك — أن السبكي ، فيما عرضه من صور الفساد في

---

(١) معيد النعم ص ٤٧ ، ٤٨ .

(٢) معيد النعم ص ٤٩ .

عصره ، كان يفطن إلى موطن الداء ، ومكمن العلة ، وكان يدرك أن الإقبال على الدنيا ، والنهم إلى المال مما آفة الأخلاق ، وعلة انقلاب المعايير واضطراب القيم ، كما أنه كان يفطن لما للقدوة السيئة من أثر فى تزيين القبيح ، وجعله وكأنه العرف المتبع .

أما المقريزى فإنه يقف موقف المحلل ، الباحث عن أسباب العلة ، المشخص لأعراضها ، تعينه على ذلك عقلية علمية تجنح إلى الهدوء ، وتميل إلى الموضوعية وتنأى — ما وسعها — عن المؤثرات العاطفية ، وتختار من الألفاظ أدقها ، وأكثرها تحديدا .

ويحدد المقريزى أسباب العلة فى ثلاثة أشياء لا رابع لها — على حد قوله — أولها الرشوة ، وثانيها غلاء الأطيان ، وثالثها رواج الفلوس ، وقلة ما بأيدى الناس من الدرهم والدينار .

وإذا تتبعنا المقريزى فى عرضه لهذه الأسباب ، وجدنا أنها جميعا تنبع من منبع واحد هو الشره المال ، والرغبة فى الاستكثار منه ، والعمل على احتجاز الذهب والفضة ، وسبكها حليا وأساور ، بدلا من أن يكونا دراهم ودنانير يتعامل بها الناس فى بيعهم وشرائهم .

إلا أن الأهم من ذلك هو ما يشير إليه المقريزى من ارتباط قضية الثروة بقضايا الأخلاق ، فالسلطان مثلا يقبل الرشوة ، ويقبلها وزراؤه ، وبذلك تنهار القدوة ، فيقدم طالب المنصب الرشوة للسلطان أو الوزير بيد بينما يده الأخرى تتقاضى أضعافها من الناس ، والسلطان مضطر أن يغمض عينيه عما يجرى ، ويفتح الباب على مصراعيه للجهلة والمفسدين الذين تؤهلهم أموالهم لبلوغ الأعمال الجليلة ، والولايات العظيمة .. تلك هى النصيبة ، وهذه آفة الآفات . يقول المقريزى :

«السبب الأول ، وهو أصل الفساد ، ولاية الخطط السلطانية ، والمناصب الدينية بالرشوة كالوزارة ، والقضاء ، ونيابة الأقاليم ، وولاية الحسبة ، وسائر الأعمال ، بحيث لا يمكن التوصل إلى شيء منها إلا بالمال الجزيل ، فتخطى لأجل ذلك كل جاهل ومفسد وظالم وباغ إلى ما لم يكن يؤمله من الأعمال الجليلة ، والولايات العظيمة لتوصله ، بأحد حواشي السلطان ، ووعده بمال للسلطان على ما يريده من الأعمال» . (١)

ويبين المقريزي جناية القدوة السيئة على العمال . فإذا كان السلطان مرتشيا فماذا ننتظر من عماله ؟! لا ريب أن العدوى ستسرى ، فكما يغمض السلطان عينه عن الوزير ، يغمض الوزير عينه عمن دونه . . وهكذا ...

«ولا جرم أنه يغمض عينيه ولا يبالى بما أخذ من أنواع المال ، ولا عليه بما يتلفه في مقابلة ذلك من الأنفس ، ولا بما يريقه من الدماء ، ولا بما يسترقه من الحرائر ، ويحتاج إلى أن يقرر على حواشيه وأعوانه ضرائب ، ويتعجل منهم أموالا ، فيمدون هم أيضاً أيديهم إلى أموال الرعايا ، ويشرئبون لأخذها بحيث لا يعفون ولا يكفون» . (٢)

الشيء الآخر الذى يشير إليه المقريزي — وهو في ذلك — أيضا — شاخص إلى تلك العلاقة بين الثروة والأخلاق — هو أن التقرب إلى الأمراء والسلاطين أصبح سبيله إظهار البراعة في جباية الأموال من الناس بالحق وبالباطل دون نظر إلى أحوال الناس أو رحمة بهم . يقول المقريزي :

«ومن ذلك أن قوما ترقوا في خدم الأمراء يتولعوا إليهم بما جبوا من الأموال

---

(١) إغاثة الأمة ص ٤٢ .
(٢) إغاثة الأمة ص ٤٣ ، ٤٤ .

إلى أن استولوا على أحوالهم ، فأحبوا مزيد القربة منهم ، ولا وسيلة أقرب إليهم من المال ، فتعدوا إلى الأراضي الجارية في اقطاعات الأمراء ، وأحضروا مستأجريها من الفلاحين ، وزادوا في مقادير الأجر ، فثقلت لذلك متحصلات مواليهم من الأمراء ، فأتخذوا ذلك يداً يمتون بها إليهم ، ونعمة يعدونها — إذا شاءوا — عليهم ، فجعلوا الزيادة ديدنهم في كل عام» . (١)

ولا يفتأ المقريزى بين حين وآخر ينبه إلى ما وصل إليه أمر الفلاحين من فقر وجوع حتى مات بعضهم ، وتشرد آخرون ، وهلكت دوابهم ، وكأنه بذلك يشير إلى تلك المفارقة الصارخة بين هؤلاء السادة من طلاب المال والرفه وبين هؤلاء المعدمين من الفلاحين وانظر إليه يقول :

«ومع أن الغلال معظمها لأهل الدولة أولى الجاه وأرباب السيوف الذين تزايدت في اللذات رغبتهم ، وعظمت في احتجار أسباب الرفه بهمتهم ، استمر السعر مرتفعا لا يكاد يرجى انحطاطه ، فخرب بما ذكرنا معظم القرى ، وتعطلت أكثر الأراضي من الزراعة ، فقلت الغلال وغيرها مما تخرجه الأرض لموت أكثر الفلاحين وتشردهم في البلاد ، من شدة السنين ، وهلاك الدواب ولعجز الكثير من أرباب الأراضي عن إزدراعها ، لغلو البذور . وقد أشرف الإقليم لأجل هذا الذى قلنا على البوار والدمار» . (٢)

ومع أن المقريزى سلك سبيل العالم المحلل ، واصطنع لذلك أسلوبا علميا يغلب عليه التحديد ، فعبارته لا تخلو من بعض ، وكثيرا ما تهزنا منه فقرات كتلك الفقرة السابقة التي يصور فيها حال الفلاحين ، وما وصلوا إليه من فاقة وبؤس ، بعد أن صور أهل الجاه وما هم فيه من نعيم ورفه ، والجمع بين

---

(١) اغاثة الأمة ص ٤٥ ، ٤٦ .

(٢) اغاثة الأمة ص ٤٦ ، ٤٧

هاتين الصورتين المتقابلتين على — ولا شك — من أعمال الوجدان ، لم يغفل المقريزى حين سجعه على هذا المنوال من شعور يريد أن ينقله إلى قارئه ، ثم انظر ما اصطنعه المقريزى من إطناب فى تصوير حال الفلاح ، وقد كان بوسعه أن يشير إلى ذلك فى جملة أو اثنين ، ألا يوحى هذا بما كان يختلج فى وجدان المقريزى من مشاعر؟

ونترك المقريزى إلى نمط آخر آثر النصح الهادىء والموعظة الحسنة يقدمها لأولى الأمر بطريق غير مباشر أو من وراء حجاب .

والبوصيرى — وان كان قد شدد النكير على العمال والمستخدمين — سلك مع كبار أولى الأمر مسلكا عاقلا ، وآثر أن يقدم نصحه لهم مغلفا لا يكاد يحس ، كأن يدس فى إحدى قصائده بيتا أو إثنين يجدان القضية كلها ، أو كان يأتى بهذا النصح فى سياق يخيل القارىء أنه لا يقصد به شيئا من نقائص عصره ، بينما هو فى الحقيقة شاخص إليه ، طامح إلى اصلاح ما به من فساد .

وفى مدائح البوصيرى النبوية أبيات لا تمر على القارىء الواعى ، إذ نرى البوصيرى وكأنه يتجه إلى حكام عصره ، يرسم لهم الصورة المثلى لما ينبغى أن يكون عليه الحاكم من نزاهة وعفة وتقى وزهد وتجرد من الميل والهوى فيقول فى قصيدته الهمزية فى معرض الحديث عن صحابة الرسول — صلى الله عليه وسلم — وآل بيته :

سدتم الناس بالتقى وسواكم سودته البيضاء والصفراء
وبأصحابك الذين هم بعدك فينا الهداة والأوصياء
أحسنوا بعدك الخلافة فى الدين وكل لما تولى إزاء
أغنياء نزاهة فقراء علماء أئمة أمراء
زهدوا فى الدنيا فما عرف الميل إليها منهم ولا الرغباء(١)

---

(١) الديوان ص ٣٢ .

وفى بردته يسوق هذه الأبيات مخاطبا نفسه ، مبينا لها عاقبة الانسياق مع الهوى ، وما أخذه – على الحقيقة – يخاطب إلا أولئك الحكام ، الذين استسلموا لأهوائهم ، وأطلقوا العنان لجواد الرغبة :

من لى برد جماح من غوايتها — كما يرد جماح الخيل باللجم
فلا ترم بالمعاصى كسر شهوتها — إن الطعام يقوى شهوة النهم
والنفس كالطفل إن تهمله شب على — حب الرضاع وإن تفطمه ينفطم
فاصرف هواها وحاذر أن توليه — إن الهوى ما تولى يصم أو يصم
وراعها وهى فى الأعمال سائمة — وإن هى استحلت المرعى فلا تسم
كم حسنت لذة للمرء قاتلة — من حيث لم يدر أن السم فى الدسم(١)

ولا يفتأ البوصيرى يدس هذه النصائح فى طيات قصائده ، محاولا أن ينبه أذهان الحكام ، ويرشدهم برفق إلى الطريق الأمثل ، ففى قصيدته التى يمدح بها (قراسنقر) أحد قواد قلاوون الكبار ، نراه يسوق هذه الأبيات فى معرض الحديث عن الولاة ، منبها إلى أثر الوالى فى الرعية ، ومشيرا إلى أثر القدوة فى سلوك الناس :

وكل امرىء وليته فى رعية — بما فيه من خير وشر يؤثر
فمن حسنت آثاره فهو مقبل — ومن قبحت آثاره فهو مدبر
وكم سعدت بالطالع السعد أمة — وكم شقيت بالطالع النحس معشر(٢)

وفى قصيدته النونية التى يفضح فيها جرائم المستخدمين ، والتى عرضنا لها آنفا ، نراه يلتفت إلى الوالى الجديد قائلا

فلا تقبل عفاف المرء حتى — ترى أتباعه متعففينا

---

(١) الديوان ص ١٩١ ، ١٩٢ .
(٢) الديوان ص ١١٢ .

ولا تثبت لـه صرا إذا مـــــا غـــدت أثرامـــه متوليـــا
فإن الأصـــل يعـــرى عـن ثمـــار وأوراق ويكسـوها القضيبـا (١)

أليس هذا لونا من النصح غير المباشر للـــوالى الجديد ؟! أفـــلا يريـــد البوصيرى أن يقول : إنا سنحكم عليكم أيها الوالى بمن حولك من أتباع ، فإذا تعمروا حكمنا عليك بالعمة ؟!

ويقول له فى القصيدة نفسها :

إذا أمثالنا قبـــلوا المنايـــــا وصاروا يضجـــرون ويزرعونـــا
فـلم لا شاطروا فسيا استعـــادوا كما كان الصحابة يفعلونـــا (٢)

ومثل هذه الأبيات الأحيان فى شعر البوصيرى لا ينبغى أن نمر عليها مرا سريعا ، وإنما ينبغى أن نلتفت إلى ما يعنيه البوصيرى بها ، وما يقصد مـــن ورائها فى رسم المثل الأعلى ، وبيان الطريق الذى ينبغى أن يسلكه الحكام .

وهذه السبيل نفسها يسلكها ابن أبى حجلة التلمسانى فى كتابه «ديـــوان الصبابة» وقد كتب ابن أبى حجلة كتابه هذا للسلطان الناصر حسن الـــذى شغف بحب النساء ، ولذلك جعل ابن أبى حجله كتابه قائما على أخبار الحب والمحبين ، إلا أن ابن أبى حجله لا يفتى بين الحين والحين أن يدس النصيحة فى ثنايا كلامه ، محذرا السلطان من مغبة الانقياد للهوى ، وما يجر إليه من ضياع الملك ، وفساد أمر الرعية ، فيقول منبها السلطان ، مستشهدا بأمثلة من التاريخ لمن كان الهوى سرا فى زوال ملكه :

«ومنهم من مال بالراح اللذة المحظورة ، وأخرج بها وجنة الحبيب من صورة إلى صورة ، فجارى الندم فى الجريال ، ودعا إلى الحبيب سمو حباب اناء حالا على حال ، فأفضى به ذلك إلى هلكه ، وفساد ملكه ، كمـــا إتفق

---

(١) الديوان ص ٢٢٩ .
(٢) الديوان ص ٢٢٠ .

للأمين بن الرشيد وغيره ، قال الربيع : قعد الأمين يوما للناس ، وعليه طيلسان أزرق ، وتحته لبد أبيض ، فوقع فى ثمانمائة قصة ، فوالله لقد أصاب وما أخطأ ، وأسرع فما أبطأ ، ثم قال يا ربيع أتراني لا أحسن التدبير والسياسة ولكنى وجدت شم الآس وشرب الكاس ، والاستلقاء من غير نعاس أشهى إلى من مقابلة الناس . وكذلك خلع قبله الوليد بن يزيد وبعده المتوكل وغيرهم من الخلفاء ممن آثر راحة النفس على تعب السياسة» . (١)

ويقول فى موضع آخر :

«وكم مثله من ملك قاهر ، وسلطان قادر ، تذل لهيبته الأملاك ، وتذعن لسطوته الفتاك ، هدم الهوى أركانه ، وأذل عزه وسلطانه ، فقصر جفنه فى الليالى الطوال ، وأرقه مع حقله الحسن فى أسر الاعتقال» . (٢) وفى مكان آخر يحاول أن يلفت السلطان إلى أن شغفه بالنساء ينبغى ألا يصرفه عن الملك والقيام بأموره ، فيقول :

«وقد تقدم أن الملوك ليسوا كغيرهم فى العشق ، وأن الملك العظيم قد يعشق ، ولا يذهب به عشقه إلى ترك تدبير ملكه ، وهناك طبقة أخرى دون الملوك إذا عشقوا لم يتفرغوا لاشتغالهم بصنائعهم ، وطبقة أخرى يبخلون بأديانهم وعقولهم عن شغل قلوبهم بما لا يحل لهم ويحرم عليهم» . (٣)

وهكذا نرى ابن أبى حجلة كان يضع نصب عينه أيضا قضية الحكم ، ولذلك لا يفتأ بين حين وآخر منبها السلطان ، ذاكرا له مغبة الانسياق وراء الشهوات ، مبينا له السبيل التى ينبغى أن يسلكها الملوك ، ولكنه يؤدى كل

---

(١) ديوان الصبابة ص ٤٠ ، ٤١ .
(٢) ديوان الصبابة ص ٤٣ .
(٣) ديوان الصبابة ص ١٦٨ .

ذلك فى صورة رقيقة مهذبة ، ويوجه نصحه هينا خفيا لا يكاد السلطان يحس أنه موجه إليه ، وإنما هو يوقظ الفكر ، وينبه الوجدان .

ويندرج تحت هذا الخط ما لجأ إليه عبد الباقى اليمانى فى رسالته «زهر الجنان فى المفاخرة بين القنديل والشمعدان» . فما أظنه جعل الشمعدان إلا رمزا لأولى العز والجاه من رجال الدولة ، وما أظنه كذلك اتخذ القنديل إلا رمزا لأهل العلم والدين الذين يعانون الخصاصة والمسكنة ، ويتضح ذلك من وصفه لكليهما فالشمعدان بلجينى القوام ، أبيض الوجه ، يجالس الملوك ، وينادم الأمراء ، أما القنديل فهو معلق من أدنه فى مسجد أو زاوية ، مسود الوجه ، سيىء المظهر ، زهيد القيمة .

ويقدح اليمانى زناد المصاولة بين الخصمين ، فيأخذ الشمعدان فى الفخر ، متعاليا بنفسه ، متباهيا بحياله الذهبية ، وأنواره الشمسية :

«أين ثمنك من ثمنى ؟ ومسكنك من مسكنى ؟ صفائحى صفحات الإبريز فلذا حرمت عليك بالتحرير ، تقره العيون فى حمائل اللجينية ، وتسر النفوس بروغ أنوارى الشمسية ، ولا يملكنى إلا من أوطئته السعادة مهادها ،وقربت له الرياسة جيادها» .

ويرد القنديل فى ثقة الواثق ، محاولا أن يبين للشمعدان أن العبرة ليست فى الحمائل الذهبية ، والصفائح التى صنعت من الإبريز ، إنما العبرة بنقاء الباطن وعلو المكانة ، وعراقة النسب :

«تالله إنك فى صرفك بصفرك مغلوط ، لقد خصصت بالعلو وخصصت بالهبوط ، ترى باطنى من ظاهرى مشرقا ، وتمالى لخزائن الأنوار مطلقا فحديث سيادتى مسلسل ، وتاج فضائلى بجواهر العلو مكلل» .

ويحاول الشمعدان أن يدفع عن نفسه ، ويعلو خصمه ، ولكن القنديل يجيبه بالحقيقة التي تخرسه ، وترده إلى رشده :

ولقد أطلت الافتخار بمحاسن غيرك لما وقعت في المناظرة ركائب صبرك ، فاشكر اليد البيضاء من فعلك ، واحرص على معرفة قيمتك ووضعك ، وأما افتخارك بتلاوة سورة النور ، فأنا أحق بها منك ، إذ على الجوامع ، والفرقان فارق بيني وبينك مع أنه ليس بيتنا جامع ، فصيلتي فيه بينه وآية سوري في سورة النور مبينة ، فاقطع مواد اللجاجة ، واقرأ السورة المشتملة على آية الزجاجة ، يظهر لك من هو الأعلى ، ومن هو بالافتخار أولى» . (١)

وقد يمر قارىء على هذه الرسالة مرورا عابرا ، ولا يرى فيها غير واحدة من المفاخرات التي درج عليها جمهور الكتاب لترويض أقلامهم ، وبيان براعتهم وتملكهم لناصية اللغة ، ولكني أحس — كلما قرأت هذه الرسالة — أن وراءها شيئا ما ، ويخيل إلى أن الجاني يريد أن ينبه أولى الأمر إلى حقيقة غفلوا أو تغافلوا عنها ، هي أنهم يتباهون بما ليس فيهم ، ويتفاخرون بالثروة والأبوة — أصلا — ملك الناس ، ونتاج عرقهم ، فهم في ذلك كالشمعدان الذي يتباهى بشمعه ، ويفتخر بمحاسن غيره ، ثم إن الجاني — أيضا — حاول في هذه المفاخرة أن يرسي دعائم بعض القيم ، ويرد العيون التي خلبها بريق المال إلى الرؤية الصائبة ، والبصر السليم ، فالمال ليس كل شيء ، وإنما هناك الفضل والشرف والدين ، ولا ينبغي أن يكون المظهر هو كل ما يحرص عليه الإنسان ، فهناك الجوهر ونقاء الباطن .

وهل أية بعال صحن تقدم لمفاخرة الجاني بين قنديله وشمعدانه فيها جديدا ، ربما قصد إليه الجاني وربما لم يقصد ، ولكن إلى أي مدى يكون القارىء معكوسا

---

(١) الرسالة بكمالها في نهاية الأرب ج ٨ ص ١٢٥ — ١٢٩ .

بمقاصد الكاتب ؟ إن الكاتب فى بعض الأحيان لا تمكنه هذه المقاصد ، فهنالك تيار اللاوعى يتسرب فى ألفاظه وعباراته ومداد قلمه .

ومن الأدباء فريق استبد به اليأس ، وضاقت عليه الدنيا برحبها ، ورأى ألا سبيل إلى الخلاص إلا الموت ، بل إن منهم من تمنى الموت ، وغبط عليه أهل القبور ، ورآهم أسعد من الأحياء إذ هم على الأقل قد تخلصوا من أعباء الدهر ، وملاحقة الغرماء ، وإلى هذه المعانى يشير عبد الرزاق بن حسام القسطى بقوله :

طـوبى لسـكان القبـور لأنهم	حلـوا بساحة أكـرم الكرمـاء
فـازوا بتعجيـل القرى من ربهم	فى خفض عيش دائم النعمـاء
نالـوا المنى فى قربـه وجـواره	وتخلصـوا من منـة الغرماء (١)

وهذه الروح اليائسة نلمسها فى بعض شعر القيراطى ، فنراه يدعو إلى التواكل إذ السعى لا ثمرة ، له وإنما الأمر كله أمر حظ يخط مصائر الإنسان :

خليلى ليس الرزق يأتى بحيلـة	وكل رشـيد لم يـزل متوكلا
وسعد الفتى بالجد لا الجد فاطرح	فسارك بالآباء فى وسـط الملا
وكم عـالم حـط الحظيـظ بعلمـه	وكم جاهـل الـوح بالحظ قد علا
لها أنا للأيـام غـير محـارب	أصاحبهـا مستبشرا متهـللا
فإن كان حظى واسعا كنت واسعا	وإن كان حظى أعزلا كنت أعزلا (٢)

وربما قال قائل . وما علاقة هذه الأبيات بحال المجتمع ؟ إنما هى أبيات نسجها القيراطى على منوال أقوال الزهاد . ولكن ألا ترى معى أن القول

---

(١) الطالع السعيد ص ٣٢٠ .
(٢) الديوان ص ١٧٢ .

بالحظ هو ثمرة اضطراب القيم ، واختلال الموازين ؟ ألا ترى أن هذا معناه سقوط قيمة العمل والسعي ؟! ثم ألا تلمح ما في الأبيات من لمز وتعريض برق المماليك ؟ وكأن الشاعر يريد أن يقول إذا كانت الدنيا أعطت هؤلاء الأرقاء مجهولي النسب ، فدع حديث الأنساب فأمره لا يجدي صاحبه فتيلا .

وهذه الروح اليائسة تتراءى لنا في ثوب أو آخر ، وقد تقع عليها حتى عند هؤلاء الأدباء الذين عرفوا بالفكاهة والسخرية مثل الوراق والجزار ، وليس هذا بغريب فبين اليأس والسخرية صلة حميمة لا تغيب عن ذي فطنة . فاسمع لهذا الأنين يقطر من قول الوراق :

مولاي عز الدين لي حاجة　　　أنت تراها فرصة المنتهز
فبعت ذلا فسمي مسمرة　　　تجعلني آخذ رزقي بعسر (١)

واسمع لهذه النغمة الشاكية تمزج بيأس الجزار وكأنها رجع الأنين وذلك في قوله :

يا أغبياء الزمان هل لي　　　جرائم عندكم عظام
فشكم لا تزال غضبى　　　فلا سلام ولا كلام
والخبز الحبيب لا أراه　　　عيني من حبه حرام (٢)

وكانت السخرية سلاح كثير من الشعراء ، ولهم في ذلك طرائقهم وأساليبهم فمنهم من يكتفي بالغمزة الخاطفة في بيت أو اثنين ، ومنهم من يمعن في تضخيم العيب وتجسيد النقائص ، ومنهم من يلمز في خبث وهو آخذ في موضوع بعيد كل البعد كأن الأمر لا يعنيه أو كأن الأمر جاء عرضا .. وانظر إلى قول

---

(١) الدرر الكامنة / جـ ٢ / ص ٢٩٣ .
(٢) الدرر الكامنة / جـ ١ / ص ٥٦ .

البهاء زهير كيف يلمز الأتراك فى معرض حديثه عن أحد الثقلاء :

إن الرضى الـذى بليـت بـه ... أضعـافه الـكل غيـر مرضى

وكنت فى شـدة برؤيتـه ... كمسلم فى إسـار ذمـى

وبعـد جهـد خلصت مـن يده ... خلاص عظم من كف تركى (١)

وانظر إلى المعمار كيف يلمز الشهود فى معرض حديثه عن البراغيث :

ليـل البراغيث ليـل لا نفاد لـه ... لا بارك الله فى ليـل البراغيث

كأنهـن بجسمى مـذ حللـن بـه ... يد الشهود على مال المواريث (٢)

وسخر الشعراء مجون السلاطين ولهوهم ، واسمع لأحدهم وهو يسخر بالسلطان حسن وشغفه بالنساء :

لمـا أتى العاديـات وزلزلـت ... حفظ النساء وما قرا الواقعـة

فلأجل ذاك الملك أضحى لم يكـن ... وأتى القتال وفصلت بالقارعـة

لـو عامل الرحمن فـاز بكهفـه ... وبنصره فى عصره فى السابعـة

من كانت القينـات مـن أحزابـه ... عطعط بـه الدخـان نـار لامعـة

تبت يـدا مـن لا يخاف مـن الدعا ... فى الليـل إذ يغشى بجمع فى النازعة (٣)

وهذا معنى شاعر فقيه يدلنا عليه ما يذكره موريا من أسماء السـور القرآنية ولكن الذى نود أن نشير إليه هنا هو هزء الشاعر بالسلطان الذى استلانه مجالس النساء ، وحفلت مجالسه بالمغنين والمغنيات من أمثال «عطعط» و «الدخان» .

كذلك سخر الشعراء من ادعاء المماليك التدين ، وتسابقهم فى بناء المساجد

(١) الديوان ص ٢٠٣ .

(٢) روض الآداب للحجازى ص ٢٨٧ .

(٣) النجوم الزاهرة / جـ ١٠ / ص ٢٦٦ .

والسبيل ، ولابن مكانس أبيات يسخر فيها من الشيخ حين أنشأ سبيلا بالجامع العمري يقول فيها :

أنشأ المعظم الشيخ لما ارتقى ... ورقاه زادته في وزره

بالجامع العمري سبيلا وقد ... قالت لنا عنه بنو عصره

هذا سبيل حاله فاسد ... وزيره يرشح من قعره(١)

وأبرز الشعراء في سخرياتهم تلك المفارقات الصارخة بين غنى الأغنياء وفقر الفقراء ، حتى في طائفة الجنود فبينا هناك الأمراء و (خاصكية) السلطان يرفلون في ثياب الأطلس ، ويتوشحون بالمذهب والمطرز ، هناك أجناد الحلقة ممن لا يكادون يجدون قوت يومهم إلا بمشقة ، ولناصر الدين بن النقيب أبيات يتحدث فيها على لسان أحد جنود الحلقة ، ولعله هو نفسه كان واحدا منهم ، يقول فيها :

نحن إلا قطاعة الأجناد ... وبرلوات عسكر هذا الوادي

نحن إلا حكاية وخيال ... وحديث لحاضر ولبادي

نحن إلا غسالة لرواتب الدو ... ر قدور تفرغت وزبادي

نحن إلا زبالة صبها الزبا ... ل من فوق الكوم للوقاد

جردونا مما قطعنا فسردو ... نا وقد أحضروا إلى الأعداد

وعرضنا على براذين جيش ... ما استعدت لحملة وطراد

وأتينا من القماش بإبهام ... بطبع مرقع وكداد

وسروج تطاير الجلد عنا ... كان من تحتها من الأعواد

قد تبرت منها مياثرها البيـ ... ـد وخان اللباد عهد الركاد

---

(١) المنهل الصافي / جـ ٢ / ص ٢٠١ .

كشف الله ذلك الستر عنها   فرأينا عوراتهن بوادى
ورماح لم تختضل لطعان   وسيوف ما جردت لجلاد
صدئت فى الجفون من كثرة اللبث وملت بها لطول الرقاد
فهى لا فرق فى يد الفارس الكشحان منا أو فى يد الحداد
أترى من يكون فى هذه الحال مطيقا يبكار تلك البلاد (١)

وعلى الرغم مما استخدمه الشاعر فى أبياته من ألفاظ شعبية وتركية مما يعوقنا عن فهم بعض أبياتها فهما دقيقا ، فإنه ينجح إلى حد كبير فى إشعارنا بما عليه جنود الحلقة من فقر وعوز ، كما أنه أعطانا صورة لملابسهم الرثة ، وأسيافهم التى أكلها الصدأ ، وأشعرنا بمكانتهم من الجيش وسائر جنوده لهم لا يعدون ماء غسلت به القدور ، أو مزبالة جمعت ليوقد بها .

وفى سبيل إبراز هذه المفارقة بين الغنى الصارخ والفقر المدقع ، ونظرا لغياب روح التراحم والتكافل فى المجتمع اتخذ الشعراء من أنفسهم ومن حياتهم ودورهم مادة لما يعرضونه من صور ساخرة تجسد الفقر ، وتبرز عناء الناس ، ولعل الجزار وابن دانيال كانا فارسى هذه الحلبة المبرزين ، نقرأ شعرهما فى هذا المجال فنضحك ، ولكنه ضحك كالبكا كما يقول المتنبى .

وننظر إلى الجزار يصور نفسه فى يوم من أيام الشتاء ، وقد خلع ثوبه ليغسل ، وأخذ ينتظره حتى يجف لأنه لا يملك غيره :

لبثت ثوبى وقد زررت أبوابى   على حتى غسلت اليوم أثوابى
وقد أزال الشتا ما كان من حمقى   دعنى فمستوقد الحمام أولى بى
أنام فى الزبل كى يدفا به جسدى   ما بين جمر به ما بين أصحابى

---

(١) فوات الوفيات جـ ١ / ص ٣٢٩ ، ٣٣٠ .

أو فوق قــدر هريس أحرسهـــا ... مع الكلاب على دكان خلاب(١)

وانظر إليه يصف نصفيته التي حار معها وحارت معه ، وهو ما يــزال يرقعها ويخيطها بالعصر والدق والنشا :

لي نصفيــة تعــد مــن العمـــــر سنينا خيطتها ألف خيطـــه

لا تسلني عــن مشتراها قديمـــا ... صد قصلتها نشــاء بجملـــه

كل يوم يحوطهــا العصر والــد ... ق مــرارا وما تقــر بعملـــه

فهـي تعتــل كلما غسلوهـــا ... ويزيـل النشـاء تـلك العلـــه

أين عيشي بها القـديم وذاك الر ... فق فيهـا وخطـرتي والشملـه

حيث لا في أجنابها رقعـة قـــط ولا في أكمامهـــا قط وصلـه (٢)

ويعرض علينا ابن دانيال صورة لداره الضيقة المثقلة التي أصبحت مأوى للهوام والحشرات ، ويصور فراشه البالي وأثوابه المرقعة فيقول :

أصبحت أفقر من يــروح ويغتدي ... ما في يدي من فاقة إلا يـــدي

في مـــنزل لم يحــو غــيري قاعداً ... فإذا رقدت رقدت غير ممـــدد

مسق حـلي طراحة في حشوها ... قمـل كمثـل السمسم المتبـــدد

والفـأر يركض كالخيول تسابقت ... من كل جرداء الأديم وأجـــرد

هـــذا وكم من ناشر طــاوي الحشا ... يبدو كمثل الفاتــك المسترد

هـذا ولي ثـوب تـراه مرقعـــا ... من كل لون مثل ريش الهدهد(٣)

وفي أبيات أخرى يصف حاله وحال عياله وقد تأخر عنهم القمح :

إنني مذ تأخر القمـــح عـــني ... عاشــق كـل مخـزن فيه غلـه

---

(١) فوات الوفيات جـ ٤ / ص ٢٩٢ .

(٢) فوات الوفيات جـ ٤ / ص ٢٨٧ ، ٢٨٨ .

(٣) فوات الوفيات جـ ٢ ص ٣٣٢ ، ٣٣٣

إن سمعت الكيال يشدو بذكرى ... غلـة هاج فى فؤادى غلـــه

وسقاى إذا أثار غبـــارا ... أخبرا لو كحلت منـه بكحلـه

ورأيت الأطفـال مـن عـدم الخـبـز تغطى ولـو على قرص جله

تلك تشكو وتلك تدعو وهذى ... تجثى عـلى وهـى مدلـــه

فترانى ملتسق وعرسى تنـادى ... قم وعجل فليس فى القوت مهله

أنت زوج الفرانى لا عشت أم أنـت حكيم كما يقـال بوصلـه

ما ترينا قرصا سوى قرص شمس ... أفق تبـلو وشكتان الأهلـه

عسر للعرب لو يطالب مثلى ... يحليق لقمر من قرد حمله (١)

وما أظن الجزار وابن دانيال بلغا من الفاقة هذا الحد ، وما أظنهما أيضا قصدا مجرد الإضحاك ، وإنما كانا من الذكاء أن جعلا من الإضحاك شيئا أشبه بالضمير يبنا بسلان المبضع فى الجسد المريض .

---

(١) التذكرة جـ ١٤ ورقة ٥٣ .

الفصل الرابع

التيــارات العقـدية

١ — التصوف :

ازدهرت حركة التصوف فى مصر المملوكية ، وترددت أسماء عديد من أعلام التصوف فى هذا العصر من أمثال أبى الحسن الشاذلى وتلميذه أبى العباس المرسى ، والسيد ابراهيم الدسوقى ، والسيد أحمد البدوى ، وغير هؤلاء ممن ماتزال أسماؤهم تحتل مكانة بارزة فى وجدان الشعب المصرى إلى يوم الناس هذا .

كذلك نرى فى هذا العصر عديدا من الشعراء قصروا إنتاجهم على التصوف ومنهم على سبيل المثال عفيف الدين التلمسانى ، والجيمى ، وابن وفا .

والحقيقة أن المماليك روجوا لهذا التيار ، واحتضنوا به ، وقد سبقت الإشارة إلى علاقة الظاهر بيبرس بمتصوف يدعى «خضر» ونشير هنا إلى علاقة الناصر حسن بمتصوف آخر يدعى «المرماص» واعتقاده ببركته . (١)

ويعكس لنا الأدب الرسمى لهذا العصر رعاية الدولة المتصوفة ، وإحاطتهم بالهيبة والإجلال ، وإشعار الناس ببركتهم . فيقول ابن فضل الله العمرى فى وصيته لشيخ شيوخ الصوفية :

«ومثلك خير كله ، وسحاب لا يتقلص ظله ، ومن عندك فى هذا المكان

---

(١) الخطط المقريزى جـ ٢ / ص ٧ .

كلهم لك إخوان ، وهم على التقوى أعوان ، وكلهم كالشجرة يجمعها أصل واحد تفرعت منه أغصان . فاعرف لأهل السابقة حقهم ، ومنك وإلا فمن يطلب العرفان» . (١)

وكتب محيي الدين بن عبد الظاهر في عصر قيم حمام الصوفية ويدعى يوسف .

«وكم أثيل مستعملوه تعرف في وجوههم نضرة النعيم ، وكم تجرد مع شيخ صالح في خلوه ، وكم قال ولي الله (يا بشراي) به ليوسف حين أدلى في حوضه دلوه ، كم خدم من الصلحاء والعلماء إنسانا ، وكم ادخر بركتهم للدنيا وأخرى فحصل منهم شيئين مؤتزرا وعريانا» . (٢)

وهكذا نرى هذه الصفات التي خلعها كتاب الديوان على الصوفية من أنهم خير عصبة ، وأهل تقوى ، ومن أن الذي يسعى في خدمتهم لابد أن يحظى بشيء من بركتهم ، وهذا — لاشك — يعكس اتجاه الدولة ونظرتها المتصوفة .

ولكن سلاطين المماليك إذا كانوا قد روجوا التصوف ، واحتفوا برجاله لم يكن ذلك عن زهادة منهم ، ولكنه — فيما أعتقد — صرف للناس عن الدنيا حتى يستأثروا بها وحدهم . يقول الأستاذ الدكتور محمد زغلول سلام :

«وكان طبيعيا أن تتفق سياسة المماليك مع الاتجاه العام لفلسفة أصحاب الطرق الصوفية . وهي في جملتها انصراف عن الدنيا ، وزهد في الحياة والمال . حتى ينعم المماليك وحدهم بها دون سائر الخلق ، والناس بعد أن

---

(١) التعريف بالمصطلح الشريف ص ١٢٧ .

(٢) [illegible] لوحة ٢٤ وما بين القوسين إضافة من عندنا لأن المعنى لا يستقيم بدونها .

ينعموا بنعيم الآخرة ، ويكفيهم ذلك عن حرمان الدنيا» (١) وربما تنيظرف من الناس لما يرى إليه المماليك فسخروا منهم ، وأمعنوا في السخرية ، ومن ذلك ما نراه من قول محمد بن أحمد الاسكندراني المعروف بابن القوبة :

أعجامنا قد أصبحت قلوبهم	وجداً بحب الخانقسات خافقه
لا تعجبوا فكل كلب نابح	ولا يحب الكلب إلا خانقه (٢)

واختلفت نظرة الناس للتصوف والمتصوفة فبينا نرى من يعتقد في تقواهم ويقر بإخلاصهم في دعواهم إذ بنا نرى من يتهمهم بالكفر والزندقة، ويرميهم بالبطالة والكسل والفساد ، وتتردد في أدب العصر أصداء لكلتا النظرتين ، فهناك من الأدباء من تصدى للدفاع عنهم ، وهناك من أوسعهم سبا ولوما وتهكما وسخرية .

فالإدفوي واحد ممن تصدوا للدفاع عن المتصوفة ، وعما يدعونه من كرامات وخوارق ، وفي أبيات له يصفهم بأنهم أرباب المعارف ، وأن سرائرهم خالصة لله ، وأنهم قد وصلوا إلى مكان يعز على سواهم الوصول إليه والارتقاء إلى رحابه ، فلا مجال للاعتراض عليهم ، أو التشكك فيما يقولون :

إلا أن أرباب المعارف سادة	سرائرهم لله في طيها نشر
هم القوم حازوا ما يعز وجوده	وجازوا محلا دونها وقف الفكر
أطاعوا إله العرش سراً وجهرة	فمكنهم حتى غدا لهم الأمر
فهم في الورى غيث الورى معدن القرى	وهم في سماء المجد أنجمها الزهر
فللخلق عام واسع بين خيامهم	ولا تتبع ما قال زيد ولا عمرو

---

(١) الأدب في العصر المملوكي ج ١ / ص ١٩٣ .
(٢) الوافي بالوفيات للصفدي ج ٢ / ص ١٠٤ .

إذ طفت بين الحي تحمى وتتقى بأسياف عزم دونها البيض والسمر
ومن يتعرض يوما عليهم بأذيـــة يعود ومن نيل المنى كفه صفر (١)

ومن قبل الإدفوى وقف البهاء زهير يستنكر على من يقدح فى أمــر المتصوفة ، ويرى أن ذلك فعل سوء ينبغى على المرء أن ينزه نفسه عنه ، كما ينبغى عليه الا يخوض من أمر القوم فيما لا يعرف ، فهم رجال لهم حال مع الله لا يعرفها أحد :

أتقدح فيمن شرف الله قــــدره ومازال مخصوصا به طيب الثنا
لعمــرك ما أحسنت فيما فعلتــه وليس قبيح القول فى الناس هينا
نطقت فلم تحسن ولم تبق ساكتــا لقــد فاتك الأمر الذى كان أحسنا
دع القوم إن القــوم عنك بمعزل وإنك من هذا الحديث لفى غنى
رجــال لهم حال مع الله خالــص ولا أنت من ذاك القبيل ولا أنا(٢)

وكانت آراء ابن عربى وما ذهب إليه من القول بوحدة الوجود ماتزال تثير حولها كثيرا من الجدل والاختلاف ، فمن الناس من يكفره ، ومنهم من يرفعه مكانا عاليا . ونرى الصفدى يهب للدفاع عن آراء ابن عربى لمــا قرأ كتابه الفتوحات المكية ، مبينا أن هذا الكتاب ليس فيه ما يخالف العقل أو النقل ، وأنه يدور حول معتقد الأشعرى ، أما ما يتنادى به الناس من أمر هذا الكتاب فهو حسد لصاحبه ، وحقد على منزلته العالية :

ليس فى هذه العقيدة شــــىء يقتضيـه التكليب والبهتـــان
لا ولا ما قـد خالف العقـل والنقـــل الـذى أتى بـه القـــرآن
وعليهــا للأشعــــرى مــدار ولهـا فى مقـــاله إمــــكان

---

(١) الطالع السعيد ص ٢٠١ .
(٢) الديوان ص ٢٦٣

وعلى ما ادعاه يتجه البحث ويأتى الدليل والبرهان
بخلاف الشائع عنه ولكن   ليس يخلو من حاسد إنسان(1)

وعلى الجانب الآخر ، يرى من يتهم الصوفية بأنهم أهل كسل وبطالة . يقول ابن تيمية ساخرا على لسانهم :

والله ما فقرنا اختيار   وإنما فقرنا اضطرار
جماعة كلنا كسالى   وأكلنا ماله عيار
تسمع منا إذا اجتمعنا   حقيقة كلها فشار(2)

ويرميهم الشيخ فتح الدين بن سيد الناس بفاحش القول مشيرا إلى ما هم عليه من الادعاء وإتيان المنكرات :

ما شروط الصوفي في عصرنا اليوم سوى ستة بغير زيادة
هي نيك العلوق والسكر والسطلة والرقص والغنا والقياده
وإذا ما هذى وأبدى اتحادا   وحلولا من جهله أو أعاده
وأتى المنكرات عقلا وشرعا   فهو شيخ الشيوخ ذو السجاده(3)

وقول ابن تيمية وابن سيد الناس يعكس موقف الفقهاء من المتصوفة ، ولسنا بحاجة إلى الإشارة إلى تلك الخصومة التى احتدمت بين الفريقين ، وكانت ماتزال محتدمة الأوار فى هذا العصر ، ومازال كلا الفريقين ينظر إلى الآخر فى ازدراء وتحقير ، وانظر إلى قول البوصيرى ، وهو يعكس رأى المتصوفة فى الفقهاء :

قل للذين تكلفوا زى التقى   وتميزوا للناس ألف تجلد

(1) الوافى بالوفيات جـ ٤ ص ١٧٥ .
(2) البدر الطالع الشوكانى جـ ١ / ص ٧٢ .
(3) الخطط للمقريزى جـ ٢ / ص ٣٢٥ .

لا تحسبوا كحل العيون بحيلة　　　إن المها لم تكتحل بالإثمد
ما النحل ذللت العناية سبلها　　　مثل الحمير تقودها للمورد(١)

فهو يرى أن علم الصوفية علم لدنى قذفه الله فى قلوبهم ، وأعفاهم من عناء الطلب والدرس فهم كالمها لم تكتحل ولكنها كحيلة العيون ؛ وهم كالنحل ذلل الله لها سبلها ، بخلاف الفقهاء الذين يتكلفون ذلك كالحمير التى تقاد دون أن تعرف طريقها .

إلا أن هناك من الفقهاء من اعتقد فى الصوفية اعتقادا حسنا ، ودافع عنهم ، وعما يدعونه من كرامات وخوارق ومن هؤلاء الفقهاء تاج الدين السبكى (٢) ومع ذلك فهو يرى أنه قد اختلط بالمتصوفة من ليس منهم ، ودخل فى صفوفهم قوم ليسوا من التقوى فى شىء جعلوا من دخول الخوانق وظيفة تحصل بها الدنيا ، لذلك نراه يفضح هؤلاء الدخلاء ، ويرميهم بشنيع القول :

ولهؤلاء القوم إذا اتخذوا الخوانق ذريعة للباس الزور ، وأكل الحشيش ، والانهماك على حطام الدنيا ، لا سترهم الله ، وفضحهم على رءوس الأشهاد (٣)

والحقيقة أن مجتمع الصوفية قد اتسع لقوم لم يكونوا من الزهادة فى شىء ولم يكونوا على إدراك بمعتقدات القوم ، فتشوشت فى رءوسهم كثير من الأفكار ، ولعل ابن أبى حجلة التلمسانى كان يقصد بعض هؤلاء حين راح يعرض بجهلة الصوفية ودعواهم فى الحب الإلهى . وتنزيلهم له منزلة الحب

---

(١) الديوان ص ٧٦ .
(٢) انظر معيد النعم ص ١١٩ — ١٢١ .
(٣) معيد النعم ص ١٢٥ .

البشرى وما يكتمه من غيرة المحب على المحبوب ، وذلك فى قوله «وهذه الغيرة تختص بالمخلوقين ولا تتصور فى حق الخالق لأنه سبحانه يجب على جميع المخلوقين أن يحبوه ويذكروه ويجلوه خلافا لبعض جهلة الصوفية ممن كان إذا رأى من يذكر الله أو يحبه يغار منه ، وربما أسكته إن أمكنه ، ويقول غيرة الحب تحملنى على هذا ، وإنما ذاك حسد وبغى وعدوان ، ونوع معاداة لله ، ومراغمة لطريق رسله ، أخرجوها فى قالب الغيرة ، وشبهوا محبته بمحبة الصور». (١)

وتفشت بين هؤلاء الدخلاء كثير من الأمراض الخلقية ، وانهمك كثير منهم على الحشيشة وغيرها من المفاسد ، لذلك كثر تعريض الأدباء بمثل هؤلاء من مدعى الزهد والتصوف ، فنرى سيف الدين المشد يعيب على الصوفية أكلهم الحشيش ، ويشبههم بالدواب :

أرى فقراءنـــا مـــن كـــل علـــم	ومن دين دوابـا فى ثيـــــاب
يراعـون الحشيشـة حيث كانت	وهل يرعى الحشيش سوى الدواب (٢)

ويسخر ابن دانيال الموصلى من صاحبه ابن قلبة الذى ترك اللهو مزمعا التصوف ، ويبدأ ابن دانيال معلنا حزن مجالس اللهو على هذا النديم المفارق ، ثم ينتقل فيسخر من زهده الذى هو زهد التصنع والرياء :

وإذا ما خطــوت فى خطـوة المسجد قـل المريـد عنـدى ضيـوف
وإذا ما اخرجت كيسك بالمطعــوم قـل الحصور هذا صفـوف

---

(١) ديوان الصبابة ص ٧٣ .
(٢) الديوان ص ٢٥

حبذا زهدك التليد فما أنت به في الشيوخ إلا طريف

ويخرج القول قليلا قليلا إلى الفحش ، وتبلغ السخرية مداها ، ويبدو لنا هذا الشيخ في النهاية وقد استبدل لونا من الفسق بلون آخر يقول ابن دانيال

أترجى منك الرجوع قريبا طمعا فيك واغب عطوف
لا تقل قد لبست صوفا فإن الكبش جلبابه من القرن صوف
يطرب الضأن وهو مثلك في الألحان أسماع قومه والخروف
طار منك القميص في حلقة الذكر أسى زهد ولاتك المتصوف
هبك بدلت بالمدام حشيشا ثم آوى إليك خلق ثقيف
وتفننت في عصيرة جلدا بعد جلد حتى يضج الكنيف
كيف يكفيك بعد أكلك الحلوا ء واللحم دقة ورغيف (١)

ولاشك أن هذه الأبيات تصور بعض الأمراض الخلقية التي تفشت في مجتمع المتصوفة آنذاك . إلا أننا ينبغي ألا نضيف أمثال هؤلاء من الدخلاء على مجتمع الصوفية أو على فكره ، ونحن بصدد دراسة الفكر الصوفي متمثلا فيما لدينا من أدب هذا العصر .

وحركة التصوف في مصر المملوكية ينبغي ألا تعزل عن إطارها التاريخي فهي ثمرة لشجرة تضرب بجذورها في أعماق القرن الأول الهجري حين بدأت الطريق تنحرف بالمسلمين عن الجادة التي مضى عليها الرسول — صلى الله عليه وسلم — وخلفاؤه الراشدون .

ومنذ ذلك الحين وهذه الشجرة آخذة في النماء ، تعلو فروعها ، وتتكاثر

---

(١) القصيدة كاملة في المذكرة الصفدية — ١٤ ورقة ٥٥ .

أغصانها كلما اضطرمت نيران الصراع فى العالم الإسلامى ، وكلما فشا الجور ، واستبد الحكام ، وكأن هذه الشجرة إصبع احتجاج أو إدانة موجهة للواقع الإسلامى .

وأصبح المتصوفة ، يوما بعد يوم ، يتباعد ما بينهم وبين الواقع ، وكان الشعار الذى تقشو على لوائهم «الفرار من الدنيا» كما يقول جولد تسيهر (١) وأصبحوا يتمثلون بعبارة تقول «وجودك ذنب لا يقاس به ذنب آخر» (٢) ، ثم جاء المتكلمون والفقهاء فزادوا من هوة الاغتراب الصوفى عما إنتهى اليه أمر الدين على أيديهم فالفقهاء حولوه إلى أمور شكلية ، والمتكلمون أشاعوا البلبلة فى الأفكار . (٣)

وهكذا أخذ المتصوفة عبر هذه القرون يطلبون لأنفسهم عالما آخر يستعيضون به عن الواقع ، ويلتمسون طريقاً آخر للمعرفة غير طريق العقل ومن ثم فتحوا نوافذهم لفلسفات وافدة ، وثقافات غريبة من هيلينيةومسيحية وغنوصية (٤) ما لبثت أن امتزجت بثقافاتهم الإسلامية ، وتخلق من كل أولئك على آخر تطالعنا به الآداب الصوفية .

وربما كان من المفيد هنا أن نشير إلى دور مصر فى ارساء قواعد الفكر الصوفى وبلورتها حتى ذهب بعض الباحثين إلى أن التصوف مصرى النشأة(٥) وعلى أى حال فإن مجتمع مصر المملوكية ، وما كان عليه من اختلال

---

(١) العقيدة والشريعة فى الاسلام ص ١٣١ .

(٢) العقيدة والشريعة فى الاسلام جولد تسيهر ص ١٣٧ .

(٣) انظر : التصوف ثورة روحية فى الاسلام . ابو العلا عفيفى — ص ٧٥ وما بعدها

(٤) Nicholson, R.A.A Literary History of Arabs p. 388—390

(٥) آدم متز : الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع جـ ١ ص ١١ .

وفساد مد شعلة هذا الاغتراب الصوفى بزيت جديد ، فتوهجت نارها ، وسعى إلى ضوء هذه النار خلق كثير ممن أثقلت كاهلهم الحياة ، ورأوا فيها شرا لا صلاح له . فسلطة عسكرية مستبدة متناحرة ، تستأثر دون الشعب بكل شيء ، ومجتمع يرهقه الضعف والذل ، وتفشت فيه الأمراض الخلقية من نفاق ووصولية ، واستغلال واعتلال . وعلماء تهاونوا فى أمر الدين وأصبحوا يرخصون للأمراء مالا يرخصونه لعامة الناس . (١)

وعالم التصوف فى مصر المملوكية عالم زاخر تطل عليه من خلال أدب الصوفية هذه الحقبة . على أن النفاذ إلى هذا العالم ليس سهلا فهو عالم محوط بالألغاز والرموز ، والمتصوفة لهم مجتمعاتهم الخاصة ، فقد عاشوا فى زواياهم وخوانقهم على نمط متميز فى الطعام والذكر والصلاة . وقد أورد ابن بطوطة وصفا مفصلا لهذه الحياة . (٢) وما أظن الحياة فى هذه الزوايا والخوانق إلا تعلقا بالمثل الأعلى للروح الإسلامية التى جمعت بين المهاجرين والأنصار فى مجتمع المدينة على عهد الرسول عليه الصلاة والسلام .

وقد حرص المتصوفة إمعانا منهم فى الاغتراب أن تكون لهم لغة خاصة ، ورموز يجهلها غيرهم . ولنقرأ هذه الرسالة التى كتبها السيد إبراهيم الدسوقى إلى بعض مريديه :

«سلام على العرائس المنشورة فى ظل وابل الرحمة ، وبعد فإن شجرة القلوب إذا اهتزت فاح منها شذى يغذى الروح فيستنشق من لا عنده زكم ، فتبدو له أنوار وعلوم مختلفة ، مائعة عجمية ، معلومة لا معلومة ، معروفة لا

---

(١) انظر معيد النعم ومبيد النقم ص ١٠٢
(٢) رحلة ابن بطوطة — ٢ ص ٢٠ ط ١٩٥٨ ، ١٣٧٧ هـ .

معروفة ، غريبة عجيبة ، سهلة شفة ، فائقة طعم ورائحة وشم ميم على جميل جهد رايب علوب ، معط ، بوط ، هوبط ، سهيط ، حرموا محيط ، غلب عن ، عسب ، غلب ، عرماد ، علمود ، على ، عروس ، علاس ، مسرود ورقد ، قد ، قرسم ، سباح ، سبح ، صبوخ » . (١)

وطبيعي ألا نفهم شيئا من ذلك . فهذا كلام أشبه بالرقى أو التعاويذ السحرية التى يستدعى بها صاحبها قوى مجهولة .

ولم يقتصر أمر الغموض والإلغاز على مثل هذه الرسائل النثرية ، بل نجده فى بعض أشعار القوم ، ولنقرأ معى السيد محمد بن وفا قوله فى تائيته

وفى كل ذوق ذقت كل مذاقة   فى لذة اللذات فى كل لـــذة
بكاسات كيس كل كاس وكيس   على كل شرب طاب من لطف شربتى
فسكران سكرى لسكر السكر سكره   فى كل سكران تساكر سكرتى
وصحوى بعد السكر كالصحو قبله   وفى سكرتى صحو يصحح صحوتى
فسكرى بصحوى بعد كون تكونى   وصحوى بسكرى قبل نشأة نشوتى(٢)

فنحن فى هذا النسيج الصوفى نحس أننا إزاء عالم خاص تحولت فيه الألفاظ عن وظيفتها الأصلية من الإفهام والتوصيل إلى وظيفة أخرى من الإيحاء والإيهام عما تلقيه فى روع السامع من خلال تكوينات صوتية معقدة .

هو — إذن — عالم غامض ، وكأن المتصوفة أرادوا أن يجعلوا هذا العالم وقفا عليهم وعلى مريديهم ، وإلى هذا يشير القشيرى فى رسالته إذ يقول .

---

(١) الطبقات الكبرى للشعرانى حـ ١ ص ١٦٧
(٢) الديوان المنسوب إلى سيدى محمد بن وفا ورقة ٨٧ مخطوط ببلدية الاسكندرية

«وهذه الطائفة مستعملون ألفاظا فيما بينهم قصدوا بها الكشف عن معانيهم لأنفسهم ، (والإجماع)» والستر على من باينهم فى طريقتهم لتكون معانى ألفاظهم مستبهمة على الأجانب غيرة منهم على أسرارهم أن تشيع فى غير أهلها» . (١)

ولا تظن عالم المتصوفة قائماً على غير نظام ، وإنما هو قد نظم بدقة بالغة ، فهو عالم يرأسه قطب الغوث الذى يحكم سبعة أقطاب ، يحكمون بدورهم سبعة أبدال ، هم بدورهم يحكمون أربعة أوتاد . فإذا مات قطب الغوث حل قطب من الأقطاب مكانه ، وحل بدل من الأبدال مكان القطب ، وحل وتد مكان البدل ، وعلى قمة هذا العالم الباطنى يشرف الخضر ، يقول الأستاذ الدكتور محمد زغلول معلقا على ذلك . «ومن هذا التقسيم أو البناء التصاعدى الهيراركى* يتضح أن عالم الصوفية ملك قائم بذاته فى دنيا الحقيقة على رأسه الخضر ، ومن تحته مساعدون وأتباع من الأغوات والأبدال والأبواب والأقطاب ، وأرفع هؤلاء درجة من كان يعيش بمكة مجاورا ، ولهذا كان أمل الصوفية وغايتهم جوار مكة زمنا لينالوا الحظوة فى بيت الله . وهناك يكونون أقرب ما يكون إليه» . (٢)

والخضر الذى يشرف على هذا العالم إنما هو تجسيد لفكرة الخير المطلق ، والمعرفة الكاملة ، والمتصوفة يزعمون أن الخضر هو الذى صاحب موسى — عليه السلام — فى رحلة البحر ، غير أن القرآن الكريم لم يرد فيه هذا الاسم . وأظنه تسرب إليهم من بعض الأساطير القديمة عن الإسكندر ذى القرنين الذى شرب طاهيه من ماء الخلود فاخضر لونه ، ومن هنا سمى بالخضر .

---

(١) الرسالة القشيرية ص ٣١ .

* هكذا فى النسخة التى بين أيدينا ولعلها بالإسبانية .

(٢) الأدب فى العصر المملوكى جـ ١ ص ١٩٩ .

ولعل الصوفية أقاموا الخضر فى عالمهم مقابلا لإبليس الذى يجسد فكرة الشر . ومما يدل على ذلك قول ابن عطاء الله السكندرى

«فاعجبوا — رحمكم الله — لرجل يصدق بطول بقاء إبليس وينكر طول بقاء الخضر» . (١)

وعلاقة الخضر بالولى — فى معتقدهم — كعلاقة جبريل بالرسول يمده دائما بمدد حاوى كما يقول محمد بن وفا :

لـكل ولى فى الـورى خضر كما لـكل رسـول جبريـل بنسبـة
لـه يتجـل مـن فـرط قـطعـه وإبليس حق لا تراب بريبـة (٢)

وينبغى ألا نقيس كل أمور الصوفية بمعايير الدين ، ولا أن نتصدى لكل ما يقولون أو يدعون بما فى يدينا من كتاب الله وسنة رسوله ، وإنما ينبغى أن نأخذ كثيرا من حديثهم على أنه ألوان من التصوير الفنى ، فما الخضر وغير الخضر إلا تجسيدات فنية لأحاسيس وطموحات تعيش فى نفوسهم . وهى — فيما أعتقد — تمثل واقعا وجدانيا لا واقعا دينيا (٣)

«بمنطق الفن وحده ينبغى أن نناقش ما يحكيه الصوفية من كرامات ، وخوارق فهى ليست إلا لونا من ألوان التعبير الفنى «يصعد بالإنسان فوق حدود طاقته البشرية ، ولا يتخذ من عالم الحس حدودا لعمله ، وإنما يسخره للتعبير عن نزعاته وتصوراته ومعانيه العليا ، فيرمز من خلاله إليها حينا ، ويصورها حينا آخر . تلهب العاطفة المشبوبة خياله فتدفعه إلى المطلق الذى يقصر العقل دون إدراكه .» (٤)

---

(١) لطائف المنن ص ٨٣ .

(٢) الشهرات المنسوب لابن وفا ص ٨٠ .

(٣) انظر : عيار الحب عند الصوفية — لمحمد بهجت ص ٥٢ ، ٥٣ .

(٤) لمحات من تاريخ الحياة الفكرية المصرية قبل الفتح العربى وبعده د. عبد الحميد عابدين ص ١٢٢ .

وإذا نظرنا إلى الكرامات التي يرويها الصوفية عن عارفيهم وأوليائهم وجدناها جميعا تنبع من منبع واحد ، وتتجه وجهة واحدة ، بل كثيرا ما تنسب الكرامة الواحدة لأكثر من ولي ، وعلى هذا فهي جميعا تتعاون على إبراز صورة واحدة بصرف النظر عن تنسب ، ومن ثم ينبغي أن ننظر إليها كلها على أنها لوحات فنية يكمل بعضها بعضا ، وتعطينا في النهاية صورة الولي أو العارف أو (البطل) الذي يتشوف إليه الصوفية ليزيل ما بهذا الكون من شرور ، ويصلح ما به من فساد .

ولأن الفساد قد استشرى في الكون فلابد أن يكون هذا البطل خارق الأعمال والصفات ، لا تقيده قيود ، ولا تعوقه عوائق ، أيا كان كنه هذه القيود والعوائق ، وسواء تمثلت في الزمان والمكان ، أم تمثلت في الجسد الكثيف وقيوده ، ولابد - أيضا - أن يكون هذا البطل مؤيدا بقوى علوية تعينه وتحفظه ، وتحطم أمامه الصعاب .

ويروق الصوفية أن يسبق ميلاد ذلك البطل شيء خارق لأنه انسان خارق أو بنوءة تنبأ بحدث عظيم لأن ميلاده حدث عظيم . لقد قيل - فيما قيل - عن التبشير بمولد السيد إبراهيم الدسوقي :

«إن العارف بالله تعالى محمد بن هارون صاحب الوقت بسنهور بالقرب من دسوق منشأ الأستاذ كان إذا رأى والد الأستاذ أعني أبا المجد قام له ، ثم ترك ذلك ، فسئل ، فقال : ما كان القيام له بل كان لبحر في ظهره . وقد انتقل إلى زوجته » (١)

---

(١) لسان التعريف بحال الولي الشريف - أحمد جلال الكركي ص ٢٣ ، ٢٤ .

فكأن الدسوقي هو الكلمة (Logos) ، أو النور الذي ينحدر في الأصلاب ليكون خليفة الله في الأرض ، أو الرجل الإلهي .

وتمضي الرواية فتأتي بخارقة أخرى ، فهذا الطفل الوليد ولد يوم وقوع الشك في هلال رمضان فقال ابن هارون :

«انظروا هذا الصغير هل رضع اليوم ؟ فأخبرت والدته أنه من الأذان قد فارق ثديها ولم يرضع» . (١)

فتحقق من أن ذلك اليوم هو أول رمضان ...

وهكذا تمضي الرواية ، ولعلنا نشم فيها ريحاً مسيحية ، ولكنها رؤية الفن لهذا البطل المرتقب الذي يخلص العالم من شروره .

وحين يبلغ الوليد (البطل) أربع سنوات تطوى له الأرض من المشرق إلى المغرب ، ويجول في الملكوت ، ويجيء إلى سدرة المنتهى ، ويكشف له عن اللوح المحفوظ ، فتنحل له طلاسم الأشياء ، وتصبح الدنيا في يده كحلقة الخاتم يحرك فيها ما يحرك ويسكن ما يسكن . (٢)

هو إذن إنسان اصطفاه الله لهذه المهمة فجذبه إليه ، وأفنى فيه رغباته الشهوانية المتمثلة في جسده ، يقول الدسوقي :

«لقد أخذني حبيبي من إياي ، وسلبني عن معناي ، وأفناني عن فناي»(٣)

وهذا الولي مزود بقوى خارقة فهو يطير في الهواء ، ويمشي على الماء ،

---

(١) لسان التعريف بحال الولي الشريف ص ٣٩ .
(٢) أنظر المصدر نفسه ص ٤٠ ، ٤١ .
(٣) المصدر نفسه ص ٤٠ .

ويفهم لغة الوحش والطير ، ويتكلم بكل لسان ، وتسخر له الجن ، ويتحمل مالا يقدر عليه بشر من الجوع والعطش ، وهو - فضلا عن ذلك - قادر على التنبؤ عما كان وما سيكون .

ومع أن الولى أتيح له فى نظر الصوفية طى المكان والزمان ، فهم يرون أن الأهم من ذلك قهر الولى لنفسه وهواه ، وهم فى ذلك يجسدون تعلقهم بالمثل الأعلى الذى يطمحون إليه فى البطل المخلص ، وربما كان ذلك لعظم إحساسهم بأن فساد العالم لم يأت إلا من انغماس حكامه فى الترف ، واستجابتهم لنداء الرغبة فى أجسادهم .

يحكى عن أبى العباس المرسى أنه قال :

« كنت ليلة من الليالى جالسا بالإسكندرية اكتب كتابا لبعض أصحابنا وإذا بالشيخ خليل هنا فى الهواء (يقصد خليل التشيلى) فقلت له : إلى أين انتهيت فى سياحتك فى هذه الليلة ؟ فقال : خرجت من تشيل ، وانتهيت إلى جبال الزيتون بالمغرب الأقصى . وأنا أريد أذهب إلى بيت المقدس . وأعود إلى بلدتى ، ولو بسط لى أكثر من ذلك لانبسطت . قال الشيخ فقلت له : ليس الشأن أن تذهب إلى جبال الزيتون وتعود من ليلتك ولكن أنا الساعة لو أردت أن آخذ بيدك ، وأضعك على وقاف، وأنا هنا فعلت » (١)

أرأيت إلى أبى العباس يستهين بالتشيلى وقد طويت له الأرض ذات الطول والعرض ؟ وما ذلك إلا لأنه يرى أن العبرة بطى النفوس لا بطى الزمان والمكان فالشيطان - على حد قول أحد أقطابهم - يمشى فى ساعة من المشرق إلى المغرب . (٢)

---

(١) اللطائف المنن ص ٩٧ .
(٢) المصدر جامع كرامات الاولياء ٤٦ .

فالطي إذن نوعان ، طي أكبر ، وطي أصغر ، أما الأصغر فهو طي الزمان والمكان ، وأما الأكبر فهو طي أوصاف النفوس ، والعزوف عن رغبات الجسد . ولعل هذا هو ما عبر عنه البوصيري حين وصف أبا العباس بقوله :

مغرى بقتل النفس عمداً وهو لا	يعطي إلى القود القياد ولا اليد
لله مقتول بغير جناية	كلف بحب القاتل المتعمد
ما زال يعطفها على مكروهها	حتى زكت وصفت صفاء العسجد
وأجيب داعيها لرد مشرد	من أمرها طوعا وجمع مبدد
لم تترك التقوى لها من عادة	ألفت ولا لمريضها من عود(١)

ولما كان حكام الأرض قد عتوا في تجبرهم وبغيهم ، وانتفت الرحمة من قلوبهم ، فينبغي أن يكون الولي ممثلا للصورة المقابلة من الرحمة والإيثار ولنقرأ هذه المناجاة للدسوقي :

«اللهم إن كنت خلقتني من أهل الجنة فلك الحمد ، وإن كنت خلقتني من أهل النار فضخم الله بدني . قيل لي : يا إبراهيم ، وما مرادك بتضخيم البدن ؟ قلت : يارب حتى لا يدخل أحد جهنم غيري فأكون فيها موحدا فداء جميع خلقك» . (٢)

أرأيت إلى هذا الحوار النفسي الذي يسميه الصوفية مقاما من مقامات التجلي ؟ فهل هذا التجلي إلا جلاء النفس ، وانطماس ما بها من الأثرة ، وسمو الإنسان على ذاته ، ووأده لصوت «الأنا» في داخله ؟ فإذا كان ولابد من عذاب فليحمل هو وحده عذاب البشر ، وليكن هو مخلصهم من الخطايا .

---

(١) ديوان البوصيري ص ٧٥ .

(٢) لسان التعريف بحال الولي الشريف ص ٤٦ .

وقد يفيد الشعر الذي نظمه من اعتقد المتصوفة في قطبانيتهم في إكمال بعض جوانب هذه الصورة أو إيضاحها . يقول السيد أحمد البدوي عن نفسه :

لم يشرب العشاق من خمر الهوى   إلا بقية قطرة من طينتي
سكروا بها فتهتكوا وتستروا   وأنا طويت الحب تحت طويتي
فقرأت من توراة موسى تسعة   تليت على موسى لها لم يثبت
وقرأت من إنجيل عيسى عشرة   تليت على عيسى فزادت رفعتي
وقرأت من نهج الغرام مسائلا   ورأيت فيها من شواهد فطنتي

ثم :

أنا صاحب الناموس سلطان الورى   أنا فارس الأمجاد حامي مكة
أنا أحمد البدوي غوث لا خفا   أنا كل شبان البلاد رعيتي (١)

ويدور الدسوقي حول هذه المعاني فيقول :

نعم نشأتي في الحب من قبل آدم   وسري في الأكوان من قبل نشأتي
أنا كنت في العلياء مع نور أحمد   على الدرة البيضاء في خلوتي
أنا كنت في رؤيا الذبيح فداءه   بلطف عنايات وعين حقيقة
أنا كنت مع إدريس لما أتى العلا   وأسكن في الفردوس أنعم بقعة
أنا كنت مع عيسى على المهد ناطقا   وأعطيت داودا حلاوة نغمة
أنا كنت مع نوح بما شهد الورى   بحاراً وطوفانا على كف قدرة
أنا القطب شيخ الوقت في كل حالة   أنا السيد إبراهيم شيخ الطريقة (٢)

وسنقول : هذه هي فكرة الحقيقة المحمدية التي نادى بها المتصوفة ، والتي

---

(١) الأدب الصوفي لعلي صافي حسين ص ٢٧٠ .
(٢) الأدب الصوفي د. علي صافي حسين ص ٢٧٢ .

تعني أن الولي نطفة مطهرة حلت في ظهر آدم ، وتقلبت في الأصلاب الطاهرة حتى تجسدت في شخص العارف . وسيقال : إن المتصوفة في ذلك تأثروا بالمسيحية وتصورهم الكلمة « Logos » . وسيقال : إن هذا أثر من آثار الشيعة وتصورهم للإمامة . ونحن نسلم بكل هذا ، ولكنه لا ينفي أن ذلك التصور الذي رأيناه في شعر الأقطاب هو أولا وقبل كل شيء واقع نفسي يعيشه العارف ، فيشعر بالانتشار عبر الزمان والمكان ، وبتجاوزه الحدود المعروفة في عالم البشر ، بل ربما أحس أنه ملك الأرض كلها ، وحاكم الإنس والجان والأشباح ، فهو الإنسان الكامل الذي أعطاه الله مقاليد الكون ، وعاهده على خلافته في الأرض كما يقول الدسوقي :

وعاهدني عهـداً حفظت لعهده	وعشت وربا صادقا بمحبتي
وحكمني في سائر الأرض كلها	وفي الجن والأشباح والمردية
وفي أرض صين الصين والشرق كله	لأقصى بلاد الله صحت ولايتي(١)

هذه هي صورة الولي أو العارف التي عاشت في وجدان المتصوفة ورأوا فيها تصويرا لبعض طموحاتهم التي أصابها الإحباط في دنيا الناس .

وإذا كانت السعادة العظمى هي غاية الصوفية على حد قول الدكتور توفيق الطويل (٢) ، فإن هذه السعادة لا تتحقق إلا بسلوك طريق طويل أو معراج روحي ينتقل فيه السالك من مقام إلى مقام ، ومن مرحلة إلى مرحلة . وفي أثناء ذلك تعتريه أحوال ومواجد . ولذلك كان الصوفية يرون أنفسهم دائما أهل سفر .

---

(١) الأدب الصوفي د. علي صبح ص ٣٧٩ .

(٢) فلسفة الأخلاق عند الصوفية . مقال في كتاب محيي الدين بن عربي ـ كتاب الذكرى التذكارية ص ١٦٤ .

وبالمجاهدة تتم حرية الانسان ، حيث ينتصر على رغباته وشهواته ، ويقطع رجاءه بدنيا الناس . فهى سعادة إذن منتطها الحرية ، والحرية فى نظر المتصوفة كما عبر عنها القشيرى هى «أن لا يكون العبد بقلبه تحت رق شىء من المخلوقات لا من أعراض الدنيا ولا من أعراض الآخرة فيكون فرد الفرد لم يسترقه عاجل دنيا ، ولا حاصل هوى ، ولا آجل منى ، ولا سؤال ولا قصد ولا أرب ولا حظ» . (١)

ومن هنا دعا المتصوفة إلى الهرب من دنيا الناس خيرها وشرها . يقول أبو الحسن الشاذلى : «اهرب من خير الناس أكثر مما تهرب من شرهم فإن خيرهم يصيبك فى قلبك ، وشرهم يصيبك فى قالبك ، ولأن تصاب فى بدنك خير من أن تصاب فى قلبك» . (٢)

ومن هنا أيضاً كانت دعوتهم إلى تحقير الدنيا ونبذها فإن العزة بها ذل ، والوجد بها فقد . ومن كلام الشاذلى :

«اللهم إن القوم قد حكمت عليهم بالذل حتى عزوا ، وحكمت عليهم بالفقد حتى وجدوا ، فكل عز يمنع دونك فنسألك بدله ذلا تصحبه لطائف رحمتك ، وكل وجد يحجب عنك فنسألك عوضه فقدا تصحبه أنوار محبتك» . (٣)

والذل أن يعلق الإنسان رجاءه على إنسان مثله مخلوق لا يملك من أمر نفسه شيئا ، فلم لا يصون الإنسان نفسه عن الناس ويتجه إلى خالق الناس . فتمام الحرية أن تصدق عبودية الإنسان لله ويتخلص من رق الأغيار على حد قول القشيرى (٤) ، وهذا ما يعبر عنه ابن عطاء الله السكندرى بقوله :

(١) الرسالة القشيرية ص ١٠٠ .
(٢) لطائف المنن ص ١٣٩
(٣) المصدر نفسه ص ١٤٠ .
(٤) الرسالة القشيرية ص ١٠٠ .

لم لا أصون عن الورى ديباجتي — وأريهم عز الملوك وأشرفا
أأريهم أني الفقير إليهم — وجميعهم لا يستطيع تصرفا
أم كيف أسأل رزقه من خلقه — هذا لعمري إن فعلت هو الجفا
شكوى الضعيف إلى ضعيف مثله — عجز أقام بحامليه على شفا (١)

وفي هذا يقول أيضا :

أيصح أني إذ نزلت بداركم — لوجه يوما للعباد رجائي
بل إنني ألوي إليك بهمة — أخلف فيها ما سواك ورائي (٢)

ويقول من حكمه :

ولا ترفعن إلى غيره حاجة هو موردها عليك، فكيف يرفع غيره ما كان هو له واضعا . من لا يستطيع أن يرفع حاجة عن نفسه فكيف يستطيع أن يكون لها عن غيره رافعا . (٣)

وصدق العبودية يقتضي أن يسقط العبد تدبيره ، ويمتثل لقضاء الله فيه حينئذ تسقط كل المخاوف ، أو قل تصبح المخاوف كلها أمانا . أيخاف فقرا ؟ والفقر والغنى بيد الله . أيخاف سلطانا ؟ ولا سلطان على هذه الأرض إلا لله . ثم ما الغنى وما الفقر ؟ وما الجاه وما السلطان ؟ إن كل أولئك لمع آل ، وبريق يسبي العيون بظاهره ، والباطن لا يعلمه إلا الله ، وربما كان الغنى هو الفقر وكان الافتقار في الغنى . ولنقرأ لابن عطاء الله قوله

ولا تجزعن إذا ما ضاق عيش — فتحرم رتبة الرجل اللبيب
وكم لطف خفي في كفاف — وكم لله من سر غريب

---

(١) لطائف المنن ص ١٣٦ .
(٢) لطائف المنن ص ١٣٢ .
(٣) حكم ابن عطاء الله السكندري شرح الشرنوبي ط القاهرة ص ٣٢

وكم من محنة فى اليسر تسرنى ونعم منك موفور النصيب(١)

وفى ظلال هذا العالم الآمن لا ينبغى أن يشغل الإنسان نفسه بشىء لا بما مضى ولا بما آت . ولهذا قيل : «إن الصوفى ابن وقته» وقيل : «الفقير لا يهمه ماضى وقته وآتيه بل يهمه وقته الذى هو فيه» . (٢)

وإسقاط التدبير بعبارة أخرى معناه حجب العقل ، فالصوفية لا يثقون بالعقل هاديا ، وهذا هو جوهر الخلاف بينهم وبين الفقهاء وأهل الكلام . فالفقهاء أرادوا أن يخضعوا الدين لمقاييس العقل ، والمتكلمون أرادوا أن يصلوا إلى كنه الله بالعقل . أما المتصوفة فيرون أن العقل محدود ، والمحدود لا يدرك غير المحدود وكيف يعوض العقل جلة المعارف وسمائله خلقت لغيرها كما يقول عفيف الدين التلمسانى :

وكيف يعرف بحراً مثل لجته من ليس يعرف من يجرى سمائله(٣)

وحجب العقل فى عالم المتصوفة فتح لباب الأمل على مصراعيه ، وكسر لرتابة المنطق فى عالم الواقع . فالصوفى لا يريد أن يربط بين المقدمات والنتائج أو بين الأسباب والمسببات ، ولكنه دائما مترقب للمفاجأة يردد مع الشاعر قوله :

دع المقادير تجرى فى أعنتها ولا تبيتن إلا خالى البال
ما بين طرفة عين وانتباهتها يبدل الله من حال إلى حال

لذلك نرى المتصوفة يفرون من العقل ، بل من هؤلاء الذين يتخذونه دليلا للمعرفة ، يقول التلمسانى :

---

(١) الأدب الصوفى فى مصر د. على صافى حسين ص ٢٦٦ .
(٢) الرسالة القشيرية ص ٣٠ ، ٣١ .
(٣) ديوان عفيف الدين التلمسانى ص ١٧ .

ولقد وقفت لعقل فى شهودكم … إذ غبته والوفا وصف لذاتـه

هربت حين تعاطانى لسلوتكم … منه هروب غريم من مداينه (١)

وإذا كان المتصوفة قد أغرموا بالرمز والإشارة ، فما أظن حديثهم عن العقل وأصحابه إلا إشارة لهؤلاء الذين يرفعون شعار العقل . وانظر إلى قول عفيف الدين التلمسانى :

دعوا منكرى خمرى بما يخطروا … يحق لها تيك القلوب انفطارها

وقالوا : انكسار فى زجاجة عقله … وما صحة الأجسام إلا انكسارها(٢)

فمن هؤلاء المنكرون ، أليسوا هم أهل العقل ؟

وإذا كان العقل هو الذى يمسك على الإنسان اتزانه ، ويحفظ عليه وقاره فى عالم المادة ، فما أظن دعوى المتصوفة إلى التهتك وخلع العذار ، ونبذ الوقار إلا تحقيرا من شأن العقل ، وحطا من سلطانه . وعلى هذا ينبغى أن نفهم قول عفيف الدين التلمسانى :

إن تكن مغرما بذاك العذار … فالبس الوجد خالعاً للعذار

وأت حانات حبها يا نديمى … بائعا بالعقار ثوب الوقار

وتورع عن التورع فيها … واصرف الهم بالكئوس الكبار

نحن قوم بها شربنا وطبنا … وربينا ببرى تلك الجرار(٣)

وإذا كان الصوفية يدعون إلى الحب قواما للعلاقة بين الإنسان وخالقه فما ذلك أيضا إلا اتقاء لهجير العقل ، واحتماء بواحة القلب الحانية الظلال . ألم

(١) ديوان العفيف ص ١٥ .
(٢) ديوان العفيف ص ٨
(٣) ديوان العفيف ص ٢٥ .

يكن العقل أداة الفقهاء فى تحويل الدين — على زعم القوم — إلى أمور شكلية ، وإلى علاقة تقوم على الخوف والرهبة بين الإنسان وربه ؟ ومن هنا نحس أن القوم فى دعواهم إلى الحب يريدون أن يبعثوا النبض فى شرايين الدين التى تصلبت — كما زعموا — على أيدى الفقهاء . فهل الحج مثلا مجرد طواف حول الكعبة ، والقسم خرب مقفر ، أو هو الحب أولا لصاحب هذا البيت . ولعل فى هذا ما يلقى الضوء على قول أبى العباس :

لست من جملة المحبين إن لم ... أجعل القلب بيته والمقاما
وطوافى إجالة السر فيه ... وهو ركنى إذا أردت استلاما (١)

ولعل فيه أيضا ما يفسر قول عفيف الدين التلمسانى :

ولا سعى بى إلى بين الصفا فشمم ... ومروة لسوى قلبى وساكنه
ولا أفضت سوى دمعى لمزدلفٍ ... إلا لأرمى حصاة عن مواطنه
ولا حلقت ولا قصرت ثم سوى ... شعور قلبى بنائية وظاعنه (٢)

إذن هو عالم عامر بالحب ، ومن لم يعمر قلبه الحب فهو آثم ، وكل قلب ليست فيه صبوة فما هو بقلب كما يقول عبد الغفار بن نوح القوصى .

أنا أفتى أن ترك الحب ذنب ... آثم فى مذهبى من لا يحب
دق على أمرى مرارات الهوى ... فهو عذب وعذاب الحب عذب
كل قلب ليس فيه ساكن ... صبوة عذرية ما ذاك قلب (٣)

وهذا الحب تتسع دائرته فتشمل الكون كله خيره وشره ، أفليس هذا الكون مرايا تعكس قدرة الخالق وكماله ، وأعيانا تتراءى عليها أنوار ذاته .

---

(١) لطائف المنن ص ٢٢٤ .
(٢) ديوان العفيف ص ١٦ .
(٣) الطالع السعيد ص ٣٢٤ .

إن الله هو الوجود الحق ولا وجود لسواه ، ومن ثم فالصوفي يرى كل الكون وحدة واحدة ، يرى الله ولا يرى بعده شيئا وهذا ما يسمى بوحدة الشهود ، أو يرى الله متمثلا في كل شيء وذلك هو وحدة الوجود . فمن القول بوحدة الوجود أبيات التلمساني التي تقول :

شهدت نفسك فينا وهي واحدة ... كثيرة ذات أوصاف وأسماء
ونحن فيك شهدنا بعد كثرتنا ... عيناً بها اتحد المرئي بالرائي
فأول أنت من قبل الظهور لنا ... وآخر عند عود النازح النائي
وباطن في شهود العين واحده ... وظاهر لا بمرآة لإبداء
أنت المنفس سري ما أفوه به ... وأنت نطقي والمصغي لنجوائي(١)

وإذا كان الأمر كذلك فقد سقطت قضية الشر في عالم المتصوفة ، وما نراه من معاني الشر ليس إلا وهما ، يقول ابن عطاء السكندري .

«ومن عرف الله تعالى انسد عليه باب الانتصار لنفسه إذ العارف اقتضت له معرفته أن لا يشهد فعلا لغير معروفه فكيف ينتصر من الخلق من يرى الله فعلا فيهم» . (٢)

وبناء على ذلك أيضا يسقط التكليف ، ويسقط الحساب والعقاب ، وتمحى الفوارق بين الأديان ، ويصير الأمر كما صوره ابن عربي :

لقد صار قلبي قابلا كل صورة ... فمرعى لغزلان ودير لرهبان

أو كما يصوره نجم الدين ابن إسرائيل :

وأرضى بدين المانوية شرعة ... وديني في حبيه دين موحد (٣)

---

(١) ديوان العفيف ص ٧٩ .
(٢) لطائف المنن ص ٢٧ .
(٣) الديوان المنسوب لابن وفا ص ٩

فهل ما ذهب إليه المتصوفة من القول بوحدة الوجود كان — كما يرى الدكتور عبد اللطيف حمزه «نوعا من السمو الروحي والعقلي فوق جميع العصبيات الدينية المختلفة ، وهي العصبيات التي ولدت بين أهل هذه الديانات حروبا طاحنة منها الحروب الصليبية» ؟ . (١)

هذا احتمال جائز ربما يقويه أن القول بوحدة الوجود نشأ في ظل الحروب الصليبية ، وأول من قال به ابن عربي .

وهكذا نمضي مع الصوفية فنحس أن قضية الاغتراب عندهم بدأت في إطار اجتماعي كلون من التمرد على الواقع أو الثورة عليه ، ولكنها أخذت تسمو مستحيلة إلى غربة كونية «قوامها الهرب من هذا الوجود الحسي بوصفه غريبا وغير أصيل بالرجوع إلى الله والفناء فيه بوصفه الوجود الحق ، أو — على حد تعبير الصوفية — الوطن الأصلي» (٢) ويصبح الفناء هو السبيل للتجاوز — الانفصال من أجل الوحدة شهودية كانت أو وجودية بين الله والإنسان». (٣)

وإذا كان الموت يمثل لكثير من بني البشر قضية مؤرقة ، فإن هذه القضية معزولة كما نرى في عالم المتصوفة . إنهم لا يخافون الموت بل ينشدونه ، والفناء من مطالبهم ، وهو في نظرهم معبر الوصول إلى الجمال المطلق الذي ينشدونه وإنهم يمضون في طلب هذا الموت بألوان المجاهدة وصنوف المكابدة يقول عفيف الدين التلمساني :

هل السلامة إلا أن أموت بهم	وجداً والابقـاني هـو العطب
إن يسلبوا البعض مني والجميع لهم	فإن أشرف جدي الذي سلبوا ! (٤)

---

(١) الحركة الفكرية في مصر في العصرين الأيوبي والمملوكي ط أولى ص ٩٥

(٢) الاغتراب د . محمود رجب ص ١٨٠ ط منشأة المعارف بالاسكندرية ١٩٧٨ .

(٣) المرجع نفسه ص ١٨١

(٤) ديوان العفيف ص ٨٤ .

ويقول ابن عطاء الله السكندرى :

«فإذا الولى على الحقيقة لا يكره الموت إن عرض عليه ، وقد أحب الله من لا محبوب له سواه ، وأحب له من لا يحب شيئاً هواه ، وأحب لقاه من ذاق أنس مولاه» . (١)

والوجود الجسمانى عائق يبعد الإنسان عن وجوده الحقيقى المتمثل فى الاتصال بالحقيقة المطلقة يقول عبد العزيز بن أبى فارس

وجدت بفنائى عند فقد وجودى	فلم يبق حد جامع لحدودى
وألقيت سرى عن ضميرى ملوحا	برمز إشاراتى وفتك قيودى
فأصبحت منى دانياً بمفارق	وقد كنت عنى نائيا بوجودى (٢)

أفبعد ذلك يكون الموت حساب فى نظر القوم ؟! وهكذا تتداعى كل المخاوف واحدة إثر واحدة ، ويعم السلام على هذا العالم الباطنى .

إن الفارق بين عالم المادة الذى نعيش فيه وعالم الحقيقة الذى يعيشه المتصوفة بوجدانهم هو الفارق بين الحلم واليقظة ، أو بين النوم والصحو ، أو بين الظاهر والباطن . ومن هنا فلا حضور فى أحدهما إلا بالغيبة عن الآخر. وهذا عفيف الدين التلمسانى يرى أنه كان فى حلم وأفاق ، وحين تفتحت عينه على الحقيقة نسى كل ما يتعلق بعالم الحلم ، نسى حتى نفسه :

كنت قبل اليوم فى حلم	وتقضى ذلك الحلم
وحبيبى مفصح لهجته	أنا والأشواق تحتكم
كيف أعشق والغرام له	شاهدان الدمع والسقم

---

(١) لطائف المنن ص ٤٩

(٢) الدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة لابن حجر العسقلانى — ص ٢ — ص ٤٨١

أنا عين اليوم في شمل ... فاعذروني إن تبكم (١)

والقوم في سبيلهم إلى الحقيقة المنشودة يسبحون في بحار من الشوق إلى الشاطيء حيث لا شاطيء ، وإلى الحياة حيث الفناء ، وإلى الشهود حيث الغيبة وتبدو لهم الحقيقة سافرة عجيبة ، بعيدة قريبة ، فلا تسمع منهم إلا أنغاما مطربة كأنها تراتيل تقدس الجمال وتسبح له . يقول ابن عطاء الله السكندرى .

واهتدى الراحلون إليه بأنوار التوجه ، والواصلون لهم أنوار المواجهة فالأولون للأنوار ، وهذه الأنوار لهم ، لأنهم لله لا لشيء دونه ، قل الله ثم ذرهم في خوضهم يلعبون» . (٢)

ويقول :

«الكون كله ظلمة وإنما أناره ظهور الحق فيه ، فمن رأى الكون ولم يشهده فيه أو عنده أو قبله أو بعده ، فقد أعوزه وجود الأنوار وحجبت عنه شموس المعارف بسحب الآثار» . (٣)

وهكذا فنحن نرى بصر القوم شاخصا دائما إلى النور ، يلوح لهم فيندفعون نحوه أو يجذبون إليه ، وفي سبيل الوصول إليه يهون الألم ، ويعذب العذاب ، ويحلو السقم . يقول الحيمى :

كلفت ببدر من مبادى الدجى بدا	فعاد لنا ضوء الصباح كما بدا
وحجب عنا حسنه نور حسنه	فمن ذلك الحسن الضلالة والهدى
أيا عاذلى دمعى ونار صبابتى	عليه فإنى قد وجدت لها هدى

(١) مهران العفيف ص ٤٦
(٢) حكم ابن عطاء الله ص ٢٧ .
(٣) حكم ابن عطاء الله ص ١٤ .

وهاك يدي إني على ترك حبه مدى الدهر لا أعطيك ياعاذلي يدا
فيا نار قلبي حبذا أنت مصطلى ويادمع عيني حبذا أنت موردا
ويا سقمي في الحب أهلا ومرحبا ويا صحة السلوان شأنك والعدا
فلست أرى عن ملة الحب مائلا وكيف ونور العامرية قد بدا (١)

ونراه في قصيدة أخرى يقف في صراحة متوسلة ممتثلا لما يشاؤه هذا المحبوب ، راضيا منه بالبعد وبالهجر وبالاحتجاب ، فحسبه أن المحبوب يملأ عليه كيانه ، فهو قريب منه على رغم البعد ، ومتصل به على رغم الهجر ، ومشاهد لحسنه على رغم الاحتجاب :

إن كان يرضيهم إبعاد عبدهم فالعبد منهم بذاك البعد مقترب
والهجر إن كان يرضيهم بلا سبب فإنه من لذيذ الوصل محتسب
وإن هموا احتجبوا عني فإن لهم في القلب مشهود حسن ليس يحتجب
قد نزه اللطف والأشواق بهجته عن أن تضمها الأستار والحجب(٢)

وأما عفيف الدين التلمساني فيتمنى طيفا من المحبوب وأنى له النوم ؟ ولكن رغم سهاده فهو راض به بل يرى في الموت لذة ، وفي النار بردا وسلاما .

ردوا الكرى إن كان عز وصالكم عسى تمثله لي الأحلام
لو لم يلذ الموت في حبي لكم لم أصب نحو البرق وهو حسام
ولما اعترضت بنار قلبي الهوى ولكل نار بالنسيم ضرام
صب يرى نار الصبابة أنها في حبكم برد له وسلام
حفظ المودة زاده وخباله في المزاد حفظ مودة ودمام
وإذا أتتكم أمة بإمامها وافيتكم ولي الغرام إمام

---

(١) شذرات الذهب جـ ٥ ص ٣٩٢ .
(٢) المنهل الصافي جـ ٣ — ورقة ١٣٢ أ .

هــذا دمى لــكم الحــلال وإنمــا ... حــكم فــلــوانى عــلى حرام(١)

ويعلم كل واحد من هؤلاء أنه ليس وحده فى ميدان هذا الحب، ولذلك يحاول – دائماً – إظهار سبقه فى المضمار وتفوقه على الأقران ، وانظر إلى قول تقى الدين السروجى :

أنعم بوصلك لى فهــذا وقتــه ... يكفى من الهجران ما قد ذقتــه
يا من شغلت بحبــه عــن غيره ... وسلوت كل الناس حــين عشقته
أنفقت عمرى فى هــواك وليتــنى ... أعطى وصولا بالــذى أنفقتــه
كم جــال فى ميــدان حبك فارس ... بالصدق فيك إلى رضاك سبقته (٢)

وإذا كان يروق لشعراء الصوفية أن يعشقوا الجمال المطلق أو يرمزوا إليه بصورة المرأة ، فهم يلمون بأوصافها الجسدية إلماما خاطفا ، فلا يلبثون أن يصعدوا شيئا من جمالها المادى حتى يحلقوا بروحهم متجاوزين المادة ، وكأنهم بذلك يلفتون النظر إلى أن هذا الجمال المادى ليس هو المقصود لذاته ، بل هو صورة مقربة ، ولا يفتى الشاعر بين حين وحين أن يذكر من الألفاظ ما يرفعنا من عالم المادة ، ويسمو بنا إلى رحاب قدسية ومن ثم فهو يطرز شعره بألفاظ لها دلالتها الدينية كأن يذكر بعض أماكن الحجاز التى يمر بها الحجيج يقول ضياء الدين على الخزرجى السكندرى (ت ٦٨٦ هـ) :

ما الحمى ما المنحنى ما حاجــر ... ما منى ما خيفها ما المشعــر
هى أو طانى ولكــن غــلتى ... سوى ســكانها لا تغــتفــر
قلت لــما لمــت عنــد الحمى ... نار ليل : صاحبى هــل تبصر ؟
هــذه أنــوارهم لا نارهــــم ... قــد تجلت والــورى لم يشعروا

---

(١) الأدب الصوفى د على صافى حسين ص ٤١٠ .
(٢) المنهل الصافى ج ٢ – ١٨٥ .

ومناديهم ينادى معلناً ... هذه حضرتنا فلتحضروا(١)

هكذا يسمو الصوفية فى معارجهم متعلقين بمحراب الجمال الأقدس ، حتى إذا حانت لحظة «الجمع» كما يسمونها ، ووصل السالك إلى عين القرب ، رفعت الحجب فسقطت كل الحواجز ، وامحت كل الحدود فلا وراء ولا أمام ولا بعد ولا قبل ، ولا أنا ولا أنت ، بل هى حال لا يدرى السالك ما هى ، ولا يدرى معها لنفسه وجوداً ، إنه فى سكر بنشوة اللقاء ، وخمرة جلت عن المثيل والشبيه فهى كما يقول التلمسانى :

تغيب عن كف النديم ولا يرى	سواها لـه بين السقاة نديم
تلـوح لهم منها شموس كئوسها	وفيها لهم منهـا تلـوح نجـوم
ويعمى عن الإبصار طرف خليلها	فيغرق فى بحر الهوى ويعوم
ويأخذ ما يعطى الخصوص عمومها	فيشرق من ذاك الخصوص عموم(٢)

وقد يشعر السالك بهذا الإشراق يفيض من داخله ، فيحس أنه لم يعد كغيره من الناس فلا ذاته هى ذاته ، ولا صفاته هى صفاته ، وإنما هو قد تسرمد حين امتزج بالنور السرمدى ، وهذه الحال هى ما يعبر عنها القسطلانى بقوله :

لما رأيتك مشرقاً فى ذاتى	بدلت من حالى ذميم صفاتى
وتوجهت أسرار فكرى سجداً	لجميل ما واجهت من لحظاتى
وتلوت من آيات حسنك سورة	سارت محاسنها بجمع شتاتى
وبلوت أحوال فصرت مصبراً	فى الصحو من سكرى بصدق ثباتى
وتحولت أحوال سرى فى العلا	فعلت على محو وعن اثبات

(١) الأدب الصوفى ص ٢٨٦ .
(٢) ديوان التلمسانى ص ١٤ .

وتوحدت صفتي فرحت مروحا   نظرا لما أشهدت من آيــاتي (١)

وهكذا نمضي مع المتصوفة فتراهم منطلقين عما وراء عالمنا ، مشدودين دائما إلى المطلق ، فهم — وإن كانوا معنا بأجسادهم — يحلقون بأرواحهم فوق حدود الجسد ، أو يجاهدون التحرر من قيوده الكثيفة .

٢ — التشيع :

رغم أن العصر المملوكي بدأ وقد مر ما يقارب قرنا من الزمان على سقوط الدولة الفاطمية جهد فيه صلاح الدين وخلفاؤه من بني أيوب في محاربة المعتقد الشيعي والقضاء عليه ، كانت ما تزال هناك بقايا لهذا المذهب ، وكان مايزال يجد أنصارا ومريدين .

ونستشف من مصادر هذا العصر أن أكثر أنصار هذا المذهب كانــوا يتركزون في صعيد مصر ، فيذكر الإدفوي أن التشيع كان فاشيا في أسوان وإدفو وإسنا (٢) ، ويقول عن أسمون : «إنها معروفة بالتشيع — الشنع» (٣) .

ونجد في أدب هذا العصر بعض أصداء لهذا المعتقد ، والجدل الذي كان ما يزال دائرا حوله . فيطالعنا «قطينة» الأسفوني ببعض أبيات يشكو فيها شيعة أسمون إلى قوص ، ويصف أسمون بأنها أصبحت مأوى لكل ضال وكافر ، ويصف داعي الشيعة بأنه تيس معمم ، ويذكر من أمر هؤلاء الضلال أنهم يمعنون في سب الشيخين أبي بكر وعمر رضي الله عنهما فيقول .

حديث جرى مابالك الرق واشتهر   بأسفون مــأوى كل من ضل أو كفر

له منهــم داع كتيس معمـــــــم   وحسبك من تيس تولى على بقر

---

(١) قوات الوفيات جـ٢ ص ١٦٧ .

(٢) الطالع السعيد ص ٣٤ ، ٣٧ ، ٣٨ ، ٣٩ .

(٣) المصدر نفسه ص ٣٩ .

ومن عجبهم ، لا أكثر الله منهم ،   يسبوا أبا بكر ولم يشتموا عمر *

فخذ مالهم لا تختشى من ملكهم   فإن مآل الكافرين إلى سقر (١)

ويتصدى شهاب الدين محمود لهؤلاء الغلاة الذين يسبون الشيخين — رضى الله عنهما — ، فيصمهم بالجهل والضلال ، ويبين أنه لا ينبغى لمؤمن أن يحط من أقدار رجال شرفهم الله ، وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيله ، وكانوا أول من لبى ونصر ، وهاجر وصبر :

يا مظهرا حب الرسول وجهله   يغريه من سفه ببغض صحابه

زعمت الهدى فضللت فيه لأنه   ما جئت حب محمد من بابه

أتحبه وتعيب قوما آمنوا   بنبا هداه حين كشف حجابه ؟

كلفت نفسك ليس فضل كامل   فى دينه إلا وهم أول بسمه

أتسب أول مؤمن ومصدق   من قومه بكلامه وكتابه ؟!

مهلا يا بدر الوجود وقد سما   فى الأفق معتما بنبح كلابه

أيكون أول مؤمن سمع الهدى   فأجابه مستوجبا لعقابه ؟!

أفما يردك عن ضلالك والهوى   عقل ، فإن الدين ما يعنى به

أثنى الإله عليهم فى قوله   «والسابقون» فسل تصح خطابه

تبا لمن سمع الثناء عليهم   من ربه ورماهم بسبابه

نصروا النبى وآزروه وقاطعوا   فيه العدا وتمسكوا بجنابه

تبعوه طوعا إذ دعاهم للهدى   وهم لدى ظفر العدو ونابه

فغدوا وهم من هاجر أوطانه   أو صابر أو موثق لعذابه

لله ثم فى الله أوصاب الردى   ووخيم مربعه ومطعم صابه (٢)

---

* فى البيت خطأ نحوى إذ حذف نون (يسبوا) دون ناصب أو جازم .

(١) المصدر نفسه ص ٢٢٧ .

(٢) ديوان الشهاب محمود ص ١٣٢ .

وفي رسالة محيي الدين عبد الظاهر لناصر الدين بن النقيب نراه يعرض برجل من الشيعة انتقصه ، ويتهكم ابن عبد الظاهر بهذا المنتقص ، ويصمه بالضلال وبالخطأ في تقييد معتقده ، ساخرا من ابن سبأ وما أشاعه من خلود علي ومعراجه الروحي . منكرا ما يعتقده الكيسانية من رجعة محمد بن الحنفية(١) فيقول موجها الخطاب إلى هذا المتشيع :

«ولا أعلم أيها المنتقص لي ذنبا يستدعي هذا الإسهاب ، ولا بيني وبينك خطوبا فهمت به من الخطاب . اللهم إلا أني لا أعتقد اعتقادك الضال، ولا أرى رأيك المؤول ، ولا أقلد عبد الله بن سبأ في اعتقاده ، ولا أبا الخطاب الأسدي في اجتهاده (٢) ، ولا أوافق هشام بن سالم الجواليقي على مراده (٣) ولا أنشد :

ألا إن الأئمة من قريش ... ولاة الحق أربعة سواء

علي والأئمة من بنيه ... هم الأسباط ليس بهم خفاء

فسبط سبط إيمان وبر ... وسبط غيبته كربلاء

وسبط لا يذوق الموت حتى ... تقود الخيل يقدمها اللواء (٤)

---

(١) أشاع عبد الله بن سبأ أن عليا لم يقتل وإنما شبه لقاتله ، وأشاع أن عليا صعد إلى السماء وهو في السحاب والرعد صوته والبرق سوطه . أنظر ص ٢١ ، ٢٥ . نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام د . علي سامي النشار ط دار المعارف ١٩٦٥
أما الكيسانية فكانوا يعتقدون خلود ابن الحنفية في جبل رضوى ، وينتظرون رجعته بين أنصاره حاملا اللواء . انظر الكيسانية في الأدب والتاريخ د . وداد القاضي ص ١٨٦ ط بيروت ١٩٧٤ .

(٢) رأس فرقة من الغلاة زعم ألوهية جعفر الصادق . انظر الملل والنحل ص ١٧٩ ، ١٨٠ جـ ١ ط الحلبي .

(٣) رأس فرقة من الغلاة أيضا زعم أن الله على صورة البشر ، وزعم أن عليا إله واجب الطاعة . انظر الملل والنحل ص ١٨٤ — ١٨٦ جـ ١ ط الحلبي .

(٤) الأبيات لكثير عزة .

ولا أنشك قول السيد الحميرى :

ألا قـل لوصـى فدتـك نفسى ... أطـلت بذلك الجبـل المقامـا

أضر بمعشـر والـوك منـا ... وسموك الخليفـة والإمامـا(١)

ويتطرق الخبيث ابن عبد الظاهر إلى ذكر عداء الشيعة للخوارج والعثمانية مشيرا إلى جذور هذا العداء ووقائعه ، ولا ينسى أن يصيح على رأس هؤلاء شيعة أبي كامل ، ذاك الذى طعن فى على — رضى الله عنه — لأنه ترك طلب حقه ، وقعد عنه . يقول :

«أو أنك تعتقد أنى من شيعة أبى كامل ، أو أنى اتفقت أنا وابن ملجم على تلك النوازل ، أو أنى من الطالبين بثأر الدار إذ جد الوجل ، أو أنى كنت مع بنى ضبة فى يوم الجمل ، أو أنى تأولت فى قتل عمار بن ياسر ذلك التأويل السقيم ، أو أنى كنت من جملة من رفع المصاحف لطلب التحكيم ، أو استغربت عقل أبى موسى الأشعرى بالمشاورة ، أو خدعته بخلع الرجلين فى المشاورة ، أو اتبعت عبد الله بن وهب الراسبى فى جمعه»

ويمضى ابن عبد الظاهر مستعرضا تفصله فى تاريخ الشيعة ، وأصول معتقداتهم ، إلا أننا لا نستطيع أن نستشف من الرسالة إلى أى فرقة من فرق الشيعة كان انتماء صاحبه ، أهو سبئى أم امامى أو اسماعيلى ؟ فالهجوم يعم كل الفرق ولا يخص واحدة بعينها .

ويبدو أن هذه المجتمعات الشيعية كانت ماتزال على العادات والسنن التى انتهجها الفاطميون من مثل إظهار الحزن فى يوم عاشوراء ، ويشير الدكتور

---

(١) رسالة ابن عبد الظاهر لابن الخشاب ص ٥ ، ٦ .

محمد كامل حسين إلى أن أهل السنة كانوا يكيدون لهم بالتكحل والتخضب في ذلك اليوم (١) . وقد ظل من الشعراء من ينكر هذا التزين فيقول أبو الحسين الجزار :

ويعود عاشوراء يذكرني ... رزء الحسين فليت لم يعد
يا ليت عيناً فيه قد كحلت ... لشماتة لم تخل من رمد
ويداً به لمسرة خضبت ... مقطوعة من زندها يبدى
أما وقد قتل الحسين به ... فأبو الحسين أحق بالكمد (٢)

وفي قول آخر يرد على من ينكر اكتحاله في يوم عاشوراء بأن ذلك الكحل حداد تلبسه العين على الحسين :

ومنكر يكر اكتحالي ... يوم أراقوا دم الحسين
فقلت دعني أحق عضو ... فيه بلبس الحداد عيني (٣)

وتظهر لنا بعض النصوص الأدبية أن هناك من وفد إلى مصر من المغرب يدعو للمذهب الشيعي ، ويروج له ، ويثير في الناس الحنين إلى أيام الفاطميين تعينه في ذلك الدولة المرينية في المغرب ، وتكشف لنا رسالة من ابن الوردي عن وجه هذه الدعوة السرية التي كان يقوم بها بعض المغاربة ، فقد كتب يشكو القاضي الرباحي المالكي الذي ولى قضاء حلب وعلم منه قائلا :

ثم إن من أعظم ذنوبه وأكبر عيوبه ، أن هذا الفرد الظالم حولنا من المغاربة غير سالم ، وهم في السر يتربصون قيام المرب ، ويطمعون أن مصر سيملكها أهل المغرب .

(١) دراسات في الشعر في عصر الأيوبيين ص ٢٤ .
(٢) فوات الوفيات جـ ٢ ص ٣٢٠ .
(٣) منتخب الجزار ورقة ٢١٦ .

ثم يكشف عن دعوته لصاحب المغرب ، وكرهه لدولة الأتراك إذ يقول

لقد بلينا بمالكي | يخدع في الترك كل حين
يغسل في السر وهو يدعو | لصاحب المغرب المرينى

ويتحدث عن معتقد هذا القاضى ، وحبه للدولة الفاطمية ، وعمله سرا على ذلك ، فيقول :

« فاعزلوا عن أعمالكم هذا القرد ، وإن غضب لغضب الأمير على الله ، فإنه يميل على الزيدية ، ويتذكر الدولة العبيدية »

قال الرباحي سرا | مصراً إليهما إليهما
كنا بمصر وإنا | لعاملون عليهما (١)

ولقد جهد فقهاء الدولة فى محاربة هذا المعتقد ، وأسهم فى ذلك نفر منهم من أمثال بهاء الدين هبة الله القفطى ، وابن دقيق العيد ، وأخذ العلماء يتنادون إلى إزالة بدع هؤلاء الخارجين عن سنن جماعة المسلمين ، فنرى تاج الدين السبكي يحث العلماء على هذا اللون من ألوان الجهاد قائلا :

« وداهنوا عن دين الإسلام ، وقعدوا عن ساق الاجتهاد فى حسم مادة من يسب الشيخين أبا بكر وعمر — رضى الله عنهما — ويقذف أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها — التى نزل القرآن ببراءتها ، وغضب الرب تعالى لها ، حتى كادت السماء تقع على الأرض . ومن يطعن فى القرآن وصفات الرحمن فالجهاد فى هؤلاء واجب ، فهلا شغلتم أنفسكم به ؟ » . (٢)

ووقفت الدولة من أصحاب التشيع موقفا متشددا ، وتلمس ذلك قديما

---

(١) ديوان ابن الوردى ورسائله ص ١٩٩ .
(٢) معيد النعم ص ٧٥ .

نقرؤه من الأدب الرسمي ، فابن فضل الله العمري يشدد في وصيته لنقيب السادة الأشراف على محاربة أصحاب البدع من الغلاة ، فيقول :

«وأول البدع التي ينتسب إليها أهل الغلو في ولائهم ، والغلو فيما يوجب الطعن على آبائهم لأنه يعلم أن السلف الصالح — رضي الله عنهم — كانوا منزهين عما يدعيه عصب السوء من افتراق ذات بينهم ، ويتعرض منهم أقوام إلى ما يجرهم إلى مصارع حينهم ، فللشيعة عثرات لا تقال من أقوال تقال ، فسد هذا الباب سد لبيب ، واعمل في حسم موادهم عمل أريب وقم في تيهم والسيف في يدك قيام خطيب ، وخوفهم من قوارعك مواقع كل سهم مصيب» . (١)

ثم يعرض لمعتقدات الشيعة معتدا لها ، محذرا من اتباعها ، داعيا نقيب الأشراف أن يحاربها ويكشف زيفها وخطل أصحابها :

«وانظر في نادي قومك عليها عقود الاجتماع ، ومن اعتزى إلى اعتزال أو مال إلى الزيدية في زيادة مقال ، أو ادعى في الأئمة الماضية مالم يدعوه ، واقتفى في طرق الإمامية بعض ما ابتدعوه ، أو كذب في قول على صادقهم ، أو تكلم بما أراد على لسان ناطقهم ، أو قال إنه يلقى عنهم سرا ضنوا على الأمة ببلاغه ، وذادوهم عن لذة مساغه ، أو روى عن يوم السقيفة والجمل غير ما ورد أخبارا ، أو تعلق بقول من يقول عبد شمس قد أوقدت لبني هاشم نارا ، أو تمسك من عقائد الباطن بظاهر ، أو تعلق له بأئمة الستر رجاء ، أو انتظر مقيما برضوى عنده عسل وماء ، أو ربط على السرداب فرسه لمن يقود الخيل يقدمها اللواء ، أو تلفت بوجهه يظن عليا — كرم الله وجهه — في الغمام ، أو تفلت من عقال في اشتراط العصمة في الإمام ، فعرفهم أجمعين أن هذا من

(١) التعريف بالمصطلح الشريف ص ١٣٠

فساد أذهانهم ، وسوء عقائد أديانهم . (١)

وتكشف لنا هذه الوصية عن التفاف الشيعة حول طائفة الأشراف في مصر ، وربما كانوا يرون فيهم تجسيدا لبعض معتقداتهم ، كما تكشف عن علاقة التشيع بالاعتزال ، وأن كثيرا من الشيعة معتزلة ، ولا غرابة في ذلك فقد كان أبو هاشم بن محمد بن الحنفية شيخا من شيوخ واصل بن عطاء كما يقول طاش كبرى زاده(٢) . إلا أن الملاحظ أن الوصية لا تخص فرقة بعينها من فرق الشيعة ، فنرى الكاتب يتحدث عن جميع الفرق من سبئية وإمامية وكيسانية وإسماعيلية ، فهل وجدت في مصر — حينذاك — كل هذه الفرق ؟ أو أن هذا تحذير عام يقصد به الكاتب محاربة التشيع أيا كان لونه وأيا كانت فرقته ؟!

وعلى أي حال فقد ظلت أصداء التشيع تتردد في أدب هذا العصر ، ربما كانت خافتة ، وهذا دليل على خفوت تيار التشيع ذاته ، ولكنه تيار موجود فمن الشعراء الذين دانوا بالتشيع ، والذين يعكس شعرهم هذا التيار الحسن بن منصور المعروف بابن شواق الإسنائي (ت ٧٠٦ هـ) وله قصيدة تتردد فيها معتقدات الشيعة يبدؤها بقوله :

كيف لا يحلو غرامي واقتضاحي — وأنا بين غبوق واصطباح

ويقول منها :

فلئن أفرطتموا في هجره — ورأيتم بعده عين الصلاح
فهو لاج لأولى أهل العبا — معدن الإحسان طرا والسماح

---

(١) التعريف بالمصطلح الشريف ص ١٣١ .
(٢) أنظر : نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام . النشار ص ٥٢ .

قلدوا أمراً عظيماً شأنه ... فهو فى أعناقهم مثل الوشاح

أمناء الله فى السر الذى ... عجزت عن حمله أهل الصلاح

هم مصابيح الدجى عند السرى ... وهم أسد الشرى عند الكفاح

تشرق الأنوار فى ساحاتهم ... ضوؤها يربو على ضوء الصباح

أهل بيت الله إذ طهره ... فجميع الرجس عنهم فى انتزاح

آل طه لو شرحنا فضلهم ... رجعت منا صدور فى انشراح

أنتم أصل وأصل قيمة ... من قريضى وثنائى وامتداحى

جدكم أشرف من داس الثرى ... فى مقام وغدو ورواح

وأبوكم بعده خير الورى ... فارس الفرسان فى يوم الكفاح

وارث الهادى النبى المصطفى ... ما على من قال حقاً من جناح (١)

فالشاعر فى مدحه لآل البيت يصفهم بأنهم أمناء الله فى سره ، وأنهم قلدوا أمراً عظيماً من أمور الدين ، وهذا ما يذهب إليه الشيعة بشأن أئمتهم إذ يعتقدون أنهم منحوا من الأسرار الإلهية ما لم يمنحه بشر قط ، ويتطرق الشاعر إلى ذكر على — رضى الله عنه — فيصفه بأنه وارث النبى — صلى الله عليه وسلم ويقصد الشاعر وراثة العلم والأسرار الدينية وهذا — أيضاً — محور من محاور المعتقد الشيعى ، ولعلنا لاحظنا إشارة الشاعر إلى حديث المباهلة حين وصف علياً وبنيه بأنهم أولو العبا ، وهذا حديث يعتد به الشيعة لما يرون فيه من قصر الرسول — صلى الله عليه وسلم — قرابته على على وبنيه دون سائر أهله

ويحدثنا الإدفوى عن شاعر آخر من أهل التشيع هو إبراهيم بن محمد الثعلبى ، ويقول : إنه لما حضر إلى إدفو سنة ٦٩٧ هـ دلود الذى يدعى أنه

---

(١) الطالع السعيد ص ٢١٣ .

ابن سليمان العاضد آخر خلفاء الفاطميين ، أنشد إبراهيم فى استقباله قصيدة طويلة . وذكر الإدفوى منها هذين البيتين :

ظهــر النـور عنـد رفـع الحجاب ‏ ‏ ‏ فاستنار الوجود من كل بـــاب
وأتانا البشير يخــــبر عنهـــــم ‏ ‏ ‏ ناطقا عنهم بفصل الخطـــاب (١)

والبيتان ينصحان بالاغراق فى التشيع ، وحسبنا ما علق به عليها الدكتور محمد كامل حسين إذ يقول : «فالشاعر فى هذين البيتين مدح داود بجملة الصفات التى أسبغها شعراء العصر الفاطمى على الأئمة متخذا المصطلحات الفاطمية الخالصة ، فظهور النور عند رفع الحجاب هو ظهور الإمـــام بعد استتاره ، وفى البيت الثانى يشير إلى أن داعيه الامام الذى عبر عنه بالبشير جاءهم بفصل الخطاب ، وقد رأينا أن وظيفة الحجة فى الدعوة الإسماعيلية هى فصل الخطاب» . (٢)

أما ابن حجر العسقلانى فيحدثنا عن عبد القوى القراق الذى كان رافضيا وعزز على رفضه لقوله من أبيات :

كم بــين مــن شــك فى خلافتــه ‏ ‏ ‏ وبين من قـــال : إنه الـلـــه (٣)

ولم يذكر ابن حجر سوى هذا البيت ، ربما لتحرجه من ذكر بقية الأبيات ، وهذا موقف معروف تجاه الأدب الشيعى ، فالغالب على مؤرخى هذه الحقبة التحرج لما يرونه فى أدب الشيعة مما ينافى معتقدهم السنى ، أو مما يرون أنه كفر صراح ، وهذا يدفعنا إلى الزعم أن كثيرا من نتاج المتشيعة فى هذه الحقبة قد طمس ، ولم يصل إلينا منه سوى شذرات متفرقة ذكرت على

---

(١) الطالع السعيد ص ٦٦ .
(٢) دراسات فى الشعر فى عصر الأيوبين ص ٣٢ .
(٣) الدرر الكامنة ﺟ ٣ ص ١٠ .

سبيل التهجين والقدح فى هذا المعتقد وأهله .

وربما كان العجيب أن عبد القوى هذا الذى ذكره ابن حجر كان حنبليا ظاهريا أشعريا ثم بعد ذاك متشيع ، وقد وصف نفسه بقوله :

حنبلى رافضى ظاهـــرى   أشعرى ، هذه إحدى الكبر (١)

وحقيقة إنها إحدى الكبر ، إذ كيف جمع بين هذه المعتقدات المتباينة بل المتناقضة أحيانا .

وشاعر آخر هو فخر الدين بن مكانس نحس له ميولا شيعية ، ويروى له ابن حجة هذين البيتين فى مدح على رضى الله عنه :

يا ابن عم النبى إن أنـاســا   قد تولوك بالسعادة فـازوا

أنت للعـلم فى الحقيقـة بـاب   يا إماما وما سواك مجـاز (٢)

وهو فى هذين البيتين يدور حول ما كان يرويه الشيعة من حديث منسوب إلى الرسول — صلى الله عليه وسلم — من أنه قال : أنا مدينة العلم وعلى بابها .

وتجدر الإشارة هنا إلى صفى الدين الحلى ، ذلك الشاعر المتشيع الذى قدم إلى مصر فى أيام الناصر محمد بن قلاوون ، وأقام فيها مدة ، وربما اختلط بأوساط الشيعة فى مصر ، وربما رأوا فى شعره تعبيرا عن معتقداتهم . وتشيع صفى الدين واضح فى شعره كل الوضوح ، وله عدة قصائد ومقطعات يمدح فيها عليا — كرم الله وجهه — وآل بيته ، وفى واحدة من هذه القصائد يذهب إلى أن الله — سبحانه — أثنى على «على» فى سورتى «يس» و «صاد» وهو بذلك يأخذ بمذهب الشيعة فى تأويل القرآن ، ثم يمضى فيتحدث عن معجزات

(١) الدرر الكامنة جـ ٣ — ص ١٠ .

(٢) ثمرات الأوراق لابن حجة ص ٣٠٨ .

علي ، ويصفه بأنه صنو النبي وصهره .

وظلت في صفحات فضلك ياسين ... وصاد وآل حسين وصاد
ظهرت منك للورى معجزات ... فأقرت بفضلك الحساد
إن يكذب بها عداك فقد كذ ... ب من قبل قوم لوط وعاد
أنت صنو النبي والصنو وابن العم والصهر والأخ المستجاد (١)

وفي أبيات أخرى يشير إلى يوم الغدير الذي يرى الشيعة أن الرسول – صلى الله عليه وسلم – قلد فيه عليا أمر الخلافة فيقول

توال عليا وأبناءه ... تفز في المعاد وأهواله
إمام له عقد يوم الغدير ... بنص النبي وأقواله (٢)

وإذا كان شعر صفي الدين لا يشير بوضوح إلى أي فرقة من فرق الشيعة كان انحيازه – إذ لا يتعدى مدح علي وآل بيته – رضي الله عنهم – فهو يبين أنه كان معتدلا في تشيعه ، ولا يذهب مذهب بعض الشيعة في سب الشيخين ، أو تفضيل علي على سائر الصحابة ، وربما رأينا مصداق ذلك في قوله :

ولائي لآل المصطفى عقد مذهبي ... وقلبي من حب الصحابة مفعم
وما أنا ممن يستجيز بحبهم ... مسبة أقوام عليهم تقدموا (٣)

وفي قوله :

قيل لي تعشق الصحابة طرا ... أم تفردت منهم بفريق
فوصفت الجميع وصفا إذا ضو ... ع أزرى بكل مسك سحيق (٤)

---

(١) الديوان ص ٨٨ .
(٢) الديوان ص ٩٠
(٣) الديوان ص ٩١
(٤) الديوان ص ٩١ .

وعلى أى حال فسيظل الدين الحلى طارئة على المجتمع المصرى لا يعكسه إلا بالقدر الذى مكنه فيه ، أو بالقدر الذى ينعكس على شعره .

وإذا كنا نلاحظ أن الأدب الصادر عن مجتمعات الشيعة بمصر أدب شاحب خافت ، فليس معنى ذلك اندثار معتقدات الشيعة ، فالحقيقة أن كثير من هذه المعتقدات تسرب إلى مجتمعات الصوفية ، وامتزج بأفكارهم ومعتقداتهم وأخذ يلوح لنا من خلال أدبهم بصورة أو بأخرى ، وقد ألمع بعض الباحثين إلى هذه الصلة الوثيقة بين التصوف والتشيع ، ويرى فى أشعار الصوفية ، وأقوالهم صدى لهذا الامتزاج ، ولعلنا لاحظنا فى حديثنا عن التصوف أن السيد إبراهيم الدسوقى أخذ ما يقوله الشيعة من انحدار النطفة المطهرة عبر الأصلاب حتى تتجسد فى إمام الوقت وعزفه على وتر صوفى .

وفى شعر البوصيرى — وهو أحد شعراء المتصوفة — كثير من الظلال الشيعية ، والقرآ له فى قصيدته الهمزية قوله :

وعلى صنو النبى ومن دين فؤادى وداده والولاء

ووزير ابن عمه فى المعالى ومن الأهل تسعد الوزراء

لم يزده كشف الغطاء يقينا بل هو الشمس ما عليه غطاء(١)

فها نحن نراه يصف عليا بأنه صنو النبى ووزيره ، وبأنه كشف عنه الغطاء ، أى اطلع من الأسرار والخفايا على ما لم يعرفه غيره . وهذا من أقوال الشيعة .

وفى قصيدة أخرى يصف منزلة على من الرسول — صلى الله عليه وسلم — بأنها كمنزلة هارون من موسى :

---

(١) الديوان ص ٢٢ ، ٢٤

ومن كان من خير الأنام بفضله ... كهارون من موسى وذلكم الجلد(١)

وهذا ما كان يردده الشيعة أيضا .

وفي مدحه للسيدة نفيسة يردد ما يعتقده الشيعة من أن آل البيت ورثوا علم الرسول — صلى الله عليه وسلم — وظل ينتقل فيهم من إمام إلى إمام ، ويذهب البوصيري إلى أن الرسول — عليه السلام — لا يزيد إلا بفضل النبوة عن السيدة نفيسة ، ثم يمضي البوصيري فيصف السيدة نفيسة بالصفات التي كان يخلعها الشيعة على الأئمة من أنها العروة الوثقى ، والرتب العلا ، والغاية القصوى :

سليلة خير العالمين نفيسة ... سمت بك أعراق وطابت محاتد
إذا جحدت شمس النهار ضياءها ... ففضلك لم يجحده في الناس جاحد
بآبائك الأطهار زينت العلا ... فحبات عقد المجد منهم فرائد
ورثت صفات المصطفى وعلومه ... ففضلكما لولا النبوة واحد
فلم ينبسط إلا بعلمك عالم ... ولم ينقبض إلا بزهدك زاهد
معارف ما ينفك يمضي بسرها ... إلى ماجد من آل أحمد ماجد
يضيء ضياء كان ثناءه ... إلى الصبح سار أو إلى الله راشد
تبلج من نور النبوة وجهه ... فمنه عليه العيون شواهد

ثم يقول :

هي العروة الوثقى هي الرتب العلا ... هي الغاية القصوى لمن هو قاصد(٢)

وهكذا نرى أن التشيع — وإن كان قد انقرض أو يكاد من مصر كمعتقد قد عاشت أفكاره ومعتقداته إلا أنها أخذت زيا جديدا ، وصبغا مخالفا .

---

(١) الديوان ص ٦٨ .
(٢) الديوان ص ٥٩ — ٦١ .

الفصل الخامس

النزعات الطائفيه

ساد جو من التوتر العلاقة بين المسلمين وأهل الذمة فى مصر طوال العصر المملوكى ، وربما كانت هناك عوامل كثيرة ساعدت على خلق هذا التوتر ، ولا ريب أن أهم هذه العوامل وأخطرها هو الحروب الصليبية التى كانت تخوضها الدولة دفاعا عن الدين ، الأمر الذى طبع العصر كله بطابع دينى ، وأصبح هذا الطابع هو الذى يحكم كثيرا من العلاقات بين المسلمين وأهل الذمة ولا ريب أيضا أن ما ارتكبه الصليبيون من أهوال قد خلق فى العالم الإسلامى — ومصر هى القلب منه آنذاك — مشاعر تخبص بالمرارة الأمر الذى كان له رد فعل عنيف ضد أهل الذمة . (١)

ويعكس لنا الأدب الرسمى هذا العهد توجس الدولة من المسيحيين ، وخوفها من اتصال الملكانية منهم بدول الفرنج الذين هم على مذهبهم، واليعاقبة بالحبشة التى كانت يعقوبية المذهب . فيقول ابن فضل الله العمرى فى وصيته لبطريرك النصارى الملكانيين :

«وإياه ثم إياه أن يأوى اليه من الغرباء القادمين عليه من يريب ، أو يكتم عن الإنهاء إلينا مشكل أمر ورد عليه من بعيد أو قريب ، ثم الحذر الحذر من إخفاء كتاب يرد إليه من أحد الملوك ، ثم الحذر من الكتابة إليهم أو المشى على مثل هذا السلوك ، وليتجنب البحر وإياه من اقتحامه فإنه يغرق ، أو تلقى

---

(١) أنظر أهل الذمة فى مصر فى العصور الوسطى د. قاسم عبده قاسم ص ٩١ ط المعارف ١٩٧٧ م

ما يلقيه إليه من جناح غراب فإنه بالبين ينعق» . (١)

ولعلنا لحظنا تلاعب الكاتب بألفاظ البحر والغرق ، والتراب والنعيق ، وما تلوح به عبارته من تهديد ووعيد .

ومن وصية لبطريرك اليعاقبة يقول ابن فضل الله :

«وليتجنب ما لعله يريب ، وليتوق ما يأتيه سرا من الحبشة حتى إذا قدر فلا يشم أنفاس الجنوب ، وليعلم أن تلك المادة وإن كثرت مقصره ، ولا يحفل بسواد السودان فإن الله جعل آية الليل مظلمة وآية النهار مبصرة» (٢)

ورغم هذا التوجس فلم يكن – كما يبدو – المماليك غنى عن استخدام أهل الذمة فى وظائف الدولة الإدارية لخبرتهم فى هذا المجال ، الأمر الذى كان يثير سخط المسلمين لما يلحظونه من ثراء هؤلاء العمال من أهل الذمة ، وتعاليهم وتماديهم فى ابتزاز أموال المسلمين بغير الحق فى الوقت الذى يتهاونون فيه مع أبناء ملتهم ، ويمدون فى الخفاء على مد الكنائس والأديرة بالمال

ويشير السيوطى إلى اعتماد دولة الأتراك على القبط قائلا : «وكان هذا أول شؤم الأتراك أن عدلوا عن وزارة العلماء إلى الأقباط والمسالمة» (٣)

وضاق الناس بالأسعد بن صاعد الفائزى الذى كان من المسالمة ، وأكثر من فرض الضرائب حتى قال فيه بعض الشعراء :

لعـن الله صاعـدا	وأبـاه فصاعـدا
وبنيـه فنـازلا	واحدا ثم واحـدا (٤)

---

(١) التعريف بالمصطلح الشريف ص ١٤٥ .
(٢) التعريف بالمصطلح الشريف ص ١٤٦ .
(٣) حسن المحاضرة ج ٢ — ص ١٢٤
(٤) حسن المحاضرة ج ٢ — ص ١٢٤ .

وكثرت سخريات الشعراء من استخدام أهل الذمة ، فنرى المعمار يسخر من ابن الأطروش الذى نال رتبة عالية ، ويصف بغلته بأنها على دين النصارى تمشى بزنار :

ان ابن الاطروش حوى رتبة — باع بها الجنة بالنار
تنصرت بغلته تحته — فأصبحت تمشى بزنار (١)

ويرى شهاب الدين العطار أن الأقباط بلغوا ما بلغوه لجنون المماليك ، وفقدانهم العقل :

قالوا . نرى الأقباط قد رزقوا — حظا وأضحوا كالسلاطين
وغالوا الأموال قلت لهم — رزق الكلاب على المجانين (٢)

ونلحظ فى كتابات هذه الحقبة كثيرا من المؤلفات التى تتصدى لاستخدام أهل الذمة وتنهى عنه ، منها الكلمات المهمة فى مباشرة أهل الذمة للإسنوى ، ومنها المذمة فى استعمال أهل الذمة لابن النقاش . (٣)

ويعجب الإسنوى لما يراه من تسلط أهل الذمة فى مصر مع عظمتها وسعة علم علمائها فيقول :

«والعجيب أنه لا يعرف فى إقليم من الأقاليم من الشرق إلى الغرب توليتهم إلا فى اقليم مصر خاصة ، فيا لله العجب ما بال هذا الاقليم دون سائر الأقاليم ؟ مع أنه أعظم أقاليم الإسلام ، وأوسعها عالما ، وأكثرها علماء» (٤)

أما ابن الإخوة فيصور ما يجده من تمادى أهل الذمة وتماديهم فى الترف

---

(١) مطالع البدور جـ ٢ — ص ١٢٩ .
(٢) الدرر الكامنة جـ ١ — ص ٢٠٢ .
(٣) الكتاب الأخير مخطوط بدار الكتب تحت رقم ٣٩٠٢ تاريخ .
(٤) الكلمات المهمة فى مباشرة أهل الذمة ص ٩ نشر موشى برلمان بروكلين ١٩٦٩

والترفع على المسلمين والتكنى بكناهم ، وتعاظم نسائهم ورجالهم فيقول :

«فلو شاهد عمر بن الخطاب — رضى الله عنه — اليهود والنصارى فى زماننا هذا وآدرهم تعلو على آدر المسلمين ومساجدهم ، وهم يدعون بالصوت التى كانت للخلفاء ، ويكنون بكناهم ، فمن سوتهم الرشيد وهو أبو الخلفاء ويكنون بأبى الحسن وهى على بن أبى طالب — رضى الله عنه — وبأبى الفضل وهو العباس عم رسول الله ، وقد جاوزوا حد أقدارهم ، وتظاهروا بأقوالهم وأفعالهم ، وأظهرت منهم الأيام طائع شيطانية مكنتها وعضدتها يد سلطانية فركبوا مركوب المسلمين ، ولبسوا أحسن لباسهم ، واستخدموهم ، فرأيت اليهودى والنصرانى راكبا يسوق بمركبه ، والمسلم يجرى فى ركابه ، وربما تضرعوا وتذللوا ليرفع عنهم ما أحدثه عليهم ، وأما نساؤهم إذا خرجن من دورهن ومشين فى الطرقات فلا يكدن يعرفن ، وكذلك فى الحمامات ، وربما جلست النصرانية فى أعلى مكان من الحمام والمسلمات يجلسن دونها ويخرجن الأسواق ، ويجلسن عند التجار فيكرمونهن لما يشاهدون من حسن زيهن فلا يدرون أنهن أهل ذمة» . (١)

وعبارة ابن الاخوة تفصح بالأسى على العهد العمرى الذى كان يلزم أهل الذمة مغايرة الزى الإسلامى ، والركوب بالإكف ، والتواضع للمسلمين . ولعلنا لاحظنا إشارة ابن الاخوة إلى تعضيد السلطان لأهل الذمة ، وتغاضيه عن أفعالهم ، وربما كان ذلك راجعا إلى حرص المماليك على المال ، وتقريب من يجمعه لهم مهما كان لونه أو دينه ، ولم يكن أمامهم بهذا الصدد إلا الاعتماد على أهل الذمة ، الذين كانوا يحتجزون لأنفسهم بعض هذا المال ، ولا يتبقى

---

(١) معالم القربة فى أحكام الحسبة ص ٤٢ ، ٤٣ طبع كمبرج ١٩٣٧ بعناية روبن ليوى .

الناس فى النهاية سوى الفتات ، واسمع قول شهاب الدين الأعرج السعدى :

وكيف يروم الرزق فى مصر عاقل   ومن دونه الأتراك بالسيف والترس
وقد جمعته القبط من كل وجهـة   لأنفسهم بالربع والثمـن والخمس
فللترك والسلطان ثلث خراجهـا   وللقبط نصف والخلائق فى السدس(١)

ويصور البوصيرى ابتزاز القبط لأموال الناس ، ويصمهم باللصوصية ، وبأنهم يسرقون أموال السلاطين على حد قوله

عزوا وأكرمهم قـوم لحاجتهم   ما تلقم بعد ذلك العز من هـون
وطاعنوا الناس بالأقلام واستلبوا   منهم بها كل معلوم ومكنـون
ومن مـواش وأطيـار وآنيـة   ومن زروع ومكيول وموزون
لهم مواقف فى حرب الشرور كما   حرب البسوس وحرب يوم صفين
لا يكتبون وصولات على جهـة   مفصلات بأسماء وتبيـين
إلا يقولون فيما يكتبـون لـه   من المفرق ، وماذا وقت تعيين ؟
فاصبع وكاسر وحص الربع باطنها   ظلت أول مقهور ومغبـون
هم اللصوص ومن أقلامهم عتـل   بها يسفون أمـوال السلاطـين

ثم يصور البوصيرى مصارف هذه الأموال المنهوبة ، وكيف أنها تنفق على مجالس اللذة ، وبناء القصور ، والتفنن فى الأطعمة ومجالس الأنس .

وكل ذلك مصروف ومصرفهم   الشيخ يوسف أبى هيص بن قطمين
والشراب وتبييت الطعـام به   عطـر المقار بأنواع الرياحـين
والطروق وأنـواع الفسـوق معا   والصروق الكبيرات الفلاويـن
والبغـال الرطبـات الركاب ترى   غلمانهم خلفهم فـوق البراذيـن

(١) الدرر الكامنة جـ ١ — ص ٣٧٦ .

وللمناديل في أوساط من ملكوا ... وللمناطق فيها والهمايين

وللرباع العوالي الارتفاع بنا ... وللبساتين تنشا والدكاكين

وللشبارى وللأقطاع تفرش في ... قصور فوق رخام في الأواوين

وللمجالس في أوساطها خرك ... وللطنافس في أيام كانون

ويشير البوصيرى إلى ما يمد به هؤلاء الكنائس والقسس من هذه الأموال فيقول :

وصانعوا كل مسترق إذا رفعوا ... له الحساب بسحت كالقرابين

وربعوه فقال الشيخ والدنا ... قس القسوس ومطران المطارين

منا له الملو فيا حل يقبله ... إذا برسم سداد أو لصابون

والزيوت وإيقاد الكنائس كم ... والتقيق الهيا القرابين ؟ !

ويبلغ السخط بالبوصيرى مداه وهو يرى ما يتقلب فيه المستخدمون من أهل الذمة من رغد ، فيحث السلطان على جهادهم ، راعما أن جهادهم خير من جهاد التتر والفرنج فيقول :

سيوا الرعية لم يبقوا على أحد ... ولا أمانة القبط الملاعين

لا تأمن على الأموال سارقها ... ولا تقرب عدو الله والدين

وخل غزو هولاكو والفرنس معا ... وانهض بفرسانك الغر الميامين

واغزو عامل أسوان تنال به ... جنات عدن بإحسان وتمكين (١)

وإذا كان هذا شأن عامل أسوان وأتباعه من النصارى صورته لنا هذه القصيدة ، ففي قصيدة أخرى للبوصيرى أيضا نرى صورة لنصارى الحلة ، إذ يصفهم البوصيرى بأنهم السوس التى ينخر في عظام الدولة ، ويهلك أقوات

---

(١) القصيدة بكاملها في ديوان البوصيرى ص ٢١٤ — ٢١٧ .

المسلمين ، ويصور ما فى ضمائرهم من النوايا السيئة قائلا :

إن النصارى بأعلمة ودهم   لو كان جامعها يكون كنيسا
أترى النصارى يحكمون بأنه   من باشر الأحباس صار حبيسا
إن عاد أصبح إليها ثانيا   ضربوا على أبوابها الناقوسا
صرف الإله السوء عنك بصرفه   فاصرفه عنا واصحح القسيسا
أقذى به المتخلفين وإنما   أقذى يتيس كاليهود تيوسا
لو كنت أملك أمرهم من غيرتى   لم أبق للمتخلفين ضروسا
يرعون أموال الرعية بالأذى   لو يحلبون لأشبهوا الجاموسا
الله أرسلهم على أقرانهم   سوسا وقد أمنوا عليها السوسا (١)

وفى قصيدة ثالثة يصف تعصبهم لبنى ملتهم قائلا .

ويعجبهم من جد جديه بطرس   ويحزنهم من جد جديه جعفر
بأن النصارى يرغبون لبعضهم   ومن غيرهم كل يراع ويذعر
عدواتهم للملك ما ليس تنقضى   وخطب أخى الإسلام ماليس يغفر (٢)

ويبدو أن مفهوما خاطئا ساد عقول بعض أهل الذمة من النصارى، وهو أنهم أصحاب البلاد ، وأن المسلمين غاصبون ، لذلك فهم يبيحون لأنفسهم كل ما يصل إلى أيديهم من أموال على أنها بعض حقوقهم ويبدو أن هذا مفهوم قديم فى أوساط المسيحيين ففى أيام الحاكم بأمر الله الفاطمى ظهر بينهم كاتب يعرف بالراهب كان يدعو إلى ذلك ، ومن قوله : «نحن ملاك هذه الديار حرثا وخراجا ، ملكها المسلمون منا ، وتغلبوا عليها وغصبوها ، واستملكوها

---

(١) الديرات ص ١٢٤ .
(٢) الديرات ص ١١٦ .

من أيدينا ، فنحن معاً صلتنا بالمسلمين فهو قبالة ما فعلوا بناء . (١)

وظل هذا المفهوم يجد له من يؤيده من النصارى ، وإلى ذلك يشير — الاسنوى ويوضح أن منهم من يعتقد «أن البلاد الآن ملكهم ، وأن المسلمين قد أخرجوهم منها بغير استحقاق ، فيسرقون من الأموال ما قدروا عليه ، ويعتقدون أنهم لم يخونوا ولا ظلموا ، ويرون ان احتمال المصادرة والعقوبة عليهم كاحتمال المرض قد تطرأ وقد لا تطرأ ، ويودعون تلك الأموال في الكنائس والديورة وغيرها» . (٢)

وطبيعي أن يجد هذا المفهوم مفهوما مقابلا لدى بعض المسلمين من أنهم الفاتحون وأنهم أحق بالبلاد .

وكان اليهود — وقد ظهرت أمثال هذه المفاهيم — يستحلون لأنفسهم ما قدروا على نهبه من كلا الفريقين .

ويعرض البوصيرى هذه المفاهيم منكرا لها ، ساخرا من دعاتها ، منبها إلى ما تجره أمثال هذه الدعاوى من أخطار على البلاد ، وضياع لأموالها . وهو لذلك يدعو إلى محاسبة كل عامل محاسبة صارمة أيا كان دينه فيقول :

يقول المسلمون : لنا حقوق   بها ولنحن أولى الآخذينا
وقال القبط إنا بمصر الملوك   ومن سواهم غاصبونا
وحللت اليهود بحفظ سبت   لهم مال الطوائف أجمعينا
فلا تقبل من النواب عذرا   ولا النظار فيما يمطلونا
فلا تتأصل الأموال حتى   يكونوا كلهم متواطئينا

---

(١) صبح الأعشى ج ١٣ ص ٣٦٩ .
(٢) الكلمات المهمة في مباشرة أهل الذمة للاسنوى ص ٩ .

والا أى منفعـــة بقــــوم   إذا استخدمتهم لا يحفظونا (١)

وطبيعى أن مثل هذا التوتر إذا ترك دون أن تزال أسبابه لابد أن ينفجر بالحسم ، وهذا ما حدث ، فقد وصل الأمر حد الصدام العنيف متمثلا فى إشعال الحرائق ، وازهاق الأرواح ، وتبادل الفريقين هدم دور العبادة ، وقد وصل سخط المسلمين أحيانا إلى التصدى للسلطان ، والوقوف فى وجهه كما حدث عندما تصدت العامة للناصر محمد حينما رأت منه بعض الميل للنصارى (٢)

وربما كان اليهود أقل تعرضا لضراوة هذه الهبات من المسيحيين ، إلا أنهم مع ذلك لم يسلموا فى كثير من الأحيان من لفح هذا التعصب ، والاصطلاء بشروره . وفى كل مرة كانت الدولة تتدارك الأمر فتصدر مرسوما بعدم استخدام أهل الذمة ، وتلزمهم بلبس (الغيار) أى لبس مغاير لما يلبسه المسلمون متمثلا بالنسبة للنصارى فى العمائم الزرقاء وعقد الزنار ، وبالنسبة لليهود فى العمائم الصفراء ، كما كان يحتم على الفريقين عدم ركوب الخيل ، وكثيرا ما كان هذا التشدد يلجىء بعض أهل الذمة إلى دخول الاسلام للاحتفاظ بوظائفهم وقد حفظت لنا المصادر بعض نماذج من هذه المراسيم ، ففى سنة ٧٠٠هـ عقب موجة من هذه الموجات الغاضبة ، أصدر الملك الصالح مرسوما يعيد أهل الذمة إلى العهد العمرى ، ويمنع استخدامهم ، ويشير المرسوم إلى ما ذهب إليه أهل الذمة من التمادى والإضرار بالمسلمين فيقول :

«ولما طال عليهم الأمد تمادوا على الاغترار ، وتعدوا إلى الضرر والإضرار

---

(١) الديوان ص ٢٢٦ .

(٢) أنظر السلوك للمقريزى فى حوادث سنة ٦٦٣ ص ٥٣٥ — ج ١ — ٢ ، وأنظر الخطط ج ٣ ص ٤٠٤ ، وأنظر أيضا السلوك حوادث سنة ٧٢١ ج ٢ — ١ ص ٢١٦ — ٢٢٣ ، وفى حوادث السنة نفسها أنظر النجوم الزاهرة ج ٩ — ص ٦٨ ، ٦٩ .

وتدرجوا بالتكبر والاستكبار ، إلى أن أظهروا التزين أعظم إظهار ، وخرجوا عن المعهود فى تحسين الزنار والشعار ، وعتوا فى البلاد والأمصار ، وأتوا من الفساد بأمور لا تطاق كبار» . (١)

ثم يمضى المرسوم فيوضح ما يجب على أهل الذمة ، وما ينبغى عليهم أن يلتزموا به بشأن دور العبادة :

«وهو أن لا يحدثوا فى البلاد الإسلامية وأعمالها ديرا ولا كنيسة ، ولا قلاية ولا صومعة راهب ، ولا يجددوا فيها ما خرب منها ، ولا يمنعوا كنائسهم التى عوهدوا عليها ، وثبت عهدهم لديها ، أن ينزلها أحد من المسلمين ثلاث ليال يطعمونهم ، ولا يؤوا جاسوسا ، ولا من له ريبة لأهل الإسلام ، ولا يكتموا غشا للمسلمين» . (٢)

ولعلنا لاحظنا روح التوجس تجاه أهل الذمة ، وعدم الاطمئنان إليهم فى هذه السطور .

ثم يحدد المرسوم بعد ذلك هيئة الزى الواجب على رجالهم ونسائهم الالتزام به فيقول :

«وأن لا يتشبهوا بشىء من المسلمين فى لباسهم قلنسوة ولا عمامة ولا نعلين ولا فرق شعر ، بل يلبس النصرانى منهم العمامة الزرقاء عشرة أذرع فما دونها ، واليهودى العمامة الصفراء كذلك ، وتمنع نساؤهم من التشبه بنساء المسلمين ولبس العمائم» . (٣)

---

(١) صبح الأعشى – ١٣ – ص ٣٨٣ .
(٢) صبح الأعشى – ١٣ – ص ٣٨٣ .
(٣) صبح الأعشى – ١٣ – ص ٣٨٣ .

وفي ختام المرسوم نهي عن استخدام أهل الذمة في أعمال الدولة ، أو في إقطاعات الأمراء ، ويعرض المرسوم — مرة ثانية — بما دأب عليه مستخدمو أهل الذمة من التعالي والترفع فيقول :

«ورسمنا أن لا يخدم نصراني ولا سامري ولا يهودي في دولتنا الشريفة — ثبت الله قواعدها — ولا في دواوين الممالك المحروسة والأعمال ، ولا عند أحد من أمرائنا أعزهم الله تعالى ، ولا يباشر أحد منهم وكالة ولا أمانة ، ولا ما فيه تأمر على المسلمين ، بحيث لا يكون لهم كلمة يستعلون بها على أحد من المسلمين في أمر من الأمور ، فقد حرم الله ذلك نصا وتأويلا» (١)

إلا أن هذه المراسيم كان يعمل بها مدة حتى تهدأ الخواطر ثم يعود الأمر إلى ما كان عليه . يقول الدكتور قاسم عبده «ومهما يكن من أمر فإن كثرة المراسيم الصادرة بشأن فرض القيود على أهل الذمة تدلنا بوضوح على أن تلك القيود لم تكن متبعة ، ولم يلتزم بها الذميون على الدوام» (٢)

ومهما يكن من أمر فقد صور لنا الأدب ما كان يعقب هذه الموجات الغاضبة من تشديد على أهل الذمة ، وإلزامهم بلبس مغاير ، ففي سنة ٦٩٨ هـ حينما أصدر السلطان مرسومه بشأن أهل الذمة وشدد عليهم ، قال شمس الدين الطيبي :

تعجبوا للنصارى واليهود معا	والسامريين لما عمموا الخرقا
كأنما بات بالأصباغ منسهلا	نسر السماء فأضحى فوقهم ذرقا (٣)

وقال علاء الدين الوداعي :

---

(١) المصدر نفسه ص ٣٨٥ .
(٢) أهل الذمة في العصور الوسطى ص ١٦٠ .
(٣) النجوم الزاهرة جـ ٨ — ص ١٣٥ .

لقد ألزموا الكفار شاشات ذلـــة   تزيدهم من لعنة الله تشويشـــا
فقلت لهم ما ألبسوكم عمائمـــا   ولكنهم قد ألبسوكم براطيشـا (١)

وعقب موجة ثانية فى عهد السلطان الصالح بن الناصر محمد صدر مرسوم مشابه كان له فى نفوس المسلمين صدى مبهج عبر عنه النويرى السكندرى بقوله :

ملك الزمان الصالح بن محمـد   الناصر بن قلاون المنصـور
أذللت دين الكفر ثم قهرته   وجعلتـه فى ذلـة وثبـور
ليسوا على دين المسيح لأنهم   قد بدلوه بكفـر كل كفـور
صحبوا مقالة بولص فاستزجـروا   عن دين عيسى واشتروا بغرور
ضلوا ضلالا لاستماع حديثه   ألقاهم فى التيـه والتحييـر
إن اليهودى بولصـا أغواهـم   لمـا تنصر وهو غير نصيـر
فأضلهـم عن دين عيسى فاغتدوا   فى زى ثيران وزى حميـر
كفـروا بما جاء المسيح وبدلوا   فاستوجبوا لعنا على التكبير
مجـزاؤهم تكبيلهـم بعمائم   زرق وذيـل الثيـاب قصيـر
وركوبهم مـن جنب شق واحـد   لحميرهم والذيل فى تشميـر (٢)

وإذا كانت هذه المراسيم المشددة قد دفعت ببعض أهل الذمة إلى الإسلام لكى يحفظوا مناصبهم ، فقد ظل الناس ينظرون إليهم فى ريبة وحذر ، ويرون إسلامهم مجرد خدعة أو حيلة ، وقد عرض بعض الشعراء بهذا الإسلام الزائف عقب موجة التشدد التى حدثت أيام الأشرف خليل بقوله .

---

(١) المصدر نفسه ص ١٣٥ .
(٢) الإلمام بما جرت به الأحكام — ٣ — ص ٩٣ ، ٩٤ .

أسلم الكافرون بالسيف قهرا   وإذا ما خلوا فهم مجرمونا

سلموا من رواح مال وروح   فهم سالمونا لا مسلمونا (١)

وكتب أحمد بن المكرم منبها الناصر محمد إلى هذه الخدعة يقول

يا أيها السلطان لا تغترر   بخدعة القبط وما جمعوا

أمرت ألا يخدموا ذمة   فأسلموا خيفة أن يحرموا

خافوا على الورق ولو أنهم   خافوا على دينهم صمموا

فحسبك جوائيهم وجبنهم   والله ما في جمعهم مسلم (٢)

ونجد في شعر ابن دانيال بعض سخريات هؤلاء المسالمة، فيقول في يهودي يكنى بالرشيد أعلن إسلامه :

قالوا اليهودي الرشيد قد اهتدى   رشدا وعن كفر اليهود قد انتقل

فأجبتهم ما رام في إسلامه   إلا احتيال مآثم لا تحتمل

لا يخدعنكم غرة إسلامه   فالكلب أنجس ما يكون إذا اغتسل (٣)

ولم يقف الأمر في الصراع الطائفي عند حد العنف ، وأعمال الحريق والتخريب ، وإصدار المراسيم المتشددة ، بل تعدى ذلك إلى ألوان من المناظرة العلمية ، ونصب كل فريق مقاعد للجدل يفند فيها مزاعم خصمه ، ويدفع عن عقيدته ، ويبرهن على صحة دينه .

وقد اشتهر من بني المسيحيين أبناء العسال : أبو إسحق بن فخر الدولة وأخوه الأسعد أبو الفرج هبة الله ، وأخوهما الصفي أبو الفضائل ماجد ، وهذا

---

(١) المقفى جـ ٢ — ص ٤٠٤ .

(٢) الإعلام بما جرت به الأحكام جـ ٢ ورقة ٩٣

(٣) التذكرة الصفدية جـ ١٤ — ص ٥٧ .

الأخير له مؤلفات يرد فيها على المسلمين ، كما أنه ألف كتابا يرد فيه على ابن تيميه (١) وعرف أيضا أسقف مليج المدعو «بطرس» والذى ألف كتابا يرد فيه على المسلمين ويدفع عن الديانة المسيحية . (٢)

وقد تصدى لهؤلاء من المسلمين علماء لعل أبرزهم ابن تيمية الذى كتب عدة مؤلفات فى دحض مزاعم أهل الذمة .

وتنادى الفقهاء إلى جدال أهل الذمة ، وهدايتهم ، ونرى تاج الدين السبكى يشدد النكير على العلماء الذين يتقاعسون عن مناظرتهم ، ويرى أن هذا أمر من أهم الأمور ، فيقول :

« وبأيها الناس بيكم اليهود والنصارى قد ملئوا بقاع البلاد فمن الذى انتصب منكم للبحث معهم ، والاعتناء بإرشادهم ، بل هؤلاء أهل الذمة فى البلاد الإسلامية ، تتركونهم هملا ، تستخدمونهم ، وتستطبونهم ، ولا نرى منكم فقيها يجلس مع ذمى ساعة واحدة ، يبحث معه فى أصول الدين ، لعل الله يهديه على يديه . وكان من فروض الكفايات ، ومهمات الدين أن تصرفوا بعض همكم إلى هذا النوع فمن القبائح أن بلادنا ملأى من علماء الإسلام ولا نرى فيها فيما دعاه إلى الاسلام مناظرة عالم من علمائنا . (٣)

وقد انبرى البوصيرى منافحا عن الدين بشعره ، متصديا لأهل الذمة ، والحقيقة أن البوصيرى أسهم بدور كبير فى هذا المجال ، وربما كان لهذا الدور الفضل فى شهرته وذيوع صيته ، واعتقاد الناس فيه وفى شعره ، والقارئ

(١) المخطوطات العربية لكتبة النصرانية ج ٤ — ص ١١ ، ١٢ .
(٢) المرجع نفسه ج ٤ ص ٦٢ .
(٣) معيد النعم ومبيد النقم ص ٧٥ ، ٧٦ ط الخانكى ١٩٤٨ .

للديوان البوصيرى يرى أنه يمثل القصيدة الدينية فى عصره بكل أبعادها .

ومنذ البداية نحس أنه قد نصب من نفسه مدافعا عن القضية الإسلامية ، ونراه فى بعض الأحيان يقرن نفسه بحسان بن ثابت شاعر الرسول — صلى الله عليه وسلم — الذى نافح عن الدين ضد المشركين فى عهده الأول فيقول مثلا :

آل بيت النبى طبتم فطاب المدح لى فيكم وطاب الرثاء

أنا حسان مدحكم فإذا نحت عليكم فإننى الخنساء (١)

ويقول من قصيدة أخرى :

فادعى حسان مدح وزدنى إنى أحسنت عنك المنابا (٢)

ثم يقول منبها إلى جهاده بشعره فى سبيل الدين :

إننى لست خطيبا بمديحك ومن يمدك منه الخطابا
وترامت به فى بحار مكثرا أمواجها والعبابا
بقواف شرعت للأعادى وجدوها فى نحورهم حرابا
هى أمضى من ظبى البيض حدا فى أعاديك وأنكى ذبابا (٣)

ويقسم أنه سيظل يلهب بشعره أعداء الإسلام متوددا بمضمهم إلى الرسول صلى الله عليه وسلم :

لا تنكروا بغضى عدو المصطفى إن ببغضهم له أتحبب
أقسمت لا تنفك نار قريحتى أبدا على أعدائه تتلهب (٤)

---

(١) الديوان ص ٢٢ .
(٢) الديوان ص ٣٣
(٣) الديوان ص ٣٣ .
(٤) الديوان ص ٤٧ .

ويركز البوصيرى فى جدله الشعرى على تحريف النصارى للإنجيل ، واليهود التوراة ويدور حول ذلك فى قصائد عدة ، فيبين أن الانجيل بشر برسالة محمد — عليه الصلاة والسلام — ولكن النصارى حرفوا ذلك وأنكروه

واستحبوا الإنجيل عنه وحاذروا   من لفظه التحريف والتبديلا
إن يدعه الانجيل فارقليطه   فلقد دعاه قبل ذلك إيلا
ودعاه روح الحق الوحى الذى   يتنزل عليه بكرة وأصيلا
وأراه لا يتكلم إلا إذا   أرغمت عنكم للإله مقولا
إن انطلقت عنكم يكن خيرا لكم   ليجيئكم من ترتضوه بديلا
يأتى على اسم الله منه مبارك   ما كان موعد بعثه مطولا (١)

ويبين أن الزبور أيضا فيه بشارة برسالة نبينا عليه السلام ، وكذلك هناك بشارة أخرى فى سفر اشعيا . يقول :

وسلوا الزبور فإن فيه الآن من   فصل الخطاب أوامرا وفصولا
فهو الذى نعت الزبور مقلدا   ذا شفرتين من السيوف صقيلا (٢)

ويقول

وكتاب شعيا مخبر عن ربه   فاسمعه يشرح قلبك المتبولا
عبدى الذى سرت به نفسى ومن   وحيى عليه منزل تنزيلا
لم أعط ما أعطيته أحدا من الفضل   العظيم وحسبه تخويلا

---

(١) الديوان ص ١٥٣ — ويعلق البوصيرى على الأبيات بأن عيسى عليه السلام قال اللهم ابعث الفارقليط يعلم الناس أن ابن الإنسان بشر ص ١٥٤ الديوان ، والفارقليط كلمة يونانية معناها محمد ، وكذلك دعاها إيليا والمنحمنا انظر ص ١٥٤ ، ١٥٥ الديوان .

(٢) الديوان ص ١٥٦

يأتي فيظهر الورى عدل ولم   يك بالهوى في حكمه ليميلا (١)

ويبين أن شعيا وصفه بأنه راكب الجمل ، وكذلك بشر به حزقيل ووصفه بغرس غرسته البدو في أرض عطشى ، فخرج من أغصانه نار أكلت كرمة اليهود :

والغرس في البدو المشار لفصله   إن كنت تجهله فسل حزقيلا
غرست بأرض البدو منه دوحة   لم تخش من عطش الفلاة ذبولا
فأتت فاصلة الغصون وأخرجت   نارا لها غرس اليهود أكولا
دعيت بكرمة قوم سوء ذللت   بيد الغرور قطوفها تذليلا (٢)

وهكذا ينتهي البوصيري إلى أن النصارى واليهود قوم جاحدون ، أنكروا الحق بعدما عرفوه :

إن أنكرته النصارى واليهود على   ما بينت منه توراة وإنجيل
فقد تكرر منهم في جحودهم   الكفر كفر والتجهيل تجهيل (٣)

ويتجه البوصيري إلى النصارى فيبين لهم أنهم عاملوا المسلمين بما عاملهم به اليهود ، فكما جحدوا رسالة محمد — عليه السلام — جحد اليهود رسالة عيسى عليه السلام وذلك قصاص عادل :

قل للنصارى الألى ساءه مقالتهم   ما لها غير محض الجهل تعليل
من اليهود استعدتم ذا الجحود كما   من الغراب استعاد المشي قابيل
فإن عندكم توراتهم صدقت   ولم تصدق لكم منهم أناجيل

---

(١) الديوان ص ١٥٨ .
(٢) الديوان ص ١٦٠ .
(٣) الديوان ص ١٧٨ .

ظلمتمونا فأصبحوا ظالمين لكم ... وذاك مثل قصاص فيه تعديل (١)

وإذا كان هذا الحديث يتسم بالشدة ، فإن البوصيري في أحيان أخرى يلين ويتجه إلى النصارى داعيا إلى التماس العبرة والعظة ، وعدم التمادي في التجاهل والإنكار . ونراه يقول في قصيدته الهمزية :

قوم عيسى عاملتم قوم موسى ... بالذي عاملتكم الحنفاء

صدقوا كتبكم وكذبتم كتبهم ... إن ذا لبئس البواء

لو جحدنا جحودكم لاستويتا ... أو للحق بالضلال استواء ؟

ما لكم إخوة الكتاب أناسا ... ليس يرعى للحق منكم إخاء

يحسد الأول الأخير وما زا ... ل كذا المحدثون والقدماء

قد علمتم بظلم قابيل هابيـ ... ـل ومظلوم الإخوة الأتقياء

وسمعتم بكيد أبناء يعقو ... ب أخاهم وكلهم صلحاء

حين ألقوه في غيابة جب ... ورموه بالإفك وهو براء

فتأسوا بمن مضى إذ ظلمتم ... فالتأسي للنفس فيه عزاء (٢)

وبخلاف هذا موقف البوصيري من اليهود ، فهو موقف اليأس من إيمانهم أو إقرارهم بالحق بعدما قتلوا الأنبياء ، وأشربت قلوبهم العجل فعبدوه في حياة موسى ، ثم قست قلوبهم من بعد ذلك فهي كالحجارة أو أشد قسوة . يقول :

أيؤمنون به وممن جاءهم ... بالبينات مقتل ومصلب

عبدوا وموسى فيهم العجل الذي ... دعوا به ذبح العجول وعذبوا

وسعوا إلى الأوثان بعد وفاته ... والرسل من أسف عليه تندب

---

(١) الديوان ص ١٧٨ .

(٢) الديوان ص ١٤ .

وإذا القلوب قست فليس يلينها ختل بلوم ولا عتو يجتب (١)

ويتجه البوصيرى مجادلا أهل الكتاب فيما يعتقدون ، ويتصدى للنصارى في قولهم بالتثليث ، واليهود في قولهم بالبداء متسائلا من أين لهم ذلك ، ولم يأت به نص أو كتاب :

خبرونا أهل الكتابين من أين أتاكم تثليثكم والبداء ؟!
ما أتى بالعقيدتين كتاب واعتقاد لا نص فيه ادعاء
والدعاوى ما لم تقيموا عليها بينات أبناؤها أدعياء (٢)

ثم يشرع في تفنيد مقولة النصارى في التثليث ، ساخرا من منطقهم في ذلك متسائلا في تهكم عن هذا الإله المركب وطبيعته فيقول :

ليت شعرى ذكر الثلاثة والواحد نقص في عدكم أم نماء ؟!
كيف وحدتم إلها نفى التوحيد عنه الآباء والأبناء ؟!
أإله مركب ؟! ما سمعنا بإله لذاته أجزاء
ألكل منهم نصيب من الملك فهلا تميز الأنصباء ؟!
أم هم حلوا بها شركة الأبدان أم هم لبعضهم كفلاء ؟!
أتراهم لحاجة واضطرار خلطوها ؟ وما بغى الخلطاء ؟!
أهو الراكب الحمار ؟ فيا عجز إله يمسه الإعياء
أم جميع على الحمار ؟ ... لقد جل حمار بجمعهم مشاء
أم سواهم هو الإله ؟ ... فما نسبة عيسى إليه والانتماء ؟!(٣)

---

(١) الهمزية ص ٤٥ .
(٢) الهمزية ص ١٥ .
(٣) الهمزية ص ١٥ .

ويعجب البوصيري من النصارى حين زعموا ألوهية عيسى — عليه السلام — ويبدي دهشته الساخرة من هذا الإله الذي يأكل ويشرب وينام ، ويمسه الألم ويموت .

وحين مات — كما زعموا — من الذي تكفل بتدبير أمر الكون ؟!

أيجوز أن الإلـه لحاجـــة ... يتناول المشروب والمأكـولا ؟
وينـام من تعب ويدعـو ربـه ... ويـروم من حر الهجيـر مقيلا
ويمسـه الألم الـذي لم يستطـع ... صرفا لـه عنـه ولا تحويـــلا
يا ليت شعري حين مات بزعمهم ... من كان بالتدبير عنـه كفيـلا ؟!
هل كان هذا الكون دبر نفسـه ... من بعده أم آثر التعطيـلا ؟! (١)

وينتقل البوصيري إلى اليهود فيسخر من مقولتهم في البداء ، ومن تجويزهم على الله — سبحانه — ما لا يجوز :

مثل ما قالت اليهـود وكـــل ... لزمتـه مقالـة شنعــــاء
إذ هـم استقرءوا البـداء وكم ســا ... ق وبالا إليهـــم اســـتقراء
وأراهـم لم يجعلـــوا الواحـد القهـــار ... في الخلـق فاعلا ما يشـاء
جـوزوا النسخ مثلـما جـوزوا المسـخ ... عليهـم لـو أنهـم فقهـاء (٢)

ويلاحقهم بالأسئلة المربكة التي تفضح كذب ادعائهم ، وتكشف زيف اعتقادهم فيقول :

فسلـوهم أكـان في مسخهـم نسـخ ... لآيـات اللـه أم إنشــاء ؟!

---

(١) الديوان ص ١٣١ .
(٢) الديوان ص ١٩ .

وبداء فى قولهم ندم الله على خلق آدم أم خطاء ؟!

أم محا الله آية الليل ذكرا … بعد سهو ليوجد الإمساء ؟!

أم بدا للإله فى ذبح إسحاق … وقد كان الأمر فيه مضاء ؟! (١)

وإذا كان النصارى قد ألهوا عيسى ، فاليهود ألهوا أحبارهم ، وجعلوا من شأنهم التحريم والتحليل والإباحة :

ضل الذين تألهوا أحبارهم … ليحرموا ويحللوا ويبيحوا

يا أمة المختار قد عوفيتم … مما ابتلوا والمبتلى مفضوح (٢)

كذلك فهم قد وقعوا فى التجسيم ، فمثلوا الله بعباده ، وزعموا أن إسرائيل صارعه ، وزعموا أنهم رحلوا به فى قبة مضروبة ، وأنهم سمعوا كلامه — سبحانه — بلا واسطة .

وكفى اليهود بأنهم قد مثلوا … معبودهم بعباده تمثيلا

وبأن إسرائيل صارع ربه … ورمى به شكرا لإسرائيلا

وبأنهم رحلوا به فى قبة … إذ أزمعوا نحو الشآم رحيلا

وبأنهم سمعوا كلام إلههم … وسبيلهم أن يسمعوا المنقولا (٣)

ويظل البوصيرى يتعقب دعاوى اليهود ، ويكشف عوراتهم ، وما افتروه على موسى — عليه السلام — من نطق الخنا والفواحش إلى آخر ذلك من الخطل والزيف .

وفى الجانب المقابل حرص البوصيرى على أن يشيد بالإسلام ، وشريعته

---

(١) الديوان ص ١٩ .
(٢) الديوان ص ٥٧ .
(٣) الديوان ص ١٢٥ .

السمحة فهو دين الحق ، وما سواه باطل :

دينه الحق فدع ما سواه وخذ الماء وخل السرابا (١)

وشريعة الإسلام واضحة المحجة ، سمحة لا تكلف الناس من أمرهم عسرا لها كتاب أحكمت آياته ، يتحدى من يعاند :

شريعته صراط مستقيم فليس يمسنا فيها لغوب
عليك بها فإن لها كتابا عليه تحمد الحدق القلوب
يزيد لها عن الكتب المواضى وليست عنه فى حال تنوب
ألم تره ينادى بالتحدى ولا أحد بيينة يجيب (٢)

وهو أيضا كتاب يخاطب العقل :

وأتاهم بكتاب أحكمت منه آيات لقوم يعقلونا (٣)

ورسول الإسلام لم يكلفنا بما نعجز عن إدراكه وفهمه ، لذلك لم نرتب ، ولم نضل :

لم يمتحنا بما تعيا العقول به حرصا علينا فلم نرتب ولم نهم (٤)

والرسول بشر منا لا نخلع عليه صفات الألوهية ، وإن كنا نفضله على سائر البشر :

فمبلغ العلم فيه أنه بشر وأنه خير خلق الله كلهم (٥)

---

(١) الديوان ص ٣٦ .
(٢) الديوان ص ٣٧ .
(٣) الديوان ص ٢١٢ .
(٤) الديوان ص ١٩٣ .
(٥) الديوان ص ١٩٤ .

• بشر مجيد في النفـــوس معظـــم   مقداره وإلى القلـــوب حبيب (١)

وهكذا نصب البوصيرى من نفسه مدافعا عن قضية الإسلام ، وطبيعى أن نتصور أن البوصيرى فى ذلك كان يقارع الحجة بالحجة ، وأن هناك من أهل الذمة من كان يتصدى له بالمناظرة والجدل بطريق أو بأخرى ، ولعل هـذا هو السر فيما نراه من جنوح البوصيرى إلى الأسلوب المنطقى ، وغلبة النزعة العقلية على هذا الجانب من شعره .

ولعل ما يؤكد أن هناك من أهل الذمة من كان يتصدى بالرد والدفاع وتسفيه أقوال المسلمين قصيدة البوصيرى التى نظمها سنة ٦٥٤ هـ إثر حدوث حريق بالمسجد النبوى من هزة أرضية أسقطت سراجه ، ولعل هذا الحـدث قد استغله أهل الذمة فى الترويج لدعاواهم ، وفى الحط من شأن الإسلام ، لذلك نرى البوصيرى يتجه إليهم مشيرا إلى ما أشاعوا وما روجوا

دعوا معشر الضلال عنا حديثكـــم   فلا خطأ منـــه يجاب ولا عمـــد
فلو أنكم خلق كريم مسخــــتم   بقولكم ، لكن بمن يمسخ القرد؟!
أتانا حـديث ماكر هيا عقلــــه   لــكم فتنــة فيهـا لمثلكـم حصـد
وأعشى ضياء الحق ضعف عقولكم   وشمس الضحى تعشى بها الأعين الرمد
ولن تدركوا بالجهل رشـداً وإنمـا   يفرق بين الزيف والجيد النقد (٢)

ويبين البوصيرى أن هذه النار وإن كانت قد ذهبت بزخارف المسجـد النبوى فإنها لم تذهب بمكانه فى النفوس ، بل ربما ازداد هيبة وجمالا ، ولعل

---

(١) الديوان ص ٤٢ .
(٢) الديوان ص ٦٤ .

البوصيرى بذلك يرد على ما كان يردده أهل الذمة إذ ذاك :

وإن ذهبت بالنار عنه زخارف   فما ضره منها ذهاب ولا فقد

ألا ربما زاد الحبيب ملاحة   إذا شق عنه الدرع وانتثر العقد

وكم سترت الحسن بالحلى من حلى   وكم جسد غطى محاسنه البرد

وأعجب ما يلقى الحسام مجردا   ورونقه أن يظهر الصفح والحد

وما تلك للإسلام إلا بواعث   على أن يجل الشوق أو يعظم الوجد (١)

لا ريب — إذن — أن هذا التوتر الدينى وما صحبه من جدل قد ترك أصداء قوية فى أدب هذا العصر ، ولعلنا — من ثم — نستطيع أن نقف على سر من أسرار ذيوع المدائح النبوية فى هذه الحقبة وتسابق الشعراء إلى نظمها والإكثار منها .

إن هذه المدائح النبوية لم تكن هيمات دينية تنبع فى فراغ ، وإنما هى نبات يضرب بجذوره فى تربة المجتمع الإسلامى آنذاك ، وتغذيه التيارات والصراعات والأحداث التى شغلت وجدان الناس وعقولهم

ولعلنا بعد ذلك نستطيع أن نفسر من أمر هذه المدائح بعض أمور ظل الناس يتناقلونها وهم فى غفلة عما يكمن وراءها من مقاصد .

ولعل أول أمر نلحظه فيها أنها تلح دائماً على أن رسولنا — صلى الله عليه وسلم — أفضل الرسل ، أفضل من عيسى عليه السلام ، وأفضل من موسى ، فيقول البوصيرى :

كيف ترقى رقيك الأنبياء   يا سماء ما طاولتها سماء

---

(١) الديوان ص ٦٦ .

لم يساووك فى علاك وقد حال سنا منك دونهم وسناء (١)

وفى البردة يصفه عليه الصلاة والسلام بأنه فاق النبيين طرا ، وكلهم واقف لديه عند حد لا يتجاوزه :

فاق النبيين فى خلق وفى خلق	ولم يدانوه فى علم ولا كرم
وكلهم من رسول الله ملتمس	غرفاً من البحر أو رشفا من الديم
وواقفون لديه عند حدهم	من نقطة العلم أو من شكلة الحكم (٢)

ويرى أنه عليه السلام وإن جاء آخرا فهو سابق بفضله المسيح ونوحا :

إن جاء بعد المرسلين ففضله	من بعده جاء المسيح ونوح
جاءوا بوحيهم وجاء بوحيه	فكأنه بين الكواكب يوح (٣)

ويرى أن أم الرسول — صلى الله عليه وسلم — حين حملت به فإنها حملت بأفضل مما حملت به السيدة مريم :

يوم نالت بوضعه ابنة وهب	من فخار مالم تنله النساء
وأتت قومها بأفضل مما	حملت قبل مريم العذراء (٤)

وليس هذا مذهب البوصيرى وحده ، ولكنا نجد هذا الاتجاه عند معظم الشعراء ، فالعزازى يرى الرسول خير من نزل عليه جبريل ، وفى هذا ما فيه من تفضيل على سائر الأنبياء :

أولى النبيين برهانا ومعجزة وخير من جاءه بالوحى جبريل (٥)

(١) الديوان ص ١ .
(٢) الديوان ص ١٩٣ .
(٣) الديوان ص ٥٥ .
(٤) الديوان ص ٣ .
(٥) فوات الوفيات ح ١ — ص ٩٦ .

ويرى ابن نباته أن دور عيسى لم يكن إلا تمهيدا ، وحسبه أن يكون مبشرا بمحمد عليه السلام :

تحزم جبريل لخدمة وحيه وأقبل عيسى بالبشارة يجهر
فمن ذا يضاهيه وجبريل خادم لمقدمه العالى وعيسى مبشر(١)

ولا يذهب بنا الظن أننا ننكر ذلك أو نحاول إنكاره فهذه قضية تثبت عقلا واستنباطا حتى وإن لم يقررها نص من كتاب أو سنة ، ولكنى أعتقد أن هذه القضية لم تثر فى القرون الإسلامية الأولى ، وما أظن إلحاح الشعراء عليها فى العصر الذى نتصدى له بالدراسة إلا ثمرة من ثمار الجدل الدينى الذى كان يموج به المجتمع آنذاك ، ولم تكن المدائح النبوية فى جملتها إلا تأكيدا لهذه القضية وإلحاحا عليها .

وأما الملحوظة الثانية فهى ما نجده من تركيز شعراء المدائح النبوية على إبراز المعجزات المادية للرسول — صلى الله عليه وسلم — فالبوصيرى فى كل قصائده تقريبا يركز على هذه المعجزات فى انشقاق القمر ، وحنين الجذع وسجود الشجر :

ودان البدر منشقا إليه وأفصح ناطقا عير وذيب
وجذع النخل حن حنين ثكلى له فأجابه نعم الحبيب
وقد سجدت له أغصان سرح فلم لا يؤمن الظبى الربيب (٢)

ويحكى البوصيرى — أيضا — من أمر هذه المعجزات كيف شفى الرسول صلى الله عليه وسلم — ذلك المريض الذى أشفى على الموت :

---

(١) الديوان ص ١٨١ ، ١٨٢ .
(٢) الديوان ص ٢٧ .

وميت مسود بضر افروح	أقام وسريت عنه شعوب (١)

ويشير إلى أن الموتى كلمت الرسول — صلى الله عليه وسلم — وتحولت العصا فى كفه سيفا ، وأضاء له العرجون فكأنه كوكب :

وتكلم الأطفال والموتى له	بعجائب فليعجب المتعجب
والجذل من حطب غدا لمكاشة	سيفا وليس السيف مما يحطب
وعسيب نخل صار عضبا صارما	يوم الوغى إذ كل عين تقلب
وأضاء عرجون وسوط فى الدجى	عن أمره فكأن كلا كوكب (٢)

وشارك سائر الشعراء فى الحديث عن هذه المعجزات المادية ، فالشعبى القوصى يمدح الرسول مركزا على هذا الجانب :

وشق له القمر المستنير	والشمس ردت وناهيك فضلا
وسبح فى راحتيه الحصى	لرب العباد تعالى وجلا
وحن إليه حنين العشار	جذيع قديم وقد كاد يبلى
وناول فى يوم بدر قضيبا	لبعض الصحابة فارتد نصلا
وقد سجدت سرحة إذ رأته	وأخرى أتته فلبته عجلى
وخبر عن كل شىء يكون	بعد وعن كل ما كان قبلا (٣)

ويقول ابن نباته :

نبى زكا أصلا وفرعا وأقبلت	إليه أصول فى الثرى تتجرر

---

(١) الديوان ص ٢٧ .
(٢) الديوان ص ٤٣ .
(٣) الطالع السعيد ص ٦١٧ .

وخاطبه وحش الهمامه آنسا ... إليه وما عن ذلك الحسن مقصر
له راحة فيها على البأس والندى ... دلائل حتى فى الجهاد تؤثر
فيا العصا فيها وريق تصيبها ... إذا هو مشمود الفراوين أبتر (١)

ويقول القيراطى :

ومنهن عرجون حواه بكفه ... فعاد حساما قاطعا باهر الصقل
ومنهن أن الجذع حن لبعده ... كما أن عزون شكا لوعة الثكل
ومنهن تسبيح الحصا بيمينه ... فسبح عجباً عنده القوم فى الحفل
ومنهن إخبار الذراع مخبر ... بما فيه من سم له ساعة الأكل (٢)

والشواهد كثيرة ، ولسنا بحاجة إلى المزيد ، كما أننا لسنا بحاجة إلى الخوض فى أمر هذه المعجزات أو إقامة الجدل حولها ، وكل ما يعنينا هنا أن نفسر إلحاح الشعراء عليها ، واحتلالها حيزا كبيرا من مدائحهم النبوية .

ولا أظننى مغاليا إذا قلت : إن ذلك أيضا كان صدى من أصداء الجدل الدينى ، وأغلب الظن أن النصارى كانوا يعددون ما أجراه الله — سبحانه — من معجزات على يد عيسى من إحياء الموتى ، وإبراء الأكمة والأبرص ، وأن اليهود كانوا يعددون ما وهبه الله لموسى من معجزات فى عصاه ، وكان على المسلمين أن يقابلوا هذا بالمثل ، فلم يكن لهم مندوحة عن التركيز على الجانب المادى من معجزات الرسول — صلى الله عليه وسلم — فكأنهم أرادوا أن يبينوا النصارى واليهود أن رسول الإسلام كان له من المعجزات المادية ما يضاهى

(١) الديوان ص ١٨٢ .
(٢) الديوان ص ٢٩ .

معجزات عيسى وموسى ، ثم يفرد بعد ذلك بالمعجزة الخالدة الباقية ألا وهى القرآن الكريم ، فهو بذلك أفضل الرسل على أى وجه كانت المقارنة بينه وبينهم ، ولعل ذلك كله كان يدور فى رأس ابن بنت الأعز حين مدح الرسول عليه السلام ، لذلك نراه يسلك سبيل المقارنة فيقول

هل جاء قبلك مرسل بخوارق ... إلا وجئت بمثله أو أزيد

فعصا الكليم تبدلت أعراضها ... وكذا عصاك تبدلت بمهند

بجست عيون الماء من حجر له ... والنبع فى الأحجار كالمعهود

إن النبع من العوائد كلها ... نبع بدا بين الأصابع باليد(١)

---

(١) فوات الوفيات جـ ٢ ص ٢٨١ .

الفصل السادس

ملامح الشخصية المصرية والحياة العامة

ينبض أدب العصر المملوكي بروح الحياة المصرية ، ويكاد القارىء له يتمثل مصر المملوكية واقعا ملموسا يحيشه ، ويعايش فيه الناس في طباعهم ، وطرائق تفكيرهم ، وسلوكهم ، وعاداتهم ومعتقداتهم ، وما كانوا يحبون ، وما كانوا يكرهون ، بل إنه يرى هؤلاء الناس في بيوتهم وأسواقهم وحرفهم في أفراحهم وأحزانهم .

وصحيح أن الأدب — كما يقال — لمح وإشارة ، وتعبير عن خطفات يعيشها الأديب بحسه ووجدانه ، إلا أنه مع ذلك يفتح أمام خيال القارىء أبوابا لا نهاية لها من التأمل والتصور ، وإذا بهذه اللمحات الخاطفة والإشارات الشاردة تستحيل عالما زاخرا نابضا بالحياة والحركة .

وأول ما نقف عليه في أدب هذه الحقبة الروح المصرية التي تتسرب إلى أقوال الأدباء ، مثلا شعبيا مما يردده الناس في محاوراتهم ، أو تعبيرا مما يجرى على ألسنتهم في غدوهم ورواحهم ، أو دعابة مكية مما تتفتق عنه الروح المصرية الساخرة . فانظر مثلا إلى قول البهاء زهير :

إيـاك يـدرى حديثـا بيننا أحـد ... فهم يقولون للحيطـان آذان

مـن لى بنـوى أشكو دا السهاد له ... فهم يقولون إن النوم سلطان (١)

---

(١) الديوان ص ٢٦٥ .

فأنت تراه قد استعار المثلين الشعبيين «الحيطان آذان ، النوم سلطان» وهو بهذا قد وسم شعره بميسم مصرى ، وأصبح القارىء لا يخطىء فيه تلك السمة المصرية .

وانظر إليه مرة أخرى وقد استعار من أقوال العامة ما يصف به طـول الليل :

لا رعـاه الله مـا أطـــــوله تحبل المرأة فيه وتلـد (١)

ثم انظر إليه يخاطب محبوبه :

تعيش أنـت وتبـقى أنا الـذى مـت حقـا
حاشـاك يـا نـور عينـى تلـقى الـذى أنا ألـقى (٢)

أتحس بعد ذلك أن هناك فاصلا زمنيا يفصل بينك وبين الشاعر ؟ وهذه التعبيرات «تعيش أنت ، يا نور عينى» أتختلف فى شىء عما نردده فى أيامنا؟..

وفى ديوان البهاء زهير أمثلة كثيرة على ذلك ، ولا يستطيع القارىء مهما كان علمه بالبهاء زهير وحياته إلا أن يحكم عليه بأنه مصرى أو هو على الأقل يصدر عن روح مصرية .

وهذه الروح المصرية لا تخطئها فى سائر شعراء العصر ، فها هو البوصيرى أيضا ينتقى لأدبه من أقوال العامة وأمثالها ما يسمه بهذه السمة المصرية ، وها هو يعرض ضائقته على أحد الوزراء ، ويصف له ما تعانى عائلته ، فيختار

---

(٢) الديوان ص ٧٥ .
(١) الديوان ص ١٨٧ .

من قول العامة «بالخيط والإبرة» إذا أرادوا مطابقة ما يحكى لما جرى مطابقة دقيقة :

أحدث المـولى الحـديث الـذي   جرى عليهم بالخيط والإبره (١)

وها هو يختار اللفظة العامية «يستاهل» وهو يتحدث على لسان حمارة قائلا :

لو جرسوه على من صفعه   لقلت فيها عليه «يستاهل»(٢)

أما ابن دانيال الموصلي فيقول متهكما بالوزير ابن حنا :

يحتاج ذا التاج من يرصعه   بدرة تحت دالها كسرة
فمن رأى عنقه الطويل ولا   يزل فيه يموت بالحسرة (٣)

أرأيت إلى قوله «يزل فيه» ؟ أما نقول نحن حتى اليوم «نزل فيه ضربا» ؟

ويقول الزعاري :

قالت وقد أنكرت سقامي   لم أر ذا السقم يوم يشبك
لقد أصابتك عين غيري   فقلت لا عين بعد عينك(٤)

أرأيت إلى هذا القول الذي يكثر جريانه على ألسنة النساء خاصة (أصابته العين) وكيف أجراه الشاعر على لسان محبوبته :

وتنفحنا من حين لآخر في أدب هذه الحقبة روائح الحضارة المصرية

---

(١) الديوان ص ١٨٧ .
(٢) الديوان ص ١١٨ .
(٣) الديوان ص ١٩٠ .
(٤) فوات الوفيات ج ٢ — ص ٢٥٩ .
(٥) النجوم ج ١٠ — ص ٢٨٨ .

القديمة أسطورة وتاريخا ، ولنقرأ معى قول البهاء زهير :

تسلم باليمنى على إشـــارة ... وتمسح باليسرى مجارى المدامع
وما برحت تبكى وأبكى صبابة ... إلى أن تركنا الأرض ذات نقائع
ستصبح تلك الأرض من عبراتنا ... كثيرة خصب رائق النبت رائع(١)

وأقرأ معى قوله :

وذا العام قالوا أمرع الغور كله ... وما كان لولا دمعتى بمريع (٢)

أفترى معى أن هذه الدموع التى تخصب الأرض ، وتمرع الغور ، وتهز الأرض بفعلها فتنبت النبات الرائق الرائع ليست إلا رجعا لما ورد فى أسطورة إيزيس وأوزوريس ؟ لعلنا لا نجانب الصواب إن ذهبنا إلى ذلك

كذلك كان التاريخ المصرى القديم نبعا لخيال الشعراء ، فاستمدوا منه كثيرا من الصور ، ومن قصة موسى وفرعون التى جرت أحداثها على أرض مصر أخذ الأدباء بعض أخيلتهم ، وقد ألمع إلى ذلك الدكتور مصطفى الصاوى الجوينى . (٣)

ونرى مثلا البهاء زهير يريد أن يبين لمحبوبه أن نظره لا يلتفت إلى سواها فيشبه نفسه بموسى حين حرمت عليه المراضع سوى أمه .

وغيرك إن وافى فما أنا ناظـــر ... إليه وإن نادى فما أنا سامـــع
كأنى مـوسى حـين ألقته أمه ... وقد حرمت قدماً عليه المراضع(٤)

---

(١) الديوان ص ١٥٥ .
(٢) الديوان ص ١٥٦
(٣) ملامح الشخصية المصرية فى الدراسات البيانية ص ١٤٦ .
(٤) الديوان ص ١٥٦ .

أما الجزار فيستحضر فى ذهنه القصة كاملة حين يمدح جمال الدين بن يغمور فيقول :

ولست أخاف السحر من لحظاتها	لأنى بموسى قد أمنت من السحر
فتى إن سطا فرعون فقرى وجدته	يفرقه من جود كفيه فى بحر
له باليد البيضاء أعظم آيـــة	إذا اسودت الأيام من نوب الدهر (١)

فها هو موسى يبطل سحر السحرة ، وها هو فرعون وغرقه فى البحر ، وها هى آية اليد البيضاء ، كل أولئك ساقه الجزار فى سياق جديد ، ووظفه لمدح أميره موسى بن يغمور .

وليس بغريب أن تحظى قصة موسى بهذا الاهتمام فى عالم الأدب ، فهى بورودها فى القرآن الكريم صارت بمثابة برزخ يصل حضارة مصر الفرعونية بحضارتها الإسلامية .

وظلت آثار مصر الفرعونية مصدر دهشة وعجب للأدباء ، يذهب معها الخيال كل مذهب ، ويحار الفكر فى تفسير أسرارها ، وكشف معميّاتها ، وأصدق ما يعبر عن ذلك قول عبد الوهاب المصرى فى الأهرام :

أبنـى الأهـرام كم من واعظ	صدع القلوب ولم يفه بلسـانه
أذكرتنى قـولا تقادم عهده	أين الـذى الهرمان من بنيـانه
هن الجبـال الشامخات تـكاد أن	تمتد فـوق الأرض عن كيوانه

وأمام عظمة الأهرام وشموخها يحار فكر عبد الوهاب المصرى ، وتنثال عليه تساؤلات لا يجد لها إجابة .

---

(١) المغرب ج ٤ — ص ١٢٥ .

هل عابد قد خصها بعبادة | هيـاكل الأهـرام مـن أوثانه ؟
أو قائـل يقضى برجعة نفسه | من بعد فرقتـه إلى جثمانـه
فاختـارها لكثـوره وجسمه | قبرا ليأمـن مـن أذى طوفانه ؟
أو أنهـا الـاثرات مراصـد | يختـار راصدهـا أعز مكانـه ؟
أو أنهـا وضعت بيوت كواكب | أحـكام عـرس الدهـر أو بونانه؟
أو أنهم نقشوا عـلى حيطانهـا | علما يحار الفكر فى تبيانه ؟ (١)

ومن السمات المصرية الخالدة الفكاهة ، وقد أشار إلى ذلك كل من تصدى للشخصية المصرية بالدراسة ، فيقول الدكتور شوقى ضيف فى معرض حديثه عن المصريين : «فمنذ برزوا على صفحة الزمن وهم يضحكون ويسخرون ويتهكمون ، ألهمتهم ذلك عصور الشدة والرخاء منذ كانوا يحملون صخور الأهرامات على كواهلهم ، ويرفعونها بصدورهم وسواعدهم ، ويعلو عليهم وادبهم ليلتى فى حجوزهم خيره وثماره . (٢)

والدكتور شوقى ضيف يشير بذلك إلى أن الفكاهة كانت ثمرة من ثمار الحياة المصرية التى تتقلب بين المتناقضات من الشدة والرخاء ، واليسر والعسر فكأن هذه المتناقضات تختلط فى سير الحياة يتفق تماما مع ما نراه فى والنكتة من تخليط .

أما الدكتور مصطفى الصاوى الجوينى فيذهب إلى أن الفكاهة كانت واستعلاء على ما صادف شعب مصر من محن فهو لم يرسب فى أعماقه الكوارث كي تعقد من شخصيته ، أو تجعلها مترمتة كدرة ، وإنما حاول بالنادرة

---

(١) قبل ثمرات الأوراق لابن حجه ص ١٦٩ .
(٢) الفكاهة فى مصر ص ٧ .

والنكتة أن يفرج عن كربه وأن ينفس عن حزنه» . (١)

والدكتور الحوفي بهذا يذهب إلى أن النكتة أو الفكاهة تعبير عن البساطة المصرية التي لا تحترز في أعماقها ما يحقدها أو ما يكدرها .

وهكذا نرى الباحثين يذهبون في تفسير ما اتسمت به شخصية مصر من فكاهة مذاهب شتى ، قد لا يهمنا في هذا المجال أن نستقصيها أو نمحصها بقدر ما يهمنا هذا الإجماع على صحة هذه من سمات الشخصية المصرية .

والقارىء للأدب المصري في مختلف عصوره — لاشك — واقع على هذه السمة ظاهرة جلية ، يراها أحيانا سخرية لاذعة بالحكام الغرباء ، ويراها أحيانا مداعبة بالأوضاع الاجتماعية ، ويراها أحيانا أخرى دعابة خالصة بريئة لا يقصد بها سوى الترويح عن النفس ، والتخفيف من جد الحياة بخلطه بالهزل على حد قول ابن نباته :

إذا أبصرت جدا من زمـــــان   فخالطه بشيء من مـــزاح (٢)

هكذا كانت شخصية مصر منذ القدم ، وستظل إلى ما قدره الله للحياة على هذه الأرض ، سنة الله ولن تجد لسنته تبديلا .

وفي الفصول السابقة عرضنا ألوانا من سخريات الأدباء بالحكام وبالأوضاع الاجتماعية ، وألمحنا إلى أن هذه الألوان الساخرة كانت سلاحا فريدا في مقاومة الظلم ، ومحاربة الفساد أو في لفت الحكام إليه .

---

(١) ملامح الشخصية المصرية في العراسات البيانية ص ٢٤٨ .
(٢) الديوان ص ١٠٣ .

على أن من هذه الفكاهة مالم يقصد به إلا الإضحاك ، ونلمس ذلك في مثل قول ابن دانيال :

كم قبل لى إذ دعيت شمسا لابد للشمس من طلوع
فكان ذاك الطلوع داء سعا إلى القطع من ضلوعى (١)

أو قوله :

بسمر لى عابس مناما أحسن فى قوله وأجمل
وقال لا لبد من طلوع فكان ذاك الطلوع دمل (٢)

فابن بسل فى هذه الأبيات ركز على عنصر التورية فى كلمة «طلوع» وما تعطيه من معان متناقضة تثير الضحك ، كذلك نراه صاغ فكاهته على هيئة ما نسميه اليوم بالقفشة فلم تستغرق «النكتة» أكثر من بيتين ، وكأنه فطن إلى أن الإيجاز عنصر هام من عناصر النكتة ، إذ فى لمحة خاطفة يقف العقل أمام النتيجة التى تناقض المقدمة ، فلا يملك الإنسان إلا أن يضحك وقد اختلت أمامه معايير المنطق .

ومن ألوان الفكاهة تلك المداعبات البريئة التى كان يتبادلها الأدباء ، والتى توحى بخفة الروح ، ومن ذلك ما كتبه الصاحب تاج الدين بن حنا إلى الوراق يعزيه فى حماره .

يفديك جحشك إذ مضى متردياً وبتالد يفدى الأديب وطارف
عدم الشعير فلم يجده ولا رأى تبنا وراح من الظما كالتالف
ورأى البويرة غير خاف ماؤها فرى حشاشة نفسه كالخارف

---

(١) فوات الوفيات جـ ٢ ص ٣٣٤ .
(٢) فوات الوفيات جـ ٢ ص ٣٣٥ .

فهو الشهيد لكم بوافر فضلكم   هذى المكارم لا حماقة خاطف
قوم يموت حمارهم عطشا لقد   أزروا بحاتم فى الزمان السالف (١)

وحتى البوصيرى ذلك الشاعر المتصوف لم يستنكف عن الفكاهة ، بل إن ديوانه عامر بها ، وقد عده بعض أهل عصره من الشعراء الظرفاء ، ومن ألطف فكاهاته ما كتبه إلى ناظر الشرقية على لسان «المملوكة حمارة البوصيرى» وكان الناظر قد استعارها ، فأعجبته وطمع فى أخذها :

يأيها السيد الذى شهدت   أخلاقه لى بأنه فاضل
ما كان ظنى يبيعنى أحد   قط ولكن صاحبى جاهل
لو جرسوه على من معه   لقلت حقا عليه يشاهل
أقصى مرادى لو كنت فى بلدى   أرعى به فى جوانب الساحل
وبعد هذا فما يحل لكم   أخذى لأنى من سيدى حامل (٢)

ويكشف الأدب عن جوانب أخرى من الشخصية المصرية آنذاك، فنراها كما يمثلها — شخصية متعلقة بالخوارق تميل إلى تصديقها وحكايتها ، ومن ذلك ما يحكيه المقريزى عن المماليك الصالحية حين فروا بعد قتل زعيمهم أقطاى وضل اثنا عشر نفرا منهم فى تيه بنى إسرائيل ، وهناك وجدوا المدينة الخضراء التى يصفها المقريزى بقوله :

«فإذا مدينة عظيمة ، ذات أسوار وأبواب حصينة كلها من رخام أخضر فطافوا بداخل المدينة ، وقد غلب عليها الرمل فى أسواقها ودورها ، وصارت أوانيهم وملابسهم إذا أخذت تفتت وتبقى هباء ، فوجدوا فى صوانى بعض

---

(١) الوافى بالوفيات جـ ١ ص ٢١٩ .
(٢) ديوان البوصيرى ص ١٨٩ .

البزازين تسعة دنانير ، قد نقش عليها صورة غزال حوله كتابة عبرانية ، وحفروا مكانا ، فإذا بلاطة ، فلما رفعوها وجدوا صهريجا فيه ماء أبرد من الثلج فشربوا وساروا لحالهم» . (١)

وقد تكون هذه المدينة الخضراء أثرا من آثار القدماء ، ولكن ليس من شك أن الخيال لعب دوره في تصوير هذه المدينة الخضراء ، وتفنن راويها ما شاء في وصف رخامها وآثارها . ولكن الأغرب من ذلك قصة ذلك الثور التي أوردها المقريزي في بداية غلاء سنة ٦٩٦ هـ حيث يحكي أن رجلا خرج بثوره ليورده الماء ، ولكن الثور لم يرد الماء ، واكتفى أن نطق بلسان أسمع جميع من بالمورد «الحمد لله والشكر له . إن الله تعالى وعد هذه الأمة سبع سنين جدبة ، فشفع فيهم النبي صلى الله عليه وسلم ، وإن الرسول أمره أن يبلغ ذلك ، وإنه قال يا رسول الله فما علامة صدقي عندهم ، قال : أن تموت بعد تبليغ الرسالة ، وأنه بعد فراغ كلامه صعد إلى مكان مرتفع وسقط منه ومات» . (٢)

والعجيب بعد ذلك أن رجلا كالمقريزي — وهو من هو — يروي ذلك دون أن يأخذه ارتياب أو تشكك .

ولا ريب أن هناك من الساسة من فطن إلى هذه السمة في العقلية المصرية — آنذاك — فأوعز إلى بعض القصاص أن ينسج على منوال ذلك بعض الحكايا التي تدخل في روع الناس أن المماليك ارتقوا إلى الحكم على قدر مقدور منذ الأزل ، وفي ذلك ما فيه من حمل الشعب على الرضوخ لحكمهم والتسليم له . يقول المقريزي في أحداث سنة ٦٧٢ هـ :

---

(١) المقريزي — السلوك جـ ١ — ٢ — ٢٩٩ .
(٢) إغاثة الأمة ص ٣٨ ، ٣٩ .

دق الهرم نقض باب القصر المعروف بباب البحر تجاه المدرسة الكاملية بين القصرين لأجل نقل عمد منه لبعض العمائر السلطانية ، فوجد فيه صندوق فى داخله صورة من نحاس أصفر ، مفرغ على كرسى شكل هرم ، ارتفاعه قدر شبر ، بأرجل نحاس ، والصنم جالس عليه ، ويداه مرتفعتان تحملان صحيفة دورها ثلاثة أشبار مكتوبة بالقبطى ، وإلى جانب الكتابة فى الصحيفة شكل له قرنان يشبه شكل السبلة ، وإلى الجانب الآخر شكل ثان وعلى رأسه صليب ، ووجد مع هذا الصنم فى الصندوق لوح من ألواح الصيني ، فقد تكشط أكثر ما فيه من الكتابة ، وبقى فيه «بيبرس» فتعجب من ذلك» . (١)

وهذه الحكاية — لا ريب — فيها ظلال من الواقع ، ولكن عمل الخيال فيها واضح وخاصة فى الخاتمة ، ولعلنا الآن نستطيع أن ندرك ماذا وراء ذلك من مقاصد .

وعلى أى حال فهذه الحكايا لون من ألوان القص الأدبى ، ستكشف منها طبيعة العقلية المصرية — آنذاك — وشغفها بالخوارق والعجائب ، وأخذ كل ذلك مأخذ اليقين ، ونحن واجدون فى ثنايا كتب التاريخ والأدب ألوانا من هذا القص ، ولعل الفكر الصوفى كان له دوره فى توجيه العقل المصرى إلى ذلك ، ودفعه إلى الإيمان بالخوارق ، والتى سماها الصوفية «الكرامات» ورأوا أن هذه الكرامات امتداد لمعجزات الرسل ، كما يقول البوصيرى :

فانقضت آى الأنبياء وآياتك فى الناس ما لهن انقضاء
والكرامات منهم معجزات حازها من نوالك الأولياء (٢)

---

(١) المقريزى — السلوك — جـ ١ — ٢ — ص ٦٠٩ .
(٢) الديوان ص ٢٨ .

كذلك يعكس الأدب من سمات الشخصية المصرية «الطيرة» إذ كانوا يتشاءمون من أشياء ، ويتفاءلون بأشياء أخرى ، فمثلا كانوا يتطيرون من زيارة المرضى يوم السبت ، ولعل ذلك أثر من آثار اليهودية في مصر ، ونرى ذلك في قول البهاء زهير :

أأحبابنا حاشاكم من عيادة … فذلك وهم في القلوب بغيض
وما عاقني عنكم سوى السبت عائق … ففي السبت قالوا ما يعاد مريض(١)

وكانوا يتفاءلون ربما ببعض جمل أو أقوال ترد على اللسان . ومازال العامة يسمون ذلك «الفال» ، ومازال الإيمان بالفأل دأب كثير في مصر وخاصة النساء ، ونرى صدى من ذلك عند سراج الدين الوراق ، فقد كتب يتقاضى صديقه صلا ، وتفاءل بتحقيق طلبه أن وردت على لسانه كلمة «صالة» :

قبل يد الشرف التي هي قبلة … أبدا لها تتوجه الآمال
وادكر له شوقا إليه يهزني … فكأنني متأود عسال
ولعل ذا فأل جرى نطقي به … وأبوك يصدق في نداه الفال (٢)

وشغف الناس في هذه الحقبة بالنجامة ، وتحدثنا كتب التاريخ عن شغف بعض سلاطين المماليك بذلك ، وتتردد في الأدب أصداء هذه الظاهرة ، ففي أبيات لابن نباته نرى كيف ربط الناس بين حركات الكواكب والأفلاك وبين ما يجرى على الناس من أحداث ، وذلك إذ يقول :

ومذ أثرت فيك الكواكب حكمها … صدقت فيا برحي بجفني كوكب
يقولون إن الشهب في كبد السما … لها أسد يردى الأنام وعقرب
دع الأسد الأقوى يفترس الورى … ودع عقرب الأفلاك للحلق يلسب(٣)

---

(١) الديوان ص ١٧٣ .
(٢) منتخب الوراق ص ٢٤٩ .
(٣) الديوان ص ٤٤

ويرسم ابن دانيال الموصلي صورة لواحد من المنجمين مشيرا إلى ما كان يحتال به على الناس وبخاصة النساء من تمائم وتعويذات زاعما أنها تعين الحامل على أن تضع حملها ، وتوقف النزيف ، وترد البصر ، وتجعل المرأة التي ترملت مطمع الخاطبين ، يقول ابن دانيال على لسان ذاك المنجم في وصف التميمة أو «الحجاب» :

ولقيته الحصن الحصين وإنه ... لحص بآى الله بات منورا
غدا منه ليل في التمائم جنة ... لمن كان منصور اللواء مظفرا
ومن فضله أن الصبو إذا رأى ... حامله أمسى به متأخرا
يلوح عظيما في النفوس مبجلا ... عزيزاً مهيبا في العيون موقرا
وكم حامل لما رأته تخلصت ... وأحضرها الطلق الذى قد تعسرا
وكم أريد بالسحر قد كان أكمها ... فلما رأى ما فيه في الحال أبصرا
وذات نزيف بالدماء رأت به ... عيانا وقد قامت من الدم أحمرا
وأرملة عطل من الزوج قد غدا ... به أمرها بالخاطبين ميسرا (١)

وهذه الصورة التي رسمها ابن دانيال للمنجم وما يأتي به من مزاعم مازال تطالعنا إلى اليوم في المجتمع المصرى وبخاصة في الريف . ومازال كثير من النساء يلجأن إلى مثل ذلك المنجم يطلبن منه ما كان يطلب النساء في زمن المماليك .

وإذا كان ابن دانيال قد رسم صورة لهذا المنجم كاتب التمائم ، فإن الصفدى يطالعنا في بعض شعره بصورة «الرمال» أو «ضارب الرمل» فيقول في رمال :

يضرب في رمله بكف ... هى النقا تحتها العقيق
حمرة خديه في بياض ... وما إلى وصله طريق

---

(١) خيال الظل ص ٢١٢ ، ٢١٣ .

ويقول فى آخر :

أقـول اضرب لصبـك تحت رمل　　عسـاه ينـال مـا يرجو ويبقى
فقـال الرمـل أحمر فى حسـاب　　بأنك لم تصل لعريش صدغى (١)

وإذا علمنا وراء هذا الثوب الغزلى الذى يلف به الصفدى أبياته إذ يقوله متغزلا بضارب الرمل وجدنا أن هذه الأبيات تحمل كثيرا من مصطلحات الحرفة من أمثال «ضرب الرمل» ، «البياض» ، «الطريق» ، «الرمل أحمر فى حساب» ، وهذه المصطلحات مايزال يتداولها أهل هذه الحرفة إلى يوم الناس هذا .

ويضيف ابن الإخوة خطا جديدا إلى صورة التنجيم والمنجمين فى معرض حديثه عما كان يتخذه هؤلاء من حوانيت يتجمع فيها الشباب بقصد رؤية النساء اللائى كلفن بكشف النجم وكتابة التمائم ، فيقول :

«وحينئذ يؤخذ عليهم وعلى كتاب الرسائل أنهم لا يجلسوا فى درب ولا زقاق ولا فى حانوت بل على قارعة الطريق فإن معظم من يجلس عندهم النسوان ، وقد صار فى هذا الزمان يجلس عند هؤلاء الكتاب والمنجمين من لا له حاجة عندهم من الشباب وغيرهم ، وليس لهم قصد سوى حضور امرأة تكشف نجمها أو تكتب رسالة أو حاجة لها فيشاكلها ويتمكن من الحديث معها بسبب جلوسه وجلوسها ، ويؤدى ذلك إلى أشياء لا يليق ذكرها» . (٢)

وعلى مع أدب هذه الحقبة فراه يعرض علينا صورا من الحياة المصرية آنذاك ، ونبدأ بصورة الزواج ، وكان للخاطبة دور كبير فى إتمام الزواج إذ كانت المرأة — على هذا العهد — محجبة خلف نقابها أو فى بيتها ، فـلا

---

(١) الحسن الصريح فى وصف مائة مليح ، ورقة ٢٤ .
(٢) معالم القربة ص ١٨٣ .

مناص — إذن — أمام طالبي الزواج من اللجوء إلى الخاطبة

وفي بابة طيف الخيال لابن دانيال نعثر على صورة «أم رشيده الخاطبة وقد لفها ابن دانيال في ثوب من سخرياته ، إلا أنه مع ذلك يشير إلى ما كان لأمثال أم رشيد من معرفة بالنساء ، وإلى طرقها في ذلك ، كما يشير إلى جوانب من الفساد الخلقي في طباع هؤلاء الخاطبات ، فيقول على لسان الأمير وصال وقد عزم على الزواج :

« فأطلب لم رشيد الخاطبة ، وإن كانت كالتي تخرج بالليل حاطبة ، لأنها تعرف كل حرة وعاهرة ، وكل مليحة بمصر والقاهرة ، ولأنهن يخرجن من الحمامات متنكرات في ملاحف الخدامات ، وتعبر عن الثياب والخل بلا أجرة ، أقود من مقود ، وأجمع من مسرد ، أقود من الأوز للقرط بالمساط وأجمع للرأسين من مسمار مقراص الخياط» (١)

ويبدو أن هذه المهنة مارسها كذلك بعض الرجال ، وكان الرجل الذي يمارس ذلك يسمى «الدلال» وحدثنا المعمار بخبر عام عن هذا الدلال الذي غشه وزوجه بعروس قبيحة فيقول :

لما جلوا عرسي وعاينتها	وجدت فيها كل عيب يقال
فقلت للدلال ماذا ترى	فقال ما أحسن إلا الحلال (٢)

أما صورة «العرس» التي يطالعنا بها أدب هذا العصر فهي لا تكاد تختلف عما نراه في أيامنا ، تتحدث «أم رشيده الخاطبة في بابة ابن دانيال عما أعدته لحفل العروس فتقول :

---

(١) خيال الظل ص ١٦١ ، ١٦٢ .

(٢) فوات الوفيات جـ ١ — ص ٥٢ .

وسيتم بالسعادة ، يا ولدى قد وقع الناس فى الرأس ، فأعمل على الناس أما أنا فقد درت المؤذنات ، وصرت فى الشوارع مثل «الصانعةيا بنات» ، وأطلقت من الصامتة ليلة الجمعة ، فاكثر الجلا ولو عشرين شمعة ، وقد اكتريت زهر البستان ، والمغنية الورد الطرى الريان ، والماشطة أم شهاب الدمشقية ، والجلا فى قاعة المهتار بالبرقية ، فاحمل فى كمك النقوط من الدراهم والأنصاف وإلا صفعونا بالدلاكش والأخفاف» . (١)

فها نحن نرى القاعة التى أعدت للعروس وهو صنيعنا اليوم من استئجار مسرح أو غيره ، ونرى المغنيتين «الورد الطرى الريان» و «زهر البستان» ، واكتراء أم رشيد لها من «الصامتة» وهو مايزال قائما إلى اليوم من استئجار «العوالم» أو مغنيات الفرح ، وليست الصامتة إلا من يطلق عليها العامة «أسطى العوالم» . ثم الشموع والنقوط والماشطة وكل أولئك مانزال نراه فى أفراحنا ثم انظر معى إلى ما اختاره ابن دانيال من أسماء موحية للمغنيات ، وقارنه بالأسماء التى نسمعها اليوم لمغنيات الأفراح .

وينتقل ابن دانيال فيصف الزفة قائلا :

«فيدخل ويخرج فى زفة ، وقدامه المغانى والشمع منصمة ، ومن خلفه البوقات والطبول ، وهو راكب على فرس من أحسن الخيول ، ثم يترجل فى أدب وناموس وتبرز الجلا المواشط بالعروس ، وتجلى عليه بالخلعة والشربوش ، وتخطر مستورة الوجه بمنديل مذهب منقوش» . (٢)

صورة لم يطرأ عليها إلا تغير طفيف ، ولا يكاد يستوقفنا فيها إلا ما برزت به «العروس» فى جلوتها من لباس الجنود المماليك فى الخلعة والشربوش ، أما فيما عدا ذلك فكأن ابن دانيال يصف لنا عرسا مما لانزال نشاهده فى الريف

---

(١) خيال الظل ص ١٢٤ .

(٢) خيال الظل ص ١٢٤ .

المصرى ، وربما كان فى ذلك — كما يقول الدكتور شوقى ضيف — بعض الدلالة على أن مصر بلد محافظ ، وأنها لا تتطور إلا بقدر محدود . (١)

ونجد فى أدب العصر إشارات إلى جهاز العروس ، إذ كان على والدها أن يقوم بإعداد منزل الزوجية ، ونجد البوصيرى يشير إلى ذلك ، ويستخدم لفظة «شوار» وهى ما تزال مستخدمة عند العامة حتى يومنا . وذلك إذ يقول :

وفتاة ما جهزت بجهاز   عطلت الدخول بعد شهور
والتفتنى الشوار بخيا على من   بيته ليس فيه غير حصير (٢)

وندخل مع الأدب إلى رحاب الحياة العامة ، ونقف عند صورة الأعياد المصرية لنرى كيف تمثلت فى الأدب ، ولعل من أبرز هذه الأعياد عيد وفاء النيل ، وها نحن نقرأ تلك البشارة التى كتبها شهاب الدين محمود الحلبى بوفاء النيل ، فنجده يصف النيل الذى فاض وعم ، وقضى على المحل ، وجرد على الجدب سيف الخصب ، ونجا الناس من الكرب ، يقول :

«والنيل قد عم بنيله الأرض حتى كلل مفارق الآكام ، وعم رءوس الربا وحمى الأرض من تطرق المحول إليها فأصبحت فى حرم ، وظهرت به عجائب القدرة . ومنها أن ابن الستة عشر بلغ إلى الهرم ، وبث جوده فى الوجود . فلو صور نفسه لم يزدها على ما فيه من كرم ، وتلقت منه النفوس أبهج محبوب طرد عقوبتا ، ووثقت من حمرته بالغنى والمنى إذ لم تدر أياقوتا تشاهد منه أم قوتا» . (٣)

وجهد الشهاب هنا متوجه إلى الصنعة اللفظية من تورية وتجنيس ومقابلة ، لذلك ضاق إطاره عن أن يعرض صورا من بهجة الناس أو مرحهم ، وربما

---

(١) الفكاهة فى مصر ص ٢٧ .
(٢) الديوان ص ١٠٨ .
(٣) نهاية الأرب ــ ٥ ص ١٤١

رأيناه يشير إلى نظر الناس فى ابتهاج الخصب إلى ماء النيل ، ولو استرسل شهاب الدين لصور لنا احتفال الناس بهذا العيد إلا أنه تغلب عليه الصنعة ، فيعود مرة أخرى موصدا الباب بهذا التجنيس بين الياقوت والقوت .

ثم يمضى بعد إلى وصفه لمراسم حفل الوفاء الذى كان يحضره السلطان والأمراء ، ويحتشد الناس بين مغن ومصفق ومبتهج ، فنجده يقول :

«وجرى الأمر فى التخليق على أجمل عادات البدور ، وعلقت ستارة المقياس لا للإخفاء على عادة الأستار ، بل للإشاعة والظهور ، واستقر حكم المسرة على السنن المعهود ، وعاد الناس عيد سرورهم إذ ذلك يوم مجموع له الناس ، وذلك يوم مشهود ، وركب مولانا السلطان إلى سد الخليج والماء قد استطال عليه ، وسرت سرايا أمواجه إليه ، وصدمه بقوة ، فاندفع منكسراً بين يديه ، فانجبرت القلوب بكسره ، واستوفت الأنفس السرور بأسره ، وأيقن كل ذى عسر بحصول يسره» . (١)

ولا نرى إلا لوحة جامدة ، تصلبت فيها المشاعر ، وتحول الحديث إلى سرد مقتضب لا نحس فيه بأصداء البهجة والفرحة .

وإذا تركنا النثر إلى الشعر لم نلق ما ينقع الغلة أو يروى الظمأ ، فها هو برهان الدين القيراطى يصف النيل حال وفائه فيقول :

إذا زار بحر النيل زاد عجائبـــا	وحسناً وفضلا فالتحق من ذوى الفضل
حـلا منه مــاء سكرى مذاقــه	بإجماع أهل الذوق والعقد والحل
يــروق لإخــوان الصفــاء مكدرا	فأكداره عــن الصفــاء لمستجلى
وكم لعبت أمواجـه وتراقصــت	ودارت به تلك الجوارى على رجل

(١) نهاية الأرب جـ ٥ – ص ١٤٢ .

وحار قلوب الناس فى كسره كما ... بمقياسه قد حار مقياس ذى عقل (١)

والأبيات على ما تعطيه من إشارات لفيض النيل ، وحلاوة مائه ، وكسر خليجه ، وعظمة مقياسه ، لا ترى فيها صورة حية ، وما ذاك إلا لأن القيراطى شغل نفسه باللفظ فكان حرصه على إيراد تورية أو تجنيس أو مقابلة أو إشارة فقهية أكثر من حرصه على نقل إحساس يملأ جوانحه تجاه النهر العظيم .

وإذا تركنا القيراطى إلى بدر الدين بن الصاحب وجدناه قد شغل نفسه هو الآخر بتضمين شطر من الشعر القديم ، أو آية من القرآن الكريم ، وأصبح نظمه كأنه تمهيد لذلك .

يقول لما هجم النيل على غفلة :

قد قلت لما أن تزايد نيلنا ... أو كاد ينزل ذروة المقياس

يا نيل يا ملك الحياة بأسرها ... ما فى وقوفك ساعة من باس (٢)

ويقول وقد أفرط النيل فى الزيادة :

طغى النيل عن حد عاداته ... وعلمنا الجهل فى العالمين

فصرنا نكشف عوراتنا ... وكنا نخوض مع الخائضين (٣)

ولا يرقى عن هذا المستوى قول شهاب الدين أحمد بن العطار حين وضعت سلاسل على قنطرة الفم لتمنع المراكب من السير فى الخليج ، بعد أن كثرت الفواحش فيها :

حديث فم الخور المسلسل ماؤه ... بقنطرة الفم قد سار فى الخلق

---

(١) الفيراطى ص ١٦٨ .

(٢) الدرر الكامنة ج ١ — ص ٢٦٤ .

(٣) الدرر الكامنة ج ١ — ص ٢٦٥ .

ألا فاعجبوا من مطلق ومسلسل   يقول لقد أوقعتم الماء في حلقي (١)

فهو أيضا قد قصر جهده على بعض الألعاب البديعية من توجيه في الحديث المسلسل، ومن مقابلة بين المطلق والمسلسل.

ولا يكاد يلمع وسط هذا الركام سوى تلك الأبيات النابضة لبهاء زهير، إذ يقول:

حبذا النيل والمراكب فيه   مصعدات بنا ومنحدرات
هات زدني من الحديث عن النيل ، ودعني من دجلة والفرات
وليالي في الجزيرة والجيزة فيما اشتهيت من لذات
بين روض حكى ظهور الطواويس وجو حكى بطون البزاة
حيث يجري الخليج كالحية الرقطاء بين الرياض والجنات (٢)

فها نحن نرى الصورة الحية لفيضان النيل، وتتمثل نشوة الناس في مراكبهم المصعدة والمنحدرة. وتبدو أمامنا الطبيعة وكأنها في عرس مما تزينت به من نبات مختلف ألوانه، ومما يبدت فيه من جو صاف يحكي بطون البزاة.

أما ما سوى هذه الأبيات فليست سوى صور سطحية متعجلة تعنى بالصنعة أكثر مما تعنى بنقل الشاعر. فالشعراء في تصويرهم النيل ووفائه كانوا كما تصفهم بحق الدكتورة نعمات أحمد فؤاد «دار خيالهم مع الزبد، لم يحلق إلى سماء النيل، ولم يتعمق قراره. كانت عيونهم تنظر إليه نظرا ساذجا، عبر بهم وحدها دون أن تحقق قلوبهم، أو تجيش مشاعرهم، فكانت

---

(١) الخطط ج ٣ — ص ٤٣.
(٢) الديوان ص ٤٨.

النتيجة هذه المجموعة من الصور المادية ولا شيء غيره . (١)

ولا مجال للمقارنة بين هذا الذى نقرؤه من وصف أدباء العصر المملوكى النيل ، وبين تلك الأغانى الفرعونية التى كان يرددها المصريون القدماء فى أعياد وفاء النيل ، ولعل السر أن الفراعنة كانوا ينظرون إلى النيل نظرة تألية فانطلقت أغانيهم تمجد هذا الإله مانح الحياة وواهب الخصب ، وليس كذلك نظرة أدباء مصر الإسلامية إلى النيل المخلوق الذى يجرى عليه ما يجرى على الخلق .

وعيد آخر كان يحتفل به المصريون فى العصر المملوكى ذاك هو عيد النوروز ، وجرت العادة على الاحتفال بهذا العيد فى أول «توت» من شهور السنة القبطية ، وقد دأب المصريون على ذلك منذ العصر الفاطمى ، وكان عيد النوروز عيد لهو ومرح ، يكثر فيه الناس من إشعال النيران ، والتراش بالماء ، والتصافع بالأنطاع ، ويركب فيه أمير هزلى يدعى بأمير النوروز يكتب المناشير ، وينتدب مرسمين ، ويجمع الجبايات من الناس ، وكان لا يجرؤ إنسان من ذوى الأقدار على الخروج فى هذا اليوم ، فإن خرج رشوا عليه الماء ، وأفسدوا ثيابه ، إلى غير ما كان يحدث فى هذا اليوم من تجاهر بشرب الخمر وعمل الفاحشة . (٢)

ونرى صورة لهذا العيد ولأميره فيما كتبه الجزار مداعبا صديقه الوراق ، وخالعا عليه إمارة النوروز إذ يقول :

خصصت بالبحر المحيط من الرش ومن داخل إذ تم ذلك بالفرش

---

(١) النيل فى الأدب المصرى ص ١٨٢ .
(٢) الخطط ج ٢ ص ١٢ .

وكم مرة أنغضت رأسك صابرا … لجور صديق وهو متصل البطش
كأنك – لما تحت الصين – طائر … يرى وهو بالأنوار والخوص في عش
وتحتك ما يحكي الصهيل نهاقه … ومالك من سرج عليه سوى القش
تعوضت عن طلع بسيف كأنها … تعوضت عنترا عن الطرف بالجحش
ولو أن عين الشمس كابدت الذي … تكابده عميت من العمى لا العمش
أظن خفاف الترك إذ لان لمسها … تقصر عن ثقل الخفاف من الحبش(١)

في هذه الأبيات إيحاء بما كان في النوروز من مساخر ، وتراش بالماء ، وضرب بالخفاف . وفضلا عن ذلك فالأبيات تقدم لنا صورة هذا الأمير الهزلي الذي يكلل رأسه بتاج من الخوص ، ويركب جحشا ليس عليه من سرج سوى القش ، ويتعاوره الناس ضربا بالأيدي والأنطاع والخفاف .

ويكتب ابن دانيال إلى صديقه البرهان ، وقد تعاورته الأكف في يوم نوروز وهو أرمد فيقول :

صفع البرهان وما وجبا … فبكى من بعد الدمع دما
قد كان شكا رمدا صعبا … ما زاد بذاك الصفع عمى
وزرى النوروز أخادعه … حتى باتت تشكو ورما
أدماه القوم بأخمرة … كانت حمرا لا بل أدما
نزلوا سحرا في ساحته … فرأى الإصباح بهم ظلما
من كل فتى بالنطع بدا … مثل القصار إذا احتزما
أسقاه بها صرفا صبحا … وسقاه بها صبحي عما (٢)

ويشير ابن النقيب في بعض أبياته إلى الوراق إلى ما كان يحدث في هذا

(١) منتخب الوراق ورقة ٣٢٤ ، ٣٢٥ .
(٢) فوات الوفيات ج ٢ ص ٣٣٥ .

اليوم من اجتياح للأخلاق ، وذلك إذ يقول :

وهــكذا أطماعهــم   قــد خلت ممــن ارتــدى
فهتــكوا الأخــلاق حــتى لم تجــد ممــن حــردا
واطــرحوا الكــرم فــيا   رأيــت فيهــم أصيــدا
ولاسـت الأعيــاد حــتى قــلت مــالك جيــدا (١)

وأغلب الظن أن المصريين نقلوا عادة الاحتفال بهذا العيد عن الفرس ،

ولعل الجزار يشير إلى أصل هذا العيد الفارسي في قوله مداعبا الوراق :

أذكرتنــا أزدشيرا اذ ركبت واذ   أصبحت بالتاج تاج الفرس معصوبا
فاشرف غــير مجحــور بالإمارة فما   على جبينك ما قــد كان مكتوبا (٢)

ولا ندري سر هذا العنف الذي كان يتحمله المصريون في هذا العيد من صفع أمير النوروز وصكه على قفاه . أتراهم يعنون في هذا الأمير الهزلي عما يحملونه من مشاعر تجاه الأمير الحقيقي القابض على أزمة الحكم ؟؟

كذلك ألمح الأدباء إلى ما اعتاده الناس في المواسم والأعياد الدينية من مثل رمضان وعيد الفطر ، والنصف من شعبان إلى غير ذلك مما لا نزال نحتفل به حتى اليوم .

ومن أطرف ما يشير إلى ما اعتاده الناس في رمضان وعيد الفطر أبيات الجزار التي يبثها شكواه من فقره وعجزه عن مجاراة الناس في سننهم ، يقول موجها الخطاب إلى جمال الدين بن يغمور :

أيها الأمير قد أشكل المعنى   وما زلت عارفــا بالمعــاني

---

(١) مسالك الأبصار جـ ١٢ ص ٣٢٥ .
(٢) فوات الوفيات جـ ٤ — ص ٢٨٢ ، ٢٨٣ .

فظاهر البستدود لم أدر مـاذا   فيـه جهلا وباطن الخشكنـان

أترانى فى العيـد أجهل ذا المعنى كجهل الحلواء فى رمضـان

ما رأت عينى الكنافـة إلا   عند بياعهـا على الدكـان

ولعمرى ما عاينت مقلتى قطـرا سوى دمعها من الحرمـان

ولكم ليلة شبعت من الجـوع عشاء إذ جرت بالجـوانى

حسرات يسوقها الطرف للقلب   فويل للفكر عند العيـان

كم صـدور مصففـات وكم من   شبك دونها وكم من صـوانى

وإذا سحر المسحـر ليـلا   ألتقى الأمر فيـه بالعصيـان

كلما بات وهو يأمر بالأكل أتى الفقر مقبلا ينهـانى (١)

ولندع شكوى الجزار جانبا فهى لا تهمنا فى هذا المجال ، وإنما الذى يهمنا هو تلك الإشارات التى وردت فى أبياته إلى ما كان يصنعه الناس على عهده فى رمضان من التفنن فى صنع الحلوى وألوان الكنافة ، ثم إلى ذلـك المسحر الذى يطوف ليلا ليوقظ النيام ، وفى الأبيات أيضا ذكر البستدود والخشكنان وما أظنها إلا نوعين من الكعك الذى يستقبل به الناس عيد الفطر ، والخشكنان كما يصوره الجزار فى قول آخر لون من الكعك المحشو :

ماذا يضر الخشكنـان لـو أتـه   فى العيد يخبرنى بما فى قلبـه (٢)

وهكذا نقف فى شعر الجزار على صورة لم يطرأ عليها تغيير فى مصر على مدى سبعة قرون ، فنحن لم نزل نمارس هذه العادات فى الاحتفال برمضان وعيد الفطر ، بل إن الأغرب أننا نقع فى شعر البوصيرى على نفس الألفاظ

---

(١) المغرب ج ٤ — ص ١٤١ ، ١٤٢ .

(٢) المغرب ج ٤ ص ١٤٣ .

والمسميات التي يتداولها الناس في أيامنا هذه ، واسمع البوصيري قوله واصفا حال عياله :

وأقبل العيد وما عندهم قمح ولا خبز ولا فطره
فارحمهم إن أبصروا كعكة في يد طفل أو رأوا تمره
تشخص أبصارهم نحوها بشهقة تتبعها زفره (١)

فالبوصيري يذكر الكعك والتمر والفطرة وهذا الأخير اسم مازال تطلقه العامة على ما يعد للعيد من صنوف الكعك والحلوى والتمر وغير ذلك .

وكما صور الأدب أفراح الناس وأعيادهم صور ما كان ينتابهم من محن ومجاعات .

ولعل انخفاض النيل كان دائما نذيرا بالغلاء والمجاعة ، هذا بالإضافة إلى شيوع الرشوة ، واضطراب أمر الحكام ، ونجد في أدب العصر أصداء لما عاناه الناس في ظل هذه الظروف من ندرة القوت ، وغلاء السعر ، وفي موجة من موجات الغلاء يعز رغيف الخبز ، وينظر إليه الجزار كأنه العاشق يرقب محبوبة بعيدة المنال ، ويندم على تلك الأيام التي لم يعرف فيها لهذا الرغيف حقه ، ولم يعطه ما يستحقه من الإجلال والإكبار :

فيها بلوح الخبز عند خروجه من فرنه وله العذاة بخار
ورغائف منه تروقك وهي في صحف الصحاف كأنها أقمار
من كل مصقول السوالف أحمر الخدين للتوتيز فيه عذار
يلقي عليه في الخوان جلالة لا تستطيع تحدها الأبصار

---

(١) الديوان ص ١١٨ .

ما كان أجهلنا بواجب حقه   لو لم تبينه لنا الأسعار
فكأن باطنه بكفك درهم   وكأن ظاهر لونه دينار
كالفضة البيضاء لكن تغتدى   ذهبا إذا قربت عليه النار
كم قال لى الخباز حين شكوت إقلالى له أكثرت يا جزار
إن دام هذا السعر فاعلم أنه   لا حبة تبقى ولا دينار (١)

أما الوراق فيرى أن المعدم والمثرى أصبحا سواء فكلاهما لا يملك رغيف الخبز الذى عز كاللات والعزى :

إن كان زى الناس فيما مضى   أن يشكروا من حفظ الخبزا
فقد تساوى الناس فى حفظه   إذ عز عز اللات والعزى (٢)

ومهما كان من أمر الغلاء فهو أمر ربما احتمله الناس ، ولكن الذى لم يكن للناس قدرة على دفعه هو تلك الأوبئة الفتاكة التى كانت تجتاح البلاد من حين إلى آخر .

ويعطينا المقريزى صورة حية لأحد هذه الأوبئة التى حدثت فى مصر فى سلطنة العادل كتبغا ، يقول :

«وفشت الأمراض بالقاهرة ومصر ، وعظم الموتان ، وطلبت الأدوية للمرضى فباع عطار برأس حارة الديلم من القاهرة فى شهر واحد بمبلغ اثنين وثلاثين ألف درهم ... وطلب الأطباء ، وبلغت لهم الأموال ، وكثر تحصيلهم فكان كسب الواحد منهم فى اليوم مائة درهم ، ثم أعيا الناس كثرة الموت ، فبلغت عدة من يرد اسمه الديوان السلطانى فى اليوم ما ينيف عن ثلاثة آلاف

---

(١) منتخب الجزار ورقة ٢١٢ .
(٢) منتخب الوراق ورقة ٣٢ .

نفس ، وأما المطرحاء فلم يحصر عددهم بحيث ضاقت الأرض بهم ، وحفرت لهم الآبار والحفائر ، وألقوا فيها ، وجافت الطرق والنواحى والأسواق من الموتى ، وكثر أكل لحوم بنى آدم خصوصاً الأطفال ، فكان يوجد الميت وعند رأسه لحم الآدمى ، ويمسك بعضهم فيوجد معه كتف صغير أو فخذه أو شىء من لحمه» . (١)

وتجسد عبارة المقريزى ذلك الموت الزاحف الذى يحصد الأرواح حصدا لا يبقى منه دواء ، ولا يصده طب ، إنما هو يتغلغل إلى الشوارع والحارات والأسواق والمدن والقرى ، فأينما وليت وجهك فثم ريح الموت تنبعث من الأجساد الجائفة ، وأصبح كل حى يطلب النجاة بنفسه ، وأنى له القوت ؟! لقد نفذ كل شىء ولم يبق إلا أن يأكل الإنسان أخاه ، فهذا يلوك ذراع طفل وذاك ينهش فخذا أو ساقا آدميا .

ومن الأوبئة الرهيبة ذلك الوباء الذى اجتاح الشرق فى عام ٧٤٩ هـ ، والذى عرف فى التاريخ باسم الوباء الأسود ، وذهب ضحيته آلاف مؤلفة من أهل مصر .

ولابن الوردى رسالة يصف فيها هذا الوباء الذى كان هو من ضحاياه .. ويبدأ الرسالة بوصف هذا الوباء الذى لم تسلم منه بلد ، ولم يبق منه حصن ولا حرز :

« الله لى عدة ، عند كل شدة ، حسبى الله وحده ، أليس الله بكاف عبده ، اللهم صل على سيدنا محمد وسلم ، ونجنا بجاهه من طعنات الطاعون وسلم ، طاعون روع وأمات ، وابتدأ خبره من الظلمات ، يا له من زائر ، من

(١) إغاثة الأمة ص ٣٥ ، ٣٦ .

خمس عشرة سنة دائر ، ما صين عنه الصين ، ولا منع عنه حصن حصين ، سل هنديا في الهند ، واستند على السند ، وقبض بكفيه وشبك على بلاد أزبك وكم قصم من ظهر ، فيما وراء النهر ، ثم ارتفع ونجم وهجم على العجم ، وأوسع الخطا إلى أرض الخطا ، وقرم القرم ، ورمى الروم بجمر مضطرم ، وجر الجرائر إلى قبرص والجزائر ، ثم قهر خلقا بالقاهرة ، وتنبهت عينه لمصر فإذا هم بالساهرة ، وسكن حركة الإسكندرية ، فعمل شغل القز الحريرية ، وأخذ من دار الطراز طراز الدار ، وصنع بصناعها ما جرت به الأقدار

إسكندرية ذا الوبـــا ... سبع يمد إليك ضبعه
صبرا لقسمته التي ... أخلت من السبعين سبعه

ثم تيمم الصعيد الطيب ، وأبرق على برقة منه صيب ، ثم غزا غزة ، وهز عسقلان هزة ، (١)

ويمضى ابن الوردى فيصف فعل هذا الوباء فى الأنفس ، وهيئة المصاب به ، فيقول :

«ومن الأقدار ، أنه يتبع الدار ، فمتى بصق واحد منهم دما ، تحقق كلهم عدما ، ثم يسكن الباقين الأجداث بعد ليلتين أو ثلاث

سألت بارىء النسم ... فى دفع طاعون صدم
فمن أحس بلع دم ... فقد أحس بالعدم (٢)

---

(١) ديوان ابن الوردى ص ١٨٤ ، ١٨٥ .
(٢) الديوان ص ١٨٦ .

ويختم ابن الوردى هذه الرسالة بعرض صورة مؤثرة للناس ، وقد تهيأوا للموت بعد أن أحسوا أنه لا عاصم من أمر الله ، فأخذ كل منهم يحسن عمله ، ويصالح خصمه ، ويلاطف إخوانه ، ويوصى بأهله ويودع جيرانه :

«ومن فوائده تقصير الآمال ، وتحسين الأعمال ، واليقظة من الغفلة ، والتزود للرحلة :

فهــذا يوصــى بــأولاده	وهــذا يــودع جيرانــه
وهــذا يهــيئ أشغاله	وهــذا يجهــز أكفانــه
وهــذا يصــالح أعــداءه	وهــذا يلاطــف إخوانــه
وهــذا يوســع إنفاقــه	وهــذا يخالــل مــن خانــه
وهــذا يحبــس أملاكــه	وهــذا يحــرر غلمانــه
وهــذا يغيــر أخلاقــه	وهــذا يغيــر ميزانــه
ألا أن هــذا الوبا قــد سبــا	وقــد كــاد يرســل طوفانــه
فــلا عاصم اليــوم مــن أمــره	ســوى رحمــة الله سبحــانه (١)

وقد سجل الشعراء المصريون مأساة هذا الطاعون الرهيب فى أشعارهم ، فيقول المعمار :

يا طالبــا للمــوت قــم واغتنم	هــذا أوان المــوت ما فاتــنا
قــد رخص المــوت عــلى أهله	ومات مــن لا عمــره ماتــا

ويقول :

قبــح الطاعــــون داء	فقــدت فيــه الأحبــة

---

(١) الديوان ص ١٨٧

يبيت الأقصى فيه   كل إنسان بحبسه (١)

ولا يفقد الشعراء روحهم المصرية الفكهة حتى فى هذه اللحظات الحرجة التى ينهش فيها الموت الناس نهشا ، وينشب مخالبه وأنيابه ، فنسمع مثلا قول المعمار :

قلت لمن بالحشيش مشتغل   ويحك ما تختشى هذه الكبه
فالناس ماتوا بكبة ظهرت   فقال : إنى أعيش بالكبه (٢)

ولا ريب أن الأطباء أو من كانوا يمتهنون مهنة الطب وجدوا فى هذه الأوبئة فرصة سانحة للمغنم والكسب ، وقد أشار المقريزى إلى ذلك فى عبارته التى أوردناها آنفا ، ولكن ربما تكمل الصورة بهذا التعبير الحى الذى يصور به ابن دانيال الحكيم يقطيوس فى بابة «طيف الخيال» وقد ذهب إليه من يستدعيه ليلا فيجيبه الحكيم :

«أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ، من هذا الطارق فى الليل الغاسق ؟ ومن الذى أزعجنى فى فراشى فى جنح الليل العاشى ؟ وأقامنى من رقدتى وما انهضم الطعام من معدتى ، حتى سقط نبضى ، وكدت من خفقان قلبى أقضى ، وما جرت العادة بأن يطلب الطبيب بالليل إلا بعد أن تصل إليه الكواغد ، وتشد له البغال والخيل ، ولم يعد هذا فى أيام الوباء والطواعين ، والمرضى مطرحين على مصاطب الدكاكين ، وعلى أبوابنا الزحام ، والقراطيس بأيدى الخدام ،

---

(١) بدائع الزهور ص ١٦٤ .
(٢) بدائع الزهور ص ١٦٥ .

والجنائز في الجوامع ، والخلل الفاشى تجلى على الصفوف كالعرائس ، والناس لا تنشف لهم دمعة ، والمقربون لا يخرجون إلا بالقرعة ، والمغسل لا يستقر فى الغسل ، والحمال متبرم بثقل الحمل ، والحفار لا يوقر قبرا ، ولا يتحاشى ثيبا ولا بكرا ، وقد غسل الإقليم دا الوباء ، وعادت الأرواح والقوى كالهباء ، فلذكر الله بالخير تلك الأيام ، فما كانت إلا كالأحلام » . (١)

فنحن نرى هذا الطبيب يتحسر على أيام الطواعين ، وعلى دولته الماضية أيام الوباء ، وكما قيل مصائب قوم فوائد عند قوم ، وهذه الفقرة التى أوردناها لابن دانيال — فضلا عن أنها تشير إلى انتفاع الأطباء — تضيف خطوطا جديدة إلى صورة الوباء من تزاحم المرضى على حوانيت الأطباء ، ومن هوان الموتى على الأحياء .

وإلى جانب هذه الأوبئة العامة تفشت فى الناس عديد من الأمراض ، أعان عليها الفقر والجدب . ولعل أهونها مرض الجرب ، ويعرض الوراق علينا صورة طريفة لنفسه وقد أصيب بهذا المرض فيقول :

عوفيت من جرب به   صرت المقشب والممزق
وأظافرى كالمشرفية فى يد الأبطال تخفق
أجرى دمى بيدى وأغضب حين يرفق بى وأحنق
عريان كالغصن اليبيس   وإنما جسمى المورق

---

(١) خيال الظل ص ١٨٣ ، ١٨٤ .

فكأن جسمي مسمن دى   بأصابعي تركسن الخلق (١)

ولعل من المناسب هنا أن نستطرد إلى استجلاء صورة الطب والأطباء فى الأدب المملوكى ، ولنبدأ بقراءة هذا التقليد الذى كتبه القاضى محمد بن المكرم برياسة الطب ، ويقول فيه :

«وليلق هذه التولية أحسن ملتى ، وليصرف لها وجها طلقا ، وليحكم فى أموره بالقسط ، ولينصف فى القبض والبسط ، ولينظر فى أحوال المتصرفين من الأطباء الطبائعية ، وليكشف عن أمور الكحالين والجرائحية وليقررهم على قواعدهم التى رقوا إليها ، وليجرهم على عوائدهم إلا من ظهرت منه كبيرة وهو مصر عليها ، وليتقدم إليهم بالتثبت والاتفاق على ما يستعملونه بالحديد وألا يتعرض أحدهم لعمل إلا وعليه من الحكماء المعروفين شهيد ، وليكشف أمور من يقعد على الطرقات ، ويعتمد فى أفعاله على الأمور الموبقات ، ممن يعمل بالحديد وغيره ، ولا يؤمن من شره ، ولا يطمع فى خيره ، فليمنعه من الجلوس ، وليصرفه عن أذى الأجساد وتلف النفوس .» (٢)

فهكذا نرى أن هذا العهد عرف ألوانا من التخصص فى الطب ، فهناك الأطباء الطبائعية ، ولعلهم يقابلون ما نعرفه اليوم من أطباء الأمراض الباطنية ، وهناك الكحالون (أطباء الرمد والعيون) ، وهناك الجرائحيون . ويشير التقليد إلى ما يستخدمه هؤلاء الأطباء من آلة الحديد ، كذلك يشير إلى أن هناك أدعياء يمارسون الطب دون أن يزكيهم أحد من كبار الأطباء .

وعرف ذلك العهد لونا من المستشفيات العامة ، ومن ذلك البيمارستان المنصورى الذى بناه قلاوون ، والذى يصفه البوصيرى بقوله .

---

(١) مصب الورائق ص ٣٤٩ .

(٢) تاريخ ابن الفرات جـ ٨ — ص ٢٣ ، ٤ ، ٢ .

صحيح هواء للنفوس بنشره   معاد ، والعظم الرميم نشور

يهب فيهدى كل روح بجسمه   كأن صباه حين ينفخ صور

فلو تعلم الأجسام أن ترابه   مهاد حياة للجسوم وثير

لسارت بمرضاها إليه أسرة   وصارت بموتاها إليه قبور

وما عاد يبلى بعد ذلك ميتا   ضريح ولا يشكو المريض سرير

بجنته ورق تراسل ماءه   بشوق هديل منهما وهدير(١)

وهذه الأبيات توحي بنظافة المارستان ، وحسن تنسيقه ، والقيام فيه على راحة المرضى ، وجودة العلاج .

ويشير الأدباء إلى بعض ما تعارف عليه الأطباء آنذاك من وسائل العلاج وصنوف الأدوية . فقد زعموا مثلا أن الرمان دواء من مرض السوداء ، ونستشف ذلك من قول ابن نباته في معرض الغزل :

رب سوداء مقلة هيجت لي   داء وجد أعظم به من داء

ليت رمان صدرها كان يحمي   فهو بعض الدوا من السوداء (٢)

كذلك كان الكي من وسائل العلاج الناجعة ، أو هو آخر رتبة الطب كما يقول ابن نباتة أيضا :

ولقد كوى قلبي المشيب فما   تهفو العوائد بي إلى الحبب

لا طب بعد ولوعه فهوى   والكي آخر رتبة الطب (٣)

إلا أننا نرى أن السمة الثالثة هي سوء الظن بالأطباء ، فدائما يتندر بهم

---

(١) الديوان ص ١٠٣ .
(٢) الديوان ص ١٨ .
(٣) الديوان ص ٣٣ .

الأدباء ، ويصفون جهلهم وعجزهم فيسخر الجزار بأحد الأطباء وصف له فزاد داؤه :

شكوت على بابا بالمخوف — وصلت به إلى الأمر المخوف

ولكن الحكيم أراد خيرا — فجاء بصبرياه في الحروف (١)

ويسخر محمد بن ابراهيم الأكفاني من طبيب آخر فيقول :

ولقد عجبت لعاكس الكيميا — في طبه قد جاء بالشنعاء

يلقى على العين النحاس يحيلها — في لحظة كالفضة البيضاء (٢)

ويتهكم بعض الشعراء بطبيب يهودي فيقول :

قالوا اليهودي أخو حكمة — لازالت الأمراض في كأسه

لو كان ذا النحس أخا حكمة — أزال ذا الصفراء من رأسه (٣)

وانظر إلى هذا الطبيب الذى يصفه فخر الدين بن مكانس ، وكيف يصور جهله وشؤم طالعه في سخرية لاذعة ، وذلك إذ يقول :

فحين رآني في الحريرة كالرعديد ، وشاهد ما بي من البرد ، قال : ما أراك إلا جليد ، فقلت له : معالجة أم مناجعة ؟ ومناصحة أم ممازحة ؟ ومطايبة أم مداعبة ؟ واستوصفته فجرى على المعهود منه في الجهل بما يقول ، وعدم التمييز بين المنقول والمعقول ، ولكني الظالم على نفسي ، والمشكك في حسي ، فإني أصحبته لم يزل مميت الأحياء ، ومفقر الأحياء ، كم شاب عالجه فأكسبه الصرع الفالج ، ولا يسمى مصارعا أليق به من مفالج ، ثلاثة تدخل

---

(١) الغيث المسجم ج ٢ — ص ٣٣٣ .

(٢) الوافي بالوفيات ج ٢ — ص ٦ .

(٣) مطالع البدور ج ٢ — ص ١٠٩ .

فى دفعه ، علمته ، والمشى ، والتناسل» . (١)

ويبدو أن سوء الظن بالأطباء كان له أساس من طب هذا العصر الذى كان يعتمد على أساليب بدائية ، أضف إلى ذلك هذه الأوبئة الفتاكة التى لم يكن للطب حيلة فى دفعها ، لذلك شاع بين الناس اللجوء إلى الصالحين والأولياء تبركا بهم ، والتماسا للشفاء ، وما زال ذلك دأب بعض المصريين إلى يومنا هذا وابن مكانس هذا الذى سخر بطبيبه وعجزه ، نراه يلجأ إلى واحد من هؤلاء ملتمسا الشفاء ، ولو اعتقد واحد فى حجر لنفعه . :

«وتطببت بالطب السوى ، واستعنت على ضعفى بتدبير الحكيم القوى ، وأمدنى شخص من أولياء الله ، وممن يجاب دعاء بدعائه ، فكان يمجبنى منه لفظه العربى ، ودعاؤه الأدبى ، أقامه الله لمترضاته ، وأعانه على مرضاته فحصل الشفاء ، وأماطت العافية العناء ، وقد الحمد على زوال المحنة» . (٢)

وكانت هذه المجاعات أيضا نذيرا باختلال الأمن ، وشيوع الفوضى ، فكثر السلب والنهب ، وتجرأ اللصوص ، وصاروا يهجمون البيوت فى أعداد وفيرة على هيئة عساكر .

ومن أطرف ما كتبه ابن دانيال الموصلى تلك القصيدة التى يصور فيها «عسكرا» من هذه العساكر هجم عليه فى إحدى الليالى . ويبدأ فيصف هيئة هؤلاء اللصوص وقد تلثموا ، وحملوا معهم آلات الحديد لكسر الأبواب ، وفتح المغاليق ، وتسلحوا بالسيوف والرماح :

يا سائلى عن ليلتى بالمنسر　　　يشبك شاهد منظرى عن مخبرى

---

(١) الوافى بالوفيات جـ ٣ ص ١٦

(٢) منثور الصاحب فخر الدين بن مكانس (الصفحات غير مرقمة)

حارت بمكنى الخيول فوق القنا ... كانت تفوق على شجاعة عنتر

نزلت بدارى عصبة فتاكة ... هتكت حجابى بعد طول تستر

من كل متقفل اللثام ، معتم ... أقفالها شبه الحديد الأخضر

وافى بكسورى ولولا أن عمرا ... خمس الكروف لكان غير مكور

بلثم ومكمم ومعمم ... ومعرص وموشح ومزرد

مزجوا القساوة بالجهالة وانبرى ... كل يهددنى بلفظ حوثرى

ثم يمضى ابن دانيال فيصف ما فعلوه به من وكز وضرب وصفع حتى كأنه أمير نوروز فى غير يوم نوروز :

طرقوا بساطى بالطوارق والقنا ... متلاعبين بأبيض وبأسمر

لم أنتبه إلا بركزة رامح ... سهم أمالتنى إلى الحال الزرى

وبضربة من ذى حسام منتضى ... يفرى الفريسة من جهول مفترى

فى شر نوروز بذال نطعه ... بالسيف مقتربا بلاحظ مجرى

فجررت بعد الرفع فى أيديهم ... ونصبت ذا نصب بحال مسمر

وشد ما أحسوا بالخيبة حين أخبرهم أنه أديب ثروته قصائد من الشعر إن شاءوا منحهم بها ، وبعض كتب كصحيح الجوهرى ، أما ما سوى ذلك فبرغوث وثياب ، وأما المال فلا مال . ويستحيل إحساسهم بالخيبة إلى ضربة به وبشعره ، وحث قاس يجده بين بكاء صغاره ، وألمهم على أبيهم الفقير الذى لا يملك ما يفدى به نفسه :

هذا يقول المال أين خبأته ... فأجبته خوفا جواب محير

وأقول ما لى غير برغوثى وأثوابى وجزء من صحيح الجوهرى

ومسودات الشعر أمنحكم بها ... قالوا سبالك فى حرام البحترى

فبكت صغارى إذ رأونى بينهم ... مثل الأسير وما أنا بالموسر

ولا يجد المسكين أمامه من سبيل النجاة إلا أن يدلهم على جاره التاجر الثرى فرعا وجدوا عنده بغيتهم من المال :

ناديتهم فى السطح عندى تاجـــر   متمول مثل الخواجا الصرصرى(١)

وهذه القصيدة — فضلا عما فيها من طرافة وخفة روح — تسجل ما كان يتعرض له الناس فى مثل هذه الظروف من السطو والنهب واختلال الأمن .

ونترك حديث المجاعات والمحن والسطو والنهب ونعود مع الأدباء نوغل قليلا إلى قلب المجتمع .

وأول ما يلفت الناظر إلى المجتمع المصرى آنذاك هو تلك الأزياء الباهرة التى كان عصره المماليك من أبرز العصور عناية بها ، وكلفا بتزيينها وتطريزها وقد سرت عدوى التأنق فى الأزياء من المماليك إلى كل المجتمع المصرى .

وقد سجل الأدباء هذه الأناقة المملوكية ، فهذا شمس الدين بن الصائغ لا يخفى انبهاره بجمال هؤلاء الأمراء الذين يمشون فى الموكب بأقبيتهم الملونة فيقول :

إن جـزت بالمـوكب يوما فلا   تسأل عـن السيارة الكنـس
ثم آرام عـلى ضمـــر   ـه ما تفعـل بالأنفـس
بأحمـر هـذا وذا أصفـر   وأخضر هـذا وذا سـندسى
فقل لـذى الحبشـة يا ذا الـذى   يخـل مـا يخـل عـن هرمس
غـرك هـذا خطـأ باطـل   أما ترى الأقمار فى الأطلس (٢)

---

(١) القصيدة بتمامها فى التذكرة الصفدية جـ ١٤ — ص ٩٣ ، ٩٤ .
(٢) الوافى بالوفيات جـ ٢ — ص ٢٦٤ .

وتنوعت هيئات تلك الأقبية فمنها المفرج ، ومنها مطرز الكم ، فيقول الصفدي في أحد المماليك وقد ارتدى قباءه مفرجا .

غزال من الأتراك شق قباءه فروجا يحاكي حسنه قمر الدجى
فواحسدي ذاك القباء إذ رأيته على ذلك القد المليح تفرجا (١)

ويقول في آخر طرز كم قبائه :

ومليح طراز كمه أضحى مثل خط العذار في حسن رقم
قال : تلك الظباء مثلي وما حاز ظباء الفلا سوى طرز كمي (٢)

ويشير محيي الدين بن عبد الظاهر إلى الحياصه وهي حزام الوسط ، وإلى الكرابند وهو قميص من الزرد بياقة عريضة ، ويقول إنهما يزريان بالمئزر والعقد :

إن قلت بدر فإن البدر ذو كلف أو قلت ظبي فإن الظبي نفار
لي في حياصته لا شد مئزره وفي الكرابند لا في العقد أشعار (٣)

ويشير الجزار إلى الشرابيش التي كانت غطاء الرأس المملوكي في معرض غزله بأحد الأتراك فيقول :

واخجلة العرب إن كانت عمائمهم لم تحو ما قد حوت منه الشرابيش (٤)

---

(١) الحسن الصريح ورقة ٩
(٢) الحسن الصريح ورقة ٩ .
(٣) الديوان ص ٠٧ .
(٤) تأهيل الغريب ص ١٠٠ . (النواجي)

تلك إشارات الأدباء إلى بعض ألوان زى المماليك ، أما المعممون فكان لباسهم غير ذلك ، وأعلى ملابسهم رتبة هو ما كان يلبسه قاضى القضاة من طرحة يسدلها فوق عمامته ، ولذلك نرى ابن نباته يهنىء أحد الكتاب بخلعة خلعت عليه ، ويبشره بلبس الطرحة فى القريب قائلا :

يا سيد الوزراء أهنأ بها خلعـــــة يقوم من قالها الأولى بمــا يجـب
عمامة الطـرحة العليــاء طالعـــة وأول الغيث قطر ثم ينسكــب (١)

أما ما دون ذلك فهو عمامة وطيلسان ، يقول الجزار فى خلعة خلعت على من لا يستحقها :

غير خـاف عنـك الـذى نالـه الأسـود بالأمس من سـنا السلطـان
وتغشيـه بالعمامة والثـــوب ومنديـل الكم والطيلســـان
خلعـة تخلـع القلـوب كما تخلع مرآة العقل عند العيــان (٢)

وحرص المماليك على أن يكون لكل طبقة سمت معين ، وزى خاص ، كما حرصوا أيضا أن تكون ملابس الإنسان على حسب قدره ، ودرجته ، وربما أملت عليهم ذلك طبيعتهم العسكرية

وفى سنة ٧٧٣ هـ رسم السلطان الأشرف شعبان أن يلبس الأشراف عمائم موسومة بعلامة خضراء ، وكان لذلك صداه فى عالم الأدب ، فقال شمس الدين محمد بن إبراهيم المزين :

أطراف تيجان أتت من سندس خضر كأعلام على الأشراف

---

(١) الديوان ص ٦١ .

(٢) المقرب جـ ٤ — ص ١٤٩ .

والأشرف السلطـان خصهـم بها شرفا لتعرفهم من الأطراف (١)

ويرى بدر الدين بن حبيب أن ذلك بشارة بما أعد لهم فى الجنة من لباس أخضر فيقول :

عمائم الأشراف قـد تميـزت بخضرة رقـت وراقت منظـرا
وهـذه إشـارة أن لهـم فى جنة الخلد لباسا أخضـرا (٢)

أما ابن حجلة التلمسانى فيقرن هذه العلامة بالرنك الذى يتحلى أمراء المماليك فيقول :

لآل رسـول الله جاه ورفعـة بها رفعت عنا جميع النوائب
وقد أصبحوا مثل الملوك برنكهم إذا ما بدوا للناس تحت العصائب (٣)

على أن من الأدباء من كان يرى ذلك عملا لا ضرورة له ، فلأبناء الرسول صلى الله عليه وسلم — من النور فى وجوههم ما يغنيهم عن تلك العلامـة الخضراء ، يقول ابن جابر الأندلسى :

جعلـوا لأبناء الرسـول علامة إن العلامة شأن من لم يشهـر
نور النبـوة فى كريم وجوههـم يغنى الشريف عن الطراز الأخضر (٤)

وكما أعطانا الأدب صورة الملابس فى مجتمع مصر المملوكية ، فانه يعطينا أيضاً صورة للأطعمة وما كان يستحب منها وما كان يكره ، فسيف الدين المشد يعرض علينا وصفا للزريج شهى إذ يقول :

ولورنج راقت وطـابت صفاتـه كثغر حبيب أو شمار حبيـب

---

(١) النجوم الزاهرة ج ١١ — ص ٥٦ .
(٢) النجوم الزاهرة ج ١١ — ص ٥٧ .
(٣) النجوم الزاهرة ج ١١ — ص ٥٧ .
(٤) النجوم الزاهرة ج ١١ — ص ٥٧ .

شهى إلى كل القلوب وقد حوى   مع السكر الغالى شهى قلوب (١)

وفى أبيات أخرى يشير إلى أصناف من الحلوى فى معرض غزله بحلوانى فهناك «أصابع زينب» ، وهناك «عقود القوانى» ، وهناك «كعب الغزال»

ولما تبدى حلاويكم   يقد القضيب ووجه الهلال
أرانا بكفيه مع وجنتيه   وساقيه أصناف حلو الجمال
أصابع زينب صحت إلى   عقود القوانى وكعب الغزال (٢)

ويشير الجزار إلى لون آخر من الحلوى عرف بالقاهرية فى قوله :

ولى زوجة إن تشتهى قاهرية   أقول لها : ما القاهرية فى مصر (٣)

ويصور البهاء زهير هذه الوجبة الشهية التى يسيل لها لعاب الجائع

وقد شوينا خروفا   ونحسبه جوزا به
والجوع قد سال منا   فكن سريع الإجابة (٤)

وشغف ابن نباته بالملوحة ، وها هو يكتب رسالة يستهديها من صديق عاطل ، فيقول :

«يا مولانا ما كأن الملوحة إلا قد اتخذت سبيلها فى بحار السراب سربا ، أو تعلمت من تلك الهمة فأصعدت إلى نهر المجرة سببا ، وجعل فضلها مقصورا على الأسماع ، وخلقت من الملائكة فلا تبكى على صورها الاطلاع ، ولا خروفانها ذات أجنحة مثنى وثلاث ورباع ، وتوقفت عن المنع والعطاء بين أمرين ، وحظيت من مولانا ومن الجناب الفخرى بمجمع البحرين ، وما أظن أن يحق هذا الظن ، هذا ولو أنها من نسل حوت يونس عليه الصلاة -

---

(١) الديوان ص ٨
(٢) الديوان ص ١٠ .
(٣) المغرب - ٤ - ص ١٤٣ .
(٤) الديوان ص ٢٥ .

والتسليم ، وأن عظمها مما يسبح في بطن آكله إلى يوم يحيي العظام وهي رميم » . (١)

أما الأطعمة المكروهة فيعرض الوراق ألوانا منها ، يقول :

وأحمق أضافنا بقلية تقسية بينهما ووصله
فمن أكل أديباً من سطله تلم في وجه الصبيرجه(٢)

وهو يوري في كلمة مرجلة إذ يقصد الطعام المتخذ من نبات الرجلة .

ويقول في ذم «اليبس» وهو لون السمك :

لبئس اليبس طعاما يصاب وقد صدقت لهجة العائب
ندمت لملقاه شاكى السلاح له شوكتا طاعن ضارب
فآكل كفي مع لحمه وأنتف مع شوكه شاربي(٣)

ويشير إلى كره الناس لـ «الفقلة الباردة» في سياق تعريضه بأحد الأشخاص قائلا :

أبيت أرجيه في حاجة فلم تنبعث نفسه الجامده
وقفل في دقنه والغضوض تضاف المفتلة البارده (٤)

وأغرم الناس على ذلك العهد بألوان من الأشربة منها المزر والفقاع ، وكانت حوانيتها منتشرة . افتن الباعة في تزيينها وترخيمها ، وقد سجل لنا المقريزي صورة لحوانيت الفقاع في قوله :

« وكانت من أنزه ما يرى ، لأنها كانت مرخمة بأنواع الرخام الملون ،

---

(١) مطالع البدور جـ ٢ — ص ٩١ .
(٢) مطالع البدور جـ ٢ — ص ٥٨ .
(٣) منتخب الوراق ورقة ٢٥٩ .
(٤) مطالع البدور جـ ٢ ص ٥٨ .

وبها مصانع ماء تجرى إلى فوارات تقذف بالماء على ذلك الرخام حيث كيزان الفقاع مرصوصة ، فيستحسن منظرها إلى الغاية لأنها من الجانبين والناس يمرون بينهما» . (١)

ونعطف إلى التجارة والأسواق ، ومصر إذ ذاك مركز تجارى ممتاز فهى حلقة الاتصال بين الشرق والغرب ، وأرضها ملتقى قوافل التجارة ووفود التجار ، وكان من ثمرة ذلك أن ازدهرت الحركة التجارية ، وأثرى كثير ممن امتهن التجارة ، وتحدثنا كتب التاريخ عن مدى النفوذ الذى كان لبعض التجار إلى حد صاروا يؤثرون فيه على سياسة مصر فى الداخل والخارج . (٢)

وقد عكست أسواق القاهرة هذا الازدهار التجارى، فاكتظت بالعروض من البضائع ، وازدحمت بالحوانيت ، ولعل فى وصف المقريزى لسوق «بين القصرين» ما يعطى صورة لذلك ، يقول :

«فصار متنزها تمر فيه أعيان الناس وأماثلهم فى الليل مشاة لرؤية ما هنالك من السرج والقناديل الخارجة عن الحد فى الكثرة ، ولرؤية ما تشتهى الأنفس وتلذ الأعين مما فيه لذة للحواس الخمس» . (٣)

ولم تنفرد القاهرة وحدها بهذا النشاط التجارى ، بل شاركتها مدن أخرى ولا ريب أن الاسكندرية بحكم موقعها على البحر المتوسط كانت مدينة تجارية هامة ، وتستشف صورة الحركة التجارية فى الإسكندرية من بعض أبيات قصيدة النويرى السكندرى التى رثى بها الإسكندرية فى وقعة قبرص . وذلك إذ يقول :

---

(١) الخطط ج ٢ — ص ٤٤٧

(٢) أنظر الدرر الكامنة ج ٢ — ص ٨٤٣ وما كان من أمر الطبير الافرنجى « سكران » فى العلاقة بين الناصر محمد والتتار .

(٣) الخطط ج ٢ — ص ٤٤٠٠ .

لهف نفسي على التجار جميعا	أصبحوا بعد العز في اعـدام
لهف نفسي على حوانيت بحر	وقماش مطرز الأكمام
كيف تخلو جميع الحوانيت منها	صمما بالخراب مأوى الهوام
لهف نفسي على حلى كثير	وستور الحرير حتى الارتسام (١)

والأبيات على ما فيها من ضعف — توحي بصورة لما كان عليه التجار من ثراء وعز ، ولما كانت تكتظ به الحوانيت من سلع مختلفة ألوانها ، ومن أقمشة وحلى وحرير .

وكانت الدولة من جانبها تعمل على تشجيع التجارة لما تمثله من دعامة قوية للاقتصاد المصرى ، وفى مثال كتبه فتح الدين بن عبد الظاهر سنة ٦٨٧هـ على لسان قلاوون نرى صورة من صور الإغراء للتجار بقدوم مصر . إذ حرص الكاتب على بيان ما تتمتع به مصر من أمن ومن رخاء ومن جمال طبيعة « ومن يؤثر الورود إلى ممالكنا إن أقام أو تردد التفة إلى بلادنا الفسيحة أرجاؤها ، الظليلة أشجارها وأفياؤها ، فليعزم عزم من قدر الله له فى ذلك الخير والخيرة ، وليحضر إلى بلاد لا يحتاج ساكنها إلى ميرة ولا إلى ذخيرة ، لأنها فى الدنيا جنة عدن لمن قطن ، وسلوة لمن تعوض عن الوطن ، ونزهة لا يملها بصره » (٢)

والسوق المصرية إذ ذاك لها طابعها المميز بشوارعها المسقوفة ، وحوانيتها المصطفة على الجانبين ، ونظام التخصص الذى اتسمت به إذ يجتمع أبناء كل طائفة ، وأهل كل تجارة فى مكان خاص بهم فهناك سوق الأكفانيين ، وسوق الكعكيين ، وسوق الطيوريين والوراقين والنحاسين إلى آخر ذلك ، هذه

---

(١) الإلمام بما جرت به الأحكام ورقة ١١٨
(٢) تاريخ ابن الفرات جـ ٨ — ص ٦٩ .

فضلا عما تموج به السوق من باعة جائلين وما ينتشر فيها من حلقات حول أحد القصاص أو المكدين .

وقد سجل الأدب لنا أطرافا من حياة السوق ، وأول ما يطالعنا من ذلك صورة المحتسب ، وقد رسم البوصيرى صورة ساخرة للمحتسب وهو يطوف السوق يتبعه غلامه حاملا الدرة ، مسبها الناس لمقدمه ، ومن خلفه جمهرة من الصغار تزف موكبه :

يمشى بها والصغار تنشده	أمرنا زار بلا ركبه
وما يزال الغلام يتبعه	بدرة مثل رأسه صلبه
وهو يقول : افسحوا لمحتسب	قد جاءكم من دمشق فى عليه (١)

ويصوره وقد جلس يرغى ويزبد ، وقد احمرت مقلتاه ، ينهر التجار ويؤدبهم بينما هم يهرعون إليه لاسترضائه :

أجلس والناس يهرعون إلى	لعلى فى السوق عصبة عصبة
أوجع ريدنا ضربا وأشبعه	سبا كأنى مرقص الدبه
ويكسب الغيظ مقلتى وجنتى احمرارا كزامر القربه (٢)	

أما القيراطى فيرسم صورة مثل المحتسب وهو يهنئ قطب الدين بن عرب بالحسبة قائلا :

حرز جليلهم على	دقيقة إن غيره
كم تاجر فراصه	لغشه قد صيره
غادره تأديبكم	بالآلة المسمرة

(١) الديوان ص ٥٢ .
(٢) الديوان ص ٥١ .

يذكـــر منطيلهـــا	بجلـــده المـــدوره
وكم حـــلاوى صـــنعت	حـــلواؤه المكـــدره
نقيـــة كأنهـــا	أعراضـــك المطهـــره
كم عقـــدوا عنابـــلا	من قبـل هـذا كـدره
ســـكره ســـواده	يحـــكى ســـواد ســـكره
واليـــوم فى دولتـــكم	أمورهـــا مغـــيره
مـــا عرفـــت فى عصركم	بهـــا أمـــور منـــكره
معايش النـــاس بهـــا	بطيبهـــا منتشـــره
وكـــل ذى صناعـــة	أجـــاد فيهـــا نظـــره (١)

وهذه الأبيات — إذا تجاوزنا عما فيها من مدح — تعطينا صورة واضحة لما كان يمارسه التجار من ألوان الغش ، من تغيير الدقيق ، أو استخدام السكر الكدر ، كما أنها تصور لنا ما كان يلجأ إليه المحتسب من وسائل تـأديب التجار المتلاعبين من تعزيز ، وجلد ، وتسمير ، ثم هى بعد ذلك تعطيـا صورة لتلك الآلة التى كان يستخدمها المحتسب فى التأديب .

وإذا كان هذا شأن المحتسب وسطوته على التجار ، فقد كان هناك للجند وأمراء الدولة شأن آخر إذ درجوا على استغلال مراكزهم ، وفرض رسوم مقررة مستمرين فى ذلك نقيب كل طائفة ، ويصف عبد الملك الأرمنتى محله بسوق الوراقة ، وما كان يعانيه من هؤلاء الجند ، ومن سطوة نقيب الوراقين الذى يسير فى حاجتهم ، وذلك إذ يقول :

أيا سائلى حـــالى بسوق لزمتـــه	يسمونه ســـوق الوراقـــة ما يجـــدى

(١) الديوان ص ١٠٤ .

خذ الوصف منى ثم لا تلو بعدها   على أحد من سائر الخلق من بعدى
يكسب سوء الظن بالخلق كلهم   وخسة طبع فى التقاصى مع الحقد
وينقص مقدار الفتى بين قومه   ويدعى على رغم من القرب والبعد
وإن خالف الحكام فى أمر أمرهم   يرى منهم والله كل الذى يردى
ولا سيما فى الدهر أن وضعوا لنسبا   بأربعة فى كل أمر بلا بد
ويكفيه تحصير النقيب وكونه   يشطط بين الرسل فى حاجة الجند
وإن قال ذى قاسم يتصردى   فهذا معاش ليس يحصل للفرد
فبالله إلا ما قبلت نصيحتى   وعاينت ما ينبيك عنه وما يجدى
وإن كنت مقهورا عليه لحاجة   فصابر عليه لا تعيد ولا تبدى (١)

وأتقن التجار آنذاك فن التجارة ، وعملوا على اجتذاب عملائهم بشتى الوسائل ، ومن ذلك أنهم — فيما يبدو لى — كانوا يقيمون على بضائعهم غلمانا على جانب من الجمال يغرون العملاء ، ويجذبونهم إليهم ، ونسمع رجعا لهذه الظاهرة فى أشعار الشعراء حيث كثر تغزلهم بالحلوانيين والطباخين إلى غير ذلك . فمثلا يقول الصفدى متغزلا بمليح حلاوى

إن هذا الظبى الحلاوى أمسى   يتجنى على الكئيب ويجفو
لا تعارضه فى جفاه بشكوى   دعه فى دسته يحلو ويصفو (٢)

ويقول فى مليح طباخ :

إن طباخا به مهجتى   مهجات غير مرحومه
سلوتى عنه مزورة   إن بدا والنفس مغمومه (٣)

---

(١) المطالع السعيدة ص ٢٤٠ — ٢٤١ .
(٢) الحسن الصريح فى وصف مائة مليح ص ٢٦ .
(٣) الحسن الصريح ص ٣٦ .

ويقول الجزار في شرابي :

لمّا عذار حبيبى الشرابى	فقال تركت لثم الخد عجبا
حفظت الياسمين كما يقولوا	ورحت تضييع الورد المربى (١)

ويقول في طباخ :

هويت طباخا صلانى وقد	قلا فؤادى بعد صارده
محترقا إذ لم يزل بالحشا	يعرف لى أحمص ما عنده (٢)

ويقول الشاب الظريف في عطار :

يا رب عطار بسكر ثغره	سكر المحب ولم يفق من سكره
عقد الشراب لذى السقام وكيفما	عقد الشراب بلحظه من ثغره (٣)

وطرف آخر من حياة السوق يعرضه لنا ابن دانيال في بابته «عجيب وغريب» ، حيث يصور لنا أنماطا من المحتالين والمشعبذين الذين يخدعون الناس بأنوالهم وحيلهم وألاعيبهم ، فمثلا هناك الواعظ المكدى الذى يخلب العقول بوعظه ، وهناك من أتى بأحقاق ومعاجين موهما أنها شفاء لكل مرض وهناك الحاوى ، وهناك مرقص الدب إلى غير هذه الصور التى التقطها ابن دانيال من واقع مجتمعه . أنظر مثلا إلى تصويره «لعويس» الحوى الذى يزعم أن ما معه من ترياق يشفى من سم الأفاعى ، ويبدأ عويس يعرض بعض الأفاعى مما يحمله معه في سلاله ، واصفا خطرها ، قائلا .

«إن في هذه السلال ، بسائط الآجال ، وهلاك النساء مع الرجال ، وهذا الناشر مثل الأسد الكاشر ، الهجام الحجام ، بلية مصر والشام وهو الصل ،

(١) فوات الوفيات جـ ١ — ص ٥٢ .
(٢) فوات الوفيات جـ ١ — ص ٥٢ .
(٣) الديوان ص ٣٧ .

والموت المطل ، ويل لمن رآه على التلاع ، ونشر له عرفه كالشراع ، وبهشه بعصيه على عصبه ، بل يا سادة هذه الحية ، البلية الرقطاء الرملية ، تضرب خف الجمل ، فيموت الجمال ، وتتوارى مدفنة في الرمال ، فمها رسيل الموت ، ونابها نائبة الفوت» . (١)

وبعد أن يبلغ إلى هدفه من إثارة خوف الناس من الثعابين والحيات ، مجسدا لهم أخطارها ، مهولا في فعل سمومها ، يأخذ في عرض ترياقه العجيب قائلا :

«هذا الخالص من التشويش والكسور ، والمصاص ، الشافي بعون الله تعالى من جميع الأعلال والأمراض ، ركبته لهذه الدواعي من قرص الإشقيل ، وقرص العنصل ، وقرص الأفاعي ، وأضفت إليه الفلفل الأبيض والأفيون» (٢)

ويستمر في وصف هذا الدواء العجيب محاولا اقناع الناس بفوائده ، دافعا لهم إلى شرائه :

«اللهم لا تجعله في حضيرة لئيم ، ولا تحلل عليه إلا عقدة كل كريم ، هاكم ، وهاتوا ما لكم ، نفعكم الله بهذه الإفادة» . (٣)

وشخصية أخرى يعرضها ابن دانيال هي شخصية ميمون القراد ، ويبدأ ميمون فيصف قرده الذكي :

قرد يكاد من الفهم ينطق	وتراه من حسن الرشاقة يعشق
ما جاز دارا في ذراها طافرا	إلا وكاد سقفها يطلق (٤)

---

(١) خياله الظل ص ١٩٩ .
(٢) خيال الظل ص ٢٠٠ .
(٣) خيال الظل ص ٢٠٦ .
(٤) خيال الظل ص ٢٢٤ .

ويستمر ميمون في وصف قرده في عدة أبيات ، ثم يبدأ يعرض على الناس بعض ألعابه ومهاراته :

بالله عليك يا ميمون　　رقص السمينه كيف يكون

فرج عليك من قصد حصر

ثم اقف على الأكبر

وارقص لنا　　كالمبزون

بالله عليك يا ميمون (١)

إن قارىء هذه البابة يشعر وكأنه يقرأ عملا لأديب معاصر ، فما تزال هذه الشخوص تطالعنا ، وما نزال من حين لآخر نبصر حلقة من الناس وقد التفت حول واحد من هؤلاء ، بينما راح يمارس فيهم فنون احتياله وشعبذته .

وكان ابن دانيال موفقا في رسم هذه الشخوص ، واختيار اللغة التي تنطبق على كل واحد منهم وتلائمه ، وابن دانيال بتصويره هذا الجانب من الحياة المصرية يسدي خدمات جليلة للمؤرخ والأديب لأنه يبرز لنا ناحية من نواحي حياة الشعب قلما يقع نظره عليها في الكتب التاريخية ، وقد تكون هذه الناحية مصدراً من أجمل المصادر لفهم حياة الأمة فهما لا غبار عليه . (٢)

ويعرض تاج الدين السبكي لصورة أخرى من صور الاحتيال ، هي صورة أولئك الشحاذين الذين يزحمون الطرقات ، ويلحون في الطلب ، ولهم في ذلك أساليب تشمئز منها النفوس ، ويحمل السبكي على هؤلاء حملة شديدة ، وينصح بتأديبهم والضرب على أيديهم :

« وكثير من الحرافيش اتخذوا السؤال صناعة ، فيسألون من غير حاجة ،

---

(١) خيال الظل ص ٢٢٣

(٢) د . فؤاد حسنين علي ، قصصنا الشعبي ص ٨٨ نشر دار الفكر ١٩٤٧

ويقعدون على أبواب المساجد يخطون المصلين ، ولا يحضرون الصلاة ، ومنهم ومنهم من يقسم على الناس في سؤاله بما تقشعر الجلود عند ذكره ، وكل ذلك منكر ، وبعضهم يستغيث بأعلى صوته : لوجه الله فلس ، وقد جاء في الحديث «لا يسأل بوجه الله إلا الجنة» . وبعضهم يقول : بشيبة أبي بكر فلس ، فانظر ماذا يسألون من الحقير ، وبماذا يستشفعون» . (١)

ويشير السبكي إلى ما يصطنعه هؤلاء من هيئة رثة ليستدروا عطف الناس فيقول :

«ومنهم من يكشف عورته ، ويمشي عريانا بين الناس ، يوهم أنه لا يجد ما يستر عورته ، إلى غير ذلك من حيلهم ومكرهم وخديعتهم» . (٢)

ذلك طرف من الحياة في الأسواق رأيناه كيف تمثل في أدب العصر نابضا حيا .

ونترك الأسواق بضجيجها وعجيجها إلى مكان آخر له شأنه في حياة الناس إذ ذاك وهو «الحمام» . «وأهمية الحمام في العصر المملوكي لم تقتصر على أنها مكان لنظافة البدن فحسب ، بل كانت مركزا اجتماعيا ، فالمريض إذا دخل الحمام اعتبر ذلك إعلانا لشفائه ، والعريس أو العروس يجب على كل منهما أن يدخل الحمام قبل الزفاف ، فيعتبر هذا الحدث عيدا من الأعياد العائلية الرائعة ، وفي الحمام اعتادت أن تجتمع النساء والصديقات ليتناقلن أخبار الناس ، ويقصصن على بعضهن كثيرا من أخبارهن وحياتهن المنزلية» . (٣)

وإذا رحنا نتلمس صورة الحمام في الأدب ، ربما لم نجد ما يشفي غليلا ،

---

(١) معيد النعم ص ١٤٧ ، ١٤٨ .
(٢) معيد النعم ص ١٤٨ .
(٣) المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك ص ٩٥ ، ٩٦ .

أو يورد ظناً ، ولا يسبق بالحكم ، وإنما نترك النصوص تحكم على نفسها .

هذه رسالة كتبها محيي الدين بن عبد الظاهر يستدعي بعض أصحابه إلى حمام يبلغها بوصف الحمام ، وحسن بنائها ، وصفاء مائها ، فيقول

«عل الله — أطال الله بقاءك إطالة تكرع بها من منهل النعيم ، وتحصل بالسعادة على الزهر بالوسمي ، والنظر بالحسن الوسيم — في المشاركة في حمام جمع بين جنة ونار ، وأنواء وأنوار ، وزهر وأزهار ، قد زال فيه الاحتشام فكل عار ، ولا عار بحوم حماماته لا يعتريها أفول ، وناجم رخامه لا يغيره ذبول ، تنافست العناصر على خدمة الحال به تنافسا أحسن كل التوصل فيه إلى بلوغ أربه ، فأرسل البحر ماء جسده من جسده لتقبيل أخمصه إذ قصرت همته عن تقبيل يده ، ولما لم ير التراب له في هذه الخدمة مدخلا تطفل وما علم أن التسريح لمن جاء متطفلا ، والنار رأت أن لا أحد بمباشرتها يحتفل ، وأن فيها معنى يفرض الخدمة لا يحل ، لأن لها حرمة هداية الضيف في السرى ، ونها دفع القر ونفع القرى ، فأعطت صدها الماء فدخل وهو حار الأنفاس ، وغلت مراجله عليها فلأجل ذلك داخله من صوت تشكايه الوسواس» . (١)

ويستمر ابن عبد الظاهر على هذه الشاكلة من التلاعب اللفظي فيصف لنا حسن الخدمة في حمامه قائلا :

«ثم إن الأشجار رأت ألا شائبة لها في هذه الحظوة ، ولا مساهمة بشيء من تلك الخلوة ، فأرسلت من الأمشاط أكفا أحست بها وجوه الفرق ، ومرت على سواد الغدائر الفاحمة كما يمر البرق ، وذلك على يد قيم عشوق الخدمة ، ماهر فيما يعامل به أهل النعيم من أسباب النعمة ، خفيف اليد مع الأمانة ، موصوف بالمهانة عند أهل تلك المهانة» . (٢)

---

(١) تشريف الأيام والعصور بسيرة الملك المنصور ص ١٦ .
(٢) تشريف الأيام والعصور ص ١٩ .

ولا تكاد تنبض الرسالة بالحياة إلا في الجزء الأخير منها حين يتطرق الكاتب إلى وصف ما حوله من جمال حي متمثلا فيما يراه من غلمان يسبلون شعورهم ، ويأتزرون بمآزرهم ، وكل منهم يتودد إليه بالحديث :

«وبدور أسبلت من الذوائب غيهبا ، قد جعلت بين المنصور والروادف من المآزر برزخا لا يبغيان ، وعلمنا بهم أننا في جنات تجري من تحتها الأنهار ، وتطوف علينا بها الولدان ، يكاد الماء إذا مر على أجسادهم يجرحها بمره ، والقلب أن يحرج إلى مباشرتها من الصدر وعجيب لامرىء لا يلقى الأمور بصدره ، إذا أسدل بعضهم ذوائبه ترى ماء عليه ظل يرف ، وجوهرا من تحته عنبر يشف ، يطلب كل منهم السلام ، وكان الواجب أن تطلب منه السلامة» . (١)

وإذا تركنا النثر إلى الشعر وجدنا بعض مقطعات قصيرة تشير إشارات خاطفة إلى شأن الحمام كركن اجتماعي فمثلا يقول شهاب الدين بن فضل الله

رب حمـــام وجدنـــا	فيـــه أنـــواع النعـــيم
قـــد جمعنـــا الشمل فيه	بصـــديق وحمـــيم (٢)

وما ثم في البيتين من جديد سوى تلك الإشارة السريعة لاجتماع شمل الأصدقاء .

ويقول نصير الدين الحمامي :

وكـــدرت حمامي بعيبتك التي	تكدر في لذاتها صفو مشـــربي
فما كان صدر الحوض منشرحاً بها	ولا كان قلب الماء فيه بطيب (٣)

---

(١) تشريف الأيام والعصور ص ١٦ .

(٢) سلوك السنن في وصف السكن لوحة ٢٥ .

(٣) سلوك السنن لوحة ٢٥ .

وكنا نتوقع من نصير الدين ، وهو حمامي ، أما كان أولى به أن يصور لنا طرفا مما يجري في حمامه ؟! أما استرعاه مشهد طريف أو قصة أو نادرة ؟

وانظر إلى قول صدر الدين سليمان الحنفي :

بحمامكم نار همها   تقطع أكبادنا بالظما

ورب حصاة لهم صعبة   وإن يستبيحوا يفاتنوا بما (١)

فهل تحس إلا روح فقيه ؟!

ولا يكاد يعيد على الحمام بعض حياته إلا ابن دانيال في قصيدته «زلقة الحمام» التي يصور فيها مطاردته الغزلة لأحد رواد الحمام ، يقول :

قد سمعتم بزلقة الحمام   وسمعتم حديثها في الأنام

كان ما كان وانقضى خبر أن   لحقتني من غرائب الأيام

جزت في خلوة لحمام باب الخرق والصبح غرة في الظلام

ذا خمار من قهوة الشفق صبا   غسلا من صبابة وغرام

فلقيت المعشوق يخطر في الحسن كغصن القنا بلين القوام

فها هو مسرح القصة ، وهذي أولى الخيوط ... الصباح الباكر ، خلوة الحمام ، المعشوق يخطر لين القوام ... ثم تتحرك الأحداث :

قلت يا سيدي إلى ها هنا ؟! قال إلى ها هنا بحسن ابتسام ..

ثم يدخلان إلى الحمام ويخلع هذا الفاتن ملابسه فإذا هو :

لاح لي ليلتين من صدغ الشعر ومن شعره كبدر التمام

وصلاه من لؤلؤ الرشح أسلاك لآل نثرا بغير نظام

---

(١) عاطل الحالي لوحة ٢٥ .

حين نمت مكتومة الحال عنه ... خبراً عن عذاره النمام

أقسم الورد أن خديه أبهى ... منه إذ ظله رذاذ الغمام

ويبدأ ابن دانيال في إلقاء شباكه فيدنو من قيم الحمام مخاطبا :

قلت سرح شعر الحبيب بإحسان ، وخلص حبيل بهذا الظلام

وبجسمي ما شاءه ماء طهور ... وسلوا عن صبابتي المستهام

وحين يخرج الفتى يخرج ابن دانيال وراءه فيعثر أو يتظاهر بذلك، فيعطف عليه الفتى . ويغمره ببسمه تكون شفاء له من زلته ، وينتهز الفرصة ابن دانيال فيختصب بعض قبلات .

وتعثرت خلفه في خروجي ... والأماني تزل بالأقدام

ورآني ملقى لديه صريعاً ... فرثاني برقية الابتسام

فتجانيت من عثراي وقبلت انتهابا ما كان تحت اللثام

يا لها رقة جبرت بها قلبي وإن كسرت جميع عظامي(١)

ولاشك أن ابن دانيال بقصيدته هذه أعطانا صورة حية لبعض ما كان يجري في الحمامات . وكنا نود لو اتخذ سائر الأدباء هذا الصنع فنقلوا لنا بعض الصور الحية بدلا من هذا الوصف التسجيلي الذي لا يعطي صورة ولا تصورا .

وعلى ذكر الحمامات نذكر السقائين . وكان لهم حتى وقت قريب شأن كبير في حياة الناس ، ومع ذلك تقل النصوص التي تتناولهم بالوصف ومن هذه النصوص القليلة أبيات [illegible] يصف فيها قربة الماء التي يحملها السقاء على ظهره فيقول :

---

(١) التذكرة الصفدية ورقة ٥٦ ، ٥٧ – ج ١٤ .

تشد وكم في الأرض قار أطلقها ... مصدق إذا ما قيل تملي وتكتب
وما هي في التحقيق راوية وكم ... لها خبر في الذوق يحلو ويعذب
مليحة شكل بألف «الحب» صبها ... زمانا ، وفي وقت لها يتجنب
ويبلغ منها القصاص حقيقة ... ولكن رأينا قلبه وهو طيب
يريد مريدوها إذا ما تصوفت ... ويشكرها أهل الزوايا ويطربوا
لها أربع لكن بساق رأيتها ... على السعي في الأحياء بالنفع تدأب(١)

والأبيات صيغت على صورة لغز مما فتن به أدباء هذه الحقبة ، والدماميني يشكل في ألفاظه ، فينبئ بعضها بأنها ليست راوية يعني أنها تروي وخبرها يحلو ويعذب ، وهي تملي وتكتب ، والقصد ملؤها بالماء وشدها على ظهر حاملها ، كذلك «الحب» وهو «الزير» كما كان يسميه أهل مصر يشكل به الدماميني إذ يورد بعده كلمة «صب» معتمدا في ذلك على ما تعطيه الألفاظ من معان متباينة . ولا شك أن هذه الصياغة سلبت الأبيات حياتها .

ولكن ربما كان في أبيات الوراق التالية ما يلقي الضوء على السقائين ، وعلى دور خطير يقومون به إلى جانب مهنتهم .. ، يقول الوراق في «فتوح» السقاء :

إن فتوحا جامع شمل الفتن ... المورد للآبي الحرون من رسن
كم ورد الماء لديه ورمى ... حشيشه في بحثه ظبي أغن
ونزه العشاق في بيت له ... بالماء والخضرة والوجه الحسن(٢)

تلك حياة الناس في مصر المملوكية رأينا كيف تمثلت في الأدب وأطلعنا على قصور الأدب في تصويره لبعض الجوانب ، واستعصائه بجوانب أخرى

---

(١) مطالع البدور جـ ٢ — ص ٧٨ .
(٢) منتخب الوراق ص ٤٠٢ .

نستطيع أن نقول بصورة مجملة : إن الأدب نقل إلينا بعض الحياة فى ذلك العصر ، وأعطانا صورة تكاد تكون واضحة المعالم للناس وحياتهم .

ولكن هناك مسألة ينبغى أن نشير إليها قبل أن نختم هذا الفصل ، وهى أن تلك الحياة التى صورها الأدب لا تكاد تتعدى الحياة فى القاهرة والفسطاط أما عن حياة الناس فى الريف والقرى ، والنجوع والكفور فليس ثم مايصورها اللهم إلا بعض إشارات خاطفة ، وردت إحداها فى شعر البوصيرى إذ يشير إلى الفلاح فى بعض أبياته قائلا :

واسلبهم نعماً قــد شاطروك بهــا كما يشاطر فلاح القناديــل (١)

ويشير ابن دانيال فى أحد تشبيهاته إلى باعة العطور الذين كانوا يطوفون على أهل القرى يبيعونهم العطر بالنحال ، وذلك فى قوله :

كل يوم لى سفــرة ورحيــل للقــرى مثــل رحلــة الرحــال
طوق جحشى الخرج المشــاق كأنى بائع العطر هنــا بالنحــال (٢)

وليس فى ذلك ما يستغرب فالنشاط الأدبى عادة يتركز فى العاصمة أو ما يضاهيها من مدن كبرى ، هذا فضلا عن أن القرية إذ ذاك كانت تعيش خارج إطار الضوء ، وكان الفلاح لا يكاد يذكر إلا وقت الحصاد حينا يحين الوقت ليأكل غيره ثمرة كده .

المرأة :

حدثنا التاريخ عن الصورة الذى وصلت إليه بعض نساء المماليك حتى إن بعضهن كان لهن دور كبير فى تسيير أمور البلاد ، وما زال تاريخ مصر

(١) الديوان ص ٢١٧ .
(٢) التذكرة الصفدية ج ١٤ ص ٨٧ .

يذكر اعتلاء شجر الدر عرش البلاد ، وامتلاكها لأزمة الحكم فى وقت من أحرج أوقات الصراع . كما تمدنا كتب التراجم أيضا من أن كثيرات من نساء العصر المملوكى كان لهن دور فى الحياة العلمية ، فمنهن المحدثات ، ومنهن الفقيهات ، ومنهن الواعظات ، إلا أننا لا نستطيع مع ذلك أن نقول إن المرأة حظيت بمكانتها اللائقة فى المجتمع المملوكى ، ولعل رسالة الخليفة العباسى إلى أمراء مصر بشأن توليتهم شجر الدر من الوضوح بحيث لا نرى حاجة إلى إثباتها ، وهى على أى حال تعكس النظرة إلى المرأة فى تلك العهود ، التى كانت تراها مجرد أداة للمتعة ، وترى دورها ينبغى ألا يتعدى دور ربة المنزل القائمة على تدبير شئون المأكل ، وتربية الصغار .

وإذا رحنا نتلمس صورة المرأة ومكانتها الاجتماعية فى الأدب وجدنا ما يعكس هذه النظرة الأخيرة ، ويؤكدها ، فالرجل ينبغى دائما أن يكون هو المسيطر ، والمرأة ينبغى دائما أن تكون ظلا للرجل وتابعا . فهى لا تزيد عن كونها متاعا له وحرثا ، وإذا كان من واجبه أن يطعمها ، ويحسن معاشها فإن ذلك لا يعدو ما هو ملزم به تجاه ما يملكه من بهيمة الأنعام.

وانظر فى ذلك إلى عبارة ابن الأخوة فى سياق حديثه عن واجب الرجل :

«ومن ذلك بهيمة وجب عليه القيام بعلفها ولا يحمل عليها ما يضرها كما فى العبد ، ولا يحلب من لبنها إلا ما فضل عن ولدها لأنه خلق غذاء الولد فلا يجوز منعه منه ، وإن امتنع من الانفاق عليها أجبر على ذلك كما يجبر على نفقة زوجه» . (١)

هكذا ... !! الرجل ينفق على بهيمته كما ينفق على زوجه .. !! .

ولن يختلف الأمر كثيرا إذا عكسنا وضع كل من المشبه والمشبه به فى عمله

---

(١) معالم القربة ص ٣٣ .

الصورة .. ! ! .. فى كلا الأمرين تقرن الزوجة بالبهيمة .

إذن فالرجل هو السيد المطاع .. والمرأة فداء له ، وربما تزدد ذلك فى بعض أشعار العصر ، واسمع لقول ابن نباته يعزى فى امرأة :

تفدى كرام الحمى منكم كرائمه	يا آل بيت العلا والفضل والحسب
أما وقد بقيت عليا سما لكم	فما يضر زوال النجمة الشهب
جادت ضريحك الرضوان غادية	يا أخت خير أخ يا بنت خير أب
يا بعة الفضل مذ حاز التراب بها	لم تسر من حجب إلا إلى حجب (١)

فابن نباته — وان كان يدعو لضريح هذه الفقيدة بالسقيا والرضوان — يرى أن فقدها وفقد أمثالها لا يضر طالما بقى سادة البيت ورجاله ، فكرائم النساء فداء لكرام الرجال على حد قوله . وهو بعد ذلك لا يحسب لهذه الفقيدة فضلا فى ذاتها ، وإنما فضلها مستمد من نسبها إلى أخ كريم وأب كريم — كما عبر عن ذلك بشطر من بيت المتنبى المعروف — ، وبن نباته يحدد فى هذه الأبيات ما ينبغى أن تكون عليه المرأة الفاضلة ، وذلك حين يصف هذه الراحلة بأنها لم تسر من حجب إلا إلى حجب ، وكأنه يرى أن المرأة ينبغى أن تلزم البيت فلا تخرج منه إلا إلى القبر هذه هى الصورة المثلى للمرأة فى ذلك العهد ، أما أن تشارك بدور فى العلم ، أو الأدب ، أو أى لون آخر من ألوان الحياة ، فهذا مالا يطلب منها ، ومالا ينبغى أن تكونه .

وإذا كانت هذه هى النظرة السائدة ، فالمرأة ليست فى حل من عصمتها وليس لها رأى ، والعار كل العار لو لم تخضع المرأة لرأى أهلها وأقاربها ، ولذلك نجد ابن نباته يعرض تعريضا فاحشا بتلك المرأة التى قررت الزواج بنفسها دون رأى عشيرتها وأقاربها :

---

(١) الديوان ص ٤٨ .

تزوج سيف الدين حسناء ناسبت إليه ، وأنصت معشرا وأقاربا
ولم تستشر فى أمرها غير نفسها ولم ترض إلا قائم السيف صاحبا (١)

وربما انحدرت منزلة المرأة إلى حد من الهوان أشد من ذلك فى بعض مجتمعات البدو ، إذ كانوا يباشرون النساء دون زواج ، ولا يورثون البنات ، وهذا ما لم يأت به شرع أو دين ، ويستنكر السكى ذلك أشد الاستنكار فى سياق حديثه عن أمراء العرب فى عهده فيقول :

«وكثير من العرب لا يتزوجون المرأة بعقد شرعى ، وإنما يأخذونها بالبد وربما كانت فى عصمة واحد فنزل عليها أمير غيره ، واستأذن أباها ، وأخذها من زوجها . فهات قل لى : أى ولد حلال ينتج من هذه ؟! لا جرم أنهم لا يلدون إلا فاجرا ، ومن قبائحهم أنهم لا يورثون البنات ، ولا يمنعون الزنى فى الجوارى ، بل جواريهم يتظاهرن بالزنى مع عبيدهم ، وكل ذلك من الموبقات العظائم» . (٢)

وطبيعى — بعد ذلك — أن نجد هناك من كان يكره إنجاب البنات ، وإذا بشر بإحداهن ظل وجهه مسودا ، ولعل الوراق يعكس ذلك فى قوله :

رزقت بنتا ليتها لم تكن فى ليلة كالدهر قضيتها
فقيل : ما سميتها قلت لو مكنت منها كنت سميتها (٣)

ويتلاعب الشاعر بكلمة «سميتها» فى البيت الثانى ، ويريد بها «سممتها» فى نهاية البيت .

وهذه النظرة الساخرة للمرأة نجدها فى شعر القيراطى ، إذ يتهكم بامرأة

(١) الديوان ص ٩٢ .
(٢) معيد النعم ص ٥٥ .
(٣) فض الختام عن التورية والاستخدام ص ٢١٤ .

تصل بالوعظ ، ساخرا منها ، وكأنه لا يرى فى مجال الوعظ مكانا للنساء ، واقرأ هذه الأبيات ، ولا يغرنك منها هذا الإطار الغزلى الذى جعله القيراطى حجابا على سخريته :

وعالمـة تهـوى بقتـل محبهـا ... وتجهـر أنى فى هواهـا أعـذب

وتغضب ان جاءت على بصدها ... كما أنها تجنى على وأغضب

إذا وعظت قامت ملاحـة وجهها ... على منبر الأعطاف تدعو وتخطب

أعنّ عليها تعتق إذ رغبتها ... عظ دموعى وهى تقر وتكتب؟!

أيا جنـة ما رق رضوانها لنا ... وقلبى بها فى نـاره يتقلب

سأطلب باب النصر منها وكيف لا ... أرى ذاك فى قربى لها وهى زينب(١)

وما أغربها من واعظة تلك التى يقوم جمالها مقام علمها ، ويقوم محبوها مقام طالبى الإفادة .. !!

وإذا كان مجتمع عصر المملوكية قد أراد للمرأة ألا تشارك فى الحياة العامة ، وأراد لها ألا تتعدى حدود بيتها زوجة وأما ومربية للأطفال ، فهل نجد فى أدب هذا العصر ما يصور الزوجة فى حياتها المنزلية وما تقوم به من توفير الجو السعيد لأسرتها وأولادها ؟

والواقع أننا لا نرى فى الأدب من حياة المرأة المنزلية إلا الجانب السىء ، وكأن السخط وحده هو الذى يحرك قرائح الشعراء .. !! فالبوصيرى يعرض شاكيا — صورة امرأته التى راحت تشكو لأختها ما تعانيه من ضيق محرضتها عليه حتى ضربت رأسه بحجر ، ويعرض البوصيرى ذلك فى صورة قصصية نابضة ، إذ يقول :

ويـوم زارت أمهـم أختهـا ... والأخت فى الغيـرة كالضـرة

---

(١) الديوان ص ٨٨ .

وأقبلت تشكو لها حالها ... وصبرها منى على العسرة

قالت لها : كيف تكون النسا ... كلنا مع الأزواج يا ضرة

تهوى اطلبي حقك منه بلا ... تخلف منك ولا فترة

وإن تأبى فخذي ذقنه ... ثم انتفيها شعرة شعرة

قالت لها : ما عادتي هكذا ... فإن زوجي عنده ضجرة

أخاف إن كلمته كلمة ... طلقني ، قالت لها : بعره

فهونت أمري في نفسها ... فجاءت الزوجة عسرة

فاستقبلتني فهددتها ... فاستقبلت رأسي بآجره

وباتت القتة ما بينا ... من أول الليل إلى بكره

وما رأى العبد له غلطة ... إلا وما في عينه قطره (١)

ويعرض البوصيري هذه الزوجة صورة أخرى ، إذ يصورها كارهة له لعجزه عن إشباع رغباتها ، ويصفها بأنها على الرغم من كبر سنها ، وتقوس ظهرها ، صبية الرحم ملأت له البيت بالأولاد ، وما زالت ، وكأنها تحمل في الأحلام ، وتأتي كل ستة أشهر بغلام :

وبليتي عرس بليت بمقتها ... والبعل ممقوت بغير قيام

جعلت بإفلاسي وشيبي حجة ... إذ صرت لا خلفي ولا قدامي

بلغت من الكبر العتي ونكست ... في الخلق وهي صبية الأرحام

إن زرتها في العام يوما أنتجت ... وأتت لستة أشهر بغلام

أو هذه الأولاد جاءت كلها ... من فعل شيخ ليس بالقوام

وأظن أنهم لعظم بليتي ... حملت بهم لا شك في الأحلام

أو كل ما حلمت به حملت به ... من لي بأن الناس غير نيام (٢)

---

(١) الديوان ص ١١٩ .

(٢) الديوان ص ٢٠٦ .

وإذا كان البوصيري قد ضاق بهذه الزوجة الشاكية الولود فابن دانيال يضيق هو الآخر بزوجته الدميمة النكدة ، التي شكته ثم جاءت ومعها رسول الحكم ليأخذه إلى الحبس وفاء بحقها :

زوجة في القفار ذيلت ولكــن لها في النساء صورة قرد
لكتنى ببطن راحتها في ظهر خلق وأصبحت تصدى
طلبتنى بالحق ، والحق إن صح كانت فيه نكاية جلدى
ولعمرى لو حاولت ضد أهل الضرب صكا لكنت أرق بعقد
ثم جاءت برقعة الحبس عجلى　　　برسول الحكم فاس جلد

ولا يملك الزوج المفلس إلا أن يأخذ في استعطاف زوجه ، أن تصبر عليه فهو شاعر وسوق الشعر كاسدة ، وهو على استعداد أن يترك حرفة الأدب وينخرط في الجندية :

قلت لا تغضبي على ولوموا　　　شؤم بختي وارعي حقوق ودى
أنا إلا ذاك المكدى بالشعر　　　وأيس الكرام حتى أكدى

ولئن دام ذا الكساد على الشعر بقينا أقوم أصبح جندى (١)

وللوراق أبيات تشير إلى شكوى زوجه إلى أحد القضاة ويدعى بالرق مطالبة حقها في الصداق ، وقد حاول الوراق أن يفلت ولكن الزوجة جبهته برق الصداق :

مذ أحضرتني زوجتي حاكما　　　أنكرت ما قد كان من حق
فأخرجت رق صداق لها　　　رد كلام الكل في حلقى
وكان ذاك الرق أصل البلا　　　فلعنة الله على الرق (٢)

---

(١) التذكرة السعدية ج ١٤ ص ١٠٠ ، ١٠١

(٢) فض الختام عن التورية والاستخدام ص ٢١٢ .

ولا ريب أن هذه الصور الساخرة استمدها الشعراء من واقع مجتمعهم ، ثم أضفوا عليها من روحهم الفكهة ، وحسهم الشعبي ، ما جعل لها هذه الحيوية وهذا النبض ، وكأننا نراها تعيش بيننا .

وأما سوء الظن بالنساء فيبلغ مداه عند القيراطى ، إذ يراهن جميعا جبلن على الكفران ، فوارك لا يركن إلى خليل ، وهن فى السخط هلاك مسلط على الزوج ، وفى الرضى فم مفتوح لا يشبع ، وانظر إليه ينصح صديقه كمال الدين الدميرى ، ويحذره من النساء . :

خديتك لا تركن لنسوة عصرنا   فبرق الوفا منهن يا صاح خلب
وإن صدن مولانا فهن حبائل   وقد يفلت الطير الصيد فيهرب
ويسجو من الأشراك بعد وقوعه   وإن عاد لا يرقى له حين يشجب
وعيشك لا يرضى النساء معيشة   ولو أنها من جنة الخلد تجلب
وما زلن يكفرن العشير سجية   ويكرن خيراً فيه سعى ومدأب
وإن أحسن الدهر امرؤ كليلة   تقل لم أشاهد منك خيرا وتصخب
وإن تيل منهن الفقيهات فاتئد   فيا كان مصقول الترائب ربرب
وقبلك قد جربتهن فلم أجد   وحقك فيهن الذى أتطلب
تشاهدها فى حالة السخط مهلكا   وحال الرضى لم يكفها منك مطلب
وما ذاك إلا أنهن فوارك   يدير هواها عن ودادك لولب

إلا أن القيراطى — مع ذلك — ما زال يحتفظ ببقية من الأمل فى أن يجد المرأة الصالحة ذات العقل والدين ، وذلك إذ يقول :

فياليت شعرى هل ألاقى حليلة   فلا أشتكى منها ولا أتعتب
هل أن منهن الحليلات ربة   ومن وجهها فى مطلع الشمس كوكب

ومنهن ذات العقل والدين والتقى   لها شرف في العالمين ومنصب (١)

وإذا كانت هذه صورة الزوجة كما عرضها أدب العصر ، وهي — كما ترى — صورة بالغة السوء . فماذا تكون عليه صورة زوج الأب ؟ لا ريب أنها أكثر سوءا ، ولا ريب أن هذا السوء ستغذيه مشاعر الكراهية والنفور من الأبناء ، فلا عجب إذا وقفنا على هذه الصورة التي يرسمها الجزار لزوج أبيه .

تزوج الشيخ أبي شيخـــــة   ليس لها عقـل ولا ذهــن

لو برزت صورتها في الدجى   ما جسرت تبصرها الجـن

كأنها في فرشهـا رمـــة   وشعرها مـن حولها قطـن

وقائـل قـل لي ما سنها   فقلت ما في فمها سـن (٢)

وفي أبيات أخرى يصفها بأنها قاتلة أبيه ، والعجيب بعد ذلك أن يوصي أبوه لها بالصداق وهي قاتلته :

أدابت كل الشيخ تلك العجـوز   وأردته أنفاسهـا المردبـه

وقد كـان أوصـى لها بالصداق   فيا في مصيبتـه تعزيـــه

لأني ما خلت أن القتيـــل   يوصـى لقاتلـه بالديـه (٣)

ذلك جانب من صورة المرأة زوجة وأبناء في الأدب ، سنعطف بعده إلى صورة الابنة ، وقد سبقت أبيات للوراق تشير إلى كراهة إنجاب البنات ، ولكن ليس معنى ذلك أن الآباء كرهوا بناتهم ، فكراهة إنجاب البنات ربما كانت تصدر عن النظرة العامة للمرأة في المجتمع ، أما أن يكره الأب ابنته بعد أن تدرج وتملأ عليه حياته فهذا ما ليس إليه سبيل ، وقد ترك الأدباء لنا

---

(١) الديوان ص ١١١ .

(٢) مرآت الرقيات ج ٤ ص ٢٩٢ .

(٣) مرآت الرقيات ج ٤ ص ٢٩٢ .

بعض آثار تبين تعلق الآباء ببناتهم ، وحبهم لهن ، ولا أدل على ذلك من هذه الأبيات التي يرثي بها شهاب الدين الحيصي صغيرته ، وهي تفيض بكثير من معاني اللوعة والأسى لفراق هذه الراحلة الصغيرة .

إني لأكـره أن أنـام خافتـــ ـــيك في الكرى خوف الفراق الثاني

ويلذ لي سكن الثرى إذ صرت ساكنة به ، والـدار بالسـكان

أصبحت جارتنا الكريمة إنما لم تحظ منك بـرؤية الجيـران

وبعثت روحك للجنان فصار لي من أجل ذا شوقان للأوطـان

ويقول خالي القلب . تلك صغيرة لا تستحق أسى على الفقـدان

يا صاح إن العين وهي صغيـرة فضلت كبار جوارح الإنسـان

والقلب يا هذا على صغر بـه مـأوى العلوم ومنزل الرحمن

وأبيـك إن أحق مفقـود بـأن تحـنى الضلوع له على الأحزان

ويحر فيه عند فقده العـزا من لم يسىء بيـد ولا بلسـان

لم تكتسب إثمـا بجارحـة ولم تملأ لنا صدرا من الأضغـان (١)

أرأيت إلى هذا الأب وإلى مدى لوعته ؟ أرأيت إليه وقد كره النوم خوفا من أن يأتي طيف هذه الحبيبة ثم يعود مفارقا له ؟ ، أرأيت إليه يتشوق إلى الموت رغبة في لقاء صغيرته ؟ أرأيت أن صغرها كان يزيد في ألمه إذ يؤكد معاني الطهر والنقاء ؟ أنشك بعد ذلك أن هذا الأب كان يحب ابنته حبا جما ؟

وننفذ بعد ذلك إلى طرف آخر من صورة المرأة يتمثل في النظرة إليها محبوبة ، ولكن علينا أن نعرف أن التراث الأدبي أمد الأدباء بكثير من معانيهم وتخيلاتهم في هذا المجال ، ووضعهم فيما يشبه الإطار الـذي لا يكادون يخرجون من سياجه إلا لماما ، بحيث لا نكاد نختلف صورة المحبوبة

---

(١) مسالك الأبصار جـ ١٢ ص ١٩٣ .

التي يقدمها لنا شعراء هذه الحقبة عن المحبوبة كما وردت في شعر القدماء من جاهليين وأمويين وعباسيين ، وهم في ذلك يستلهمون هذا التراث الضخم ، ويستغلونه بما يعبر عن أحاسيسهم ومشاعرهم ، إلا أننا مع ذلك لا نعدم أن نرى في ثنايا هذا الحشد من أحاديث الغزل بعض ملامح العصر وسماته ، أو قل ذوق العصر في الحب ، ونظرته إلى الجمال ، وبعض ما طرأ على معايير هذا الجمال من تطور وتغير .

وأول ما نلحظه هو ما كان لسوق النخاسة ، وما يقذف به كل يوم من جوار مختلفات الأجناس والألوان ، من أثر في صورة المحبوبة ، حيث كانت صورة الجارية الحسناء التي تفتن فن الحب هي المثال المستلهم في كثير من شعر الشعراء هذه الحقبة . فانظر مثلا إلى البهاء زهير يقدم لنا صورة هذه المحبوبة التي تفتن الغمز بالعين والحاجب :

أنا لا أبالي بالرقيب ولا بمنظره القبيح
غمز الحواجب بيننا ... أحلى من القول الصريح(١)

وانظر إليه يصور هذه الأخرى التي تفتن فن الرمز بالأنامل والعيون :

صب بأسرار الهوى ... خوفا من الواشين رامز
فأنامل أبدا تشير ... وأعين أبدا تغامز (٢)

واسمع له ثالثة يصف هذه المليحة التي تفتن فنون الإثارة ، من غناء مثير ومن حديث غنج :

وهيفاء كما تهوى ... تريك القد والخدا
وتشجيك بألحان ... تليب الجلمد الصلدا

(١) الديوان ص ٥٧ .
(٢) الديوان ص ١٢٤ .

ولقــط يوجــب الغســل   عــلى السامــع والحــدا (١)

وطبيعي أن مثل هذه الحسناء التي تتقن الغمز والرمز ، وتجيد فن الإثارة لا يمكن أن تكون إحدى الحرائر ، وليس من شك في أن الشاعر استلهم صورتها من الجوارى اللائي امتلأت بهن القصور ، واكتظت بهن مجالس اللهو .

وأنت واقف في أدب هذا العصر على كثير من أمثال هذه الصور وأنت واقع كذلك على كثير من أسماء الجوارى التي شاعت في هذا العصر ، من مثل وردة ، وحدق ، وحكم الهوى ، ونسيم ، واشتياق .

فهذه «وردة» جارية مولدة تقع على اسمها في شعر محيي الدين ابن عبد الظاهر إذ يقول :

بأبي دمية مولــــــدة الحســــن دعوهــــا بــــوردة البستان

في التصاوير مثلهـا ليس يلقى   فيقولون وردة كالدهـــــان(٢)

وأما «حدق» فهي صاحبة ابن فضل الله العمرى :

سكرت في حب من أهوى معاطفه   تطوى الضلوع على التبريح والحرق

قالوا فجد بدموع العين قلت لهم   لا تسألوا ما جرى سهوا على حدق(٣)

وابن أبي حجلة يشكو من فرط صبابته بـ «حكم الهوى»

حكم الهوى صدمت هيت لأجل ذا   ولهان من فرط الصبابة ذا الجوى

يا عاذلى لا تلحني في حبهـــا   نفذ القضاء وهكذا حكم الهوى (٤)

---

(١) الديوان ص ٦٩ .
(٢) مطالع البدور ج ١ ص ٢٦٢ .
(٣) مطالع البدور ج ١ ص ٢٦٢ .
(٤) ديوان الصبابة ص ١١٤ .

وينشد شاعر آخر بعضا من أسماء جوارى العصر فيقول :

إذا زار الحبيب على اشتياق	فقد زال العنا وقت الصباح
وإن واصلك خمر صبح نسيم	فقد دام السرور بالانشراح (١)

وتباينت النماذج التي تقذف بها أسواق النخاسة ، فمن صفراء إلى بيضاء ، ومن هندية إلى رومية إلى تركية ، وكان لذلك أثره فيما نقرأ من نتاج هذا العصر الأدبي ، فقد احتدمت المفاضلة بين محبي البيض ومحبي السمر ، وكل منهم له ما يبرر ذوقه ، بل ربما مال الشاعر إلى جانب ثم عاد فمال إلى الآخر وليس في هذا غرابة ، وليس فيه مجال للحكم عليه بالادعاء ، فالشاعر ملك لحظته ، وهو رهن بالموقف الذى امتلكه ، وبالصورة التي ملكت عليه فؤاده ونضرب لذلك مثلا بالبهاء زهير ، فهو حينا يفضل السمر وينتصر لهن ، وحينا آخر يفضل البيض وينتصر لهن فيقول في تفضيل السمر :

السمر لا البيض هم	أولى بعشقى وأحق
وإن تبصرت مقالا منصفا قلت : صدق	
السمر في لون اللمى	والبيض في لون البهق (٢)

ويعود مرة أخرى فيفضل البيض :

ألا إن عندى عاشق السمر غالط	وأن الملاح البيض أبهى وأبهج
وإنى لأهوى كل بيضاء غادة	يضىء بها وجه وثغر مفلج
وحسبى أنى أتبع الحق في الهوى	ولا شك أن الحق أبيض أبلج (٣)

وفتن بعض الناس بحب السود . ويقال إن الملك الصالح اسماعيل كان

---

(١) بدائع الزهور ص ١٥٦ .

(٢) الديوان ص ١٩٠ .

(٣) الديوان ص ٥٤ .

يميل إلى حب الجوارى الحبش ، وكان الشعراء يكثرون له فى هذا المعنى حتى قال بعضهم فى ذلك :

يكون الخال فى خد قبيح ... فيكسوه الملاحة والجمالا
فكيف يلام معشوق على من ... يراه كله فى الحسن خالا (١)

ويبدو أن الجمال التركى كانت له الغلبة فى المضمار ، فضن الناس به ، ورأى الشعراء فى المرأة التركية صورة مثلى للجمال ، فكثر تغزلهم بالتركيات ، وإشادتهم بجمالهن ، ويصف محيى الدين بن عبد الظاهر إحداهن بوجهها الناصع وشعرها الفاحم ، وتبدو له كالملكة على كل ما فى الكون من مظاهر الجمال ، فالبدر لا يزيد على حامل لغاشية موكبها ، والنجوم ليست أكثر من حاشية لها ، وابن عبد الظاهر يستمد صورة مما يراه فى المواكب السلطانية ، وليس أنسب من أن تكون هذه المواكب مددا فى رسم صورة هذه الفاتنة التركية :

أنا فى حب مثلها لا أحاشى ... لا ولا أرتضى مقالة واشى
تركية من بنات خاقان لكن ... شعرهـا منه قد رأينا النجاشى
غارت الشمس إذ رأتها نهارا ... لا ترى ظل شعرها لا تماشى
وإذا فى دجنة قد تبدت ... فلديها البدر حامل الغواشى
أو تمشت فى الليل قلت تراها ... هى بدر لـه النجوم حواشى (٢)

ويستعير القيراطى معزفا قديما يعزف عليه هذا اللحن لطفلته التركية ، فيقول :

وطفلة من بنات الترك تاركة ... أخا الضنا لمواها غير تــراك

---

(١) بدائع الزهور ص ١٥٦ .
(٢) ديوان ابن عبد الظاهر ص ٢٦ .

الغصان ينصب قبالى خدها شركا   تحت العصائب يحلو بين أتراك
عسالى ولم تسرح لى قلبا أقول لها   (ليهنك اليوم أن القلب مرعاك)
وقفت قلبي فى محراب حاجبها   لما تهجد فيه طرفى الباكى (١)

وسادت معايير الجمال التركى ، فأصبح الوجه الأبيض والشعر الفاحم من تمام الجمال ، ولعلنا لحظنا ذلك فيما مر من أبيات ، كذلك صارت العيون الضيقة مثار فتنة الشعراء ، فيقول سيف الدين المشد :

أولع القلب فى أشد الوثاق   ضيق العين ضيق الأحداق (٢)

ويقول الوداعى :

وطرف ضيق وبلاه   من طعنه النجل(٣)

ويصور ابن نباته انبهار العذول بجمال هذه العيون الضيقة لدرجة كف فيها من عذله فيقول :

بهت العذول وقد رأى ألحاظها   تركية تدع الحليم سفيها
فثنى الملام وقال دونك والأسى   هذى مضايق لست أدخل فيها (٤)

على أن هناك نماذج أخرى من الجمال كانت ما تزال تشد الشعراء من حين لآخر ، فهناك الجمال البدوى ، وهناك الجمال المصرى ، فالوراق مثلا يشده جمال هذه الغادة البدوية الكحلاء ، فيفضلها على أهل الحضر ، وذلك فى قوله :

---

(١) الديوان ص ٣٦
(٢) الديوان ص ١٦ .
(٣) تأهيل الغريب ص ٢٣٩ . (النواجى)
(٤) الديوان ص ٥٤٥ .

وفى من البدو كحلاء الجفون بدت   فى قومها كمهاة بين آســــاد
بنت عليها المعالى من ذوائبهـــا   بيتاً من الشعر لم يعمد بأوتـــاد
وأوقدت وجنتاها النار لا لقــرى   لكــن لأفئــدة منــا وأكبـــاد
فلو بدت لحسان المصر قمن لهـا   على الرءوس وقلن الفضل للبادى (١)

وكان ابن نباته فى كثير من شعره مشدودا إلى الجمال المصرى يشدو به ، ويعلى من شأنه ، واقرأ له قوله :

معلمت كأمثال القسى حواجبـــا   لرمت غـــداة البين قلبـــاً واجبـــا
بلواحظ يرقص جفنا كاســـــرا   فيثير فى الأحشاء شوقا ناصبـــا
ومعاطف كالماء تحت ذوائـــب   فاعجب لهـــن جوامدا وذوائبـــا
ســود الغدائــر قد تعقرب بعضها   ومن الأقارب ما يكون عقاربـــا
من كل مائدة الهوى مصريـــة   لم تخش من شهب الدموع ثواقبـــا
لم يكف أن شرعت رماح قدودها   حتى عقدن على الرماح عصائبا (٢)

ويحكى لنا كتب التاريخ أن المرأة فى هذا العصر أسرفت فى الزينــة ، وبالغت فيما تبديه من فتنتها ، حتى إن السلطة كانت تضطر بين الفينة والفينة إلى أمر النساء بلزوم بيوتهن ، أو وضع عقايـات محددة لما يرتدين من ثياب وعصائب . ففى سنة ٦٥٣ هـ أمر الملك عز الدين أيبك ألا تبرح امرأة بيتها ، وسجل أبو الحسين الجزار هذه الوقعة بقوله :

حـــا الملك المعــز على الرعايـــا وألزمهـــم قوانين المروة

وصـــان حريمهـــم من كل عار   وألبسهم سراويـــل الفتـــوه (٣)

---

(١) تأهيل الغريب ص ٨٣ . (النواجى)
(٢) الديوان ص ٢٦ .
(٣) السلوك حـ ١ ـــ ٢ ص ٢٩٧ ـــ

ويتحدث ابن تغرى بردى عن مبلغ اعتناء النساء بزينتهن فى عهد الناصر محمد ، فيصف ماكن يرتدين من طرح بلغ ثمن الواحدة عشرة آلاف دينار ، ويصور ماكن يتحلين به من خلاخيل ذهبية وأطواق مرصعة بالجواهر الثمينة(١)

ويقول ابن الإخوة مصورا إسراف النساء فى الزينة ، منكرا ما أحدثته من ملابس :

«والنساء فى هذا المقام أشد تهالكا من الرجال . ولهن محدثات من المنكر أحدثها كثرة الإرفاه والاتراف . وأهمل إنكارها حتى سرت فى الأوساط والأطراف ، فقد أحدثن الآن من الملابس ما لا يخطر للشيطان فى حساب . وتلك لباس الشهرة التى لا يستتر منها إسبال مرط ولا أدنى جلباب ، ومن جملتها أنهن يتخذن عصائب كأمثلة الأسنمة ، ويخرجن من جهارة أشكالها فى الصورة المعلمة . (٢)

ويعطينا شعر هذه الحقبة إشارات خاطفة إلى هذه الزينة ، فالقيراطى مثلا يشير إلى حلى صاحبته ، ويشبهها وقد لبست عقودها بالغصن المثمر ، وفى ذلك إيحاء بكثرة هذه الحلى :

قامت وقد لبست عقود حليهـــــا فرأيت غصنا بالجواهر مثمـــرا(٣)

وابن نباته يشير فى تظرف إلى ما لصاحبته من الأساور والخواتم ، سالكا سبيل التورية :

دعونى فى حلى من العيش مائــــــا ومرتقيا من بعده عصـــر راحـــم

---

(٢) النجوم الزاهرة جـ ٩ — ص ١٣٦ .

(٢) معالم القربة فى أحكام الحسبة ص ١٥٧ .

(٤) الديوان ص ٤٦ .

أمد إلى ذات الأساور مقلتى ... وأسأل للأعمال حسن الخواتم(١)

ويصف سيف الدين المشد خلخالا مما كان يتحلى به نساء عصره فيقول على لسان إحداهن :

ولى صديق أود صحبته ... أرق معنى من النسيم سرى
يرمى مخبى وإن حضرت فما ... يزال يثنى على مفتخرا
كتمته غيرة عليه وما ... أخاف منه الملال والغيرا ! (٢)

والشاعر يورى فى البيت الثانى بكلمة «يثنى» إذ يقصد انثناء الخلخال على الساق ، وفى البيت الثالث يستخدم لفظ «كتمته» فيوحى بأكثر من معنى ، يوحى بامتلاء الساق ، كما يوحى بأن النساء كن يسدلن الثياب حتى تحجب الخلاخيل .

واتخذ بعضهن المناديل المزينة التى نقشت عليها أبيات من الشعر ، فما كان يكتب على المنديل قول بهاء الدين بن النحاس :

ضاع منى خصر الحبيب نحولا ... فلهذا أمسى عليه أدور
نطقت خرقتى وذلك عجيب ... عن نظير كما حكتها الخصور
أكتم السر عن رقيب لهذا ... لى بحق دموعه المهجور (٣)

ويشير الشعراء إشارات خاطفة إلى بعض ما كان يفعلن فيه نساء ذلك العصر من جعل شعورهن على هيئة خاصة ، فقد كان منهن من تفرق شعرها من فوق الجبين ، وتضفره عدة ضفائر واضحة بعضها فوق بعض ، ولعل فى قول الشاب الظريف إشارة لذلك :

---

(١) تأهيل الغريب ص ٢٠٢ . (النواجى)
(٢) الديوان ص ٦٧ .
(٣) فوات الوفيات جـ٢ — ص ٢٩٦ .

زانت بطرة شعرها المفروق فوق جبينها في حسنها المجموع

فعجبت من تلك الذوائب بعضها المحلول جاذب بعضها الموضوع (١)

وقد يرخي هذه الضفائر خلفهن ، كما يقول الشاب الظريف أيضا :

تلاعب الشعر على ردفه   أوقع قلبي في العريض الطويل (٢)

وكان بعضهن يدلن خصلا من الشعر على خدودهن تتناثر متهافتة على غير نظام ، وإلى ذلك يشير سيف الدين المشد في قوله :

يلبل شعره عقلي إذا ما   تبلبل حول صدغيه الحسان (٣)

وكان بعضهن يجعلن هذه الخصلات تستدير حول الخد على هيئة العقرب لذلك كثر حديث الشعراء عن الشعر المعقرب ، وعن عقارب الأصداغ التي تحمي ورد الخدود . يقول ابن النقيب :

فيا ورد الخدود حماك مني   عقارب صدغه فامن جناتك (٤)

وأشار الشعراء إلى ما كانت تتخذه المردة من خضاب مختلف الألوان ، فهذا ابن نباته يشير إلى خضاب صاحبته الأحمر :

خضبت بأحمر كالنضار معاصما   كالماء فيها رونق وصفاء

واهاً لهن معاصماً مخضوبة   سال النضار بها وقام الماء (٥)

ومرة أخرى يشير إلى خضاب أخضر :

---

(١) الديوان ص ٤٢ .
(٢) الديوان ص ٥٥ .
(٣) الديوان ص ٢٢ .
(٤) فوات الوفيات جـ ١ ص ٣٢٥ .
(٥) الديوان ص ١١ .

ولكنها مصرية ذات بهجـــــة تتيـه برآهــا على غيرهـا مصر

سوالفهــا بيض وحمر خدودهــا ذوائبهــا سود وأطرافها خضر(١)

وطبيعي أن تكون مثل هذه الإشارات سريعة خاطفة في شعر الشعراء ، فشغل الشاعر الشاغل أن يعبر عن مواجده ، ومن ثم تكون مثل هذه الإشارات عرضية هامشية .

---

(١) الديوان ص ٢١ .

الفصل السابع

اللهو والمجـــون

١ — الصيد :

كان الصيد رياضة المماليك المفضلة ، وتسليتهم المحببة ، وكانت لمناطق معهودة من صعيد مصر وصحاريها وبراريها ، وكانت له — أيضا — مواسمه الموقوتة وأيامه المعروفة .

وحين يحل هذا الموعد الموقوت يخرج السلطان وكبار أمرائه في موكب يبهر العيون ، يقصدون هذا المكان أو ذاك ، ومعهم عدة الصيد وآلته ، وهناك يضربون خيامهم ، ويقضون — ما شاء لهم الهوى ، وما انبسطت لهم المتعة — وقتا قد يطول وقد يقصر ، يصيدون الطير ، ويقنصون الوحش ، حتى إذا زهدت أنفسهم اللهو ، ومجت المتعة ، عاد موكبهم يزهو بما معه من ألوان الطير وصنوف الوحش .

وكان المماليك ينظرون إلى الصيد على أنه رياضة نبيلة تسمو بالنفس ، وتهذب الخلق ، ويرون أنه العمل الذي يليق بهم في السلم إذا توقف عملهم في ميدان القتال .

يقول تاج الدين البارنباري في رسالة يصف رحلة صيد للسلطان قلاوون

وكان في اجتناء النصر ملاذا تدركها كل ذات شرفت ، وتملكها السجايا التي تعارفت بالفخار والتفت ، وتالفا النفوس التي مالت إلى العز ، ورأى

للقائه صرفت ، ومنشؤها من حالتين : إما فى موقف عز عندما تلمع بروق الصفاح ، وتشيب من هول الحرب رءوس الرماح ، وتسرح جوارح النبال لتحل فى الجوارح ، وتصيد فى الأرواح ، وإما فى موطن سلم عندما تنبسط النفوس إلى امتطاء صهوات الجياد فى الأمن والدعة . (١)

فالبارباري يقرن بين الصيد والحرب ، ويرى أن كليهما مبعثه شرف النفس ، ونبل السجايا .

على أن هذه الرسالة التى كتبها البارباري تعطينا — فضلا عن ذلك — صورة كاملة لرحلة صيد قلاوون ، وهذه بدورها توحى عما كان عليه الأمر فى سائر رحلات الصيد إذ ذاك .

فهى مثلا تشير إلى وقت الصيد الذى كان يخرج فيه قلاوون ، وإلى موكبه ، وإلى خروج الدهليز السلطانى حيث يمد ، وتحيط به خيام الأمراء :

«فيرسم — خلد الله سلطانه — فى الوقت الذى يرسم به من مشتى كل عام بإخراج الدهليز المنصور ، فينصب فى بر الجيزة بسفح الهرم ، فى ساعة مباركة ، آخذه فى إقبال الجود والكرم ، فتمد بالتأييد أطنابه ، وترفع على عمد النصر قبابه ، ويحاط بحراسة الملائكة الكرام رحابه ، وتضرب خيام الأمراء حوله وطاقا ، وتحف به مثل النجوم بالبدر إشراقا» . (٢)

ويصور البارباري ألوان الصيد ، وعدة كل لون وآلته ، فهناك صيد

---

(١) صبح الأعشى — ١٢ — ص ١٦٥ ، ١٦٦ .
(٢) صبح الأعشى — ١٤ ص ١٦٦ .

الطير وأدواته الصقور والبزاة ، وهناك صيد الوحش وأداته الخيل والفهود والضوارى أى كلاب الصيد .

ويبدأ فيصف البزاة والصقور ، فهذا صقر متوقد العين ، كريم العنصر مدرب ، يحملونه على الأكف إيذانا بانطلاقه ، وهذا باز أشهب مفضض الصدر ، ذو منسر حاد أقنى ، ومخلب كأنه نصل السيف :

«وأعدت الصيد بزاته وصقوره ، من كل متوقد اللحظ من الشهامة ، محمول على الراحات من فرط الكرامة ، يتوسم فيه النجاح ، قبل خفض الجناح ، ويخرج من جو السماء ولا حرج ولا جناح ، وبازها الأشهب يجىء بالظفر ويذهب ، بصدر مفضض ، وناظر مذهب ، له منسر أقنى ، طالما أفنى ، كأنما هو شبا السنان ، وقد حباه الكماة طعنا

وصارم فى يديك منصلت	إن كان السيف فى الوغى روح
متقد اللحظ من شهامته	فالجو من ناظريه مجروح

قد راش من النجح جناحه . وقرن الله باليمن غدوه ورواحه ، ونصره فى حربه ، حيث جعل منسره رمحه ، ومخلبه صفاحه» . (١)

وتمضى الرسالة لتصور عملية الصيد ، ها نحن فى غبش السحر ، والطيور فى غفلة عما يراد بها ، لاهية فى التقاط الحب ، بينما السلطان يرقبها عن كثب ويهيىء ذلك الباز الأشهب للانطلاق . وفى لحظة يصدر الأمر للأمراء الذين التفوا حول الطير عنق الطبول ، فتنفر الطير ، وتحلق ، وينطلق النسر فى إثرها ، ينشب فيها مخالبه ، ويسد عليها سبل النجاة . يقول الباربارى .

(١) صبح الأعشى جـ ١٤ ص ١٦٧ ، ١٦٨ .

«ويخرج (أى الملك) فى إغباش السحر ، وعليه سواد ، فيهابه الصادح فى الجو والباغم فى الواد ، ويأمر — خلد الله سلطانه — أمراءه فيضربون على الطير حلقة وهى لاهية فى التقاط حبها ، غافلة عما يراد بها ، فيذعرونها بخفق الطبول وضربها ، ومولانا السلطان — خلد الله ملكه — لنافرها مترقب ، ولطائرها بالجارح معقب ، فما يبدو الكركى مغرورا حتى يؤوب مقهورا ، ساقطا من سمائه إلى أرضه ، ومن سمته إلى قبضه ، فسبحان من خلق كل جنس وقهر بعضه ببعضه ، هذا والجارح قد أنشب فيه مخالبه ، وسد عليه سبله فى جو السماء ومذاهبه» . (١)

وينتقل البارنبارى إلى صيد الوحش ، فيصف ما أعد لذلك من خيل وفهود وجوارح . هذا فرس أحمر كأنه صبغ بالدم ، كريم العرق ، ينحدر كالصخر :

«ومن أحمر : كأنما صبغ بدماء الأعداء أديمه ، وكأنما هو شقيق الشقيق وقسيمه ، كرمت غرره وحجوله ، وحسنت أعراقه وذيوله ، مكر مفر كجلمود صخر حطه من عل سيوله ، حكى لونه عصر الرحيق ، وله كل يوم ظفر جديد مع أنه عتيق» . (٢)

وهذا فرس أدهم غرته بيضاء كأنها صبح فى دجاه الحالك ، أو كأنها كوكب تخلف من الليل :

«ومن أدهم : مدرك كالليل ، منصب كالسيل ، كريم الناصية ، جواب قاصية ، كأن غرته صبح تنفس فى الدجى الحالك ، وكأنه من الليل باق بين

(١) صبح الأعشى جـ ١٤ ص ١٦٨ .
(٢) المصدر نفسه ص ١٦٩ .

جبينه كوكبه . (١)

وتنطلق الخيل ، وعلى أثرها الفهود ، سوداء كأن الليل تفرق في أعينها ، حادة الناب والظفر ، قوية الوثبات ، شديدة البطش بالوحوش :

«وتليها الفهود الحسن منظرها ، الجميل ظفرها ، الكاسب نابها وظفرها تفرق الليل في أعينها المحتسة ، وأدركت الصرامم في عضابها المرتفعة ، وجوهها كوجوه الليوث الغادرة ، ووثباتها على الطريدة وثبات الفئة المؤمنة عـلى الكافرة ، مقلصة الخواصر ، عزماتها على الوحش حواصره . (٢)

ثم تليها الضوارى المدربة ضامرة الخواصر ، واسعة الوثبات . حـادة الأنياب ، مفتولة السواعد :

«ثم الضوارى المعلمة ، والضوارى التي أصبحت بالتجمع متوسعة ، ما منها إلا طاوى الخاصرة ، ووثبانه طائلة غير قاصرة ، بنيوب كالأسنة ، وساعدين مفتولين تسبق بها ذوات الأعنة . (٣)

ثم تبدأ المعركة . فتجول الخيل ، وتصول الضوارى ، وتقنص الفهود ، بينما الوحوش تضطرب ذعرا ، وقد حيل بينها وبين الخلاص

«وعندما تلتق حلقة العساكر ، يلحظها — خلد الله سلطانه — ومعه الجوارح الصائدة ، والضوارى الصائلة ، والأسهم النافذة ، والفهود الآخذة ، فتموج الوحش ذعرا ، وترى مسالكها قد سدت عليها سهلا ووعرا ، وضرب دون غاياتها بسور من الجياد والفرسان ، وحيل بينها وبين خلاصها بغابة من خرصان (٤).

---

(١) صبح الأعشى حـ ١٤ ص ١٦٩ .
(٢) المصدر نفسه ص ١٧٠ .
(٣) المصدر نفسه ص ١٧٠
(٤) المصدر نفسه ص ١٧١ .

والحقيقة أن رسالة اليابارى أعطتنا صورة حية مفصلة لرحلات الصيد وآلاته وأساليبه . وهى صورة تمثل لنا بوضوح هذا الجانب من حياة المماليك .

على أن من رحلات الصيد هذه ، ما كان يستخدم فيها البندق عوضا عن البزاة والصقور والخيل والفهود ، وأظن هذا اللون من الرحلات كان يتميز بالسرعة والقصر ، يخرج اليه قلة من الأمراء ، وقد لا يطول بهم المقام إلا يوما أو بعض يوم ، وكل ما معهم من آلة الصيد هى القسى والبندق . وكانت الرسائل التى تصف هذه الرحلات تسمى «قدمات البندق» على حد قول القلقشندى . (١)

وربما يحسن هنا أن نعرض لواحدة من هذه الرسائل لتكمل لنا صورة من فنون الصيد وأساليبه ، ولشهاب محمود رسالة فى صيد البندق يبدؤها محدثا عن شرف رياضة الصيد ونبلها ، ثم يعطف إلى وصف الأمراء الذين خرجوا للصيد ومعهم قسيهم وبندقهم ، فيحدثنا عن هذه الآلات ما شاء له خياله ، وما أمدته فنون القول :

«ومعهم قسى كالغصون فى لطافتها ولينها ، والأهلة فى نحافتها وتكوينها والأزاهر فى ترافتها وتلوينها ، بطونها مدبجة ، ومتونها مدرجة ، كأنها كواكب الشولة فى أعطافها ، أو أوراق الظباء فى انعطافها ، لأوتارها عند القوادم أوتار ، ولبنادقها الحواصل أوكار ، إذا انتقبت لصيد ذهب من الحياة نصيبه ، وإن انتصبت لرمى بدا لها أنها أحق من يصيبه ، ولعل ذلك الصوت زجر لبندقها أن يبطىء فى سيره ، أو يتخطى الغرض إلى غيره ، أو وحشة لمفارقة أفلاذ كبدها ، أو أسف على خروج بنيها من يدها ، على أنها

(١) صبح الأعشى جـ ١٤ ص ٢٨٢ .

طالما بلت بنيها بالعراء ، وشفعت لخصمها التطير بالاغراء :

مثل العقارب أذنابا معقـــــــــدة ... لمن تأملها أو حقق النظـــرا
إن لدغـــا قصــر مهــم وعابــه ... مناقر الطير فيها أو ترى صمرا
فهو المسيء اختيارا إذ نوى سفرا ... وقد رأى طالعا فى العقرب القمرا

ومن البنادق كرات متفقة السرد ، متحدة العكس والطرد ، كأنما خرطت من المندل الرطب ، أو عجنت من العنبر الورد ، تسرى كالشهب فى الظلام وتسبق إلى مقاتل الطير مسددات السهام» . (١)

وبعد أن يرضى الشهاب محمود ذوقه البديعى فى وصف القسى والبنادق، مستقصيا فى ذلك إمكانات الألفاظ ، وما يولده التلاعب بها من صور مستمدة فى جملتها من موروثه الأدبى ، يأخذ فى وصف عملية الصيد ، ها هى عصابة من طير مختلف أجناسه ، يحثها القدر إلى مصرعها ، وها هم الأمراء كل فى مكانه متحفز مستوفز ، وها هو سهم الأمير الأول ينطلق فيهوى بطائر من طيور التمام أبيض الريش أسود المنقار ، طويل العنق ، سريع الالتفات ،وحين سقوطه يهلل الجميع مكبرين :

«فمرت علينا من الطير عصابة ، أظلتها من أجنحتها سحابة ، من كل طائر أقلع يرتاد مرتعا ، فوجد ولكن مصرعا ، وأسف يبتغى ماء جما، فوجد ولكن السم منقعا ، وحلق فى الفضاء يبغى ملعبا فبات هو وأشياعه سجدا لمحاريب القسى وركعا ، فتبركنا بذلك الوجه الجميل ، وتداركنا أوائل ذلك القبيل . فاستقبل أولنا تمام بدره ، وعظم فى توجه وقدره ، كأنه برق كرع

---

(١) صبح الأعشى جـ ١٤ ص ٢٦١ ، ٢٦٢ .

في غسق ، أو صبح عطف على بقية الدجى عطف نسق ، تحسبه في أصداف المها حمرة تهج ، وتخاله تحت أذيال الدجى طرة صبح ، عليه من البياض حلة ووقار ، وله كدهن عنبر فوق منقار من قار ، له عنق ظليم ، والتفاتة ريم ، وسرى غيم يصرفه نسيم :

كلون المشيب وعصر الشباب ووقت الوصال ويوم الظفر
كأن الدجى غار من لونه فأمسك منقاره ثم فر

فأرسل إليه من الهلال نجما ، فسقط منه ما كبر بما صغر حجما ، فاستبشر بنجاحه ، وكبر عند صباحه ، وحصله من وسط الماء بجناحه» (١)

وتتهاوى الطيور واحدا إثر آخر . فهذا «كي» تقارنه «إوزه» تلوها «لغلغة» ، وفي إثرها «أنيسه» ، ومنها ما هو سريع النفار كالكركي . لذلك فهو محتاج من صائده إلى الحذر والحيطة ، وإلا فر منه . انظر إلى هذا الأمير كيف صنع !

«فوجد التاسع قد مر به كركي طويل الشفار ، سريع النفار ، شهي الفراق ، كثير الاغتراب ، يشتو بمصر ، ويصيف بالعراق ، لقوادمه في الجو حفيف ، ولأدمه لون السماء طرأ عليها غيم خفيف ، تحن إلى صوته الجوارح ، وتعجب من قوته الرياح البوارح ، له أثر حمرة في رأسه كوميض جمر تحت رماد ، أو بقية جرح تحت ضماد ، أو فص عقيق ستت منه بقايا ثماد ، ذو منقار كسنان ، وعنق كعنان كأنما ينوس على عودين من آبنوس .

اذا بـدا في أفـق مقلعـا والجـو كالمـاء تفاويفـه
حسبتـه في لجـة مركبـا رجـلاه في الأفـق مجاديفـه

---

(١) صبح الأعشى جـ ١٤ ص ٢٩٣ .

فصبر له حتى جازه جليا ، وعطف عليه مصليا ، فخر مضرجا بدمه ، وسقط مشرفا على عدمه ، وطالما أفلت لدى الكواسر من أظفار المتون ، وأصابه القدر بحبة من حمأ مسنون ، فكثر التكبير من أجله ، وحمله على وجه الماء برجله» . (١)

وامتزجت رسائل الكتاب بأشعارهم كما رأينا فى صنيع الشهاب محمود ، أما ابن الصائغ الحنفى فيجعل من رسالته النثرية فى وصف البندق تمهيدا لأبياته التى تفيدنا فى معرفة ألوان الطير التى كان يصيدها الأمراء وعماتها . يقول :

فتـارة كنت أصيـــد النسرا ... ويصده العقاب يحكى الجسرا

والكى والكركى صدت جهرا ... وصدت غرنوقا وعنزا قهرا

وكنت بالإوز فى انشـــــراح

وتـارة تمـا كبدر التـم ... تتبعـه أنيســـة كالجســم

ولغلـغ أسـود مسك الفـم ... وحبرج عن الرمـاة محمى

والصـوع صيـع سيطر صـياح

وكم وكم قد صدت يوما مرزمـــا ... أنزلتـه بالقوس من جو السما

جناحـه يحكى طـرارا معلما ... على بياض شية شبه الدمـا

كأنـــه ليــل علـى صبـاح

حيث الصبـا تشفـع بالقبــول ... وشملنـا يجمـع بالشمـــول

فى مجلس ليس بـه فضـول ... وجاءنـا الترقيـع فى الوصـول

فـادكم بفخـر بالصـلاح (٢)

---

(١) صبح الأعشى ج ١٤ ص ٢٩٢ .
(٢) صبح الأعشى ج ١٤ ص ٢٨٢ .

ويورى الشاعر فى محسنه الأخيرة فى كلمة «الوصول» فهو يقصد إيصالات الهبات ، وكذلك فى كلمة الصلاح إذ يقصد صلاح الدين الخيرى صاحب رحلة الصيد .

وربما كان نصيب الشعر المملوكي فى التعبير عن هذا الجانب قليلا ، فالصيد — كما رأينا — رياضة المماليك ، وهم الطبقة الأرستقراطية المنعزلة عن الشعب ، والشعراء على هذا العهد ارتباطهم بطبقات الشعب أكثر ،ومع ذلك فقد أسهم الشعراء الذين شاركوا فى بعض رحلات الصيد هذه،بنصيب فى وصفها ، وقد وقفنا على بعض أبيات لسراج الدين الوراق يصف فيها رحلة صيد للملك الصالح علاء الدين يقول فيها :

حزمة صح قلها بالنجاح | بين ذى مخلب وذات جناح
من فهود ومن صقور حداها | عنها فى غدوها والرواح
أرسلتها سعادة الملك الصالح فاستقبلت وجوه الصلاح
ملك ضرج السرى بدماء | حملت ربكها خدود الملاح
كل يوم من صيده عيد نحر | فى وحوش،وفى عدى كالأضاحى(١)

هذا جانب من جوانب اللهو فى مجتمع مصر المملوكية ، ولكنه — كما رأينا — لهو قاصر على طبقة المماليك ، لم يكد يشاركهم فيه سواهم .

٢ — المناقرة والمناطحة :

شاعت ألوان أخرى من اللهو فى مصر المملوكية منها لعب الحمام ، ومناقرة الديوك ، ومناطحة الكباش والثيران ، وعرف عن بعض سلاطين المماليك أنه أغرم بلعب الحمام ، وكثر تهكم الشعراء به لذلك . وقد سبق أن

---

(١) منتخب الوراق ص ٢٧٥ .

أوردنا بعض شعرهم في هذا المجال .

أما مناقرة الديوك ، ومناطحة الكباش فتصورها لنا بابة ابن دانيال المتيم والضائع اليتيم .

وفي هذه البابة يعرض ابن دانيال صورا من هذه الملاهي التي دارت بين المتيم واليتيم ، ويبدأ بمناقرة الديوك ، وكل منهما أعد ديكه للنقار ، أعد المتيم ديكه «أبو العرف صباح» وأعد اليتيم ديكه «صياح» ، ويشرع المتيم في الإشادة بديكه قائلا :

ديكى صباح من   حذار من بأسه الشديد
إن كان منقاره (قصيرا)   فإن كفيه من حديد (١)
كأنما عرفه عقيق   يرى على وردة الخدود
له إذا هاجه نقار   من خصمه وثبة الأسود(٢)

ويجيب اليتيم هو الآخر مشيدا بديكه

ويبدو أن عشاق هذا اللون من اللهو كانوا يسرفون في العناية بشأن الديوك ، فيكسونها بالحرير . ويزينونها بألوان من الحلى ، ونستشف ذلك من قول المتيم في وصف ديكه :

أهلا وسهلا بطلعة الديك   كأنه صورة الصعاليك
أتى بتاج كأنه ملك   بين دجاج مثل المماليك
بطيلسان مثل الحرير مع التبر على منكبيه محبوك
رأيته إذ يسير من تيهه   كأنه الصالح بن رزيك (٣)

---

(١) في نشرة حمادة « منقاره قاقرا » وهي مصحفة .

(٢) خيال الظل ص ٢٤١ .

(٣) خيال الظل ص ٢٤١ .

وستكشف أيضاً من هذه البابة طبيعة هذه المناقرة ، وكيفية الظفر فيها ، يقول ابن دانيال على لسان «مرجون» أحد شخوص البابة :

«وأحسن ما تفرج عليه السوقة والملوك ، مناقرة الديوك ، لأنها مناصفة ومناضلة ، ومقاومة ومنازلة ، وهذان الديكان قد وقفا للاصطدام ، وأصرا على الإقدام ، فمن هرب من النقار ، والتجأ إلى الفرار ، وجب عليه ما تقرر وليس بعار إذا عاد المغلوب وتكرر» . (١)

وربما على هذا النسق كانت تسير مناطحة الكباش والثيران ، يقول المتيم بعد أن هزم ديكه :

«ولئن هرب ديكي من صياح ، فدونك كبشي للنطاح ، وكل لاعب يعرف كبشي كأنه الأسد الوحشي ، يكاد يقلع البروج ، ويهدم بقرنيه سد يأجوج ومأجوج» . (٢)

وتبدأ المناطحة فيشيد كل منها بقوة كبشه ، وجمال منظره ، ويشير إلى إلى موطنه ، ومن الطريف أن تأتي أم اليتيم فتبخر خروف ابنها من الحسد قبل اللقاء . وربما كان في ذلك إشارة إلى بعض ما يصاحب مثل هذه المناطحات من مراسم وعادات .

٣ — النرد والشطرنج :

شاعت هاتان اللعبتان في المجتمع المصري آنذاك ، وأقبل عليها العامة والخاصة ، وكان لهما من الانتشار ما لهما الآن في مجتمعنا المعاصر .

وكان للعبتين مكانتها في عالم الأدب فاستحوذتا على حيز في أشعار

(١) خيال الظل ص ٢٤٢ .
(٢) خيال الظل ص ٢٤٣ .

الشعراء ، وفي أبيات لسيف الدين المشد تراه يصم اللائم في لعبة «النرد» بالجهل ويمضي فيصف هذه اللعبة وصف خبير ، وكأنه أراد أن يجعل أبياته دليلا للاعبين . يقول :

ولائم في الفصوص وافى   يسب ثقاتها بجهل
أجبته خل عنك هذا   واسمع أداءها بحسن نقل
وصانع الخصم إذ تراه   مستظهرا دائما بخصل
فالنرد صيغت لذي احتياط   مهذب الرأي رب فضل
فكم كسى «اليك» قلب غال   وجود «الدو» فؤاد فحل
وسوس «السا» كل عظم   وجار «جهار» بغير عدل
وبسج «البنج» من ثراه   وشوش «الشيش» كل عقل (١)

أما ابن دانيال فيصف إغراء هذه اللعبة ، وكيف أنها تلهي الإنسان عن كل شيء ، حتى عن أداء الفروض الدينية من صوم وصلاة ، وذلك إذ يقول

و «البنج» مثل البنج في اللب فعله   وألهاك عن صوم الفريضة والفطر
وكاحال نقش «اليك» يسبيك لونه   فأنت به صب الفؤاد مدى الدهر
تروقك من شفع ووتر نقوشها   وتلهيك ما لاحت عن الشفع والوتر (٢)

وحظيت لعبة «الشطرنج» ببعض المقطعات الشعرية في وصفها وبيان فنها ، لبدر الدين بن الصاحب يصف مهارته في هذه اللعبة حتى إنه أتقن حفظها ، وصار بإمكانه أن يلعبها دونما نظر إلى رقعتها :

لي من الشطرنج علم   أتقن الإدمان حفظه

---

(١) مهرفة الفقد ص ٥٥ .
(٢) التذكرة الصفدية جـ ١٤ ص ٥٨ .

ألعب الغائب منهما فأراه طبق يقظه (١)

ويرى أنها لعبة أهل العقل والفكر ، وإن كان ينكر ما يراه من سلوك لاعبيها :

أميل لشطرنج أهل النهى وأسلوه عن ناقل الباطل
وكم لي أهل لعابها ويأبى الطباع على الناقل (٢)

أما ابن نباته فيرى في رقعة الشطرنج ميدانا لإجالة الفكر ، وفي حديقة زاهرة بالجنى ، وذلك إذ يقول :

لله في الشطرنج فكرة لاعب إن غاب أو حضر اجتنيت حدائقه
شكرته نفس اللعب أو نفس النهى هاتيك صامتة وهذى ناطقة (٣)

ويشير ابن الصائغ الحنفي إلى شيء من فنون هذه اللعبة في قوله :

لعبت في الشطرنج في غاية تقصر الأوصاف عن حدها
إن صاح في الأقران لي بيدق تموت منه الشاة في جلدها (٤)

وفي قول آخر يدعو إلى التأمل فيرى في لعبة الشطرنج شبها من الدنيا ، التي يتعاور منها على الإنسان ليل ونهار ، وبؤس ونعيم ، وتفنى في النهاية ولا يبقى إلا الخالق . وذلك إذ يقول :

تأمل تر الشطرنج كالدهر دولة نهارا وليلا ثم بؤسا وأنعما
محركها باق وتفنى جميعها وبعد الفنا تحيا وتبعث أعظما (٥)

---

(١) الدرر الكامنة ج ١ ص ٢٦٤ .
(٢) الدرر الكامنة ج ١ ص ٢٦٥ .
(٣) سلوة الشجن في وصف السكن لوحة ٢٤ .
(٤) خزانة الأدب لابن حجة ص ٢٩٦ ـ.
(٥) خزانة الأدب لابن حجة ص ٢٩٦ .

٤ — الألغاز والأحاجي :

وتمثل الألغاز والأحاجي لونا من التلهية شغف به الناس بعامة ، والمتأدبون بخاصة ، وقلما نجد شاعرا لم يضرب في هذا اللون بسهم ، ولا شك أن هذا اللون لقي رواجا بين طبقات الشعب ، فالإنسان مفتون بهذا اللون في كل العصور . (١) وما لنا نبعد وحياتنا المعاصرة تشهد بذلك ، فهذه صحفنا اليومية تخصص كل منها مكانا للكلمات المتقاطعة ، وهذه وسائل إعلامنا تستعين بـ «الفوازير» لتستقطب جمهورها ، وليس كل أولئك إلا ألوانا من الإلغاز شبيهة بما نراه من ألغاز وأحاجي هذه الحقبة التي نتصدى لها بالدراسة .

وقد يكون شغف الإنسان باللغز مجرد تلهية وقتل الفراغ ، وقد يكون له أساس وجداني في نفس الإنسان من رغبة في الانتصار على المجهول ،واستكناه الأسرار الغامضة ، هذا بالإضافة إلى دور اللغز التعليمي ، ولا ريب أن هذه الألغاز أسهمت في نشر بعض معارف هذا العصر بين جماهير الناس .

وألغز شعراء هذه الحقبة في كل ما تقع عليه العين أو تدركه الحواس ، وامتدت هذه الألغاز إلى المسائل العلمية من نحو وفقه ، وعروض إلى آخر ذلك من معارف العصر .

وحملت الرسائل بين الأدباء وأهل الظرف كثيرا من هذه الألغاز ، ولإظهار المقدرة والبراعة كان بعض الأدباء يجيب عن اللغز شعرا ، ونورد هنا طرفا من هذه الألغاز محاولين التعرف على هذا الجانب من جوانب التلهية . يقول سيف الدين المشد ملغزا في كلمة «فرح» :

(١) أنظر د . سهير القلماوي . ألف ليلة وليلة ص ٢٩١ .

ما اسم اذا ما فتحت آخره   أصبح فعلا مقلوبه حرف
وهو حبيب لمن تأمله   وليس فيا شرحته خلف (١)

فنحن نراه يدور حول حروف كلمة «فرح» وما تعطيه من معان تختلف باختلاف حركاتها ، وتختلف إذا قرئت طردا عنها إذا قرئت عكسا .

ويستغل الملغز كذلك ما يعطيه اللفظ من معان مختلفة ، وما يوحى به من دلالات متباينة ، وما يوجد بين استخدامه الفصيح واستخدامه العامى من فروق ، ومثال ذلك ما نجده فى لغز محيى الدين بن عبد الظاهر فى «كوز» :

وذى أذن بلا سمع   له قلب بلا قلب
إذا استولى على حب   فقل ما شئت فى الصب (٢)

فهو يستغل ما تعطيه كلمات الأذن والحب والصب من معان متباينة ، فيقصد أذن الكوز لا أذن الانسان ولذلك يصفها بأنها بلا سمع ، ويقصد بالحب الزير كما اصطلح على ذلك العامة بينما الذهن يذهب إلى العاشق ، ويقصد بالصب عملية صب المياه لا ما يتبادر إلى الذهن من وصف العاشق .

وأحيانا يدور الملغز حول صفات الشىء الذى يلغز فيه آتيا بدلالات غير ما تعارف عليه الناس ، مثال ذلك ما نجده فى قول العزازى ملغزا فى رمح .

ما عجوز كبيرة بلغت عمراً طويلا   وتجيها الرجال
قد علا جسمها صفار ولم تشك   سقاماً ولو عراها هزال
ولها فى البين قدر وسهم   وسوها كبار قدر بال (٣)

فالعجوز المعمرة يزهد فيها الرجال بينما يصفها الشاعر بعكس ذلك ،

---

(١) الغيرات ص ٥٣ .
(٢) خزانة الأدب ص ٤٨١ .
(٣) ثمرات الشعب حـ ٦ ص ٢١ ، ٢٢ .

والاصفرار والهزال دليلا المرض والسقم ولكن الشاعر جعلها دليلين على الصحة ، ومع ذلك فالشاعر يضع المفاتيح لمغاليق هذا اللغز من ذكره للسهم والنبال في البيت الثالث .

ويستعمل كل هذه الألوان برهان الدين القيراطي إذ يقول ملغزا في باذهنج دائرا حول أوصافه ، ملبسا في ألفاظه مستغلا إمكاناتها المختلفة ، مبعثرا مفاتيح لغزه خلال أبياته :

أعوانها المختلفة … قد أصبحت مؤتلفه
في شامخ بأنفه … على السؤال أنفه
وذي جناح لم يطر … وكل طير ألفه
جناحه طول المدى … يبدي علينا رفرفه
في الربيع ضاع نشر من … على هواه عنفه
عليله الصحيح كم … شفى قلوبا دنفه
وروحه لطيفة … وذاته منحرفه
عن قبلة التبين أرى … حب الهوى قد صرفه
ولم تكن مع الهوى … أعطافه منعطفه
هواه تحت طوعه … كيف يشاء صرفه
ما زال غير شاكر … ما كنه مذ ألفه
وكلما أسرف في … بذل شكرنا سرفه
أنفاسه كم أودعت … مجلسنا تلطفه
كم زعزعت من غصن … وقامة مهفهفه
معطله هو الصحيح عند من قد عرفه(1)

---

(1) خزانة الأدب لابن حجة ص ٤٨١ ، ٤٨٢ .

وعلى مثل هذه الشاكلة سار هذا اللون من ألوان التلهية الذهنية ، التى رأى فيها الناس شحذاً للمكائد الفكرية ، وتدريباً لها على غامض الأمــور فضلاً عما يتيح لهم ذلك من قتل الفراغ ، وإضاعة الوقت .

٥ — المجـــون :

سرت فى المجتمع المصرى فى هذه الحقبة موجة من الخلاعة الماجنة ، وتفشى عديد من الأمراض الخلقية ، وتجاهر الخلاع بالمنكرات ، الأمر الذى كان يضطر الحكام من حين إلى آخر أن يفرضوا عقاباً صارماً على هذه الفئات المنساقة وراء الهوى والرغبة .

وقد وصل الأمر بالسلطان الظاهر بيبرس إلى أن يصلب واحداً من شاربى الخمر يدعى بابن الكازرونى ليكون عبرة لغيره ، كما أصدر أوامره بالنهى عن شرب الخمر والحشيشة وتعقب من يعمل ذلك ، وكان هذا التشدد من بيبرس مثاراً لتعليقات الشعراء ، فمنهم الراضى عن هذا الصنيع ، ومنهـم الذى يتهكم فى خبث ، فناصر الدين بن المنير يبارك صنع بيبرس ، ويرى أنه أوصد باب مصر فى وجه إبليس ، وذلك إذ يقول :

ليس لإبليس عندنـا طمـــع   غير بـلاد الأمير مرعـــاه
منعتـه الخمـر والحشيش معـاً   أحرمتـه مـــاءه ومرعاه (١)

وإلى مثل ذلك يذهب ناصر الدين بن النقيب فى قوله :

منـع الظاهـر الحشيش مـع الخمـر فـولى إبليس من مصر يسـعى
قـال مـالى وللمقـام بـأرض   لم أمتـع فيها بماء ومرعى (٢)

---

(١) فوات الوفيات حـ ١ ص ٢٤٥ .
(٢) المصدر نفسه حـ ١ ص ٢٤٥ .

وتمس الحبث في قول ابن دانيال معقبا على صلب الكازروني :

لقد كان حد السكر من قبل صلبه ... خفيف الأذى إذ كان في شرعنا جلدا
فلما بدا المصلوب قلت لصاحبي ... ألا تب فإن الحد قد جاوز الحدا (١)

فكأن ابن دانيال يرى أن عقاب بيبرس لابن الكازروني قد جاوز ما تقضى به الشرع .

ومثلما تشدد بيبرس تشدد حسام الدين لاجين مما يدل على استشراء هذه الموجة من الخلاعة ، ويسجل ابن دانيال صنيع لاجين بقوله :

احذر نديمي أن تذوق المسكرا ... أو أن تحاول قط أمرا منكرا
لا تشرب الصهباء صرفا قرقفا ... وتزور من تهواه إلا في الكرى
أنا ناصح لك إن قبلت نصيحتي ... اشرب إذا ما رمت سكرا سكرا
والرأي عندي ترك عقلك سالما ... من أن تراه بالمدام تغيرا
في دولة المنصور لاجين الذي ... قهر الملوك وكان سلطان الورى
إياك تأكل أخضرا في عصره ... يا ذا الفقير يصير جسمك أحمرا (٢)

ولم يكن الحشيش والخمر هما كل ما تفشي في الناس من منكرات ، فهناك ألوان أخرى من الشذوذ والبغاء ربما تصورها قصيدة ابن دانيال التي يصف فيها إبليس ، حزينا على زوال دولته بعد أن أبطل لاجين المنكرات :

رأيت في النوم أبا مرة ... وهو حزين القلب في حسره
وعينه العوراء مقروحة ... تقطر دمعا قطرة قطره
يصيح وا ويلاه من حرقتي ... تلك التي ما مثلها حسره
وحوله من رهطه عصبة ... فهم على قلتهم كثره

---

(١) المصدر نفسه ج ١ ص ٢٤٥ .
(٢) فوات الوفيات ج ٢ ص ٣٣٥

ويعف القلم عن تسجيل بقية أبيات هذه القصيدة التى يصور فيها ابن دانيال ألوان المنكرات فى عصره ، مسجلا أدق الخلجات ، وأفحش التصيلات ، من بغاء ، وشذوذ ، وفسق ، وتهتك . (١)

وعرف المجتمع المصرى فى هذه الحقبة أماكن كثيرة يخرج إليها الناس للقصف واللهو ، منها مثلا جزيرة حليمة التى كانت بين بولاق والجزيرة الوسطى ، والتى يصفها المعمار بقوله :

جزيرة البحر جنت بها عقول سليمه
لما حوت حسن معنى ببسطة مستقيمه
وكم يخوضون فيها وكم مشوا بنميمه
ولم تزل ذا اشتهال ما تنفك إلا حليمه (٢)

والمعمار يشير إلى ما كانت تشهده هذه الجزيرة من فساد ولهو ، ويرى أنها ما سميت « حليمة » إلا لصبرها على ذلك .

ويصور القيراطى ما كان يجترح من آثام فى قناطر الجيزة ، وذلك إذ يقول :

قناطر الجيزة كم قادم عليك ، بلى فيك أقصى مناه
أنسوك قوم لا لطمة فاغتدى ظهرك للوطء وصب المياه(٣)

ويشير فخر الدين بن مكانس إلى عدة أماكن اللهو المعروفة إذ ذاك ، فيقول من موشحة :

---

(١) أنظر القصيدة كاملة فى التذكرة الصفدية ج ١٤ — ص ٦٤ ، ٦٥ .
(٢) الخطط المقريزية ج ٣ ص ٩٩ .
(٣) ديوان القيراطى ص ٢٠٠

باكر إلى جزيرة الفيل التي تختال في أثوابها كالجنة
ولا تحل عن وجهها لوجهة صف حسنها فإنها والمصرة
وقف بشاطيها ولا تعدى

واجلس من المنية جنب الشاطي من فرش الروض على بساط
فهي من التدبيج في أسراط عروسة تختال بالأقراط
وصن لآلي نورها في عقد

والتاج يعلو فوق هام الزهر والبهجة الوجوه ذات النشر
وكل برج حولها كقصر في كل برج ثم وجه بدر
يحل منها كل برج سعد

وعج على شبرا محل الراح واعجب من الصبوح والصباح
إذ كاسها يغني عن المصباح واعقد لبنت الكرم والأفراح
على نهير النيل أسنى عقد

ورم نثار الحبب العبسي على زفاف بكرها العروس
وقر بالشمس عين ابليس واستهد للعصر من القسوس
واشرب سلافا نقدها بالنقد

وانظر إلى أنوار بئر البلسم فهي سبيل حق من مقسم
لكونها ما يغسل تنتمي إلى المسيح العبد بن مريم
يحيي بإذن الله ميت اللحد (١)

فهو يذكر جزيرة الفيل وبساتينها . والمنية وما يكسو أرضها من رياض ونبات ، وشبرا وما عرفت به من خمر جيدة . وبئر البلسم التي يعظمها النصارى ثم يمضي في الموشحة بعد ذلك فيشير إلى خمر أبي المنجا والقناطر قائلا :

---

(١) حلبة الكميت ص ٢٧١ ، روض الآداب ص ١٧٧ ، ١٧٨ .

واشرب على بحر أبي المنجا | فهو للسرور الهموم منجا
ذو أرج به السرور يرجى | فتحيبوان لتيه يهجى
من حسنه وصفه موقد

وانزل على الجسر من القناطر | بستان ملك الأمرا بهادر
المنجكي الملكي الظاهر | كهف العلا مهد العساكر
من حين كان مرضعا في المهد(١)

ومن أماكن اللهو - أيضا - «بركة الرطل» وقد وصفها المقريزي بقوله :

«صارت المراكب تعبر إليها من الخليج الناصري ، فتدورها تحت البيوت وهي مشحونة بالناس ، فتمر هنالك للناس أحوال من اللهو يقصر عنها الوصف ، وتظاهر الناس في المراكب بأنواع المنكرات ، من شرب المسكرات وتبرج النساء الفاجرات ، واختلاطهن بالرجال من غير إنكار ، فاذا نضب ماء النيل زرعت هذه البركة بالقرط وغيره ، فيجتمع فيها من الناس في يومي الأحد والجمعة عالم لا يحصى» . (٢)

وكانت الديارات مرتادا لطلاب الخلاعة والمجون ، يجدون فيها بغيتهم من الخمر والأوجه الملاح ، وكان هناك من الديارات دير طموية في الجيزة ، ودير الراهبات في حارة زويلة ، ودير البنات في حارة الروم ، ودير المعلقة ودير بربارة . (٣) ويصور البهاء زهير واحدا من هذه الأديرة في قوله :

ورهبان كما تدري | من القبط النحارير
وفيهم كل ذي حسن | من الإحسان موفور

---

(١) حلبة الكميت ص ٢٧٣ ، روض الآداب ص ١٧٨ .
(٢) الخطط ج ٣ ص ٦٢ .
(٣) أنظر الخطط ج ٣ ص ٤١٤ ، ٤٢١ .

وكالمزامير بصوت كالزنابير
وفي تلك الرانبي بدور في الدياجير
وجسوه كالصطوير تميل الصطوير
ومن تحت الزنانير خصور كالزنابير
أبناهم فما أبقوا ولا غشوا بتغرور
لقد مر لنا يوم من العمر المشاهير
على ما خلته من خير ميعاد وتقدير
فقل ما شئت من قول وقدر كل تقدير (١)

ولا ريب أن هذا التيار اللاهي الماجن ترك أثره الواضح في أدب مصر المملوكية ، ويمكننا أن نتلمس هذا الأثر في جوانب ثلاثة : الأول أدب الخمر والثاني أدب الحشيشة ، والثالث أدب الشذوذ والغلمان .

أ الخمر :

أكثر شعراء هذا العصر وكتابه من الحديث عن الخمر ، ووصف مجالسها وسقاتها وكئوسها وآداب مجلسها ، ويهول القارىء ما يجده من حديث الخمر إذ أصبحت عنصرا هاما عند كل أديب ، وربما أدى ذلك إلى تساؤل عن السر في ذلك . وأكبر الظن أن الشغف بالخمر ، والاستغراق في عالمها لم يكن إلا هربا من الواقع ، فكما لاذ الصوفية بعالمهم الباطني لاذ أبناء الخمر بعالمهم الحسي ، يتفيأون فيه ظلال اللذة ، ويجدون في عالم الكئوس والأقداح ما ينسيهم الواقع ، أو ما يقصون عنده النسيان . وهم بعد ذلك قانعون بهذه الحياة ، لا يرهقون أنفسهم بطموح زائف ، ولا يرهقون أيامهم بمطالب خاوية . ويعبر سيف الدين المشد عن ذلك بقوله :

---

(١) ديوان البهاء زهير ص ١١١ ، ١١٢ .

قد قضينا من الزمان الجميل يسير الثنا وبعض الفضول

وأرحناه من كثير طلاب وطلاب الكثير غير جميل (1)

وسواء أكان أدب الخمر تعبيرا عن واقع يمارسه هؤلاء الأدباء في حياتهم أم كان صورة فنية ، فإن الأمر في الحالين لا تختلف دلالته النفسية ، إذ هو تعبير عن فقدان التكيف مع الواقع ، ورفضه ، ومحاولة الهرب منه والغيبة عنه ، ولا تختلف معاقرة الخمر في صورتها الواقعية عنها في صورتها الفنية ، فهي في كلتا الحالين تنأى بصاحبها عن الواقع ، وتعزله عن مشاكله . وإلا فما ظنك بإنسان يضطرب عصره بجسام الأمور وهو غارق في حديث الخمر ووصف مجالسها ؟ وهل هو إلا إنسان يريد أن يخدر ذهنه بهذا الحديث يردده في سواه ، أو تردده عليه ؟

وما قولك في هذا الذي يرى الحياة ليست إلا السكر الفاضح الذي لا يقوى الإنسان معه على تحريك أعضائه على حد قول سيف الدين المشد :

ألا فاسقني الصهباء بالكأس والطاس ولا تخش من سكري فما بي من باس

فما العيش إلا أن أبيت طافحاً من السكر ما أشتال رجلي ولا راسي (2)

ربما سيقول : إنه من باب رياضة القول . وهبه ذاك ، أفليس فيه إشارة إلى ما يثقل مشاعر الشاعر وفكره ، بحيث يود أن يهرب من سعير العقل ولو استحال إلى جثة هامدة .

ونظرة سريعة إلى شعر الخمر في هذا العصر تقفنا على هذه الحقيقة ، فكلهم يشير إلى أن الكأس دواء همومه ، ومفتاح لبهجته ، فيراها صدر

---

(1) ديوان المشد ، ٩٢ .

(2) ديوان المشد ١٤ .

الدين ابن الوكيل كيمياء السعادة ، القيراط منها يذهب قنطارا من الحزن :

ولست الكيميا فى غيرها وجدت وكل ما قيل فى أبوابها كذب
قيراط خمر على قنطار من حزن يعود فى الحال أفراحا وينقلب (١)

ويحبها سيف الدين المشد لأنها على حد قوله تفرحه فى زمان المحن ، وهو يسعى إليها لأن العاقل لا يرفض السرور :

أحبُّ المدام لأن المدام تفرحنى فى زمان المحن
وكل امرىء عاقل فى الورى يحب السرور ويشنا الحزن(٢)

أما ابن نباته فيراها تقطع الطريق على الهم ، لذلك يلجأ إليها كلما حزبه الأمر ، ليجد متعته بين الخمر والساقى :

إنى إذا آنست هما طارقا عاجلت باللذات قطع طريقه
ودعوت ألفاظ المليح وكأسه فنعمت بين حديثه وعتيقه (٣)

وكلما لاح له جيش الهموم زحف بها عليه ، كأن الكئوس رايات :

راح زحفت على جيش الهموم بها حتى كأن سنا الأكواب رايات(٤)

ويراها بدر الدين البشتكى صابون الهموم :

وكنت إذا الحوادث دنستنى فزعت إلى المدامة والنديم
لأغسل بالكئوس الهم عنى لأن الخمر صابون الهموم (٥)

---

(١) حلبة الكميت : ص ١٠٩ .
(٢) ديوان المشد : ٦٨ .
(٣) حلبة الكميت ص ١٤ .
(٤) حلبة الكميت ص ١١٠ .
(٥) حلبة الكميت ص ١١٠ .

ويصفها ابن أبي حجلة بأنها تخفض لم الناصب ، وتجيد المسرة إلى الحزين

إن أنشبت فيك الهموم مخالبـا ... فاخفض برفع الكأس همّا ناصبـا

ما قطعت منها الندامى ليلـة ... إلا وصالوا بالمسرة قاطبـا (١)

ونرى في شعر العصر اشارات إلى ألوان الفساد التي يعج بها المجتمع فيقول سيف الدين المشد معرّضا بفساد أخلاق الناس :

إذا أحد الصالحون في لم صحبهم ... تناولت شكرى المنادم والكاس (٢)

ومحور هؤلاء الشعراء بعالم الحروب والسياسة ، فابن نباته يرى هذا الذى يشغل نفسه بوصف الحروب ، وما فيها من خيل وفرسان رجلا يضيع عمره في الوساوس وعليه أن يترك الخيل بكميتها ونهدها إلى نهود الغوانى ، وكميت الراح :

يا واصف الخيل بالكميت وبالنهد ... أرحني من طول وسواس

لا نهد إلا من صدر غانيـة ... ولا كميت إلا من الكاس (٣)

وإلى مثل ذلك يذهب فخر الدين بن مكانس حين يقول :

أوتارنا لربنا يا صاح ... أوتار عيدان الصبا الفصاح

والقوس قوس حاجب الملاح ... والبندق المحكى من التفاح

لست عصيما لأذى ألد

ثم يمضى فيقول :

تقول لخطى من بنى ... يبيك عن مقاتل الفرسان

(١) تأهيل الغريب النواجي ص ٢٢ .

(٢) ديوان المشد — ٣٤.

(٣) حلبة الكميت ص ٧ .

فالله به عن موقف الطعان ... وإن ذكرت الخيل في الميدان

فاشرب كميتا واصل فوق نهدي (١)

واستدت السخرية في شعر الخمر إلى عالم المناصب والجاه ، فالقيراطي يسخر بقاضي القضاة قائلا :

حبذا مجلس أنس ... ضمنا بعد شتات

مجلس يرقص فيه ... طربا قاضي القضاة (٢)

ويبعث ابن مكانس إلى صديقه سراج الدين الاسكندراني الذي ابتعد عن مجلسهم ، مؤثرا أحد المناصب فيقول :

لم ذا هجرت بني الآداب قاطبة ... لم اعتزلك لا أهل ولا ولد

قد صرت توحشهم بعداً وإن قربوا ... وكنت تؤنسهم قرباً وإن بعدوا

تركت عشرتهم لما رغبت إلى ... جاه طويل عريض زانه مسند

ما هكذا تفعل الدنيا بصاحبها ... فالناس بالناس والإخوان تفتقد (٣)

ثم بعد ذلك يأخذ في الفحش معرضا بهذا الجاه الطويل العريض .

بل ذهبت السخرية إلى أبعد من هذا فامتدت إلى المقدسات ، فهذا القيراطي يحج الصهباء ، ويقيم الصلاة لها :

نأتي إلى الحانات من أبوابها ... ونحج الصهباء عند ميقاتها

يا صاح قد نطق المزار مؤذنا ... أيليق بالأوتار طول سكاتها

فخذ ارتفاع الشمس من أقداحنا ... وأقم الصلاة لها في ميقاتها (٤)

---

(١) حلبة الكميت ص ٢٧٢ ، ٢٧٣ .
(٢) ديوان القيراطي ص ٧٥ .
(٣) ديوان ابن مكانس ص ٥٤ .
(٤) تأهيل الغريب للنواجي ص ق ٤ ب ، ٥ أ .

ويرى ابن مكانس أن كأسه حبلى بروح كريمة بشربها ملك الأفراح ، فهى البتول ، وهى البيت العتيق الذى يتبغى الحج إليه ، والطواف به :

وكأس غدت حبلى بروح كريمة بها ملك الأفراح جاءه مبشرا
يتول إذا الندمان أهدى رفيقة طرت لها ما فى فؤادى محررا
هى الخمر بوحا باسمها واتركا الكنى على مذهب الشرع النواسى واجهرا
وحجا إلى البيت العتيق بعرفه وطوفا به لكن على الشرب تؤجرا (١)

وفى أبيات أخرى يجعل من توقد الكأس نارا ، مستوحيا فى ذلك صورة النار المقدسة التى آنسها موسى عليه السلام ، مبينا أن هذه النار هى التى ينبغى أن يسعى إليها العارف لا نار الوغى التى يسعى إليها القدم القوى :

وتأنس منها نار أنس فعج بها ولايك منها حظ سعيك لن ترى
فتلك التى يمشو لها كل عارف ونار الوغى يعشو لها القدم والقرى (٢)

وهذه المجاهرة بشرب الخمر هى - بلا ريب - تحد للمجتمع ولقيمه الخلقية وهذا التحدى - كما يرى الدكتور النويهى - لون من ألوان الانتقام من النفس ، أو هو تملص صبيانى من المسئولية الخلقية سببه العجز عن مواجهة الحياة ، وتقبل أعبائها الثقيلة ، ولذلك يود شارب الخمر أن يعود طفلا لا يسأل عما يفعل . (٣)

ولعل هذا هو السر فيما نراه من طلب هؤلاء الشعراء الاستغراق فى السكر والخمر كما هو معروف تضعف الحاسة الخلقية ، وسورتها تكسب جرأة على

---

(١) ديوان ابن مكانس ص ٤٩ ، ٥٠ .
(٢) ديوا ابن مكانس ص ٤٨ ، ٤٩ .
(٣) نفسية أبى نواس ص ١٤٧ ، ١٤٨ ، ١٥١ د . محمد النويهى .

تحدى المجتمع ، والخروج على آداب السلوك المفروضة ، وهى جرأة رُبما لا يجدها الفرد فى حالة صحوه . (١)

إذن فما اللائم والعاذل اللذان يتحدث عنهما شعراء الخمر إلا تجسيداً لتقاليد المجتمع وآدابه وقيمه التى لا ينبغى أن يعصى لصوتهما شارب الخمر ، فهو ثائر عليها ، وعاص لها .

يقول سيف الدين المشد :

فعلتهـا واعطنيهـا مسـتمرا   ولا تصغ لمن فيها يلـوم (٢)

ويقول :

لا تسمعـن قـول مـن   لحـا ومن يسمع يخـل
وقـل لـه عنى اتئـد   فقد سبق السيف العـذل (٣)

ولو ذاق اللائم الخمر لما لام على حد قول صدر الدين بن الوكيل :

ومعنف فى الخمر لو قد ذاقهـا   ما لام لكنه ما ذاقهـا (٤).

ورأى طلاب الخمر فيها تعويضا عن الثروة والمال ، وماذا يطلبون ؟! الذهب ؟ .. الفضة ؟ .. العقيق ؟ ! إن كل أولئك فى الكأس ، الخمر ذهب ، وعقيق ، وحبابها در ...

أصبحت مـن أغنى الورى   وطالبـا بالعسـجد
الخمـر عندى ذهب   أكنـا لـه بالقـدح (٥).

---

(١) المرجع نفسه ص ١٠١ .
(٢) ديوان المشد ٣٨
(٣) ديوان المشد : ٨٤ .
(٤) حلبة الكميت : ٦١ .
(٥) حلبة الكميت ص ٩٢ .

ويقول :

صب في الكأس عقيقا فجرى	وطفا الدر عليه فسبح
نصب الساقي على حافاتها	شبك الفضة فاصطاد الفرح (١)

ويقول ابن نباتة :

عوض بكأسك ما أتلفت من نشب	فالكأس من فضة والراح من ذهب
واخطب إلى الشرب أم النعران مسبت	أخت المسرة واللهو ابنة العنب(٢)

ولا يندم ابن الوكيل على ماله الضائع إذا وجد الخمر :

إن فاتني الذهب المسكوك وانقرضت	عقود در عليها حلل عتبوا
فالخمر تبر تريني الدر من حبب	ترد ما فاتني وانقاد لي الطرب
راح بها راحتي في راحتي حصلت	ثم عجبي بها وانقاد لي العجب
إذ يتبع الدر من حلو ملاحظها	والتبر منسبك في الكأس منسكب
فالخمر تبر سروري والحباب به	در طفا ولآلي البحر قد رسبوا (٣)

وعلى هذا يمكننا القول بأن هؤلاء الشعراء رأوا في الخمر ومجالسها دنياهم المنشودة ، وعالمهم المفقود ، فإذا عزت الخمر ، وعز مجلسها فعلى الدنيا السلام كما يقول سيف الدين المشد :

إنما الدنيا مدام	وغناء وغلام
فإذا ما عز هذا	فعلى الدنيا السلام(٤)

---

(١) حلبة الكميت ص ٩٤ .
(٢) تأهيل الغريب النواجي ص ٣٥ ، الديوان ص٢١ .
(٣) حلبة الكميت ص ١٠٩ .
(٤) [illegible] ٤٣ .

وعلى هذا أيضا يمكن أن نضع أيدينا في أدب الخمر على الصورة المقابلة للواقع ، أو الصورة المفقودة فيه ، فإذا كان الواقع يرزح تحت الاستبداد والقهر فإن الخمر تعطى شاربها إحساسا بالحرية والسيادة والنبل . إنه يحس أنه يحلق فوق الواقع ، بل يحس أنه سيد الكون يملك أزمته ، كما يقول بدر الدين بن الصاحب في رسالته التي بعث بها إلى فخر الدين بن مكانس يحدثه عن الخمر :

«نديمها يحسب أنه جالس على السحاب ، وأنه أمير على كل أمير مهاب ، كأن الشمس والقمر في يديه ، بل كأنهما دينار ودرهم لإنفاق يعود عليه .

له همم لا منتهى لكبارها وهمته الصغرى أجل من الدهر

روحية لها بالكيمياء معرفة ، مع أنها بأدب المطالب متصفة ، فتارة تقلب الأحزان أفراحا ، ومرة تكتال لك من الذهب أقداحا ، نديمها يجد في نفسه مخايل المملكة ، ويكاد من شهامته يمد على الدنيا من لؤلؤها شبكة» . (١)

ويذهب ابن مكانس إلى قريب من ذلك في قوله :

إذا ما أديرت في حشا حسجلية بها كل ذى تاج وقصر تصورا
فحسبك نبلا في السيادة أن ترى نديمك في الكاسات كسرى وقيصرا (٢)

وإذا كانت علاقات الناس في دنيا الواقع تقوم على الغش والختل والخداع فإن الندامى في مجلس الخمر على العكس من ذلك ، يجمعهم الود ، ويؤلف بينهم الأنس ، فهم إخوان الصفا كما يقول ابن مكانس

---

(١) حلبة الكميت ص ٨٢ ، ٨٣ .
(٢) الديوان ص ٤٧ .

حى الروذبيق يجمعنى من صفـــا   أولئك الأشباح إخوان الصفا (١)

وهم – وإن داعب بعضهم بعضا بألفاظ ربما خرجت عن حدود اللياقة – لا يطوون على حقد وشحناء كما يقول :

باكرتها فى سراة من أصاحيبـــا   لا ينطوون على حقد وشحنـــاء
تداعبـــوا بمعانى شعـــرهم فـــأروا   ود الأحبة فى ألفاظ أعـــداء (٢)

وهم متأنقون ، مضيئو الوجوه ، تراهم فتحسبهم الكواكب الزهر ، أو الأزهار المتفتحة ، تنساب كلماتهم عذبة كالماء الزلال ، ويتحركون فى خفة النسيم ، لا يعرف الهم إليهم سبيلا ، إنما هم بين لحن شجى ، أو شعر رائق أو نادرة طريفة ، لا يعربدون ، بل ترى لهم سكينة ووقارا كلما دارت عليهم الكأس ، ثم هم لا يكلفون جليسهم فوق طاقته . يقول سيف الدين المشد

ونـــدامى مثـــل الكـــواكب زهـــر   تجتلى النفس منهـــم أزهـــارا
يتجـــارون كالـــزلال نشـــاوى   ويهبـــون كالنسيـــم ســـكارى
يـــوردون الأخبار طـــورا وطورا   ينشـــدون الألحـــان والأشعـــارا
كلـــما دارت الكئـــوس عليهـــم   ألبستهـــم سكينـــة ووقـــارا
لا تراهـــم مكلفـــين جليســـا   صرف راح ولا كئوسا كبارا (٣)

ونزوع هؤلاء الندمان إلى التأنق والجمال فى الملبس والمجلس إنما هو فيما أعتقد رد فعل لما يحسونه من قبح الواقع ودمامته بما استشرى فيه من ألوان الزيف والفساد ، ولذلك فهم فى نزوعهم ذلك إنما يسمون إلى خلق واقـع

---

(١) حلبة الكميت ص ٢٧٣ .
(٢) حلبة الكميت ص ٢٣٣ .
(٣) ديوان المشد : ٢٧ .

جديد ، ويشربون فيه ولو سويعات معدودة ، ويحتمون بظلاله الحانية من هجير الحياة ، وكأنهم لا يريدون لمجالسهم تلك أن يتسرب إليها شيء من حقائق الحياة المزعجة ، ومن ثم نراهم يضعون آدابا معينة لمجالسهم ، وهذا خصوصا ينبغي أن يلتزم به الندمان .

يقول النواجي في صفة النديم :

«وينبغي أن يكون حسن البزة ، نبيل الهمة ، نظيف الكف ، نقي الظفر ، متعاهدا لتقليمه ، وتخليل أصابعه ، وغسل يديه ومعصميه ، وتسريح لحيته عطر البشرة ، نظيف الوجه والشارب والأنف ، نقي الجبين ، مستعملا للسواك نظيف الثياب ، خصوصا عمامته ، لأن العين كثيرا ما تقع عليها ، مسبول الذيل وأطراف الأكمام ، نظيف الخفى من الملبس كالقلنسوة والسراويل والتكة والخف والمنديل متطيبا بالبخور العالية» . (١)

ويذهب فخر الدين بن مكانس إلى أبعد من هذا في أرجوزته «عمدة الحرفا وقدوة الظرفاء» التي نظمها في آداب النديم ، فيبين للنديم ما ينبغي أن يقوله من كلام :

وقل من الكلام ما لاق بالمدام
كرائق الأشعار وطيب الأخبار
واترك كلام السفلة والنكتة المبتذلة

ويحذره من أن يكون ثقيلا على إخوانه :

وان دعوك الإخوة إلى ارتشاف القهوة

---

(١) حلبة الكميت ص ٧٥ .

فلا تصفع فتضحك ... ولا تزرهم بابتسامك

ولا بجـار الـدار ... ولا بشخص طـارى

ولا بخل ثاقبه ... ولا صديق تعرفه

ولا تقل لمن يحب ... ضيف الكرام يصطحب

نهله أشكال ... غائبها محال

ثم يختم أرجوزته بتحذير من منادمة الأتراك ، فيصور التركي إذا لعبت برأسه الخمر ، مسقطا عليه كل مشاعر الناس تجاه هذا الجنس . وكأنه يرى أن مجلس الخمر ، ذلك الحلم الحسد . يجب أن يخلو من مثل هذا التركي ، بحسبه وحسب أبناء جنسه ما يعربدون في دنيا الناس :

وإن صحبت تركيا ... فاصبر لأكل الصك

هذا إذا تلطفا ... ولم يكن فيه جفا

وإن يكن ذا عربده ... أو نزعة منكده

يقوم للجلوس ... بالسيف والدبوس

أبشر بقتل القوم ... وشؤم ذاك اليوم

إن رام منك المسخره ... فانهض إلى المبادره

واجعل له معرضا ... وإلا قتلت يا خصا

وسبه واحتقر وقد ... وإن خلصت لا تعد

فالشؤم في الهياج ... والحر لا يناجي

وهذه الوصيه ... للأنفس الزكيه

أنظرها لفتى ... والعوفى وبحتى(١)

---

(١) الأرجوزة بتمامها في حلية الكميت النواجي ص ٣٤٠ — ٣٤٢ .

وهرع هؤلاء الشعراء إلى الطبيعة بحدائقها وطيورها وزهورها يلتمسون فيها الخيال البكر ، أو البكارة المفقودة فى واقعهم ، أو لعل يحتمون بصدرها من قيظ العالم ورمضائه كما يقول فخر الدين بن مكانس مخاطبا تلك الشجرة التى قصدها هو وأصحابه للشراب :

وكم نزلنا مقيلا عندك ما حمى الهجير إذ حيث لا مرأى لحرباء

نظل من فيئك الفضفاض فى ظلل   من الغمام يقينا كل ضراء

يا طلحة بدواء القيظ عالمة   أنت الشفاء من الرمضا الذى الداء(١)

فلا عجب إذن ألا يحلو السمر إلا فى رحاب الطبيعة ، تحت أشجارها ، وعلى مسمع من غناء أطيارها يقول سيف الدين المشد :

دعانا لشرب الراح بين الحدائق   فواقع طل فى كئوس شقائق

وغنت لنا الأطيار فوق غصونها   فأغنينا من معبد ومخارق

فقمنا إليها نجتليها مدامة   كأن سناها فى الدجى لمع بارق

يطوف بها من خده وعذاره   جديدان لكن أبليا كل عاشق(٢)

ونقف فى شعر القيراطى على صورة ذلك الروض الذى غردت طيوره ، وشدت بأغانيها المطربة :

وللروض الزهر عود   تحت ورق غردات

تتغنى بأصول   فى فروع الشجرات

حبذا تلك أصول   جمعت فى ورقات

---

(١) حلبة الكميت ص ٢١٢ .
(٢) ديوان المشد ص ١١ .

وشدا من أصبهـان بالأغـانى المطربـات
قلت إذ حرك عودا عازفا بالنغمـات
أنت مفتاح سرورى يا سعيد الحركات (١)

ولكى تتم للمجلس بهجته حرص أولئك الشرب أن يصحبوا إلى مجلسهم السقاة والصبيات من الغلمان الملاح ، والجوارى الحسان ، يقول سيف الدين المشد فى واحد من هؤلاء السقاة .

ساق تجمل كأنه قمـر يحمل شمسا أفديه من ساق
شمر عن ساقه غلائلـه فقلت مهلا واكشف عن الباق
لما رآنى وقد فتنت بـه من فرط وجدى وعظم أشواقى
غنى وكأس المدام فى يده دارت حروب الهوى على ساق (٢)

ويورى المشد فى كلمة «ساق» فى البيت الأخير إذ يقصد ساق الخمر الذى فتن به الندمان .

ويصور شهاب الدين محمود ساقيا آخر لين الأعطاف ، مضىء الوجه ، ساحر النظرة :

وقام فانثنت الأغصان تأمل أن تحكى معاطفه لينا فلم تطق
وجاء يسعى بها حمراء قابلها بوجهه فبدت شمسان فى أفق
بكر حبتها ثناياه الحباب كما خداه ألقت عليها حمرة الشفق
وقال دونكها إن شئت من قدحى أو من لى شفتى الساقى أو حدق (٣)

---

(١) ديوان الخياط ص ٧٥ .
(٢) نهاية الأرب جـ ٢ / ص ١٠٠
(٣) روض الآداب ص ٨٤ .

وبعد فتلك إطلالة على أدب الخمر . ومحاولة لسبر غوره ، ولعلنا نكون قد وصلنا إلى تصور يفسر لنا لم احتل هذا اللون حيزا غير قليل من أدب هذا العصر .

(ب) الحشيشة :

وكان للحشيشة شأنها فى مجالس اللهو ، أقبل على تعاطيها طلاب الملاعة ورأوا فيها عوضا عن الخمر ، وسموها مدامة حيدر نسبة إلى فقير صوفى من خراسان يدعى الشيخ «حيدر» زعموا أنه كان أول الواقفين على سرها . (١) وسموها أيضا «خمر الفقراء» لرخص ثمنها إذ ذاك . وربما كان من أسباب إقبال طلاب اللهو عليها أن المذاهب الإسلامية لم تنص على تحريمها كما نصت على تحريم الخمر .

ومع ذلك فقد تشدد بعض سلاطين المماليك فى محاربة الحشيشة ، وتعقب مدمنيها ، لما لها من آثار سيئة عليهم إذ تنهك قواهم . وتضعف عقولهم . ويشير محيى الدين بن عبد الظاهر إلى هذا الأثر السيء فى رسالته التى كتبها فى إبطال الحشيشة بعد الخمر ، وذلك إذ يقول :

«وأن أم الخبائث ما عقمت . وأن الجماعة التى كانت ترضع ثدى الكأس عن ثديها ما فطمت . وأنها فى النشوة ما خيب إبليس مسعاها ، وأنه لما أخرج المنع عنها ماء الخمر أخرج لها من الحشيش مرعاها ، وأنها استراحت من الجمار ، واستعنت بما تشتريه بدرهم عما كانت تبتاعه من الخمر بدينار ، وأن ذلك فشا فى كثير من الناس . وعرف فى عيونهم ما يعرف من الاحمرار فى

---

(١) د. محمد كامل حسين . دراسات فى الشعر فى عصر الأيوبيين ص ١٠٤ .

الكاس ، وساروا كأنهم خشب مسندة سكرا ، وإذا مشوا يقدمون عقولهم رجلا ويؤخرون أخرى ، ونحن نأمر بأن تجتث أصولها وتقتلع ، ويؤدب غارسها حتى يحصد الندامة مما زرع ، وتطهر منها المساجد والجوامع ، ويشهر مستعملها في المحافل والمجامع ، حتى تنتبه العيون من هذا الوسن ، وحتى لا تشتهى بعدها خضراء ولا خضراء الدمن» . (١)

فابن عبد الظاهر يشير في هذه الرسالة إلى اقبال الناس على الحشيشة بعد تحريم الخمر ، ويشير إلى رخص ثمنها ، ويصف ما تفعله الحشيشة بمدمنها من تخدير حتى يمشى مختلط العقل ، مرتعش الخطو ، كما تشير هذه الرسالة إلى أن الناس كانوا لا يتورعون عن تعاطى هذا المنكر في المساجد .

ويذكر ابن دانيال ذلك الاصفرار الذى تتركه الحشيشة في وجوه أصحابها ، وذلك في معرض حديثه عن محبوبه الذى أدمنها فيقول :

حبيبى ما عابه اصفرار	كلا ولا شمله انحلال
وما ارتضى الحشيش إلا	لتعلموا أنه غزال (٢)

وسبق القول بتفشى هذا الداء في مجتمعات الصوفية ، وربما رأى بعض جهلتهم فيها ما يعينهم على ما يطمحون إليه من مواجيد وأحوال .

ويبدو أن هذا الداء انتشر أيضا في مجتمعات النساء ، وربما دل على ذلك ما نراه من قول ابن الوردى في مليحة مسطولة :

مليحة مسطولة إن لمتها فيما جرى

---

(١) ثمرات الأوراق لابن حجة ص ١٣٢ .
(٢) التذكرة الصفدية جـ ١٤ ص ٩٨ .

تقـــول كـل غليـــة   ترى الحشيش الأخضرا (١)

وهكذا نرى للحشيشة نصيبها من نتاج هذا العصر الأدبى ، إذ حظيت من حديث الشعراء بقسم لا بأس به ، فغنوا بها كما تغنوا بالخمر ، ووصفوا فعلها وسطوتها بشاربها ، فابن الوحيد الزرعى يبين أن فعلها لا يقل عن فعل الخمر ، وذلك إذ يقول :

وخضراء لا الحمراء تفعل فعلها   لهـا وثبات فى الحشا وثبـــات

تؤجج نارا فى الحشا وهى جنــــة   وتبدى مرير الطعم وهى نبات (٢)

ويحذر ابن دانيال صحبه من سطوة الحشيشة ، وما تتركه من سكر فيقول :

أقول لصحبى والحشيشة قد سطت   عليهم ، وأبدت منهم أعينا حمرا

خلوا حذركم من سكر خمرة حيدر   فقد جاء حقا فى كنية الخضرا (٣)

وأصبحت المفاضلة بين الحشيشة والخمر محورا لشعر بعض الشعراء فمنهم من ذهب إلى تفضيل الخمر معددا محاسنها ، مصورا مقابح الحشيشة ، ومنهم من ذهب إلى عكس ذلك .

فممن ذهب إلى تفضيل الخمر ابن البقى ، ونراه يأخذ فى ثلب الحشيشة ، ويصف جنايتها على صاحبها ، وذلك فى قوله :

لحـــا الله الحشيش وآكليهـــــا   لقد خبثت كما طاب السلاف

كما يصبى كـذا تضنى ، وتشقى   كما يشفى ، وغايتهـا انحراف

وأصغر دائهـا والـــداء جـــــم   بغـاء أو جنـون أو نشـاف (٤)

---

(١) روض الآداب ص ١٥٥ .

(٢) الوافى بالوفيات جـ ٣ / ص ١٥١ .

(٣) التذكرة الصفدية جـ ١٤ ص ٦٠ .

(٤) فوات الوفيات جـ ١ ص ٢٤٥ .

وإلى ذلك أيضا ذهب ابن الأرمنتي في قوله :

واصبر لي حتى تراني ميتـــــا	إن موت السكر للنفس حياهـــــا
ليس في الأرض نبـــات أنبتـــت	فيـــه سر حير العقل ســـــواها
راحت الخضراء تحكـــي سكرها	قلوها بعد تقطيع قماشـــــا (١)

أما الذين ذهبوا إلى تفضيل الحشيشة فمنهم ابن دانيال ، إذ يقول :

قبل الذي ترك الحشيشة جاهـلا	وله بكاســـات المــدام ولـــوع
إن المدامـــة إن أردت تطربـــــا	فهي الحرم والحشيش ربيـــع (٢)

وربما تصور لنا هذه المفاضلة ما كان يدور من جدل بين أرباب اللهو من أصحاب الحشيشة ، وبين أربابه من أصحاب الخمر ، فيذهب كل فريق إلى تحسين مذهبه وتقبيح مذهب مخالفيه . ومن أطرف ما قيل في ذلك قصيدتان النور الاسعردي ، ذهب في إحداهما إلى ذم الخمر ، وتفضيل الحشيش ، وذهب في الأخرى إلى تفضيل الخمر وذم الحشيش . فيقول في الأولى مفضلا الحشيش

دع الخمر لا تسمع كلام مفنـــد	ودونك في ختيـــاك غير مقلـــد
سألت عن الخضراء والخمر فاستمع	مقـــالة ذي رأي مصيب مســـدد
وحقك ما بالخمر بعض صفاتهـــا	أتشرب جهرا في رباط ومسجد؟!
عليك بها خضراء غير مبالـــغ	بأبيض ورق أو بأحمر عسجـد
ولكن على رغم المـــدام عليـــة	تنزه عن بيع بغيـــر التزهـــد

ثم يأخذ في ذكر مناقب الحشيشة فيبين كيف أن لونها يحكي لون الجنان ، وكيف تبوح بأسرار الجمال ، وكيف تتيح للروح أن ترقى في معراج التجرد

---

(١) الطالع السعيد ص ٦٨٦ ، ٦٨٧ .

(٢) التذكرة الصفدية جـ ١٤ ص ٦٠ .

فضلا عن ذلك فهي خفيفة على المعدة ، لا تتعب البدن ، ولا تسيب القيء ، ولا تستخف العقل ، لا يزهدك فيها يسر ، ولا يصدك عنها عسر ، فهي زهيدة الثمن ، سهلة الحمل ، والأهم من ذلك أنه لا حد عليها ، ولا أذى على شاربها ، لا تدهمه كبسات الحياة ، ويسلم من جور الولاة ، أما الخمر فهي كالمارج المتوقد ، مدنسة الدنان بالقار ، كم داسوها بأرجلهم عند عصرها ، وكم تعرض شاربها للإثم والأذى :

رياضية تحكي الجنان اخضرارها   وخمرهم كالمــارج المتوقــــد
مدامهم تنسى المعـــانى وهـــذه   تذكر أسرار الجمـــال الموحد
هي السر ترقى الـــروح فيها إلى ذرى المعـــالم في معـــراج لهـــم مجـــرد
بل الروح حقا لا يحل بربعهـــا   هموم ، ولا يحظى بها غير مهتدى
ولا داسهـــا العصـــار عمـــدا ودس الدنـــان بمختوم من القار أســـود
ولا تتعب الأبدان عند نزالهـــا   ولى القيء إذ تبلو كحرق ممدد
ولا تستخف النـــاس عقـــل شاربيهم   لعمرى ولا تنمى لديهم بمعـــد
وفي طرف المنديل يومـــا وعاؤها   ويحتاش من حمل الزجاجة باليد
وتشربها في العسر واليسر دائمـــا   ولا تتقى فيهـــا ليـــالى التعبـــد
وتأمن كبسات الحيـــاة وكيدهم   وتسلم من جور الولاة ولا تـــدى

ويمضي الاسعردى فيصف تطويع الحشيشة للمشوق النافر ، مفضـــلا مجلسها على مجلس الخمر ، ولا سيما إن كان النديم ذاك الغزال المأود القد ، الجيد للغناء ، الفاهم لأسرار الشعر :

وإن ذاقهـــا المعشوق وافاك خلسة   من الحاسد الواشي على غير موعد
ومن فضلها في الطيب جودة مضغها   وهيهات يحصى فضلهـــا لمعـــدد

ولا سيما إن كان فيها منــــادم   غزال كغصن البانـــة المتــــأود
ينـــادم بالشعر اللطيف وتــــارة   يغنى فيزرى بالحمـــام المغـــرد

إلا أن الإسعردى يعود فى قصيدته الثانية فينقض كل ذلك . ويصم أصحاب الحشيشة بأنهم دواب ، ويبين أن الحشيشة تكسو صاحبها المهانة ، وتـترك آثارها على وجهه المختل ، وتفسد ذهنه . أما الخمر فهى تكسو الذليل مهابه ، وتجلو الهم ، وتورد الخدود ، ومناقبها لا تحصى ، ويكفيك من أمرها أنها شراب الملوك ، وموصوفة الشعراء ، ومجلسها عامر بالألحان ، مفرد الأوتار :

فلبيك نور الحق قد لاح فاهتـــد   بديعى وكن فى اللهو غير مقلـــد
أترضى بأن تمسى شبيه بهيمـــــة   بأكل حشيش يابس غير أرغـــد
فدع رأى قوم كالدواب ولا تدر   سوى درة كالكوكب المتوقـــد
مـــدامة إذا ما لاح للركب نورها   وقد ضل ليلا عاد بالنور يهتـــدى
حشيشتهم تكسو المهيب مهانـــــة   فتلقاه مثل القاتـــل المتعمـــــــد
ويبدو على خديه حال اخضرارها   فيضحى بوجه مظلم اللـــون أربـــد
وتفسد من ذهن النديم خيالـــــه   فينظر مبيض الصباح كأســـــود
وخمرتنا تكسو الذليـــل مهابـــــة   وعزا فتلقى دونـــه كـــل ســـيد
وتجلى لمجلوها كـــل مـــــنـــادم   ويروى بها من شربها قلبه الصدى
وتبـــدو فيبـــدو ســـره وتسره   فيشبهـــا لونـــا خـــد مـــورد
وفيها على رغم الحشيش منافـــع   تقـــل فى معانيهـــا وصفها وعـــدد
وفى غيرها النـــاس كـــل مضـــرة
شهدت بكل السوء عن وصفهـــا الردى
وحقك مـــا ذاق الحشيش خليفـــة   ولا مـــلك فاق الأنـــام بســـؤدد
ولا جد فى وصف لها قط شاعر   بتحبيـــر ألفـــاظ كألحـــان معبـــد

ولم تضرب الأوتار في مجلس لهــا ومادالك إلا الشراب المــورد (١)

ومهما كان من أمر فقد تركت الحشيشة ظلها على أدب هذا العصر ، وحركت قرائح بعض الشعراء بقول لا يخلو بعضه من متعة .

(ﺟ) الشذوذ والغلمان :

تفشت هذه الظاهرة في المجتمعات الإسلامية منذ منتصف القرن الثاني الهجري ، وتصدى لها بالتحليل الدكتور محمد النويهي في معرض حديثه عن نفسية أبي نواس ، وأشار إلى شيوعها في كثير من الحضارات الإنسانيــة كالحضارة المصرية القديمة ، والحضارة الإغريقية ، ورأى أن أهل تــلك الحضارات ربما رأوا في ميل الرجل الرجل قيما نبيلة ، ووضعوه في مرتبة أرفع من حب الرجل للمرأة . (٢) وحينما انتهى الدكتور النويهي إلى الحضارة — الإسلامية في القرن الثاني ، وما ابتليت به من هذا الداء عزا ذلك إلى بلــوغ هذه الحضارة طورا من النضج بدأ بعده الاعتلال يطرق إليها نتيجة لأسباب كثيرة ، منها اختلاط عدد كبير من الأجناس البشرية المختلفة فيما بينها اختلاطا عظيما . (٣)

ويعترض أستاذنا الدكتور محمد مصطفى هدارة على الدكتور النويهي في محاولته — من طرف خفي — أن يبرر شذوذ أبي نواس بأنه شيء نبيــل متحضر ، ويذهب إلى أن هذا الشذوذ لا يمثل التحضر ، وإنما يمثل قمة الفساد المادي وبداية السقوط والانحدار . (٤) ويرى أن أسباب تفشي هذه الظاهرة

---

(١) التصنيف في خزانة الزيات حـ ٢ ص ٢٧٤ — ٢٧٥ .
(٢) نفسية أبي نواس ص ٧٢ .
(٣) المرجع نفسه ص ٨٧ ، ٨٨ .
(٤) الشعر العربي في القرن الثاني الهجري ص ٣٣٤ ط ١٩٦٨ .

وفرة الجوارى وشيوع التهتك والخلاعة بينهن مما أدى إلى الزهد فى المـرأة ومحاولة اقتناص اللذة من طريق آخر ، هذا فضلا عن مجالس الشراب وما كان فيها من سقاة على جانب من الجمال والخلاعة . (١)

ومهما يكن من أمر فقد تفشت هذه الظاهرة ، وأخذت فى النمو والانتشار وكانت هناك عوامل تغذيها وتمدها بالحياة . يقول أستاذنا الدكتور محمـد زغلول سلام فى معرض حديثه عن الغزل بالمذكر فى العصر الأيوبى : «وربما كان سبب انتشار هذا اللون من الغزل يرجع إلى سبى الحروب من غلمان الفرنج ، وما كان يجلبه تجار الرقيق من أطفال الأتراك من أصقاع آسيا ، وأصبح هؤلاء بملاحتهم موضع القرب من الناس . حتى الأمراء والسلاطين ، بل الفقهاء والعلماء لم يزعهم الدين والتقية عن أن يصطحبوا الغلمان الصبـاح الوجوه فى مجالسهم» . (٢)

فإذا وصلنا إلى العصر المملوكى رأينا هذه الظاهرة قد بلغت ذروتها ، ورأينا الروافد التى تغذيها متدفقة نشطة ، فهناك أسواق النخاسة التى تقذف كل يوم بأجناس وأجناس من الغلمان ، وهناك سبى الحروب ، وهناك الطوائف الوافدة مثل الأويراتية ، تلك الطائفة التترية التى وفدت على مصر فى عهـد كتبغا ، فأسكنها الحسينية ، وعرف غلمانها بالجمال حتى كان يقال البـدر فلان ، والبدر فلان ، وقد بهر هذا الجمال واحدا من المتصوفة هو تقى الدين السروجى ، فتن به ، وتدله بحى الحسينية وسكانه ، ونرى صورة من هذا التدله فى قوله :

---

(١) المرجع نفسه ص ٣٢٥ .
(٢) الأدب فى العصر الأيوبى ص ٢٢٨ ، ٢٢٩ ط ١٩٨٠ .

يا صاحبي الشوق الذي مذ جرى ... جرت دموعي فهي أعوانه
خلّ جوابي عن كتابي الذي ... إلى الحسينية عنوانه
فهي كما قد قيل وادي النقا ... وأهلها في الحسن غزلانه
امش قليلا وانعطف يسرة ... يلقاك درب طال بنيانه
واقصد بصدر الدرب دار الذي ... محسنه محسن جيرانه
سلم وقل : «عشى من كي مش ... أشت محبتا طال كتّابه
وكلكم كزم سلوم امش المكي» ... فحبه أنت وأشجانه
واسأل لي الوصل فإن قال «يوق» ... فقل «أرات» قد طال هجرانه
وكن صديقي واقض لي حاجة ... فشكر ما عندي وشكرانه (١)

وقد ذهب السروجي إلى ترصيع أبياته ببعض الألفاظ التركية التي يفهمها معظم القرّاء .

ولعل الغريب أن ظاهرة الشذوذ لم تعد تقتصر على ميل الرجال إلى الرجال ، بل تعدى الأمر ذلك إلى النساء فمالت المرأة إلى المرأة ، الأمر الذي دفع سيف الدين المشد أن يصرح في أسى :

بطل التناسل في الورى ... من غير شك وامتراء
فإذا الرجال مع الرجال ... كذا النساء مع النساء
مما يدل على الفنا ... ء به وحسبك من فناء (٢)

ولاشك أن زهد الرجل في المرأة يقابله زهد المرأة في الرجل ، أو عنها عن طريق أخرى تشبع نهمها الجنسي ، وقد سجل ابن دانيال في كثير من

(١) فوات الوفيات جـ ٢ ص ١٩٩ .
(٢) الديوان ، ١٢ .

أشعاره ظاهرة الشذوذ الجنسي بين النساء ، ولكن القلم يعف عن كتابة شيء من هذه الأشعار لما تفيض به من عهر وتهتك .

وربما كان من أسباب هذه الظاهرة بين النساء وجود مجتمعات نسائية خاصة تمثلت في الأديرة الخاصة بالنساء ، وبعض الخوانق ، وبعض المدارس وقد ألمح إلى هذه الظاهرة في مدارس النساء ابن الطفال في واحدة من مشهور بلاليقه يقول فيها :

في ذي المدرسـه ‏ ‏ جماعة نسـا
إذا أمسى المسـا ‏ ‏ تـرى فرقعـه

......

تـا ذا الزمـان ‏ ‏ عجيب يا فلان
يكونوا ثمان ‏ ‏ يصيروا اربعة (١)

وقد وقف بعض الأدباء من ظاهرة الشذوذ الجنسي موقف التهجين ، وسلطوا عليها ألسنتهم الساخرة التي تسلك إلى النقد مسلكا فيه الضحك الممتزج بالإنكار . ومن مثل ذلك ما نراه في قول سيف الدين المشد ساخرا بأحد الكتاب :

وغانية باتت تلاعب كاتبا ‏ ‏ به ابنة زادت على كل معهود
فقلت له لما رأته مؤنبا ‏ ‏ ثكلتك ما هذا الفعل بمحمود
فقال : لقد جربت هذا وهذه ‏ ‏ فما لذ لي غير التحول من السود
تعوضت عن سلمى بسالم وانثنى ‏ ‏ فؤادي عن سعدى بسعد ومسعود (٢)

---

(١) الطالع السعيد ص ٤٥٦ ، ٤٥٧ .
(٢) الديوان : ٣٤ .

ويسخر ابن دانيال من أحد من هؤلاء فتى بعد أسود فيقول :

عاتبت أبيض لون تحت أسوده ... فقال حسبك ما قالوه في المثل

وإن علاني من دوني فلا عجب ... لي أسوة بانحطاط الشمس عن زحل (١)

ويعبث الوراق في السخرية برجل فتنه أيضا حب العبيد فيقول :

ما كنت أعرف في فلان حالة ... تدعو لحب الأسود الغربيب

حتى رأيت محل سعد عنده ... فرأيت كل غريبة وغريب

ورأيته فرحا به في غاية ... ومقطبا لي غاية التقطيب

فسألت بعض الحاضرين فقال لي ... حاشاك يعزب عنك فهم أديب

أو ليس سعد أسودا غض الصبا ... أو لست أبيض في خليع مشيب

فأجبته حتى كلامي عنده ... يلغي وسعد لم يكن بأديب

وكلامه المسموع قال أطاعتما المسموع عند الشيخ الالثوى (٢)

ويجعل ابن الصائغ الحنفي من نفسه محور السخرية في نقده لهذه الظاهرة وذلك إذ يقول :

قال لي خل تزوج تسترح ... من أذى الفقر وتستغني يقينا

قلت دع نصحك واعلم أنني ... لم أضع بين ظهور المسلمينا (٣)

ويشير الجزار — في تهكم — إلى ظاهرة احتراف الشواذ لهذه الطريق ، متخذين منها سبيلا للكسب فيقول :

قلت له : هل لك من حرفة ... تعيش بها بين الورى أو سبب

(١) روض الآداب ص ٢٨٧ .
(٢) فوات الوفيات ج ٢ ص ١٤٣ .
(٣) روض الآداب ص ٢٨٦ .

فقال يعنيني ردف السلس   أعوه عشاق تليل السلعب (١)

ونفهم من قول بدر الدين البشتكي ما كان يلجأ إليه هؤلاء الشواذ من تزين وتجمل ، وطرق ذلك أساليبهم وطرقهم :

أقــول لســالف خديـــه مهــلا   أترضى اللاثمين مدى الدهــر
فــدع تلك العــوارض عنــك كيما   تنــال بلحيـــه مثــل الحريــر(٢)

والأمر الذي لاشك فيه أن هذه الظاهرة تركت آثارا قوية على السلوك الجمالي للعصر ، وانعكس ذلك بدوره على الأدب ، فرأينا أن التغني بجمال الغلمان ، أو التغزل بالمذكر قد احتل مساحة واسعة من غزليات هذا العصر . ولا نبالغ إذا قلنا : ان المرأة قد تضاءل نصيبها من الغزل إذا قيس بما انساق إليه الأدباء من الفتنة بالجمال المذكر ، ويكفي للدلالة على ذلك أن نشير إلى أن هناك بعض المصنفات الأدبية وضعت خصيصا لذلك ، فالصفدي يقصر مصنفه «الحسن الصريح في وصف مائة مليح» على التغزل بالغلمان ، والشهاب الحجازي يفرد في كتابه «روض الآداب» بابا كاملا يضمنه غزل المذكر هذا فضلا عما تناثر منه في سائر الأبواب . ونندر أن نرى شاعرا أو كاتبا لم يدل بدلوه في هذا المجال ، قل إنه من باب رياضة القول ، قل : إنه من قبيل التظرف والتفكه ، قل كيفما شئت ، ولكننا في النهاية لا نستطيع إلا أن نقرر أن ذلك لم يكن إلا استجابة لذوق العصر ، ومجاراة لقيمه الجمالية السائدة .

إذن فقد حل التغزل بالمذكر على التغزل بالمرأة في كثير من نتاج هذا العصر ، فافتتح به الشعراء قصائدهم ، وأفردوا له المقطعات ، والقصائد الخاصة به ، وتبايتت

(١) ثمرات الأوراق ج ١ ص ٥٢ .
(٢) المنهل الصافي جـ ٣ / ورقة ٥٢ .

مناحي القول فيه ، كما تباينت مناحي القول في الغزل الأنثوي ، فهناك منه الحسي الذي ينشد المتعة واللذة ، وهناك ما يحلق في آفاق علوية يبكي الصد والهجران ، ويجد في اللقاء حياة ، وفي البعد موتا وهلاكا .

فمن اللون الحسي ما نقرؤه من قول سيف الدين المشد ، يخاطب صاحبه في لهجة داعرة متبذلة :

لا تزيد مالك اليوم حظوه   أنت تدري بأن عندي قسوه

لا تقل إنني كبرت وكرشت   وقد صار عند نفسي نخوه

أنت ذاك الذي عهدت زمانا   تمشي معي إلى كل دعوه

كم رقدنا في كل سطح حمام   وصرنا من بعد ذاك نخلوه

أنت تمم عاضما لدى ولا   لست من ماتني أخذتك عنوه (١)

فها نحن نراه يريد أن يغتصب اللذة اغتصابا . غير متورع أن يذكر صاحبه بما قد يكون سببه من أمر هذه العلاقة الفاحشة .

وفي أبيات أخرى له يصرح بحاجته ، ويطلب من صاحبه قضاءها :

يا هلالا إذا بدا   وقضيبا إذا خطر

وغزالا إذا شدا   وغزالا إذا نظر

بي إليك حاجة   أنا منها على خطر

قبلة ثم نهلة   من رضاب به خصر

فاقضها أقض سيدي   من زماني بها وطر (٢)

وكثيرا ما يكون السقاة في مجالس الشراب موضوعا لهذا اللون الحسي من

---

(١) الديوان : ٤٦ .

(٢) الديوان : ٢٢ .

المنزل ، وهم يطوفون بالكؤوس على قوم أذهبت عقولهم الخمر ، ونرى مثلا لذلك في قول ابن نباته :

كأنها في أكف الطائفين بها ... نار تطوف بها في الأرض جنات
من كل أصيد في دينار وجنته ... توزعت من قلوب الناس حبات
مبلبل الصدغ طوع الوصل منعطف ... كأن أصداغه للعطف واوات
رنحت وهي في كفيه من طرب ... حتى لقد رقصت تلك الزجاجات
وقمت أشرب من فيه ونغمته ... شربا تثنى به في العقل خارات
وينزل اللثم عنه ينشدها ... هي المنازل لي فيها علامات (١)

أما ذلك اللون الأخضر الذي يبدو وكأنه يحلق في آفاق علوية مسمع صدى منه في قول القيراطي :

في لام خدك عذال الهوى هاموا ... يا من لا له لام ولا هاء
وحاربوني فما لاحت لأعينهم ... واو من الصدغ يعلو عطفها فاء
جاءوا يرومون سلواني بجهلهم ... عن الحبيب فراحوا مثلما جاءوا
قالوا اسل عنه أما شاهدت عارضه ... في الخد أخضر قلت النفس خضراء
وكيف يقبل منهم عاشق عذلا ... والعاذلون لأهل العشق أعداء
غنا عذول أطال اللوم في قمر ... فإنه بين أهل العشق عواء
من لي بأهيف صار الحافظ له ... ميل إلى تلف المضنى وإيماء
للغصن في الروض إطراق لديه كما ... للنرجس الغض من جفنيه إغضاء
وفي محياه إن شاهدت طلعته ... نار وماء ولا نار ولا ماء
وللزمان امتزاج في محاسنه ... فالثغر والشعر إصباح وإمساء

---

(١) الديوان ، ٦٨ .

عشاق حبيه ترميهم بأسهمها	فما تصيبهم إلا بما شاءوا
ساجى اللواحظ لولا سحر مقلته	ما كان لى بثياب السقم إحصاء
وسنان قلت إذا أشكو له سهرى	يا ناعس الطرف ما للعين إغفاء
انظر إلى بعين قد قتلت بها	وداونى بالتى كانت هى الداء (١)

فالقيراطى وإن كان قد ألم بصفات معشوقه الجسدية من لين العطف ، وسحر عيونه ، وتورد الخد ، لم يهبط فى علاقته إلى أرض الشهوة ، وإنما حاول أن يحلق فوق مطالب الجسد ، مبينا صدق عاطفته ، وطول سهره ، وسقمه الذى يضنيه ، وهذه الأنفاس هى التى تلفحنا فيما نقرؤه من أشعار العذريين ، وهذه الروح الضارعة هى روحهم .

وكما ترك حب الغلمان آثاره الواضحة على شعر هذا العصر ترك آثاره أيضا على النثر ، فصار الغلمان محورا لبعض الكتابات النثرية ومما وقفنا عليه فى ذلك مقامتان إحداهما لعلاء الدين بن عبد الظاهر ، والثانية للصفدى .

ولا تكاد تختلف المقامتان فى مضمونهما العام ، فكل منهما تدور حول التدله بأحد الغلمان ، والاستغراق فى هواه ، وما شاب هذا الهوى من صدود وهجران .

ويبدأ علاء الدين مقامته بوصف هذا العاشق الذى برح به العشق ، وكيف أنه ظل عمره يترقب حبيبا ينعم به حتى ظفر بضالته ، وابتسم له الزمان . يقول :

حكى أليف الغرام ، وحليف السقام ، وقتيل العيون ، وصريع الجفون وفريسة الأسود ، والمصاب بنبال الحدق السود عن قصته فى هواه ، وقضيته

---

(١) الديوان ص ٤٢ ، ٤٣ .

التى كان فى أولها غناء ، وفى آخرها عناء ، قال : لم أزل فى مدة العمر أترقب حبيبا أتلذذ بحبه ، وأتنعم بقربه ، وأحيا بانعطافه ، وأسكر من ريقه بسلافه ، وأستعذب العذاب فيه ، وأرشف خمر الرضاب من فيه ، وأقتطف ورد السرور من وجنتيه وأجتنيه ، وأكتسى به لطفا ، واكتسب بمصاحبته ظرفا ، حتى ظفرت يداى بمن رق وراق ، ولطفت حدائق معانيه حتى كادت تخفى عن الأحداق» .

ويأخذ هذا العاشق فى وصف محاسن محبوبه من لحاظ كحيلة ، ومقبل شهى ، وخد وردى ، وخصر رقيق ، فى عبارة امتزج فيها الشعر بالنثر ، ثم يمضى فيصف كيف كان لقاؤه بهذا الحبيب ، وكيف تحققت آماله بهذا اللقاء :

«وانعطف على انعطاف الغصن الرطيب ، وتمازجت قلوبنا حتى أشكل على أينا الحبيب ، وفزت منه ببديع جمال تلذ به النفوس ، ورشفت من رضابه أحلى ما ترشفه الأفواه من شفاه الكئوس» .

إلا أن الأمر لا يسير على هذا النمط ، فسرعان ما تتبدل الحال ، ويرمى الدهر العاشق بسهام الفراق ، فيحل مريره ، ويجور جلاده ، ويستسلم لدموعه وأسقامه .

«فتجرعت بعد الشهد علقما ، ولم أستطع أفتح من الحزن فما ، وهمت فى ساحة الشوق والالتياح ، وفضحتنى الأدمع التى طال بها على المحبين الافتضاح

لا جــزى الله دمع عينى خـيرا   وجزى الله كـل خـير لســانى

نم دمعـى فليس يكـتم شيئـــا   ووجدت اللســان ذا كـــتمان

كنت مثـل الكتـاب أخفـاه طى   فاستدلـوا عـليه بالعنـــوان

فإذا هو مر المذاق ، وأسمع الدمع فيقول : وهل شأني لأعظم من يوم الفراق» .

ويصب العاشق جام غضبه على هذا الرقيب الذي يترصده ، ويصفه بالغلظة والفظاظة والمرح والبهتان .

«وبليت برقيب قد سلب الله من قلبه الإيمان ، وسلطه على بغلظ الطباع ، وفظاظة اللسان ، كأنه شيطان ، لا بل هو بعينه ، لكنه أربى عليه في بهتانه ومينه ، يحاق على الكلمة الواحدة ، ولا يسمح بأن طرق يمتد إلى تلك المحاسن التي خدت بها القلوب واجده» . (١)

وتنتهي هذه المقامة ولم يزل العاشق يعالج حرات العشق ، ويتودد لمعشوقه أن يزور فيزور عنه ، وفي كل مرة يلفق أعذارا ، ويعد من جديد والعاشق لا يزداد إلا خبالا .

أما مقامة الصفدي التي سماها «لوعة الشاكي ودمعة الباكي» فهي تدور أيضا حول عشقه لأحد الغلمان الأتراك ، وماعاناه من جراء هذا العشق من لوعة وأسى ، وتمتاز مقامة الصفدي بأنها أكثر طولا من مقامة علاء الدين ، وهذا الطول أفسح المجال الصفدي أن يصف خلجات نفسه ، وأن يعبر عن أحاسيس شتى تجاه هذا الغلام التركي ، كذلك فهي أكثر حياة بما تضمنته من حوار بين العاشق وصاحبه ومعشوقه ، كما أن الصفدي مزج فيها بين مظاهر الطبيعة ومشاعره ، فصارت الطبيعة على حد قول أستاذنا الدكتور محمد زغلول سلام «تسر لسروره ، وتضحك لضحكه ، وجمال الطبيعة جزء من جمال المحبوب ، أو جمال المحبوب جزء من جمال الطبيعة ، ومن مظاهر الجمال المحيط به» . (٢)

---

(١) المقامة كاملة في نهاية الأرب جـ ٥ ص ١٤٠ — ١٤٩ .
(٢) الأدب في العصر المملوكي — ٢ / ص ٩٤ .

ولننظر إليه مثلا يصف لقاء محبوبه ، وكيف يمزج بين الطبيعة وبين مشاعره :

«فبينا نحن في هذه القلة التي وصفت ، والجنة التي راقت وصفت ، والحلة التي طابت وحلت ، والخلوة التي من الخيال والخال خلت إذا جانب الروض قد سطع بالأنوار ، وتمايل السرور من المسرار ، وصفق النهر طربا وغنى الحمام وصبا ، وتبسمت الأزهار فرحا وإعجابا ، وتعانقت الأغصان بعد أن كانت غضابا ، وشممنا أرجاً فاق في الآفاق على المسك الأذفر ، ولولا التماسك لطار القلب من الخفقان وفر ، فحدقنا لنحو تلك الحدائق لننظر ما هذا الأرج الفائق ، وإذا نحن بطلوع عند الكواكب السيارة قد أطالعوا الشمس في الهالة» . (١)

وانظر إليه مرة أخرى يخلع مشاعره القلقة على ما حوله من مظاهر الطبيعة فإذا النهر يترجع ، وإذا النواعير مذعورة كأنها تئن من لوعة الفراق ، وإذا الحمائم تبكي وتذرى الدموع :

«فوصلنا إلى المنزّة الأنيق ، والمحل الذي هو باللطافة والمحاسن خليق ، فما وقفنا على حس ولا أثر ، ولا ظفرنا بحس ولا خبر ، بل الماء يجرى ويترجع بخريره ، والنواعير تئن لنواح بلبله وشحروره ، فأجرى من النواحى نوح النواعير دمعى ، فأطرقت الماء طرفي ، وأصغيت للدولاب سمعي ، وأنا أتعجب من تلك الناعورة المذعورة ، وانظر الماء فوق كتفها وهي عليه دائرة ، فعلمت أنها تئن من لوعة الفراق» . (٢)

---

(١) لوعة الشاكى ودمعة الباكى ص ٣ .
(٢) المصدر نفسه ص ٢٥ .

ثم يصف الحمائم قائلا :

«والحمائم تبكى على مرائس الأغصان فى الرياض ، وتلوى دموع الخمول فى تلك الخمائل والغياض» . (١)

ولعلنا بعد ذلك نتبين فى هاتين المقامتين امتزاج الحسية بالعذرية ، فهو العاشق يلتى محبوبه فينال منه وطره ، تراه فى مواطن أخرى وقد سما بحبه ، واستعذب العذاب فى سبيله ، ورأى أن الموت فى سبيل هذا الحب مطلب أسمى وبغية كبرى .

ومهما كان من أمر ذلك موقف العصر ، وهذه أصداء ما شاع فيه من شذوذ رأيناها واضحة فى أدبه ، حتى كاد يفرد القلام بانتاج هذا العصر الغزلى ، مقصيا المرأة عن عرشها التى تربعت عليه طيلة العصور .

٦ — الغناء والرقص :

عرف مجتمع مصر المملوكية كثيرا ممن حذق فى الغناء وبرع فيه ، ومن أشهر الأسماء التى لمعت «البلبل» ، واتفاق» تلك المغنية التى بهرت بغنائها سلاطين المماليك مع أنها كانت سوداء قبيحة ، ومع ذلك تزوجها أكثر من واحد منهم لحلاوة صوتها وحسن غنائها . ومن الذين برعوا فى الغناء أيضاً أحمد بن كامل الثعلبي القوصى ، يقول عنه الإدفوى : «يعرف شيئا من الموسيقى» وذكر من نظمه أبياتا كان يغنيها هى :

منى إليك تحيــــة وســــــلام	مــا نــاح قمــرى وفاح خزام
وتأرجت فى أيكهــا قمريـــــة	وشــدا على أعلى الغصون حمام

---

(١) المصدر نفسه ص ٢٦ .

لئن صدني عن زيارة داركم   عاد ، وحالت بيننا الأقوام
فأنا محبكم السلى ما غيرت   عهدى الليالى لا ولا الأيام (١)

ومن المغنين الذين برعوا فى الغناء أيضا من يعرف بالفصيح قال فيه الوداعى :

وليلة ما لها نظير   فى الطيب لو ساعدت بطول
كم نوبة للفصيح فيها   أطرب من نوبة الخليل (٢)

وقد أحصى أستاذنا الدكتور محمد زغلول سلام عديدا من أسماء المغنين والمغنيات فى العصر المملوكى ، وبين أن المماليك ورثوا محبة اللهو والغناء والموسيقى من أسلافهم الفاطميين والأيوبيين . كما أشار إلى تنوع الموسيقى والغناء فى ذلك العهد فهناك الأغانى المصرية ، والموسيقى الممتزجة بأصول عربية وفارسية وتركية ، وهناك الأغانى الشعبية ، وكل كان له عشاقه ومحبوه (٣)

ولعل المعمار كان يشير إلى ذلك اللون من الغناء الذى يمتزج بأصول فارسية وهو يصف أحد المغنين بقوله :

ومطرب أبدى لنا   قولا بنغمته الشهيه
متعاشم فكأنه   متكلم بالفارسيه (٤)

وأكثر شعراء هذا العصر من الحديث عن الغناء ، والمغنين ، وعن الطرب وآلاته ، ونلاحظ أن ذلك فى معظم الأحيان ارتبط بمجالس اللهو ، فيقرن

---

(١) مطالع النسيم ص ١٠٨
(٢) مطالع البدور جـ ١ ص ٢٣٤
(٣) الأدب فى العصر المملوكى جـ ١ ص ٢٨١ — ٢٨٥ .
(٤) مطالع البدور جـ ١ ص ٢٣٥ .

محمد بن علي الواسطي بين لذة الخمر ولذة الغناء ، فكأن الشرب سكروا بالغناء لا بالخمر ، وذلك إذ يقول :

أغنى مغنينا عن الـراح إذ ... غنى فلم يبق من الشرب صاح
حيـا بالحسن عن حسنـا ... كأنمـا جـاء بماء وراح (١)

وإلى مثل ذلك يذهب ابن الصائغ الحنفي في وصفه لمغنية إذ يقول :

هبت فأغنت عن كئوس الطلا ... بالسكر من لذات تلك اللحون
فقلت إذ هيمني صوتها ... في مثل ذا الحلق تروح الذقون (٢)

وما ألطف هذا التناسب في الشطر الأخير بين الحلق والذقون ، والذي مهد له الشاعر بالتورية في كلمة «الحلق» .

وانظر إلى هذا المجلس الثمل الذي يصوره القيراطي راقصا على أنغام العود ، حتى الشمع قائم على ساقه ، وحتى الكأس تدور على كعبها :

أطربنا العود إلى أن غدا ... مقامنا يرقص منع صحبه
فشمعنا قام على ساقه ... وكأسنا دار على كعبه (٣)

ونلحظ أيضا أن النساء استأثرن بالحظوة في مجال الطرب ، وأن كثيرات منهن برعن في العزف على آلاته المختلفة ، فهناك من أتقنت العزف على العود وهناك من أتقنت عزف المزمار ، وهناك ضاربة الدف إلى غير ذلك ، وكل ذلك نراه بوضوح فيما نقرؤه من شعر هذا العصر ، فهذا سيف الدين المشد يصف تلك الغرادة التي تحتضن عودها في حنان ، وتضبط أوتاره في مهارة :

---

(١) الدرر الكامنة جـ ٤ ص ١٧٢
(٢) خزانة الأدب ص ٣٩٥ .
(٣) خزانة الأدب ص ٣٨٤ .

وحاضنـــة صـــنجا ناطقـا   وتكسر مثواه مثل الولـد
تدغدغ أحشـــاءه صاحبـا   وتعـرك آذانـه إن فسد (١)

ويقول في جارية تمس على الدف :

وجاريـــة قرعـــت طارهـــا   وغنت عليه بصوت (رطيب)*
فبايــت شمس الضحى أقبلت   وبدر تقدمها عن قريـب (٢)

ويقول ابن نباتة في مجموعة من القواني يضربن الدفوف والعيدان :

وغـوان تمـن عـن الطيـب والحلى فـلا تـمـسي الحسان غـواني
ضاربات الدفوف في جيش لهـو   طاعنات الهمـوم بالعيـدان (٣)

وطبيعي في مثل هذه الحالى أن يكون الجمال نصيبه في إحداث اللذة إلى جانب الصوت الحسن ، وأن تمتزج لذة السماع بلذة النظر ، ولعل هـذا الامتزاج يظهر بوضوح في أبيات ابن نباته التي يصف فيها عوادة بقوله :

يروحي هيفاء المعاطف خطـرة   تكاد بألحاظ الحبيبين تشـرب
لقد عذبت ألفاظهـا وصفاتهـا   على أن قلبي في هواها معـذب
تجاسر عود اللهو يشبه صوتهـا   فمن أجل هذا أصبح العود يضرب
وأجرى دموع العاشقين بلعبهـا   فقال الأسى دعها تخوض وتلعب(٤)

وانظر كيف امتزجت لذة السمع بلذة البصر في قوله :

---

(١) الديوان ص ٥٢ .
* في الديوان (رخيم) .
(٢) الديوان ص ٨٥
(٣) الديوان ص ٥١١ .
(٤) الديوان ص ٥٥ .

الكأس فى كف غادة رود   قم يا أخا النسك غير مطرود
تحثها بالغناء غانية   تعرب فيه عن لحن داود
إن شئت كالغصن ذات منعطف   أو شئت كالطير ذات تغريد
تكاد إن مس عودها يدها   تجرى مياه الدلال فى العود (١)

فالفتنة كما ترى ليس مبعثها الغناء وحده أو العزف وحده ، وإنما هى أيضا ناشئة عن جمال الخلقة فى تلك الغرادة الهيفاء ، أو فى تلك المغنية ذات الدل .

كذلك يعكس لنا شعر هذا العصر ما كانت تلجأ إليه بعض المغنيات من حركات خليعة ، وتأوهات مثيرة تلهب أوار الشهوة لدى السامعين ، وانظر إلى وصف ابن دانيال لهذه المغنية ضاربة الدف :

ذات القوام الذى يهز غصن نقا   لو مر يوما عليه طائر صدحا
تبدى على الدف كالجلنار معصمها   لنقره بنانها يشبه البلحا
غناؤها برقيق الغنج تمزجه   فما ينقط إلا كل من رشحا (٢)

والتورية واضحة فى كلمة «ينقط» .

وكان لجمال الشكل أيضا دوره فى الإعجاب بالمغنى ، ولا ننسى فتنة أهل هذا العصر بالغلمان . فلا عجب إذا وصف المغنى بالأوصاف نفسها التى وصفت بها المغنيات . واقرأ معى قول القيراطى .

غنى على العود شاد سهم ناظره   أضحى به قلبي المضنى على خطر

---

(١) المهرات ص ١٦٠ .
(٢) خزانة الأدب ص ٢١٠ .

رنا إلى وجست كفه وترا   فراحت الروح بين السهم والوتر (١)

فليست الفتنة في الغناء فحسب ، ولكنها أيضا فتنة هاتين العينين اللتين ترشقان الناظر إليها بالسهام .

وكما أشاد الشعراء بالمغنين والمغنيات أصحاب الصوت الجميل سخروا من هؤلاء الذين يزعجون الناس بأصواتهم المنكرة ، وألحانهم القبيحة . يقول محمد بن علي الواسطي في وصف عواد وزامر :

شبهت ذا العواد والزامر إذ   ضاقت علينا بهما المناهج

بمضرب يضرب وهو ساكت   وأربه ينفخ وهو خارج (٢)

ويقول سيف الدين المشد في ذم عواد عابثا بحروف لفظة عواد ومعناها

عوادنا قد طمست عينه   فصار بالتصحيف قوادا

ما عاد إلا لقياداته   لأجل ذا سمى عوادا (٣)

وشارك الرقص الغناء في مجالس الطرب ، ونقع في شعر صفي الدين الحلي على صورة لجوار يرقصن بالشراب وذلك في قوله :

والراقصات وقد شدت مآزرها   على الخصور كأوساط الزنابير

يخفى الردا سقمها عنا فيفضحها   عقد البنود وشدات الزنابير

إذا انثنين بأعطاف يجاذبها   موارد عص من الكثبان ممطور

رأيت أمواج أرداف قد التطمت   في لج بحر بماء الحسن مسجور

من كل مائسة الأعطاف من مرح   مقسومة بين تأنيث وتذكير

---

(١) مطالع البدور جـ ١ ص ٢٤٧ .

(٢) الدرر الكامنة جـ ٤ ص ١٧٣

(٣) الديوان : ٤٧ .

كأن في الشيز عناها إذا ضربت — صبح تغلغل فيه قلب ديجور
ترمى الضروب بأيديها وأرجلها — وتحفظ الأصل من نقص وتغيير
وتعرب الرقص عن لحن فتلحقه — ما يلحق النحو من حذف وتقدير (١)

ويرى أستاذنا الدكتور محمد زغلول سلام في هذه الصورة سمات جديدة لهذا الفن في ذلك العصر فقد كان من عادة الراقصات أن يشددن أوساطهن بالزنانير ، وأنهن كن يثنين بأعطافهن ، ويهززن بأعجازهن ، وأنهن كن ينتحلن أحيانا زي الغلمان وهيآتهم «ويقول : «وربما تخلف عن ذلك العصر ما نراه أحيانا من تقليد بعض الراقصات «البلديات» في مصر إلى لبس ملابس الرجال والرقص فيها» . (٢)

وشارك الرجال في الرقص أيضا ، ويصف الششتاوى أحد الراقصين بقوله :

يا من غدا الحسن إذ غنى وماس لنا — مقسما بين أبصار وأسماع
لأسموك بالغصن رطباً والهزار غنا — وما تقاس بمياس وسجاع
قد تسجع الورق لكن غير راقصة — وترقص البان بل في غير إيقاع (٣)

والششتاوى يشير إلى حركات هذا الراقص المتسقة مع إيقاع غنائه بحيث توزع متعة المشاهدين بين الرقص والغناء .

---

(١) الديوان ص ١٤٧ .
(٢) الأدب في العصر المملوكي جـ ١ ص ٢٩٠ .
(٣) الطالع السعيد ص ٢٤٩ ، ٢٥٠ .

الفصل الثامن

الذوق الأدبي

لا ريب أن الذوق الأدبي لأى عصر ، والمعايير الجمالية السائدة فيه هما المدخل الصحيح للوقوف على أسرار الصنعة الأدبية ، ولا ريب أن الأديب حينما ينشىء أدبه ، منظوما كان أم منثورا إنما يحاول إرضاء ذوق عصره ، ويصدر عن المعايير الجمالية السائدة فيه ، وقد يتفرع الذوق الأدبي إلى ألوان متباينة ، ويتشعب شعبا مختلفة حسب الأنماط الثقافية فى المجتمع وتبعا لذلك يتباين الإنتاج الأدبي حسبما يتجه إليه الأديب من هذه الأنماط .

وبالنسبة للعصر المملوكي فإننا نرى الذوق الأدبي فيه ينقسم لونين متباينين يمكن أن نطلق على أولهما «اللون الخاص» كما يمكن أن نطلق على ثانيهما «اللون العام» . ولا يعنى هذا أننا نقسم أدباء العصر فريقين ، كل فريق له لونه المميز فربما تراوح إنتاج الأديب الواحد بين هذا وذاك ، فهو حينا يرضى ذوق الخاصة ، وحينا آخر يتجه بأدبه إلى ذوق العامة ، وقديما أشار بشار إلى هذا حينما سئل عن تفاوت أسلوبه بين شعره الذى يقوله فى المهاجاة والفخر وبين ما يقوله لجاريته ربابة .

وفطن نقاد العصر المملوكي لهذه الحقيقة ؛ وعرفوا أن لكل لون متطلباته ومقتضياته الذوقية ، فشمس الدين النواجي فى مقدمته يوجه النصح إلى الأديب قائلا : «ولا تخاطب العامة بكلام الخاصة ولا بالعكس» . (١)

---

(١) مقدمة فى صناعة النظم والنثر ص ٥٥ .

إذن فنحن فى أدب العصر المملوكى أمام لونين من الذوق يمكن أن ننظر إلى كل منها فى ضوء ما خلفه العصر من إنتاج أدبى ونقدى وبلاغى .

أولا — اللون الخاص :

ونعنى به اللون الذى يمثل ذوق الصفوة من متأدبى العصر ، والتى كانت تمثل جمهورا محدودا من كتاب الديوان والفقهاء والمدرسين ومن يمت إلى هذا المجال بنسبة من طلاب العلم وهواة الأدب .

ويمكن أن نقول إن ثقافة هذه الصفوة كانت عربية إسلامية تمثلت فى الإلمام بالتراث العربى شعره ونثره . والتزود بالقرآن الكريم والحديث النبوى والوقوف على أيام العرب فى الجاهلية والإسلام ، ومن هذه الثقافة تشكل الذوق الأدبى لهذه الطبقة من المتأدبين ، هذا الذوق الذى ترك آثاره الواضحة على أدب هذا العصر .

والأدب الذى يمثل ذوق هذه الطبقة نلمس فيه حرص الأديب على الارتقاء بعبارته ، والتأنق فى لفظه ، وعلى التهذيب والتشذيب فيما يعالجه من عمل أدبى .

ويكاد الشعر الذى يمثل هذا الذوق ينحصر فى جملة الأغراض التقليدية التى درج عليها الشعراء من مديح وغزل ورثاء إلى آخر ذلك ، كذلك يكاد ينحصر النثر فى جملة من الفنون التى تعارف عليها الكتاب من رسائل رسمية أو إخوانية ومن مفاخرات أو مقامات . ويمكننا أن نحدد فى أدب هذا اللون بعض سمات هى :—

١ — الانجذاب إلى التراث :

نرى فى أدب هذا اللون انجذابا للقديم ، ونحس أن الأديب كان ينظر إلى

التراث على أنه المثل الأعلى الذى ينبغى أن يحتذيه ، وإذا بدأنا بالشعر أمكننا أن نلحظ هذه الظاهرة فى عدة أمور :

أ — ترسم معظم الشعراء لنهج القصيدة العربية حيث نراهم ما يزالـون يستفتحون قصائدهم — وبخاصة فى المديح — بالنسيب ثم يخلصون منه إلى المدح وهم فى ذلك يسيرون على سنن معروف وطريق ممهد ، وكثيرا ما تحدث النقاد عما ينبغى على الشاعر فى نسيبه وكيف يخلص منه إلى المدح ، ونقع فى شعر شعرائنا على شواهد عديدة على هذه الظاهرة ، فالعزازى مثلا يبدأ قصيدته فى مدح أبى المعالى ناصر الدين محمد أحد ملوك حماه من قبل سلطان مصـر بمقدمة غزلية يقول فيها :

فقس الظبـاء سوالفـا ونحـورا والخيـزران معاطفــاً وخصورا

ويمضى هذه المقدمة فى عشرين بيتا ثم يخلص إلى المدح بقوله :

وإذا ســألت تخلــة أو فاقـــة فاسأل خطيراً كى تنـال خطيرا

بل إن العزازى فى هذه القصيدة لم يفته أن يصف لنا الناقة التى حملته إلى ممدوحه فيقول :

ورأيت مـن فسطاط مصر نحـوه أطـوى الفـلاة أصائلا وبكورا

من فوق حائلة النسوع إذا سـرت لا تسأم التغليس والتهجيــرا

تفـرى مناسمهـا الفـلا وتشق مـن تحت الظلام بصدرها الديجـورا

وكــأننى فى كورهـــا متوسـد البرق متنا والنعــائم كــورا

حتى انتهيت إلى ابن محمود الـذى فحمدت قصدى أولا وأخيـرا(١)

هكذا لم يكد العزازى يحيد عن نهج القصيدة الجاهلى .

---

(١) ديوان العزازى ص ٨ ، ٩ ، ١٠ .

ونترك العزازى إلى ابن نباتة فنراه أيضاً يستهل قصائده بالنسيب ، ونأخذ مثلاً على ذلك قصيدته فى مدح الناصر حسن :

بنت فى رداء الشعر باسمه الخضر فعوذتها بالشمس والليل والفجر (١)

وتستغرق المقدمة الغزلية ثمانية عشر بيتاً .

ولا يقال ما الناصر حسن وذوق الصمود وهو مملوك أعجمى ، فالشاعر فى مثل هذا الموقف لا يعنيه ذوق الناصر حسن بقدر ما يعنيه ذوق من يحيط به من كبار الكتاب ومالكى مقاليد الإنشاء .

وعلى هذا النهج أيضاً سار القيراطى فى مدائحه ، ومثل لذلك لقصيدته فى مدح ناظر الجيش :

لطلعة البدر جزء من محياك وللصباح نصيب من ثناياك

فالمقدمة الغزلية تستغرق خمسة وأربعين بيتاً يخلص الشاعر بعدها إلى المدح (٢)

ب — وآية أخرى من آيات الانجذاب إلى التراث نراها فى ولوع الشعراء بمعارضة القصائد التى ذاعت فى عالم الشعر ، فنرى العزازى يعارض معلقة عمرو بن كلثوم بقصيدته التى يمدح بها المماليك الصالحية والتى يبدؤها بقوله :

بدأنا باسم رب العالمينا وثنينا بخير المرسلينا (٣)

ومن القصائد التى شغف بها المأديبون فى هذا العصر قصيدة كعب بن زهير فى مدح الرسول صلى الله عليه وسلم :

بانت سعاد فقلبى اليوم متبول متيم إثرها لم يفد مكبول

(١) ديوان ابن نباته ص ١٩٥ .
(٢) انظر ديوان القيراطى ص ٣٥ .
(٣) ديوان العزازى ص ٦٤ .

وقد عارض هذه القصيدة أكثر من شاعر ، عارضها البوصيرى بقصيدته التى سماها ذخر المعاد فى وزن بانت سعاد ، والتى يبدؤها بقوله :

إلى متى أنت باللذات مشغـــول وأنت عن كل ما قدمت مسئول (١)

وعارضها العزازى بقصيدته :

دمى بأطلال ذات الخال مطلـــول وجيش صبرى مهزوم ومفلول (٢)

وعارضها ابن نباتة بقصيدة يقول فيها :

ما الطرف بعدكم بالنوم مكحول هذا وكم بيننا من ربعكم ميل (٣)

وشغلت قصيدة أبى تمام فى فتح عمورية كثيرا من المتأدبين إذ عدوها مثلا أعلى فيما ينظم من أشعار الحماسة والحرب ، وربما زاد من شغل الناس بهذه القصيدة أن العصر كان عصر حروب وغزوات ، وأنهم كانوا فى تشوق إلى انتصار باهر كذلك الذى تصوره بائية أبى تمام ، وقد سبقت الإشارة فى الفصل الثانى من هذا البحث إلى معارضة شهاب الدين محمود لهذه القصيدة بقصيدته التى يصف فيها فتح عكا :

الحمد لله زالت دولة الصلـــب وعز بالترك دين المصطفى العربى (٤)

وكما كانت قصيدة أبى تمام البائية مثلا أعلى فى الحماسة كانت قصيدته التى قالها فى رثاء محمد بن حميد الطوسى مثلا أعلى فى الرثاء وهى التى يبدؤها بقوله :

---

(١) الديوان ص ١٣٢ .
(٢) فوات الوفيات ـ ١ / ص ٩٥ .
(٣) الديوان ص ٣٧٢ .
(٤) تاريخ ابن الفرات ـ ٨ ص ١١٥ .

كذا فليجل الخطب وليفدح الأمر   فليس لعين لم يفض ماؤها عذر

للملك احتذاها بعض الشعراء ، فعارضها صفى الدين الحلى بقصيدته التى رثى بها الناصر محمد :

وفى لى فيك الدمع إذ خانني الصبر   وأنجد فيك النظم إذ خذل النثر (١)

أما المتنبى فكان له شأن عظيم فى نظر هذه الصفوة ، ويدل على ذلك ما نراه من معارضات الشعراء لقصائده . فالعزازى يعارض قصيدته الميمية :

واحر قلباه ممن قلبه شبم   ومن بجسمى وحالى عنده سقم

بقصيدة يمدح بها قلاوون يقول فيها :

أمغيث ما خطه من نصرك القلم   فيالها نعمة من دونها النعم (٢)

وسبقت الإشارة إلى معارضة شهاب الدين محمود قصيدته الميمية الأخرى

على قدر أهل العزم تأتى العزائم   وتأتى على قدر الكرام المكارم

بقصيدة يمدح بها بيبرس، يقول فيها :

كذا فلتكن فى الله تمضى العزائم   وإلا فلا تجفو الجفون الصوارم (٣)

ويعارض ابن نباتة قصيدته :

أرق على أرق ومثلى يأرق   وجوى يزيد وعبرة تترقرق

بقصيدة يقول فيها :

---

(١) الديوان ص ٣٧٧ .
(٢) الديوان ص ٧٠ .
(٣) النجوم الزاهرة جـ ٧ / ص ١٧٠ .

ما بك تيك بمَنْمع عيني أشـرق إلا وأنت من الغزالة أشرق (١)

ويطول الحديث إذا تتبعنا كل المعارضات ، ولكن حسبنا ذلك للتدليل على هذه الظاهرة . وطبيعي في مثل هذه المعارضات أن ينسج الشاعر على منوال من يعارضه ، ويدور حول معانيه وأفكاره ، أو بعبارة أخرى هو رهين هذا النموذج الذي يحتذيه بأخيلته وقوافيه وألفاظه .

وأغلب الظن أن مثل هذه المعارضات كانت تروق لأذواق الصفـوة الأدبية ، إذ يرون فيها امتحانا لقدرة الشعراء ، كما كان الشعراء يرون فيها إثباتا لمقدرتهم على النظم ، وتأكيدا لبراعتهم . وليس أدل على صحة هذا القول مما يذكره الغزازي في مقدمة قصيدته النونية التي عارض بها معلقة عمرو بن كلثوم إذ يبين أن الذي دفعه إلى نظم هذه القصيدة جماعة من أمراء الدولة الظاهرية ، اقترحوا عليه أن يعارض عمرو بن كلثوم بقصيدة يذكر فيهـا وقائع الترك وغزواتهم (٢) ، وكأنهم بذلك يسبرون غور الشاعر ويختبرون ملكته ، والشاعر بدوره يقبل ذلك ليضع اسمه إلى جانب اسم شاعر عظيم كعمرو بن كلثوم .

٣ — وشبيه بهذه الظاهرة ظاهرة التضمين وسماها نقاد العصر بالإيداع ، وتتمثل في أن يودع الشاعر شعره بعض شعر غيره ، وقد عد نقاد العصر ذلك الصنيع من مظاهر الجمال ، وصنعوه ضمن ألوان البديع . يقول ابن حجة : «والإيداع الذي نحن بصدده هو أن يودع الناظم شعره بيتا من شعر غيره أو نصف بيت أو ربع بيت بعد أن يوطىء له توطئة مناسبة» (٣) ، ويعرض ابن

(١) الديوان ص ٣٢٨ .
(٢) انظر الديوان ص ٦٤ .
(٣) خزانة الأدب ص ٤٦١ .

حجة طرائق الشعراء في ذلك ثم يبين الرتبة العليا منه فيقول : «وأحسن الإيداع ما صرف عن معنى غرض الناظم الأول ، ويجوز عكس البيت المضمن بأن يجعل عجزه صدرا ، أو صدره عجزا ، وقد تخلف صدور قصيدة بكمالها وينظم المودع صدورا لغرض اختاره وبالعكس» . (١)

واستجابة لهذا المطلب الجمالي راح الشعراء يفتنون في إيداع شعرهم بعض الشعر القديم ، فيأخذ زكي الدين بن أبي الاصبع بيت المتنبي :

تذكرت ما بين العذيب وبـــارق　　　مجـــر عواليـــا ومجرى الســوابـق

ويجعل كل شطر منه عجزا لبيت نظم هو صدره فيقول :

إذا الوهم أبدى لي لماها وثغرهـــا　　　تذكرت ما بين العذيب وبـــارق
ويذكرني مـــن قدهـــا ومدامعي　　　مجر عوالينا ومجرى السوابق (٢)

ويودع البوصيري في أحد أبيات بردته شطرا من بيت المتنبي فيقول :

ولا أعدت من الفعل الجميل قرى　　　ضيف ألم برأسي غير محتشم (٣)

وقد يودع الشاعر في شعره أكثر من بيت لأكثر من شاعر ، ويرى أن البراعة في أن يوطيء لذلك بتوطئة واحدة كما فعل شهاب الدين محمود ، وعد ذلك من آي افتنانه فيقول : وقد ضمنت بيتين بتوطئة واحدة وهما :

وبتنا على حــكم الصبابة مطعمي　　　زفيري وأشجاني ، وشربي المدامع
وعـــلي يعاطيني كئوس ملامــة　　　وينشدني والهـــم للقلب صــادع
أتطمــع من ليلى بوصـــل وإنمـــا　　　تقطع أعناق الرجال المطامــــع

(١) خزانة الأدب ص ١٩١
(٢) خزانة الأدب ص ٤٧٣ .
(٣) ديوان البوصيري ص ١٩١ .

فبت كأنى ساورتنى ضئيلة	من الرقش فى أنيابها السم ناقع (١)

والبيتان اللذان بعنيها هما الأخيران وأولها البيت ، والثانى للنابغة .

ويأخذ ابن نباته بعض بيت المتنبى بعد أن يصرفه عن غرضه الأول ، فيقول :

بوجهك من ماء الملاحة مورد	لظمآن وشرب للسوى سراب
إذا زرتنى فالروح والمال هين	وكل الذى فوق التراب تراب (٢)

وينظم صدورا لأبيات يأتى لها بأعجاز من شعر الحطيئة وطرفه وذلك فى قوله :

إذا جئته تعشو إلى ضوء كأسه	تجد خير نار عندها خير موقد
تحدثك الأنفاس فيه عن الها	ويأتيك بالأخبار من لم تزود
فشم بارقا قد خولتك ولا تشم	لخولة أطلالا ببرقة ثهمد (٣)

وهكذا غدا التضمين سمة من سمات الجمال ، وحرص الشعراء على تطريز شعرهم ببعض أقوال من سبقهم من الشعراء إظهارا لسعة الباع ، وطول النظر فى التراث ، ولا ريب أن مثل ذلك الصنيع كان يروق للذوق الصفوة المتأدبة التى فتنت بالقديم أيما فتنة ، حتى إننا نرى شاعرا من شعراء هذه الحقبة يفخر بأن نصف شعره من شعر غيره إذ يقول :

أطالع كل ديوان أراه	ولم أزجر عن التضمين طيرى
أضمن كل بيت فيه معنى	فشعرى نصفه من شعر غيرى (٤)

---

(١) حسن التوسل ص ٦٢ .
(٢) ديوان ابن نباته ص ٦٢ .
(٣) ديوان ابن نباته ص ١٢٨ .
(٤) خزانة الأدب ص ٤٧٢ .

د — وآية رابعة من آيات الانجذاب إلى القديم نراها فى اصطناع بعض الشعراء الجزالة والفخامة ، وخروجهم علينا بثوب غير ثوب عصرهم ، ومن ذلك ما نراه من قول عمر بن عيسى مجير الدين الخطى :

وما الشعر مما أرتضى كنيتى بــــه ... لعمرى ولا وصفى به فى المحافــل
ولا قلتــه كى أبتغى عمالــــه ... هنالك أن أجزى عليــه بنائـــل
ولكن دعتنى شــيمة مضريــــة ... إلى قوله معروفة فى القبائــل (١)

فهل يتميز قول الخطى عن قول شاعر جاهلى ؟

واسمع معى الجزارى يمدح بيبرس :

شكرنا أبا الفتح الجميل شــاؤه ... على أنعم فى خلقه تستديمهـــا
تملك أعنــاق الــورى متفضلـا ... فنامت رعاياه وحيط حريمهـــا
وألقت إليــه النــاس فضل قيادهـا ... ودان له معوجهـا وقويمهـــا
تــداوى قلوب مر مسهــا شفاؤها ... بإحسانه أوصـــح منها سقيمها (٢)

فانظر إلى إيثار الشاعر ذكر الكنية على عادة العرب وإن كانت كنية من وحى المناسبة . وانظر إلى استخدامه تلك التعبيرات التى تسربت إليــه من عبقرية القديم : وتملك أعناق الورى — حيط حريمها — ألقت إليه النـاس فضل قيادها ، ثم انظر إلى البحر الطويل الذى اختاره الشاعر وكيف ائتلف مع هذه الجزالة فبدت الأبيات وكأنها تطل علينا من زمن سحيق .

هـ — ونقع فى شعر هذا اللون على كثير من التلميحات التى تشير إلى أعلام العرب وأيامهم . كما تقع على بعض ما كان يستخدمه العرب من أمثال

---

(١) الطالع السعيد ص ٤٤٩ .
(٢) ديوان الجزارى ص ٦٢ .

فهذا الجزارى يشير إلى عدة من أبطال العرب فى مدحه لبيبرس إذ يقول :

فإن عمرو بن ود وابن معـــدى ... وبسطاما وعنــترة المجيـــبا
ولا تطلب لبيـــبرس نظـيرا ... فذلـــكم بعيـــد أن يكونــا (١)

ويمدح الأتراك فيشير إلى زيد الفوارس وتفوقهم عليه :

من كل أغلب لـو رآه مقبــــلا ... زيد الفوارس فر عنه مدبرا (٢)

ويصف صعوبة مسلك الجيش فيفتقر إلى دعه السليك بن السلكة وعنترة :

والجيش قـد أشرعت كتائبـــه ... من حوله السمهرية اللدنـــا
فى مسلك لـو سرى السليك بـــه ... لضل فيه أو عنـــتر جبنـــا (٣)

وما تزال بعض العادات العربية الجاهلية تطفو من حين إلى آخر عـــلى ذاكرة الجزارى فتجعله يذكر ضرب القداح فى مدحه لقلاوون :

ولكنك المنصور والملك الـــذى ... عزائمه بالنصر فاز قداحها (٤)

ونترك الجزارى إلى مجير الدين بن اللمطى فنراه يردد بعض الأمثال العربية فى شعره ، فيقول :

صمـــى صمام فقـــد شالت نعامتهم ... وغـــودروا بين سمع الأرض والبصر

ويقول :

أنا ابـن بجدتهـــا فى كنه حالهـم ... فاسأل جهينـــة كى يأتيك بالخبر
حلبت يا صاح در الدهر أشطـــره ... قدمـــا فأدركت طعم الشهد والصبر

---

(١) الديوان ص ٦٤ .
(٢) الديوان ص ٧٥ .
(٣) الديوان ص ٩٨ .
(٤) الديوان ص ٧٢ .

فهم سواسية فيما علمت كأسنان الحمار فكن منهم على حذر (١)

فهو يستخدم من أمثال العرب (صمي صمام) بمعنى تمادي أيتها الداهية ، ويشير إلى قولهم (وعند جهينة الخبر اليقين) ويستخدم قولهم (سواسية كأسنان الحمار) إذا أرادوا تسوية قوم في نزوعهم إلى الشر . كما يستخدم قولهم (ابن بجدتها) و (حلب دهر الدهر) إذا أرادوا وصف انسان بالحنكة والخبرة .

وفي شعر القيراطي نسمع رجعا لبعض هذه الأمثال . فهو مثلا يقول في معرض الغزل :

لا تذكر الغزلان عند لحاظهــــا أبدا فكل الصيد في جوف الفرا (٢)

وكل الصيد في جوف الفرا مثل يضربه العرب للدلالة على نفاسة الصيد وعظمه أو الدلالة على بلوغ الأرب كله .

وفي بيت آخر يشير إلى المثل العربي «عند الصباح يحمد القوم السرى» فيقول :

ولقد سريت بليل أسود شعرهـا وحمدت عند صباح مبسمها السرى (٣)

هـ - وربما رسخ في ذهن هذه العصور المتأدبة أن المعاني أتى عليها القدماء . ولم يعد أمام المحدثين سوى أن يعيدوا صوغ هذه المعاني من جديد أو تجديدها بما يضيفون إليها من فضلة قول أو بما يولدونه من بعض المعاني الفرعية . وهذا ما راح نقاد العصر يروجون له تحت مصطلحات بديعية - كحسن الاتباع والتوليد . يقول ابن أبي الاصبع معرفا حسن الاتباع :

---

(١) الطالع السعيد ص ٤٠٠ ، ٤٠١ .
(٢) ديوان القيراطي ص ٤٦
(٣) ديوان القيراطي ص ٤٦ .

«هو أن يأتي المتكلم إلى معنى اخترعه غيره فيحسن اتباعه فيه بحيث يستحق بوجه من وجوه الزيادات التي توجب للمتأخر استحقاق معنى المتقدم إما باختصار لفظه ، أو قصر وزنه ، أو عذوبة قافيته وتمكنها ، أو تتميم لنقصه ، أو تكميل لتمامه ، أو تحليته بحلية من البديع يحسن بمثلها النظم ، ويوجب الاستحقاق» . (١)

ويتكلم ابن حجة عن التوليد فيقسمه إلى توليد من الألفاظ وتوليد من المعاني ، ويرى أن التوليد من المعاني «هو الأجمل والأستر ، وهو الغرض هاهنا ، وذلك أن الشاعر ينظر إلى معنى من معاني من تقدمه ويكون محتاجا إلى استعماله في بيت قصيد فيورده ويولد منه» . (٢)

والأمر برمته لا يعدو أن يكون التفاتا إلى القديم ، وجريا على سننه ، والتماسا منه ، على أن يكون الشاعر في هذا الاقتباس شخصيته المميزة ونهجه المعروف .

ونحن مع شعراء هذا اللون الخاص من الشوق نقف على كل ذلك ، فشاعر يأخذ من القديم وليس له إلا فضل الصياغة ، وشاعر يحاول أن يضيف أو يولد بما يوجب له المعنى ، وفي كلا الحالين فالأمر لا يعدو دورانا في فلك القديم ، فانظر مثلا للغزي يصف أسرى الفرنج فيستمد التراث صوره :

هـذي ملوككم تقـاد صاغـرة ... ودي قرابيـكم تساق في قـرن
لها التفـات إلى أوطانهـا أسفـا ... كما تلفت الأنعام العطـن (٣)

---

(١) تحرير التحبير ص ٤٧٥ .
(٢) خزانة الأدب ص ٤١٩ .
(٣) الخريدة ص ٥٩ .

فالانسياق فى قرن ، والتفات الأنعام إلى العطن صور استقاها الشاعر من محفوظه ، وليس له فيها إلا جهد الصياغة .

ويحاول الغزى أن يولد ، فيكون جهده أن يفك صورة قديمة ، وقد صور الشعراء الحرب فعل السيوف بالرقاب بصورة الحصد ، ويأتى الغزى فيحل هذه الصورة إلى عناصر جزئية قائلا :

وغزوهم وهم نبات وآبوا وهم من شبا السيوف حصيد (١)

وإذا كان جهده فى هذا هو فك الصورة القديمة إلى عناصر جزئية ، فهو فى مكان آخر يوجه جهده إلى جمع مجموعة من الصور ، وتكون آية ابتكاره أن جمعها على هذا النسق الذى لم تجتمع عليه . يقول متغزلا :

ثم انثلن من المدام مراشفا وبطمن من حبب المدام ثغورا
ونظرن غزلانا وفحن خائلا وخطرن أغصانا ولحن بدورا (٢)

فكل صورة من هذه الصور ، على حدة ، متداولة — ، وإنما الجديد هو تواليها على هذه الهيئة .

أما البوصيرى فيشبه التقرب فى حصن المرقب بأنها أثاف عليها قدور هى بروج الحصن ، وصورة الأثافى والقدور صورة قديمة التقطها البوصيرى من التراث :

وساموه خسفا من نقوب كأنها أثاف لها تلك البروج قدور (٣)

---

(١) الديوان ص ٦١ .
(٢) الديوان ص ٨ .
(٣) الديوان ص ٩٧ .

ويشبه آيات الرسول — صلى الله عليه وسلم — وظهورها بظهور نار القرى على جبل :

دعني ووصفي آيات له ظهرت ظهور نار القرى ليلا على علم(١)

وليس له في هذه الصورة إلا فضل الصياغة .

ويمدح الترك فيعيد هذه الصور القديمة إذ يصفهم بأنهم بيض الوجوه تسعى لأبوابهم القصاد ، وطالبوا المال :

بيض الوجوه يجن الليل إن ركبوا إلى الوغى ويضيء الصبح إن سفروا
تسعى لأبوابهم قصاد مالهم وجاءهم زمراً في إثرهم زمر (٢)

ولعل البوصيري قد وقع على ضالة ثمينة في «بيض الوجوه» حيث ناسبت هذه الكناية القديمة أوصاف ممدوحيه من الأتراك

وهذا الصنيع نفسه نطالعه عند شهاب الدين محمود فلا يريد جهده عن الصوغ الجديد ومحاولة التوليد ، وقديما قال عنترة :

ولقد ذكرتك والرماح نواهل مني وبيض الهند تقطر من دمي
فوددت تقبيل السيوف لأنها لمعت كبارق ثغرك المتبسم

وموضع الشاهد هنا تشبيه لمعان السيوف بالثغر الباسم . ويأتي شهاب الدين محمود فيتلقف هذا التشبيه ويولد منه صورة جديدة ، مضيفا إلى اللثم العناق والمصافحة ، ولعله قد وقع عليها عند شاعر آخر ، ثم ألف بين هذا وذاك في قوله واصفا قتلى إحدى المعارك :

---

(١) الديوان ص ١٩٦ .
(٢) الديوان ص ٨٩ .

فأموا إلى أم الأسنة في الوغى ... كأنهم العشاق وهي المباسم
وصافحت البيض الصفاح رقابهم ... وعانقت السمر القدود النواعم (١)

وشبه شعراء العرب السماء بالبحر ، وجاء شهاب الدين محمود فوسع من الصورة شيئا ما ، وجعل السماء خضابا لسوق السبايا :

وخاضت البيض في بحر السماء فما ... أبدت من البيض إلا ساق مختضب (٢)

ووصف الشعراء المسالك الموحشة بأنها تضل فيها الرياح أو يضل فيها القطا ، فأخذ ذلك شهاب الدين محمود في وصفه الطرق المؤدية إلى قلعة الروم ، مضيفا إلى تعثر الرياح زلل الذر ، وإلى ضلال القطا خشية العقاب ، وعدم استقرار النسر :

إذا خطرت فيها الرياح تعثرت ... أو الذر يوما زل عن متنه الذر
يضل القطا فيها وتخشى عقابها العقاب ، ويهفو في مراقيها النسر (٣)

وتعاور الشعراء على تشبيه الثريا بأنها راحة تشبر الدجى يعبرون بذلك عن طول الليل ، فأخذ ذلك صدر الدين بن الوكيل وزاد عليه بأن وصف الثريا بأنها جذماء :

بكف الثريا وهي جذما تقيس لي ... شقاق دجى مدت من الشرق للغرب
ولو ذرعوها بالذراع لما انقضت ... فما تنقضي يا ليل أو ينقضي نحبي (٤)

وقد يذهب الشاعر في محاولة التوليد هذه إلى أن يستعمل شيئا بشيء ، أو

---

(١) النجوم الزاهرة جـ ٧ / ص ١٧١ .
(٢) تاريخ ابن الفرات جـ ٨ / ص ١١٧ .
(٣) فوات الوفيات جـ ١ / ص ٤١٥ .
(٤) الغيث المسجم جـ ١ / ص ٢١٩ .

أن يخرج من التخصيص إلى التعميم ، أو أن يضيف إلى القول الأول ما يتشابه معه ويجرى على نسقه ، إلا أن القارىء البصير بالتراث لا يخفى عليه الأصل الذى يحتذيه الشاعر مهما حاول أن يموه ، أو يضفى على قوله الأصالة والجدة ، واقرأ معى قول شمس الدين الطيبى يصف أحد انتصارات الناصر محمد :

يروق الصوارم للأبصار مختطف … والنقع يحكى سحابا بالدما يكف

أحلى وأحسن وأشهى رقة وسنا … من ريق ثغر الغوانى حين يرتشف

وفى قدود القنا معنى شغفت به … لا بالقدود التى قد زانها الهيف

ومن غدا بالخدود الحمر ذا كلف … فإننى بالخدود البيض لى كلف

ولامة الحرب فى عينى أحسن من … لام العذار الذى فى الخد ينعطف

كلاهما زرد هذا يفيد وذا … يردى فشأنهما فى الفعل مختلف

والخيل فى طلب الآثار صاهلة … ألذ عندنا من الأوتار تأتلف

ما مجلس الشرب والأرطال دائرة … كموقف الحرب والأبطال تزدلف(١)

ولعلنا على الفور نذكر قول أبى تمام :

ما ربع معمورا يطيف به … غيلان أبهى ربى من ربعها الخرب

ولا الخدود وقد أدمين من خجل … أشهى إلى ناظرى من خدها الترب

سماجة غنيت منا العيون بها … عن كل حسن بدا أو منظر عجب(٢)

هى هى الصورة وإن حاول الطيبى أن يموه علينا بذكر القدود ولام العذار وألحان الأوتار وأرطال الخمر ، وكل ما فعله هو أنه أذاب هذا الإيجاز البديع الذى نراه فى شعر أبى تمام حتى تميع فى أبياته وفقد النبض والحياة .

---

(١) المنهل الصافى جـ ٢ / ورقة ١٦٢ .

(٢) ديوان أبى تمام جـ ١ / ص ٥٦ ، ٥٧ .

و — وكان للثقافة الدينية أثرها القوى فى تشكيل ذوق هذه الصفوة والقرآن الكريم هو جوهر هذه الثقافة وكتابها المعجز ، وقد راح الأدباء يجتلون بيانه منذ أن نزل به الوحى ، فلا غرابة أن يصبح الاقتباس من القرآن الكريم ، والاغتراف من فيض بيانه وتصويره ديدن أدبائنا يرونه معيارا من معايير الفصاحة والبلاغة ، وكان للشعراء طرائقهم فى ذلك فهم فى بعض الأحيان يضمنون شعرهم النص القرآنى بلفظه كما ترى فى صنع محيي الدين بن عبد الظاهر إذ يقول :

يا دمعى الساعى فى الهـــوى	اجر فهل ساع وما تجـــرى
وأنت يا قلـــبى الــــذى قـــد	خـــرجت مثـــل الصبر عن أمرى
إنسان عينى إن غـــدا خاســـرا	للدمــع فالإنســان فى خســـر (١)

ويحس القارىء أن الأبيات الثلاثة ربما كانت تمهيدا للاقتباس القرآنى فى الشطر الأخير .

ومثل هذا الصنيع نجده فى قول ابن نباته :

والذى راد مقلتيـــك اقتـــدارا	مــا أظـــن الوشـــاة إلا غيـــارى
بهـــم مـــثل ما بنــا من جفـــون	ساجيـــات تهتـــك الأســـتارا
كلمـا جـــال لحظهـــا تـــرك النـــاس ســـكارى	ومـــا هـــم بســـكارى(٢)

وقد يلجأ الشاعر إلى حل النظم القرآنى ومزجه بعبارته كما ترى فى قول البوصيرى يمدح قراسنقر :

---

(١) كشف السبع بالسكاب الدمع للصفدى ص ١٦٨ .
(٢) المصدر السابق ص ١٩٠ .

وأقبلت تحيي الأرض من بعد موتها ... وفي الجود ما يحيي الموات وينشر
فأخرجت مرعاها وأجريت ماءها ... غـداة عـار الأرض أشعث أغبر
فها هي تحكي جنة الخلـد نزهة ... ومن تحتها أنهارها تتفجـر (١)

وانظر إلى قوله في مدح ايدمر عز الدين :

يكفيه حمل الأمانات التي عرضت ... على الجبال فكادت منه تنفطر (٢)

وفي أحيان أخرى يلتقط الشاعر بعض ألفاظ من السياق القرآني ، ويمزجها بألوان من التصوير أو البديع كما نرى في قول ابن نباته :

يتيم ابتسـامك مـا يقهـر ... فسائـل دمعي لا ينهـر
وإنسان عيني إلى كم كذا ... يحين من الدهر لا يذكـر (٣)

فالشاعر يوري في كلمتي «يتيم وسائل» اللتين التقطهما مع غيرهما من السياق القرآني «فأما اليتيم فلا تقهر . وأما السائل فلا تنهر» ولكنه يقصد يتيم الدر الذي يشبه أسنان المحبوبة حين تبتسم ، ويقصد سائل الدمع ، وفي البيت الثاني نراه يوري أيضا في كلمة «إنسان» متكئا بشدة على التعبير القرآني «هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئا مذكورا» .

وكانت معاني القرآن وصوره ، وما جاء به من قصص مددا لا ينفد للشعراء ، فراحوا يستمدون منها ، ويأتون منها بقبس في أشعارهم ، فها هو البوصيري يشبه هواء البيمارستان المنصوري بالصور الذي يعيد الحياة للأجسام حين ينفخ :

---

(١) الديوان ص ١١٣ .
(٢) الديوان ص ٨٨ .
(٣) الديوان ص ٣٠٣ .

يجب ويهدى كل روح بجسمه كأن صباه حين ينفخ صور(١)

ويستمد محيي الدين بن عبد الظاهر صورته من الجنة والنار وهو يصف وجنة محبوب :

بي ظبي إنس من الأتراك وجنته كجنة الخلد إذ حفت بها النار (٢)

وإلى قريب من هذا ذهب ابن نباتة في خطاب محبوبه :

يا مليحا طرفي به في نعيم وفؤادي في النار ذات الوقود (٣)

ويتكيء القيراطي على القصص القرآني ، ويحمل صوره إشارات إلى أحداث هذا القصص ، فينتزع إحدى صوره من مناجاة موسى عليه السلام ربه إذ يقول :

لما درت أني الكليم من الجوى جعلت جوابي في المحبة لن ترى(٤)

وفي صورة أخرى يلمح إلى ما ورد في سورة أهل الكهف عن ذي القرنين فيقول في مدح أولاد الناصر حسن :

إن يلمعوا في الفضل مطلع شمسه فلقد رأينا منهم الاسكندرا (٥)

ويوسعنا أن نسوق العديد من الشواهد ، ولكنا ما سعينا إلى إحصاء أو حصر وإنما كان هدفنا أن نشير إلى أثر الثقافة الدينية في تكوين الذوق الأدبي لصفوة المتأدبين من أهل العصر .

---

(١) الديوان ص ١٠٣ .
(٢) الديوان ص ١٧ .
(٣) الديوان ص ١٠٣ .
(٤) الديوان ص ٤٦ .
(٥) الديوان ص ٤٦ .

وظاهرة الانجذاب إلى التراث تتمثل فى نثر هذا العصر كما تمثلت فى شعره ، ويكاد القارىء للفنون النثرية التى تمثل هذا اللون الخاص من الذوق يرى أنها لا تختلف عن الفن الشعرى إلا بالوزن والقافية ، لو قيل إن نثر هذا الذوق شعر محلول . و «حل الشعر» سمة بارزة فى كتابات هذا العصر ، وهى أيضا العلامة البارزة على انجذاب الكتاب إلى القديم بحيث يمثل محفوظ الكاتب من التراث شبه رصيد ينفق منه وقت الحاجة .

يقول شهاب الدين محمود :

«وأما الحل فهو باب يتسع على المجيد مجاله ، ويتصرف فى كلام العارف به رويته وارتجاله ، وملاك أمر المتصدى له أن يكون كثير الحفظ للأحاديث النبوية والآثار والأمثال والأشعار ليعق منها وقت الاحتياج إليها .» (١)

والقاضى الفاضل الذى ترسم جل كتاب هذا العصر خطاه ، وعدوه المثل الأعلى للفن الكتابى كما نلمس من ثنائهم عليه وإطرائهم له (٢) ذهب فى الاتكاء على محفوظه من الشعر القديم إلى شأو بعيد حتى صرنا فى بعض قطعه النثرية نستطيع أن نعد ماله من كلمات يصل بها بين أشطار من الشعر يستمدها من محفوظه ، فانظر إليه مثلا يكتب إلى صديق له .

«وصل كتاب مولاى بعد ما (أصات المنادى للصلاة فأعتما) ، فلما استقر لدى (تجلى الذى من جانب البدر أظلما) فقرأته (بعين إذا استمطرتها أمطرت دما) وسامته (فسامت مصروفا عن النطق أعجما) ، ولم يرد جوابا) وماذا عليه لو أجاب المتيما) . (٣)

---

(١) حسن التوسل ص ٩١ .
(٢) انظر نهاية الأرب للنويرى جـ ٨ / ص ٢٠٤ .
(٣) نهاية الأرب جـ ٨ / ص ٤٢ .

ولا ريب أن تفشى مثل هذه الظاهرة فى الكتابة النثرية يجعل منها عملا أقرب إلى التلفيق ، ويجعل القطعة النثرية تبدو وكأنها الثوب المرقع الذى لا جهد فيه للكاتب إلا وصل هذه الرقع ، والتأليف بينها على نحو من الأنحاء .

والحق أن كتابنا لم يبلغوا شأو القاضى الفاضل وتصلفه فى حل المنظوم فى ذلك الشاهد الذى عرضناه ، ولكن جهدهم انحصر عند حل بعض الأبيات الشعرية وإذابتها فى عباراتهم دون إسراف ، وإذا كان القاضى أشبه بالخازن المبذر فإن كتابنا كانوا أشبه بخازن مقتصد .

وعلى أية حال فظاهرة الحل الشعرى كانت سمة جمالية من سمات الكتابة فى هذا العصر ، واقرأ معى لضياء الدين أبى العباس أحمد القرطبى الأنصارى من رسالة له لابن دقيق العيد :

«لا زالت إمامته كافلة بصون الشرائع ، وواردة من دين الله وكفالة أمة رسول الله أشرف الموارد وأعذب الشرائع ، آخذة بآفاق سماء الشرف فلها قمراها والنجوم الطوالع ، قاطعة أطماع الآمال عن إدراك فضله وما زالت تقطع أعناق الرجال المطامع» . (١)

فنحن نرى القرطبى يعمد إلى قول البحترى :

هممت بليل أن تريع وإنما	تقطع أعناق الرجال المطامع

وإلى قول جرير :

أخذنا بآفاق السماء عليكم	لنا قمراها والنجوم الطوالع

فيحلها ويذيبها فى نثره .

---

(١) نهاية الأرب جـ ٨ / ص ٥٢ .

وكان للكتاب مهاراتهم فى حل المنظوم ، فبيت واحد من الشعر يمكن إنفاقه فى وجوه عدة ، ويمكن أن يقلبه الكاتب حسبا يقتضيه الموقف فيحله ويشتق منه مرة فى العتاب ، وأخرى فى الشكوى ، وثالثة فى الوصف حسبا يتفتق ذهنه ، وتؤدى إليه مهارته .

ويفخر شهاب الدين محمود أنه استطاع أن يفعل مثل هذا ببيت ابـن الرومى :

وحديثها السحر الحـلال لو أنه   لم يجـن قتـل المسلم المتحـرز

فإنه حله وأتى به فى وصف السيف فقال :

«وكل السيوف سحرا أنها لجنة ظلال ، وإلى النصر مآل ، وإذا كان من بيان الحديث سحرا فإن حديثها عن كلمته هو السحر الحلال» . (١)

ثم عاد فنقله إلى وصف البلاغة قائلا :

«البلاغة تسحر الألباب حتى تحيل العرض جوهرا ، وتحيل المواد المدرك بالسمع لانسجامه وحلويته فى الذوق نهرا ، لكنه سحر لم يجن قتل المسلم المتحرز(٢)»

وتقود هذه السمة إلى أخرى وثيقة الاتصال بها هى استرجاع الصـور القديمة ، يستعين بها الكاتب على ما يتناوله من موضوعات ، والكتاب فى ذلك لا يختلفون عن الشعراء . فانظر إلى محيى الدين بن عبد الظاهر يصف إحدى حملات «بيبرس» :

«لقد أحاطت العلوم الشريفة بالعزمات الشريفة السلطانية ، وأنها استصحبت

---

(١) حسن التوسل ص ٩٢ .
(٢) حسن التوسل ص ٩٢ .

ذلك حتى تصفحت المهالك ، وسرنا لا يستقر بنا في شيء منها قرار ، ولا يقتدح من غير سنابك الخيل نار ، ولا نمر على مدينة إلا مرور الرياح على الخمائل في الآصال والأبكار ، ولا نقيم إلا بمقدار ما يتزيد الزائر من الأحبة أو يتزود الطائر من النغبة ، نسبق وفد الريح من حيث ننتحي ، وتكاد مواطىء خيلنا بما تسحبه أذيال الصوافن تمحي ، تحمل همنا الخيل العتاق ، ويكبو البرق خلفنا إذا حاول بنا اللحاق» . (١)

ولا جديد في هذا التصوير فقد لجأ الكاتب إلى ما تعاور عليه الأدباء قبل ذلك من تشبيه السرعة بمرور الريح . ومن أن البرق يكبو اذا حاول اللحاق بالركب ، فضلا عما نراه بلفظه من شعر تأبط شرا «نسبق وفد الريح من حيث ننتحي» أو ما نراه محورا تحويرا طفيفا عن قول الحريري في مقامته المغربية «فلم أجلس إلا لمة برق خاطف ، أو نغبة طائر خائف» . (٢)

كذلك نلمس في النثر ما لمسناه في الشعر من كثرة التلميحات إلى أيام العرب في الجاهلية والإسلام ، واقرأ معي مرة أخرى لمحيي الدين بن عبدالظاهر في تعنيف دالة الذي تنقص من قدره :

وأم هل أبانى بك إلا مبالاة البازي بالحمام ؟ والليث بالضعاف الخميس ؟ ومتى كانت همدان تفخر على كليب أو تحذر منها الكيد ؟ أم متى خاف الأسد من أبي زبيد ؟ وهل بالت قريش بتأليب أبي سفيان ؟ أم هل فرحت مازن يوما من استباحة ذهل بن شيبان ؟ وبحمد الله ما أحوج الزمان إلى زياد ، ولا ألجأ إلى تلقيه بوجه مكفهر كأن عليه أرزاق العباد ولست — حاك الله —

---

(١) صبح الأعشى جـ ١٤ ص ١٤٠ .
(٢) مقامات الحريري ص ١٠١ .

من بنى صريم الذين تلقتهم التهائم والنجود ، ولا من بنى عمرو الذين ليومهم حمد صحب الصعود ، ولا فيك ما فى أبى قابوس من حزم ونائل ، ولا لديك ما لدى من إذا قال لم يترك مقالا لقائل» . (١)

فى هذه الفقرة كثير من التلميحات والإشارات لأحداث قبلية جاهلية ، ولأحداث إسلامية ، كما أن فيها ذكرا لبعض أعلام العرب فى جاهليتهم وإسلامهم .

أما ظاهرة الاقتباس من القرآن الكريم ونثر آية فهى تحل من الاحتفاء فى نثر الكتاب ، يقول علاء الدين بن عبد الظاهر فى التقليد الذى كتبه على لسان الخليفة المستكفى للسلطان بيبرس :

«لقد عول أمير المؤمنين على بن آرائك التى ما برحت الأمة بها فى المعضلات تستشفى ، واستكفى بكفايتك وكفالتك فى حياطة الملك فأضحى وهو بملك المستكفى ، وهو يقص عليك من أنباء الوصايا أحسن القصص»(٢)

فانظر كيف نثر القول القرآنى «نحن نقص عليك أحسن القصص» .

ويقول فخر الدين بن مكانس فى وصف زيادة النيل :

«فلو زدت فى أيام غيره من الملوك المترفين ، وليس يؤثر هلاك نفسه على مصالح المسلمين ، كنت أيها الملك بلغت قصدك ، وفعلت فى أبناء مصرك جهدك ، وكنت من الملوك إذا دخلوا قرية انتظروا فيها الأهلة ، وأفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة . (٣)

(١) رسالة ابن عبد الظاهر الى ابن الخطيب ص ٣ .
(٢) نهاية الأرب جـ ٨ / ص ١٣٣ .
(٣) صبح الأعشى جـ ١٤ / ص ٢٨١ .

فأين مكانس يشر في قوله الآية القرآنية «إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة» .

ذلك هو النثر واتعطافه إلى التراث .

وإلى هنا نكون قد استجلينا ظاهرة الانجذاب إلى التراث في الأدب شعره ونثره ، ونحن لا ننكر دور التراث في تكوين الأديب ولا في تكوين القارىء وتشكيل ذوقه . ولا ريب أن التراث يمثل إطارا ذهنيا للصنعة الأدبية، ويوجه عمليتي الإبداع والتذوق كلتيهما (١) ، ولكن الذي ننكره أن يكون هذا التراث قيدا يحد من قدرة الأديب ، ويثقل خطوه ، ويجعله دائما ملتفتا إلى الوراء . ولكن ينبغي أيضا ألا نتسرع فنجزم بأحكامنا على أدب هذا القرن فنكون قد فرضنا ذوقنا المعاصر على أدب عصر آخر . له معاييره الجمالية ومقاييسه الفنية التي تختلف عن معاييرنا ومقاييسنا .

وربما كان تحري أسباب هذه الظاهرة أجدى للأدب ودرسه من أن نتجنى على هؤلاء الأدباء ذوقهم الذي راق لهم ، وراق لمتأدبي عصرهم .

ولا يمكن أن نرد هذه الظاهرة إلى سبب واحد . فهناك جملة أسباب تشابكت وتضافرت في أن تصل بالذوق الأدبي إلى هذا .

ومن هذه الأسباب ما يتصل بالنقاد والبلاغيين الذين راحوا يملون على الشعراء ما يجب أن ينحوه من نهج القصيدة العربي . وما ينبغي عليهم أن يسلكوه من أساليب في أغراضهم المختلفة . وهذا ربما دفع الشعراء والكتاب إلى مضيق لم يكن ثمة خروج منه إلا بالرجوع إلى الوراء .

---

(١) انظر الأسس النفسية للإبداع الفني في الشعر خاصة . مصطفى سويف ص ١٤٩ وما بعدها

ومن هذه الأسباب أيضا ما يتصل بالدين ، وعلينا ألا يغيب عن أذهاننا أن العصر عصر حروب طاحنة كلها تبغي النيل من الإسلام وحضارته، وربما كان احتضان القديم والعكوف عليه يتم بدافع الحفاظ على الإسلام وحضارته والتشبث بأمجاده الزاهية التي تشرق من هذا التراث .

وسبب آخر ديني أيضا هو القرآن الكريم وما ضمنه من حياة متجددة ومستمرة للتراث الأدبي العربي جاهلية وإسلامية إذ في ضوء هذا التراث يفهم المسلمون كتابهم ، ويدركون مرامي كلمة ، ومقاصد آية .

ثم إن هناك أيضا مسألة الازدواج اللغوي ، حيث نشأت العامية ، وبعد البون بينها وبين اللغة الفصحى ، وربما كان من آثار ذلك على حد قول الدكتور الأهواني «أن يرتبط الشاعر بالماضي أكثر من ارتباطه بحاضره ، وأنه يظل ينظر إلى التراث القديم نظر اكبار وتقديس إلى حد يجعله أسير هذا التراث لا يستطيع الفكاك منه ، ولا الخروج عليه ، وإن ادعى أحيانا غير ذلك وسر هذا الارتباط هو ما يعتقده الشاعر بحق من أن اللغة التي يتعلمها تعلما ، ويتكلف التعبير بها تكلفا كانت عند أصحاب التراث الأول سليقة وطبيعة» . (١)

٢ — الشغف بالبديع :

وهذه سمة ثانية من سمات هذا اللون الخاص من الذوق الأدبي ، حيث تسلط البديع ، وأصبح مطلبا ينشد لذاته ، وراح بلاغيو العصر يفتنون في اختراع ألوانه ، والتوسع في فنونه ، حتى وصل به ابن أبي الاصبع إلى مائة

---

(١) ابن سناء الملك ومشكلة العقم والابتكار في الشعر ص ٢٧ .

وخمسة وعشرين لونا ، ووصل به ابن حجة فى بديعيته إلى ما يقرب من مائة وأربعين لونا .

ولا ريب أن ابن أبى الاصبع وابن حجة فهما البديع بمعناه العام فأدرجا تحته كل ألوان البلاغة العربية ، كما أنهما أدخلا فيه أشياء من مباحث النحو وأخرى من مباحث العروض . ولكن هذا يدل على مبلغ تسلط الذوق البديعى على متأدبى هذا العصر . وحسبنا أن نرى تلك الأنواع المختلفة للجناس التى أخذ يفرعها ابن حجة فى خزانته ، فهناك المركب ، والمطلق ، والملفق ، والمذيل ، واللاحق ، والتام ، والمطرف ، والمصحف ، والمحرف ، واللفظى ، والمقلوب ، والمعنوى اثنا عشر لونا ، هذا بخصوص الجناس وحده .

ويكفى أن نعرف أن فنا شعريا قائما بذاته فى هذه الحقبة اتخذ البديع غرضا له ، ذلك فن البديعيات ، حيث ذهب المشغوفون بهذا الفن إلى نظم قصائد فى مدح الرسول — صلى الله عليه وسلم — ضمنوا كل بيت من أبياتها لونا من ألوان البديع ، فعرفنا بديعية الصيان ، وبديعية صفى الدين الحلى ، وبديعية ابن حجة التى شرحها فى خزانته . وظهرت أيضا بديعيات مسيحية اتخذت من مدح المسيح عليه السلام مجالا لعرض الصور البديعية (١)

ومهما كان من أمر هذه البديعيات وما فيها من التعمل والتكلف فإنها تعكس ذوق العصر الذى شغف بالبديع أيما شغف .

وقد ذهب بعض الباحثين إلى أن هناك من نقاد هذا العصر من نادى بالتحرر ، وثار على الكثافة البديعية (٢) . ولكنى لا أظن الأمر كذلك بقدر

---

(١) انظر الصبغ البديعى فى اللغة العربية د. أحمد ابراهيم موسى ص ٢٨٠

(٢) د. محمد زغلول سلام . الأدب فى العصر المملوكى ص ٤٢٨ وما بعدها .

ما أظنه انتصارا للون بديعي على آخر ، فالصفدي مثلا شغف بالجناس وصنف فيه مصنفا وسمه بجنان الجناس جمع فيه كثيرا من شعره الذي تضمن هذا اللون البديعي ، بينما راح ابن حجة يتهكم على الصفدي وذوقه ، ويسري في الجناس لونا من ألوان القتادة ، ويقول : «وما أظرف ما وقع له (الصفدي) مع الشيخ جمال الدين بن نباته . وذلك أنه لما وقف على كتابه المسمى بجنان الجناس وقد اشتمل على كثير من هذا النوع سماه «جنان الخناس» . (١) ، ويقول عن الصفدي وغرامه بالجناس في موضع آخر .

«وكان الشيخ صلاح الدين يقسمن ورمه ويظنه شحما فيشبع أفكاره منه ، ويملأ بطون دفاتره ، ويأتي فيه بتراكيب تخف عندها جلاميد الصخور» .(٢)

ولكن ابن حجة وقد حط من شأن الجناس ، وحط أيضا من شأن ألوان بديعية أخرى كالطباق والتشريع (٣) يعصر التورية أيما اعتصار ، ويراها الغاية القصوى من غايات البديع ، ويرى أنه لا بأس بالجناس ولكن على أن يمتزج بالتورية .

فالأمر اذن ليس أمر ثورة على الكثافة البديعية ، ولكنه تعصب لـون بديعي على آخر .

ثم ما ظنك بذوق يرى الإبداع في الشعر متمثلا في قدرة الشاعر في الكلمة الواحدة على الإتيان بضربين من البديع ، وفي البيت الواحد على إيراد جملة منه (٤) أذلك ذوق ثائر على الكثافة البديعية ؟!

---

(١) خزانة الأدب ص ٢٧ .
(٢) خزانة الأدب ص ٢٩ .
(٣) انظر خزانة الأدب ص ٨٧ ، ١٤٠ ، ١٤٩ .
(٤) انظر خزانة الأدب ص ٤٥٢ .

إذن فلا مناص من التسليم بتسلط البديع على ذوق متأدبى العصر ، ولكن كيف تم ذلك ؟ وكيف ارتفع البديع هذا الارتفاع ؟ تلك هى المسألة .

وقد راق لبعض الباحثين أن يعزو الأمر كله إلى قضية اللفظ والمعنى ، وأنه منذ القرن الخامس ازداد أنصار قضية اللفظ ، حتى فهم الأدباء أن العمل الأدبى صنعة لفظية ولا غير . (١) وهذا تعليل سليم إلا أنه يقف عند العرض الظاهرى ، وربما كان الأمر أبعد من ذلك .

إن ظاهرة البديع — فى ظننا — ترتبط ارتباطا جوهريا بطبيعة الفن الإسلامى الذى يقوم على المنظور الروحى المسطح ، هذا المنظور الذى لا يهتم بالبعد الثالث للصورة ومن ثم يميل إلى التجريد ، كما أنه يميل إلى ملء الفراغ بعناصر كثيفة حتى لا يبقى مجال لعبث الشر المتمثل فى إبليس ، وربما تمثل لنا ذلك فى فن الرقش العربى «الأرابسك» حيث «نرى العناصر الهندسية المجردة تلتحم بانسجام مطلق ... وهذه العناصر مفروشة فى جميع أنحاء رقعة التصوير لا تترك مجالا لشرفة» . (٢)

وإذا علمنا أن هذا الفن العربى «الأرابسك» يقوم على قوانين من النظام ، والتساوى ، والتوازى ، والتوازن ، والتلازم ، والتكرار ، والتغير أمكننا — كما يرى الدكتور عز الدين إسماعيل بحق — «أن نجد مفتاح الدرب الضيق الذى يفضى بنا إلى الأساس المشترك فى الفن العربى ، حيث تتبين — فيما بعد — أن الشعر الجميل فى عرف النقاد والبلاغيين العرب ينطوى فى أساسه على صورة أو عدة صور ميلودية ، .. وعندئذ سنجد تلك القوانين التى تكمن

(١) د. أحمد ابراهيم موسى — الصبغ البديعى فى اللغة العربية ص ٣٣٣ .
(٢) جمالية الفن العربى د. عفيف بهنسى ص ٤٦ .

خلف الإيقاع والميلودى تمثل بأسمائها أحيانا (النظام — التساوى — التكرار) أو تمثل بأسماء أخرى فى أبواب البديع التى عرفها العرب» . (١) .

لا غرابة إذن أن يتسلط الذوق البديعى على الصفوة المتأدبة التى يعد الفكر الإسلامى رافدا هاما من روافد ثقافتها ، ولا غرابة فى أن يصبح البديع مطلبا يقصد لذاته .

وفى شعر هذا اللون يبدو لنا افتنان الشعراء فى عرض الألوان البديعية ، إذ راحوا يتلاعبون بالألفاظ والحروف تلاعبا ينم عن كثير من المهارة والحذق

وإذا كان الجناس لم يرق لابن حجة فليس معنى ذلك أن يخلو منه الشعر فابن حجة يصدر عن ذوقه الشخصى ، وربما كان الجناس من أظهر الألوان البديعية فى شعر هذا اللون الخاص واقرأ معى قول صدر الدين بن الوكيل فى مدح قراسنقر :

شمس سما فوق السماء محلـــه وسما سناه البــدر فى هالاتـــه
بالسيف والقــلم ارتـقى فعصى ما لعداتــه ومضى بذا لعداتـــه
فالعــلم بين بنانــه وسنانــه والحـلم بين أدواته ودواتـه (٢)

فنحن نرى فى هذه الأبيات عدة ألوان من الجناس : الجناس المطلق بين (سما وسنا) والجناس المحرف بين (عداته وعداته) وجناس التصريف بين (بنانه وسنانه) والجناس المطرف بين (أدواته ودواته) .

وفى شعر هذا اللون سيتراءى لنا الجناس بلون أو بآخر عند كل الشعراء ، فمن الجناس المطلق قول الجزارى :

---

(١) الأسس الجمالية فى النقد العربى ص ١٢٢ .
(٢) المنهل الصافى جـ ٣ / ص ١٣ .

هل من جناح إن جنحت إلى الهوى   وعشقت سحار الجفون غريرا (١)

ومنه قول البوصيري :

فاصرف هواها وحاذر أن توليـه   إن الهـوى ما تولى يصم أو يصـم

وقوله :

وراودتـه الجبال الشم من ذهب   عن نفسه فأراهـا أيمـا شمـم (٢)

ومن هذا اللون ما تراه في قول القيراطي :

وطفلة من بنات الـترك تاركـة   أخـا الضنا لهواها غـير تـتراك

القان ينسـب قانى خدها فلـه   تحت العصائب يبدو بين أتراك (٣)

ومن الجناس المركب المفروق قول شهاب الدين محمود :

ولم أر مثل بشر الروض لمـا   تلاقينـا وبنـت العامـري

جرى دمعي وأومض برق فيهـا   فقال الروض في ذا العام ربي (٤)

ومن المذيل قول ابن نباته :

فـاح نشرا وبدا كالبدر حسـن   حسد خاف ونشر الروض حائف

مثلما قد أقبلت من مصرهـا   أنجم العلم فنجم الشام شـامت (٥)

ولم يقف جهد الشعراء في الجناس عند هذا الحد ، بل راحوا يتظمون

---

(١) الديوان ص ٨ .
(٢) الديوان ص ١٩١ ، ١٩٢ .
(٣) الديوان ص ٣٦ .
(٤) خزانة الأدب ص ٢٨ .
(٥) الديوان ص ٧٨ .

القصائد ، ويجانسون بين قوافيها ، فتبدو القافية وكأنها كلمة واحدة مردده، ومن ذلك ما نراه في قول محمد بن أحمد الكندى الدشناوى :

قد كان حالى بكم حاليا لكنها العين أصابت فحال
لا مدة العيش وقد يتسم عن نظر المشتاق عين الخال
والسقم لا يبرح عن جسمه كأنه خصم بعين عال
يا سادة ديت عليهم أسى لما حدا حاديهم بالرحال
وأوجبوا حزنى كما حرموا على نومى واتصل محال (١)

وتمضى القصيدة على هذا النسق .

ولم يكن الشغف بفنون البديع الأخرى أقل من الشغف بالجناس ، وإننا والعثور فى شعر الشعراء على العديد من ألوان البديع التى عرفها العصر .

فمن المطابقة قول البوصيرى فى مدح قلاوون :

فضلته عن شدة الحزم يقظة وغيبته عما يريد حضور(٢)

ومن اللف والنشر قول الجزارى :

ملك كأن براحتيه الندى والدالى إماتة ونشورا(٣)

وقول محيي الدين بن عبد الظاهر :

وجياد من الأداهم والشهب تريك ليلا وصبحا مبينا(٤)

ومن الترديد قول القيراطى :

---

(١) الطالع السعيد ص ٤٩٤ .
(٢) الديوان ص ٩٩ .
(٣) الديوان ص ٩٥ .
(٤) تاريخ ابن الفرات جـ ٧ / ص ٣٢ .

الناصر بن الناصر الملك الذي قهر الملوك مؤيدا ومظفرا (١)

ومن التقسيم قول الرازي :

فالبيض تلمع والفرسان دامية والخيل تصهل والفرسان تصطدم (٢)

ونطوي هذه الفنون البديعية سريعا لكي نصل إلى التورية تلك التي ازداد بها الشغف ، وحملت رايتها المدرسة المصرية ، وشهد لشعراء مصر بالسبق كل من تحدث عن التورية . يقول الصفدي

« ولكن إذا سلكت محجة الإنصاف ، وظهرت حجة الحق التي هي أكمل الأوصاف وجد شعراء الديار المصرية في هذا النوع المخصوص من أحد وأجود ، ومتكلمهم إذا قام بالتورية أمد ، ومقاصدهم على ذلك أسعف وأسعد » (٣)

وأشار ابن حجة في أكثر من موضع من خزانته إلى تفوق المدرسة المصرية كما أشار إلى أقطابها البارزين من أمثال محيي الدين بن عبد الظاهر والوداعي وابن نباته .

ويبدو أن غرام المصريين بالتورية غرام قديم ، فهناك من أدباء مصر الفرعونية من نظم شيئا في وصف مركبة الملك معددا أجزاءها ، وكان يذكر اسم جزء من المركبة ثم يعود فيكرره بمعنى آخر . (٤)

والشواهد على التورية لا تحصى ، ولكن لا بأس أن نورد هنا بعض

---

(١) الديوان ص ٤٦

(٢) الديوان ص ٧١ .

(٣) فض الختام عن التورية والاستخدام ص ١٤٥ .

(٤) انظر ملامح الشخصية د. الصاوي الجويني ص ١٦٦ .

نماذجها ، فمن توريات محي الدين بن عبد الظاهر قوله :

إياكـم أن تنـكروا جعفـــرا   ذاك الخيـــالى وأصحابـــــه
فقيـل مصـــر كـم لـه جعفـر   مخيـل يخـرج فى بابـــه (١)

فهو يورى فى البيت الثانى فى كلمة «جعفر» إذ المعنى القريب جعفـــر الذى اخترع خيال الظل بينما هو يقصد معناها البعيد وهو «النهر» ، كـذلك يورى فى «بابه» إذ يتبادر إلى الذهن بابة خيال الظل ، بينما هو يريد شهر بابة من شهور السنة القبطية .

وكثرت توريات ابن نباته ، وهو أحد أقطاب مدرسة التورية ، وأورد ابن حجة فى خزانته كثيرا من تورياته ، ونورد هنا سوى ما أورده ابن حجة قوله موريا فى مدح علاء الدين بن فضل الله :

ذو الفضل قد دعيت رواة فخاره   فى الخافقين دعـــامه المتناسبـــا
فالبيت يدعى عامرا ، والجد يـــد   عى ثابتا ، والمال يدعى السائب (٢)

فهو كما ترى فى البيت الثانى فى كلمات (عامر ، ثابت ، سائب)

ويورى فى كلمة «المبرد» قائلا :

وإن كان فيك الحسن أصبح كاملا   لقد أصبح اللاحى عليك مبردا(٣)

والقيراطى يشارك ابن نباته فى غرامه بالتورية ، ومن تورياته قوله :

وراع قـــدك لمـــا صـــال عامله   بناظر منه فتان وفتـــاك (٤)

---

(١) نفس المصدر عن التورية والاستخدام ص ١٨٤ .
(٢) الديوان ص ٣٧ .
(٣) الديوان ص ١٤١ .
(٤) الديوان ص ٣٥ .

فهو يقصد ناظر المحبوب لا ما يتبادر إلى الذهن من منصب (الناظر) الذى وشح له بقوله (عامل) .

وتمتزج التورية بالجناس فى قوله :

شكوت لحظاً لها شاكي السلاح لقد ‌ ‌ ‌ ‌ عجبت لما غدا المشكو والشاكي (١)

والشاهد فى كلمة «الشاكي» آخر البيت .

ومن تورياته قوله مادحا :

عريق مجد فقد ما أصل سؤدده ‌ ‌ ‌ ‌ من آدم لخصال المجد حواء (٢)

وكان للبديع شأنه عند الصوفية ، ولعله توافق مع ما كانوا يعتقدونه عن المعنى المخبوء وراء الحرف ، ومع ما زعموه أن الحروف عالما ، وأنها أمم وأجناس . ومنذ القدم حملت كتب القبالة التي أثرت فى الفكر الصوفى بكلمات ركبت على نسق خاص ، ومجانسات تصحيفية تستجلب بها القوى الخفية . (٣) هذا إلى جانب ما لبعض فنون البديع من قيمة موسيقية تزيد من تأثير الشعر فى مجالس السماع ، حيث تتحول هذه التركيبات البديعية فى أفواه المنشدين إلى ما يشبه التعاويذ والرقى السحرية . ومن هنا نرى سر حرص شعراء الصوفية على التجنيس بألوانه المختلفة . فاسمع مثلا لقول عفيف الدين التلمسانى :

للقضب بالدوح أجياد وأجياد ‌ ‌ ‌ ‌ تدنو إليك وتنأى حين تنساد
وللحباب على شطي جداولها ‌ ‌ ‌ ‌ البيض والعقد عصياء ونضاد

---

(١) الديوان ص ٣٧ .
(٢) الديوان ص ٤٣ .
(٣) انظر : الرمز الشعرى عند الصوفية د. عاطف جودة نصر . الفصل الثامن برمزية الأعداد والحروف ص ٢٩٠ وما بعدها

فهات كأسك أو لطفاً يقوم بــــه مقــام كاســك تنسىّ حين نقاد
فيا المدامة أحلى من حدىثــك إذ يجلوه للسمع إنشاد وإنشــاد (١)

أرأيت كيف رصع التلمسانى أبياته بصنوف من الجناس منها المذيل، ومنها التام ، ومنها جناس التصريف .

ثم انظر كيف ائتلفت ألوان الجناس بإيقاع البحر الكامل عند الشيخ عبد العزيز الديرينى ، وتولد عن ذلك موسيقى لها إيقاع غنى جاذب :

تجافــانى الكــرى لمــا جفــانى كــأنى بالكــرى أحــزان عانى
أردد كالكــرى بــين المعــانى حليف الشوق لا يحتاج فكــرا
تحلت وما صداى غير ظـــلم وجوب اليــد مخلطــا بظــلم
لئن حكت عوادلنــا بظـــلم لقــد جاءوا بما أبدوه نكــرا (٢)

وإذا كان هذا شأن الجناس ، فقد كان للطباق والمقابلة شأن آخر ، وقد استعان بها الصوفية على التعبير عن مواجدهم الغريبة التى تلتقى فيها الأضــداد حيث يحس الإنسان البعد والقرب فى آن واحد . والنعيم والشقاء ممتزجين ، والوصل والهجر يجاذبانه أطراف روحه وانظر كيف التقت الأضداد فى قول الخيمى ، وكيف أصبح الوجد مجدا ، والذل عزا ، والفقر غنى :

وجــدى بكم مجدى وذل عــزتى والافتقــار إليــكم استغنــائى
يــا أهــل ودى يــا مكان شكايتى يا عز ذلى يا مــلاذ رجــائى (٣)

وانظر كيف أصبحت الخيانة وفاء فى حس التلمسانى .

---

(١) الأدب الصوفى فى مصر فى القرن السابع الهجرى . د. على صافى حسين ص ٢٢٨
(٢) المصدر نفسه ص ٢٨٢ .
(٣) الأدب الصوفى ص ٢٦٠ .

وقد وقفت لنقل فى شهودكـــم   إذ خنته والوفا وصف لخائنـــه(١)

وانظر إلى عبد العزيز بن أبى الأفراح وهو يتلاعب بألفاظ الوجود والفناء والدنو والنأى :

وجدت بقائى عند فقد وجـودى   فلم يبق حد جامع لحـــدودى
فأصبحت مـــنى دانيـــا بمعـــارف   وقد كنت عنى نائيا بجمودى (٢)

كذلك ألم شعراء الصوفية ببعض الألوان البديعية الأخرى كالتورية إلا أنهم مزجوها بمعان عرفانية ، وصبغوها بصبغة رمزية ، وترى ذلك فى قول ابن أبى الأفراح :

وإن أمرتنى نشأتى غير سيـــــدى   فصالح آبائى نذير جحـــــودى
سألقى عصاى فى رحاب تجـــردى   ليأتى من نحو القبول ورودى(٣)

ومما شاع فى شعر هذا اللون الخاص استخدام مصطلحات العلوم ، ولا يغيب عنا ، أن معظم متذوقى هذا اللون كانوا من الفقهاء ، أو ممن تغلب عليهم النزعة التعليمية لذلك لا غرابة أن يفتن الشعراء فى التلاعب بمصطلح العلوم من نحو وفقه وبلاغة إلى آخر ذلك ، ولا غرابة أيضا أن يعجب بذلك بلاغيو العصر ونقاده ويضعون له اسما بديعيا هو التوجيه .

وشغف البوصيرى بعلم النحو فراح يستمد منه كثيرا من صوره ، ويتلاعب بعديد من مصطلحاته . فانظر إلى قوله فى مدح الرسول عليه السلام :
خفضت كل مقام بالإضافـــــة إذ   نوديت بالرفع مثل المفرد العلم (٤)

---

(١) الديوان ص ١٥ .
(٢) الأدب الصوفى ص ٢٨١ .
(٣) المصدر نفسه ص ٢٨١ .
(٤) الديوان ص ١٩٧ .

ومن قوله فى مدح أيدمر عز الدين :

لكل شرط جزاء من مكارمه … وكل مبتدأ منها له خبر (١)

ومن قوله فى مدح قراسنقر :

فيا مصدر الفضل الذى الفضل دأبه … فما اشتق إلا منه للفضل مصدر (٢)

أما أحمد بن هبة الله الأرمنتى فراح يتلاعب بمصطلحات البلاغة من استعارة ومجاز قائلا :

صفات علا مهما أضيفت إلى اسمه … غدت حلل الفخر وهو طراز

فنسبتها إلا إليه استعارة … وإطلاقها إلا عليه مجاز (٣)

ويتلاعب ابن نباتة بمصطلحات العروض فى قوله :

أى فرع نما فمد ظلالا … سابغاً ذيلها على الطلاب

وافر المكرمات منسرح الخلق طويل القنا مديد الثواب (٤)

ويقول أيضا فى مدح علاء الدين بن فضل الله مضيفا إلى مصطلحات العروض مصطلحات علم الحديث :

ذو البيت إن حدثت عنه العلا خبرا … جاءت بإسنادها عنه أبا فأبا

بيت أفاعيله فى الفضل وازنة … فما تراه قناة المدح مضطربا (٥)

---

(١) الديوان ص ٨٩ .

(٢) الديوان ص ١١٩ .

(٣) الطالع السعيد ص ١٣٦

(٤) الديوان ص ٣٩

(٥) الديوان ص ٣١

ويتغزل التراطي فيتلاعب بألفاظ التجريح والتعديل من مصطلحات علم الحديث :

جـرى بتجريح جفنى بالبكا قلم   من حيث عدلك البارى وسوائك(١)

وفى أشعار الصوفية تتردد أيضا مصطلحات العلوم ولكنها تصطبغ بصبغة عرفانية رمزية يكتنفها غموض شديد كما نرى فى قول عفيف الدين التلمسانى :

رضـا عن الإعراب رفع محمد   فقـام ولـما صـح يبـنى محمدا
إذا لم يكن ما قام يطلب فاعـلا   سـواه رضنـاه بـه فتأكـدا
فلا وزن دلت على الفرق ظاهـرا   فتحقيق حكم الرفع جملتها سدى(٢)

هذا عن البديع والشعر ، فإذا تركنا الشعر إلى النثر وجدنا أن الأمر هو هو ووجدنا كل هذه الألوان البديعية تتراءى فى أعمال الكتاب مضافا إليها السجع بما افتن فى تفصيل ألوانه وأنواعه بلاغيو العصر ، فهناك المتوازى ، والمتوازن والمرصع ، وهناك حدود ومقادير الفقر المسجوعة وما يحسن من ذلك وما لا يحسن(٣).

وأصبحنا نقرأ الفصل النثرى رسالة كان أم مفاخرة أو مقامة فنراه — كاللوحة التى افتن صاحبها فى توشيتها فهنا جناس محرف ، وهنا جناس خطى وهنا تورية وهنا طباق والسجع ملتزم مع هذا وذاك ، واقرأ معى لصلاح الدين الصفدى من مقامته لوعة الشاكى ودمعة الباكى ما يقوله على لسان غلامه :

وقال : أنت حياك الله ورقاك ، وسلمك من دواعى الهوى ووقاك ، ولا أسهر لك جفنا من جانا الحبائب ، ولا أوقعك من هجر الحبوب فى مصائد المصائب ،

(١) الديوان ص ٣٥ .
(٢) الديوان ص ٢٠ .
(٣) انظر ص ٥٠ ، ٥٤ ، ٥٢ حسن التوسل .

ولا أحرق لك قلبا بنار البعد والفراق ، ولا لك أغرق جفنا بسيل المدمع المهراق ، ولا شغل فكرك بتجنى الحبيب وصده ، ولا أذاقك منه مرارة هجره وألم بعده ، ولا أوقعك من تجافيه فى بحار الأرق والسهر ، ولا سلبك رونق الوصال والاجتماع ، ولا راعك بيوم التفرق والوداع ، بل عطف الله عليك الأعطاف» . (١)

فمع التزام السجع كان الصفدى مشغوفا بالجناس ، فأخذ يعرض علينا فنونا منه بين (رقاك ورقاك) وبين (مصائد ومصائب) وبين (أحرق وأغرق) وبين (عطف وأعطاف) . كذلك نلمح ما أتى به من طباق بين الوصال والاجتماع وبين التفرق والوداع .

وكما شغف محيي الدين بن عبد الظاهر وابن نباته بالتورية فى شعرهما ، شغفا بها فى نثرهما أيضا فنقرأ لمحيي الدين بن عبد الظاهر من قوله فى خطابة صداق السعيد بركة بن بيبرس :

«وتسبح صهارة يتم بها — إن شاء الله — كل أمر سديد ، ويحقق بها كل توفيق تخلق الأيام وهو جديد ، ويختار لها أبرك طالع ، وكيف لا تكون البركة فى فلك الطالع وهو السعيد» . (٢)

ونقرأ لابن نباته قوله فى وصف الخيل :

«هذا وطالما قابلنا بوجه جميل ، وسمعنا عنه كل خبر خير ثابت ويزيد كما قال جميل» . (٣)

فهو يورى فى كلمتى ثابت ويزيد .

(١) فرجة الشاك ومتعة الباك ص ١٠ .

(٢) صبح الأعشى — ١٤ ص ٣٠١ .

(٣) صبح الأعشى — ١٤ ص ٢٧٥ .

ذلك شأن البديع وسطوته على هذا اللون الخاص من الذوق . ولا ريب أن فيه ما يستسيغه القارىء العصرى كما أن فيه أيضا ما تنكره أذواقنا ولكن ما لذوقنا وذوق هؤلاء وهم يصدرون عن مفهوم فى الأدب غير مفهومنا .

٣ — الإغراب والطرفة :

سبق أن أشرنا إلى اعتقاد ساد النقاد والبلاغيين والأدباء من أن القدماء أتوا على المعانى ولم يبق للمحدثين شىء . وأشرنا إلى أثر هذا الاعتقاد على الأدب إذ دفع الأدباء إلى مضيق لم يكن أمامهم لتفاديه سوى الارتداد إلى الوراء . وربما حاول بعضهم أن يتفلت منه فلم يكن أمامه سوى الإغراب والطرفة .

الإغراب والطرفة إذن كانا محاولة من الأدباء لكسر الجمود أو للابتكار حسب مفهومهم للأدب وللابتكار فيه . وربما قر فى خلدهم أن الابتكار هو أن يأتى الأديب بما لم يسبقه إليه غيره .

وراح البلاغيون يؤصلون لهذا الاتجاه . فيقول ابن أبى الاصبع فى باب النوادر «ومن الإغراب قسم آخر . وهو أن يعمد الشاعر إلى معنى متداول معروف ليس بغريب فى بابه فيغرب فيه بزيادة لم تقع لغيره ليصير بها ذلك المعنى المعروف غريبا طريفا . ويتفرد به دون كل من نطق بذلك المعنى»(١)

ويأتى بعد ذلك «ابن حجة» فيفسر ما قال ابن أبى الإصبع إذ يقول :

«وبيان ذلك أن تشبيه الحسان بالشمس والبدر مبذول معروف قد ذهبت طلاوته لكثرة ابتذاله ، وكان سابق المتقدمين وقبلة المتأخرين القاضى الفاضل أنفت نفسه من المثابرة على هذا الابتذال ، وكثرة تشبيه الحسان بالبدر فقال .

---

(١) تحرير التحبير ص ٥٠٨

تراءى ومرآة السماء صقيلة ... فأثر فيها وجهه صورة البدر
سبحان المانح» . (١)

هكذا أصبح الإغراب مرادفا للطرافة ، وأصبحت آى الابتكار أن يشغل الشاعر أو الناثر ذهنه بتلفيق صورة غريبة لم يسبق إليها ، وهذا — حسب مفهومنا الحديث — منعطف خطير فى عالم الأدب ، ومصدر الخطورة فيه أنه يوجه اهتمام الأديب إلى تفريعات جزئية كتصيد تشبيه أو تلقط استعارة أو إغراب فى لون من ألوان البديع ، ولم يدرك الأدباء أن الابتكار غير هذا ، وأن أساس الابتكار أولا وأخيرا هو الأصالة ، وهى أن يترجم الأديب عن نفسه بصدق ، وهذا الصدق لا يتوقف على لفظة أو صورة جزئية وإنما هو نبض يسرى فى أوصال العمل الأدبى كله ، ويؤلف منه صورة فريدة تحمل طابع الأديب ، وتصور ذاته ، وهذا — فيما أعتقد غاية ما يطمح إليه أديب من ابتكار ، ولكن هذا شىء ومفهوم العصر المملوكى شىء آخر . إن العمل الأدبى عندهم لم يكن بناء وجدانيا صرفا بل هو بناء يتسع فيه المجال للجهد الذهنى إلى آخر مداه .

وكان صدى هذا المفهوم فى عالم الشعراء ما نراه من جرى الشعراء إلى الإغراب ، ومن ثم يتحول الشعر فى أيديهم إلى عمل ذهنى بحت يفقد حرارته وتأثيره ، وقد يفيدنا فى ذلك نص طريف للصفدى يمثل تجربة شاعرا يحاول أن يأتى بالجديد ، ويقول ما لم تقله الأوائل ، فبعد أن يقدم بما يفيد أن الشعراء ابتذلوا معنى الدمع بالحمرة فحاول بعضهم الخروج من ذلك بنقل الحمرة إلى سواها من الألوان يقول :

---

(١) خزانة الأدب ص ٣٧٦ .

«وكنت قد كلفت نظم شيء في الدمع الأخضر فاتفق لي هذا المعنى فنظمته وهو :

يقول عذولي ما لدمعك أخضرا ... جرى في هوى ظبي غلا في نفاره
فقلت صفا دمعي وقابلت صدغه ... فأبصرت فيه لون آس عذاره

ثم يقول :

«وتبرعت بالنظم في الدمع الأصفر فقلت :

وقائلة ما بال دمعك أصفرا ... فقلت لها ما حال عن أصل حالته
ولكن غدى أصفر من سقم الهوى ... فسال به والناظرون أنالـه

ثم يقول :

«فقيل لي لم يبق إلا الدمع الأزرق فقلت :

قالت وقد نظرت لزرقة أدمعي ... أكذا يكون بكاء صب شيق
فأجبتها قد مات في جفني الكرى ... فجرت دموعي في الحداد الأزرق»(1)

هذا هو الجديد الذي أتى به الشاعر العصري !! وماذا تطلب منه ؟ ألم يأت بما لم يأت به غيره ؟ ألم يستبدل اللون الأصفر والأخضر والأزرق باللون الأحمر الذي درج الشعراء عليه ؟! ألم يعمل ذهنه ويكد عقله في إيجاد العلة المناسبة لاصفرار الدمع واخضراره وزرقته ؟ وهل لنا أن نعاتبه على مفهومه للتجديد وعصره يستملح ذلك ويستظرفه . فمرة يكلفونه بالنظم في الدمع الأخضر . ومرة يقول قائلهم : لم يبق إلا الدمع الأزرق .

---

(1) تشنيف السمع في انسكاب الدمع ص ١١ ، ١٢ .

ولم يقف الصفدى عند هذا الحد ، بل راح يوصل لهذا المفهوم النصى ناقدا أيضا ، ونسوق هنا أيضا تعليقه على أبيات ابن دقيق العيد :

كم ليلة فيك وصلنا السرى | لا نعرف الغمض ولا نستريح
واختلف الأصحاب ماذا الذى | يزيل من شكواهم أو يريح
فقيل لى تعريسهم ساعة | وقلت : بل ذكراك وهو الصحيح

يقول الصفدى :

«انظر إلى هذا النظم ما ألطف تركيب ألفاظه وأحلاه وكونه استعمل طريق الفقهاء فى البحث فى ذكر اختلاف الأصحاب وأنه قيل كذا وكذا وقيل كذا وقلت : كذا وهو الصحيح كأنه إمام المفرمين وقد ألقى درسا فى مسألة فيها خلاف بين الأصحاب ، وقد رجح ما رآه عنده من الدليل ، وما رأيت أحسن من هذا» . (١)

على هذه الأسس اللفظية أقام الصفدى نقده ، وبنى تذوقه الشعر وبصرف النظر عن تحركنا أو رفضنا لما يقوله الصفدى ناقدا ، وتجربته شاعرا ، فهو نموذج نهتدى به فى فهم تجارب سائر الشعراء فى عصره ، والوقوف على سر هذه اللفظية فى كثير من شعرهم . إنها — إذن — محاولة الإتيان بالجديد

انظر مثلا إلى محى الدين بن عبد الظاهر يحاول أن يأتى بصورة جديدة ، يحاول أن يفضل محبوبته المصرية على البدويات اللائى تغزل بهن شعراء العرب لقد كانت المرأة البدوية — كما عرف من قراءته — تسكن فى خيمة من الشعر ومحبوبته المعاصرة مرخاة الشعر ، هذه فرصة ملائمة لن يدعها الشاعر تفلت من يده ، فليشبه شعر محبوبته بالبيت ، وهى صورة غريبة طريفة ، وهى

---

(١) الغيث المسجم ج ١ ص ١٨٢

فرصة أيضا ليحدث الجناس بين شعر الحيوية وشعر الكيمة :

ولا بيتها شعر بلى اذا تمشطت وأرخت عليها شعرها بيتها الشعر (١)

ولاشك أن هذا الابتكار أجهد الشاعر ولم يصنع المعنى إلا بمشقة فوقع فى الركاكة والتفكك من استخدام الحروف والظروف القلقة فى أماكنها .

وانظر إليه مرة أخرى يقول :

شكـرا لنسمـة أرضكـم كم بلغـت عنى تحيـة
كم قـد أطالـت بـل أطـا بت فى رسائلهـا الذكيـة
لا ضـرو أن حفظـت أحـا ديث الهوى فهى الذكيـة (٢)

ونحاول مرة أخرى أن نتتبع فكر الشاعر فى صياغته لهذه الأبيات ، لا ريب أنه بعد أن كتب البيت الأول شعر أنه لم يأت بجديد ، هذا معنى متداول ابتذله الشعراء ، فليولد منه — إذن — وليضف إليه ، فليجمع إلى البديع ويجانس بين أطالت وأطابت فى البيت الثانى ، ولكن مازال يشعر أنه لم يأت بجديد ، وأخيرا ها هو يقع على ضالته فى البيت الثالث ، فيتصيد تلك التورية فى كلمة «الذكية» ويعلل لها هذا التعليل الذى — لا ريب — سيعجب معاصرى عصره وهم يرون فيه انعكاسا لبعض بيئتهم العلمية .

وانظر اليه مرة ثالثة يصف شبابه فيقول :

وناطقـة بالنفـخ عن روح ربها تعبر عما عندنـا وتترجـم
سكتنـا وقالت للقلوب فأسمعت فنحن سكوت والهوا يتكلم (٣)

---

(١) الديوان ص ٢١ .
(٢) سلوك الغنى فى وصف السكن لوحة ١٩ .
(٣) حلوة الذاكرة وحلوة الخاطرة للمشقى ص ٤٣ ، ٤٤ .

سبحان المانح !! على حد قول ابن حجة ، أرأيت إلى هذا الابداع ؟ أرأيت كيف جعل الشاعر الهواء يتكلم ؟ وكيف أشكل على القارىء إذ ساق معناه هذا في تورية غريبة في كلمة «الهواء» ؟

ويمثلنا لابن عبد الظاهر يلقي الضوء على كثير مما نراه من محاولات الشعراء إذ ذاك للاتيان بالجديد . إنهم متذهبون نحو الإغراب ، وهذا الإغراب يقودهم إلى التعمية ، واقرأ معي قول ابن نباتة :

وخاطر شفه الأشواق تحجبه   سوالف الترك في عطف الأعاريب
كأنني لوجوه الغيد معتكف   ما بين أصداغ شعر كالمحاريب
كأنني الشمع لما بات مشتعل الفؤاد قال لأحشاء الأسى ذوبي (١)

وليس بخاف ما في هذه الأبيات من كد الذهن وعمل العقل ، فالشاعر شغل بجمع النظير إلى نظيره ، فقد وصف نفسه بأنه معتكف فشبه الأصداغ بالمحاريب ، وأتى في البيت الثالث بالشمع فكان لزاما عليه أن يذكر الاشتعال والذوبان .

وربما اتجه جهد الشاعر إلى تلفيق صورة متخيلة يلم شعثها من هنا وهناك . ونحن نقرأ فنحس مقدار ما أتعب الشاعر عقله في تلفيق الصورة ، وانظر إلى ابن نباته يصف الناعورة فيلفق هذا التشبيه الغريب :

وناعورة تنازل البحر اذ حكت   في حالة التشبيه بث عجائب
فلك يدور على المجرة مطلقاً   أسنى الكواكب وهي ذات ذوائب (٢)

وهكذا يتحول العمل الشعري إلى عمل عقلي ، وكأن الشاعر لا يتوجه بشعره إلى وجدان القارىء وحسه وإنما يتوجه به إلى عقله ، فلا عجب أن

---

(١) الديوان ص ٢١ .
(٢) الديوان ص ٦١ .

نقرأ القيراطي في مدحه لابن الشهيد :

في لام خدك عشاق الورى هاموا … يا لم من لا له لام ولا باء

ونقرأ له من القصيدة نفسها :

بقاف أقسم لولا نون حاجبه … لم يغن صاد ولا باء ولا راء

سم ولولا معاني ابن الشهيد سمت … لم يعل ميم ولا دال ولا حاء (١)

هكذا تصبح مهمة الشاعر أن يتلاعب هذا التلاعب اللفظي بالحروف ، فيحل الألفاظ وتصبح مهمة القارىء أن يعيد جمع شتاتها .

بل إن الأمر تحول إلى عملية رياضية حسابية ، إذ أصبح على القارىء أن يكون ماهرا في الجمع والطرح ليفهم الشعر ، وإلا كيف نفهم قول محمد بن عبد الله بن جبريل في فتح حصن «عكار» :

إن سلطان الرايـــا … زاده اللـه سعاده

قتــل الأعــداء رعبا … ولـه بالنصـر عـاده

حصـن عـكار فتـوح … وهـو عـكا وزياده (٢)

أرأيت أنه ينبغي على القارىء أن يطرح عكا من عكار ليعلم أن عكار تساوي عكا مضافا إليها حرف الراء ؟!

ومن هذا القبيل قول محيي الدين بن عبد الظاهر :

حصـن عـكار مـا صـفا … قـط يومـا مـن الكـدر

كيف يصفـو الـذي غـدا … ثـلثه أربـاعـه عـسكر (٣)

---

(١) الديوان ص ٤٢ ، ٤٣ .

(٢) النهل الصافي ج ٢ / ص ١٢٤ .

(٣) البيت النسيم ج ٢ ص ٢٢٢ .

ويتمثل هذا الجهد النحوي الرياضي أيضا فيما نراه من شغف بعض الشعراء بما عرف في البديع إذ ذاك بالقلب ، وهو أن نقرأ الكلمة طردا وعكسا ، وراح الشعراء يمزجون ذلك بألوان بديعية أخرى كما نرى في قول عفيف الدين التلمساني :

أسكرني بالقسط والمقلة الكحلاء والوجنة والكاس
ساق يريني قلبه قسوة   وكل ساق قلبه قاسي (١)

ومنه قول الصفدي :

كيف يطير الفؤاد من جزع   وكل صار قلبه راسي (٢)

وحسبنا أن نقرأ ما وصف به الصفدي كده في صياغة هذا البيت من طول التفكير والعكوف على الخاطر . (٣)

ومن اللعبة أيضا ما شاع بين الشعراء آنذاك من نظم القصائد على حروف المعجم فالبيت الأول يبدأ بالألف والثاني بالباء والثالث بالتاء. وهكذا كما نرى في صنيع محمد بن أحمد الدشناوي إذ يقول في مدح الرسول صلى الله عليه وسلم :

أبيت سوى مدح خير الورى   فأصبح نظمي وثيق العرا
بروحي صفات تحل القريض   وتسبكه ذهبا أحمرا
تعين القريحة أنى ونت   وتبرز ألفاظها جوهرا
ثراء المقصر امتداح البشير   فمهما أطرا المدح فيه طرا (٤)

---

(١) الغيث المنسجم ج ٢ ص ٤٠٤ .
(٢) الغيث المنسجم ج ٢ ص ٤٠٥ .
(٣) أنظر الغيث المنسجم ج ٢ / ص ٤٠٥ .
(٤) الطالع السعيد ص ٤٩٠ .

وتمضى القصيدة على هذا النسق حتى حرف الياء

ومن قبل الدشناوى كتب الجزار معشراته التى وسمها بالضراعة الناجحة والبضاعة الرابحة فى مدح الرسول عليه السلام ، وكل معشر من هذه المعشرات يلتزم فى بداية أبياته حرفا من حروف المعجم ، فيقول مثلا فى المعشر الذى يلتزم حرف الهمزة :

إمام الورى المبعوث من آل هاشم	لنا ولرسل الله فيك رجاء
إذا بعث الله النبيين فى غد	وضمهم فالهاشمى لواء

ويمضى على هذا النسق عشرة أبيات تبدأ كلها بحرف الألف ، ثم ينتقل إلى حرف الباء فيصنع الصنيع نفسه ، وهكذا حتى يأتى على حروف المعجم (١)

وتتمثل الذهنية أيضا فيما عرف على هذا العهد بفن «الشتويات» ونرى فيه كيف أصبح الشعر رياضة ذهنية أو قل لونا من ألوان التسلية العقلية يستعين به الشاعر على إيناس وحدته فى ليالى الشتاء ، فيختار بحرا من بحور الشعر الصعبة ويختار قافية من القوافى الصعبة ، ويحاول أن يروض ملكته بالنظم على ذاك البحر وهذه القافية واصفا الشتاء برعده وبرقه ومطره ، ولشهاب الدين بن فضل الله العمرى عدة قصائد فى هذا الفن ، نسوق بعض قصيدة منها بعث بها إلى ابن نباته :

البرق فى كانونه قد نفخ	والثلج فى جيب الفؤادى صبخ
قد زجر الرعد بآفاقه	كأنه مما دهاه صرخ
هذا وقوس النوء فى أفقه	كأنما قد نصبوا منه فخ

---

(١) أنظر الضراعة الناجحة والبضاعة الرابحة أبو الحسين الجزار .

قد شد عقداً عالياً أو بنى ... قنطرة في الحال ثم انفسح
والأرض كالمفروش أو هده ... خبرة من فوقه قد لطخ
لم يبق أرض قد زكا زرعها ... حتى طواها ثم رد السبخ
قد سح النيل بأمواله ... لا صحت يا قوم هذي النسخ
وامتلأ الوادي بإمداده ... كأنه القربة مما انتفخ (١)

ولا ينبغي أن نجهد أنفسنا بعد ذلك في تلمس نبض أو عاطفة وراء هذه الأبيات ، فبحسب الشاعر أن راض نفسه على هذه القافية الصعبة ، وربما أداه ذلك إلى العكوف على المعجم زمناً ليقف على تلك الكلمات التي تنتهي بحرف الخاء . ومثل هذا — حسب مفهومنا الحديث — لا يعد من الشعر في شيء ، وإنما هو عمل الذهن ، وكد العقل .

وإذا تركنا الشعر إلى النثر وجدنا الأمر لا يختلف ، ووجدنا أن الإغراب واللعثمة سبيل الكتاب كلما حاولوا الابتكار ، ونراهم أيضاً يصنعون صنيع الشعراء نفسه من محاولة اقتناص الصور الغريبة من استعارة أو تشبيه ، أو الإغراق في البديع وألوانه لحد يصل به توغلهم إلى الغموض ، وليس أدل على ذلك من قول الشهاب محمود في وصف النيل :

«ومسرة نبأ النيل الذي عم نيلا ، وجر على وجه الأرض ملاءة ملأته ، فشمر الحل الرحلة ذيلا ، وجرد على الجدب سيف خصبه فسال بحمر دمه على وجه الصعيد سيلا ، وجرى وسرى في صباه إشراقه وظلمة تراكمه إلى الأرض التي بارك به حولها ، فجل من أجراه نهاراً ، وسبحان من أسرى به ليلا» (٢)

ففي هذه السطور نلمس مدى جري الكاتب وراء البديع ، وهذا أوقعه

(١) ديوان ابن نباته ص ١٢١ .
(٢) نهاية الأرب ج ١ / ص ١٤١ .

كما ترى في التكلف الممجوج الذى تراه في قوله «مم تيلاء» وفي قوله «ملاءة ملأته» . وانظر أيضا إلى هذا اللف والنشر الذى جعل عبارته شديدة الغموض والإبهام مهو يقصد أن يقول : وجرى في ضياء إشراقه ، وسرى في ظلمة تراكه إلى الأرض التى بارك الله به حولها . فكيف صاغه ؟ قال «وجرى ، وسرى في ضياء إشراقه وظلمة تراكه إلى الأرض التى بارك به حولها»

وراح الكاتب يحاول الابتكار في التصوير فشبه المخصب بالسيف ولكنه شعر أنه لم يأت بجديد ، فلجأ إلى التفصيل ذاكرا كيف سال عصر دم الجدب على وجه الصعيد ، قاصدا بدم الجدب ماء النيل ، وفي ذلك ما فيه من العنت ومجافاة الذوق السليم ، ولكنه عمل الذهن .

وانظر معى أيضا إلى قول محى الدين بن عبد الظاهر مهنئا بفتح طرابلس «والفتوح الذى لا تحص تهامة ببشراه بل جميع النجود والتهائم ، فذو الصوارم والصرائم ، وأولو القوى والقوائم ، وكل ثغر من ابتهاج أهل الإسلام باسم ، وكل بربر بتوصيل ما ترتب عليه من ملاحم ، وكل بحر عذب يعرف كل غاز لا يعبس من جهاد الكفار في عقر الدار الشكائم ، وكل بحر ملح كم تغيظ من مجاورة أمنيه لأهل الشرك ومشاركتهم فيه فراح وموجه المتلاطم» . (١)

أرأيت إلى هذه الذهنية ، انى أكاد أحس بمكر الكاتب المجهد وتكاد تلفحنى أنفاسه اللاهثة وهو يجرى وراء هذه الألوان البديعية وهذه الصور المتكلفة .

أرأيت إلى هذا التكلف في تلفيق الجناس بين (تهامة والتهائم(؟ ،

---

(١) نهاية الأرب جـ ٨ / ص ١٠٦ .

و(الصوارم والصرائم)و (القوى والقوائم) و (يروبر) . ثم أرأيت إلى هــذا السجع فى التورية فى كلمة (ثغر) وكيف أخذ عقد العبارة ويطيل فيها ليأتى بكلمة (باسم) مرشحا لتوريته . ثم أرأيت كيف أفضت به هذه النزعة العقلية إلى تفكك العبارة وغموضها ؟

وفى هذه الرسالة نفسها نقع على صورة أخرى غاية فى السخف ، ولكن لاشك أن ابن عبد الظاهر خيل اليه أنه وقع على كنز عظيم حين راح يشيد بجهود الأشرف مخيل قائلا :

«وارسال أعنة الأقلام فى ميادين الطروس ، وإدارة حرباء وصف غير حرب إلى مواجهة غير الشموس» . (١)

وسنتمر له تشبيه الأقلام بالخيل ، والطروس بالميادين مع نبوها عن الذوق ولكن ما حرباء الوصف هذه التى سيديرها الكاتب إلى غير الشموس ؟!

وبعد ، فإذا كنا قد غبرنا بعض الشىء على هؤلاء الأدباء شعراء وناثرين فيا ذلك إلا أننا نطل على أدبهم من مفهوم حديث ، ونتلوقه بذوق عصرى لم نستطع التجرد منه ، وربما كان الإنصاف يقتضينا ألا نحاسبهم الا بمفهوم عصرهم ، وبالذوق الذى يصدرون عنه ، ويلبون متطلباته الجمالية

والحقيقة أن هؤلاء الأدباء — فى إطار مفهومهم عن الأدب — نقلوا لنا نبض عصرهم ، وعالجوا قضاياه الهامة .

وحتى إن حاسبنا هؤلاء الأدباء بمفهوم عصرنا عن الأصالة فسيبقى من أدبهم جملة صالحة سيبقى كثير من شعر المتصوفة ، وسيبقى عديد من المدائح النبوية . وسيبقى حشد من الأغراض نحس فيها بعض الشعراء ، وأحاسيسهم

---

(١) صبح الأعشى جـ ٥ / ص ١٠٧ .

المشرية إذ تبدو المحبوبة وكأنها تجسيد لأمل ضائع أو حلم منشود.

وفي ميدان النثر سيبقى لنا كثير من المقطعات الرائقة التي تحمل الروح المصرى ، وسيبقى معنى تلك المفاخرات التي أسقط الكتاب عليها إحساسهم بقضايا عصرهم .

ولا أظننا في حاجة لأن ندعم قولنا هذا بالشواهد ، فقد مر بنا في ثنايا هذا البحث أمثلة لكل ذلك .

ثانيا : اللون العام :

ونقصد به ذلك اللون الذى يمثل ذوق الجمهور العريض من الناس،وقد اتجه الأدباء إلى العامة يترصدون أذواقهم منذ أمد ليس بالبعيد ، بعد أن فقدوا حظوتهم في بلاط الخلفاء والملوك والسلاطين ، وبعد أن جلس على كراسي الحكم غرباء عن اللسان العربي ، لا يفهمون أدبه . وإن فهموه فنادراً ما يتذوقونه ، وليس أدل على ذلك من هذه الشكوى التي تتردد صارخة في شعر مصر المملوكية من كساد سوق الأدب ، وفساد الأذواق ، وضيعة الشعر فنسمع قول الجزار :

كيف لا أشكر الجزارة ما عشت حفاظا وأهجر الآدابا
وبها صارت الكلاب ترجيني وبالشعر كنت أرجو الكلابا(١)

ونسمع قول الوراق :

أصون أديم وجهي عن أناس	لقاء الموت عندهم الأديب
ورب الشعر عندهم بغيض	ولو وافى به لهم حبيب (٢)

(١) المغرب ح ٤ / ص ١٣٥ .
(٢) عزانة الأدب ص ٣٠٢ .

إذن لم يكن هناك مناص أمام الأدباء من أن يتجهوا بأدبهم إلى الشعب ، وهم فى ذلك لابد وأن يرضوا أذواق العامة ، ويجعلوا من أدبهم تعبيرا عــن وجدانهم وحاجاتهم ، واهتماماتهم . وهذا الأدب وإن كنا نفقد فيه تلك القيم العليا التى حرص الشعراء والأدباء الذين عاشوا فى بلاطات الحكام على التغنى بها ، فإننا لن نفقد فيه صدق التعبير وواقعية الأداء ، وارتياد الأدبامجالات جديدة كانوا قبل ذلك عازفين عنها أو قل مترفعين عليها . (١)

وهذا الأدب جدير بوقفة متأنية ندرك فيها سماته ومعاييره التى يصــدر عنها ، والحقيقة أن درس هذا التيار الشعبى فى الأدب يؤدى كما يرى فريدرش فون دير لاين — إلى ادراك أســس الأدب بصفة عامة . وبدونه يتحرك الباحث خلال تصورات مضطربة وتعسفية . (٢)

ويمكن أن نقف فى أدب هذا القرن على ظواهر عديدة :

١ — التمرد على التراث :

وفى ميدان الشعر نلمس هذه الظاهرة بوضوح ، وربما أحس شعــراء العصر المملوكى أن التراث الشعرى القديم بما توصل إليه شعراؤه من طرائق وأساليب لم يعد صالحا للتعبير عن اهتمامات العامة ومتطلبات حياتهم وأذواقهم ومن ثم انقلبوا ساخرين بالتراث مستهينين ، وأتت هذه السخرية خبيثةماكرة متمثلة فى «الإيداع» ذلك الفن البديعى الذى أتاح للشاعر إيداع البيت أو بيتين لشاعر آخر فى شعره ، وأخذ الشعراء فى شعر هذا القرن العام يودعون شعرهم من التراث القديم ، ولكنهم — وهنا الخبث والمكر — يمهدون لهذا الإيداع

---

(١) أنظر : الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى . آدم متز .. ترجمة (أبو ريدة) — جـ ١ ص ٣٩٢

(٢) أنظر الحكاية الخرافية ترجمة دكتورة نبيلة ابرهيم ص ٢٢٤

بسياق فاحش بذيء يعكس الاستهانة بكل هذا القدم .

ومازلنا نذكر قول نقاد العرب إن أمدح بيت هو بيت جرير :

ألستم خير من ركب المطايا   وأندى العالمين بطون راح

فانظر لابن نباتة كيف يدد هذه المقالة حينًا حيث جهذا البيت مودعا إياه بعض شعره .

أقول لمعشر جلدوا ولاطوا   وباتوا عاكفين على الملاح
ألستم خير من ركب المطايا   وأندى العالمين بطون راح (١)

وشبيه بهذا ما نراه من عبث الوراق ببعض شعر بشار :

نشطت لربىّ فاشتـ   ـاقت من بعد ما قد عزم
فقلت تنام ولي مقلة   مسهدة من بهذا حكم
فقال . أما قال بشاركم   فتبه لنا عرأتم ثم (٢)

وانظر قوله «أما قال بشاركم» وما يوحي به من سخرية .

وقال نقاد العرب إن امرأ القيس أشعر الشعراء إذا ركب ، وعدوا معلقته واحدة من أحسن سبع قصائد قالها شعراء العرب ، فانظر معي إلى فخر الدين بن مكانس يريح عنها هذا الجلال وهو يداعب صديقه صاحب الأنف الكبير

كأن القسا إن قيس مع ريح أنفه   نسيم الصبا جاءت بريا القرنفل
ترى شعرات الأنف مدت خدوده   لما نسجته من جنوب وشمأل
وقد درست بالأنف آثار وجهه   فهل عند رسم دارس من معول
كأني عزلانا على وصف أنفه   تولى بأعجاز وناء بكلكل

---

(١) ديوان ابن نباتة ص ١٢٠

(٢) الغيث المنسجم ج ٥ ص ١١٢

وجرد شعر الأنف منه وجامعا بمنجرد قيد الأوابد هيكل (١)

وكان ذلك دأب الشعراء كلما أرادوا الغض من القديم والحط من شأنه ،

فابن حجة يغض من قول النابغة :

كالأقحوان غداة غب سمائه جفت أعاليه وأسفله ندى

زعم الهمام ولم أذقه بأنه يروى بريقته من العطش الصدى

ويرى أن افضل منه قول القائل :

ورب ظبي آنس حناشني ملكته

نادمته أعجبته حدثته أطربته

أسقيته أسكرته حركته نبهته

مددته كشفته بلا طويل نكته

ويقول : «لعمري إنه أمكن وألطف وأظرف» . (٢)

والمسألة كلها تمرد على التراث ، إذ لم يعد ذوق العامة يراه صالحا للتعبير عن حياته .

وفي الكتابات النثرية التي تنحو منحى شعبيا نقف على شيء من هذا التمرد وقد اتخذ شكل تندر وسخرية بالنحاة والمقعرين والفقهاء . فشرف الدين بن أسد يكتب مقامة هزلية يتندر فيها بذلك النحوى الذى ذهب إلى بعض الأساكفة يصلح نعله قائلا :

وقد دعتني الضرورة إليك ، وتمثلت بين يديك لعلك تتحفني من بعض حكمتك ، وحسن صنعتك بنعل يقيني الحر ، ويدفع عني الشر ، وأجرته

---

(١) خزانة الأدب ص ٤٧٢
(٢) خزانة الأدب ص ٣٥

الك من اسمه حقيقا لأعطك رحيقا . هبه لغات مؤتلفة . على لسان الجمهور مختلفة . فمن الناس من كناه بالمدماس . ومن عامة الأمم من لقبه بالقلم . وأهل شرتوزه سموه بالسرمورة . وإنى أخاطبك بلغات هؤلاء القوم . ولا إثم على ولا لوم » .

ويحار الإسكافي فى أمر هذا النحوى المتقعر . ويفكر مدة ، ثم يجيبه قائلا :

« أخبرك أيها النحوى أن الشر منجورى شطعطاب المتوقل ، والمتقبقب من جانب الشرشنكل ، والديوك تصهل كتهيق زقاريق الصولحانات » .

وهذا كلام لا معنى له ، ولكن الإسكاف يريد أن يرد على صاحبه الذى يتحدث بحديث صار لا معنى له أيضا . وتبلغ سخرية الإسكاف بصاحبه مداها فى قوله :

« أجيبك بالزحزاح ، وأعرك عصى لبان المستراح . وأرقيك برقوات مرقاة قرقرات البطون لتخلص من داء البرسام والجنون » (١)

ويورد تاج الدين السبكى إحدى النوادر التى تندر بها العامة على الشيخ ركن الدين بن القوبع أحد متكلمى الأشعرية من « أن شحاتا سأله وهو فى الطريق ، فأجابه : يفتح الله . فقال : يا شيخ قد فتح الله تعالى عليك ، إذا جادت الدنيا عليك فجد بها . فوقف ابن القوبع ، فقال : ولم قلت . إنها جادت على . وإن سلمنا أنها جادت فلم قلت . إنه يجب على الجود بها ؟ وإن سلمنا أنه يجب فلم قلت : ما جدت . وما انحصرت القسمة فيك . » (٢)

وما أظن ابن القوبع صنع ذلك . ولكنه التندر على التراث بسقطه العامة

(١) فوات الوفيات ج ٢ ص ١٠٢–١٠٤

(٢) معيد النعم ص ٩٦

على أمثال هذه الشخصيات التي تعد تمهيداً له .

٢ — السهولة :

وهذه ظاهرة أخرى نلحظها في أدب الذوق العام ، وإذا بدأنا بالشعر فإننا نجد هذه الظاهرة فيه قد استرعت نظر بلاغيي العصر ونقاده ، فراحوا يتحدثون عنها ، فهي أحيانا تأتي عندهم مرادفة للانسجام ، وأحيانا أخرى هي العذوبة التي يرى القارىء معها الأسلوب وكأنه «كلام مسترسل غير مزور ولا معكر» . (١)

وقد تحدث نقاد العصر أيضا عن الطريق المرامية ، وعن البهاء زهير صاحب هذه الطريق ، وقالوا : إن ابن سعيد المغربي حينما قدم إلى مصر والتقى بالبهاء زهير وتذاكرا في المراميات ، أنشد البهاء زهير :

«يا بان وادي الأجرع» وقال : أشتهي أن يكمل لي هذا المطلع ، ففكر ابن سعيد المغربي وقال : «سقيت غيث الأدمع» ، فقال البهاء زهير : والله حسن ، ولكن الأقرب إلى الطريق المرامي أن تقول : «هل ملت من طرب معي» . (٢)

ومن هذا الحوار القصير نستطيع أن نتبين ملامح الطريق المرامية التي يدعو إليها البهاء زهير من إيثار السهولة ولين الألفاظ ، والبعد عن فخامة السبك ، وقعقعة الحروف ، ومن ثم فالطريق المرامية ليست إلا لونا من ألوان اتجاه السهولة يختص بالغزل ، وأظن البهاء زهير كان ينحو في ذلك منحى شعبيا .

وفي تتبعنا لاتجاه السهولة في شعر هذا اللون العام يمكن أن نحدد بعض الملامح والسمات .

(١) تحرير التحبير ص ٤٣٢ .

(٢) خزانة الأدب ص ١٠ .

(أ) واقعية التعبير :

ونقصد بها أن الشاعر يعبر بلغة مما لا يجري على أفهام العامة، لا يحاول أن يعلو بعباراته أو يتأنق في لفظه . وتقترب لغة البهاء زهير في بعض غزلياته اقترابا شديدا من لغة العامة فانظر إلى قوله :

جاء الرسول مبشري   منها بميعاد الزياره
أهدى إلى سلامها   وأتى علامتها أماره

وأشار عن بعض الحديث   وحبذا تلك الإشارة
إن صح ما قال الرسول   وهبته روحي بشاره (١)

وانظر إلى قوله :

قد طال في الوعد الأمد   والحر ينجز ما وعد
ووعدتني يوم الخميس   فلا الخميس ولا الأحد
وإذا التضييك لم ترد   عن قول لي والله خذ (٢)

وقد سبقت الإشارة إلى التقاط الشعراء بعض أمثلة العامة ونظمها في شعرهم . وشبيه بذلك ما نراه من التقاط الشعراء بعض عبارات العامة وتصحيحها إن صح هذا التعبير . ومن ذلك ما نراه من قول ابن الصائغ

نادى منادي الوفاء مصرا   إذ علقوا ستره علامه
من الملا قد سلمت حقا   قيت في السر والسلامه (٣)

ومنه قوله أيضا :

---

(١) الديوان ص ١٠٧ .
(٢) الديوان ص ٧٩
(٣) خزانة الأدب ص ٣٩٦ .

لعبت فى التطريح فى غايـــة　　　تقصر الأوصاف عن حدهـــا
إذ صاح فى الأقران لى بيـــدق　　　تموت منه الشاة فى جلدهـــا (١)

فالشاعر استخدم «ست فى الستر والسلامة» و «تموت منه الشاة فى جلدها» وهما من تعبيرات العامة ولكنه أعربها .

ومن ذلك أيضا ما نراه من قول نصير الدين الحمامى :

أقـــول للـــكأس اذ تبـــدى　　　بكف أحـــوى أغـــن أحـــور
أخربت بيتى وبيت غـــيرى　　　وأصل ذا كعبك المـــدور (٢)

فانظر استخدام الشاعر التعبير «أخربت بيتى» وانظر قوله «وأصل ذا كعبك المدور» أليس ذلك مما يجرى على الألسنة ؟

ومن ذلك قوله أيضا :

ومذ لزمت الحمام صـــرت فى　　　عملا يداوى من لا يداريـــه
أعرف حر الأشيا وباردهـــا　　　وآخـــذ المـــاء من مجاريـــه (٣)

لقد استخدم تعبير العامة «اخذ الماء من مجاريه» .

ويلتقط ابن نباته التعبير العامى «سلخ جلده» فيعربه فى شعره قائلا :

رب أديب رأى كتابـــــــا　　　فقـــال مـــاذا المليح عنـــده
فقـــلت فى الحـــال يا كتابى　　　خبـه وإلا سلخـــت جلـــده (٤)

وكذلك يفعل بقول العامة «على عينك يا تاجر» فى قوله :

---

(١) خزانة الأدب ص ٢٩٦
(٢) خزانة الأدب ص ٣٠٨ .
(٣) الدرر الكامنة ح ٥ / ص ١٦٧ .
(٤) الديوان ص ١٧٠ .

وبتاجر قلت له إذ رنا   رفقا بقلب صبره حائر
ومقلة تنهب طيب الكرى   منها على عينك يا تاجر(١)

واننظر أيضا إلى قول المعمار :

يرث رويلة اذ أمسى يقول لنا   ماب لنا قول صدق غير مكذوب
إذا وصلت حراميا بسفك دم   فى الحال علق من وعدى بعرقوب(٢)

والعامة تقول «معلق من عرقوبه» .

ولم يكن هذا الصنيع من الشعراء إلا سعيا وراء اصطناع لغة لا تعزب عن ذوق جمهورهم ، ولا تند عن أفهامهم ، حتى إننا نرى من شعر هذا القرن ما لا يميزه عما اصطنعه العامة من مواويل ، إلا الإعراب ومثال ذلك قول سيف الدين المشد :

وزائر زارنى والليل معتكر   وقال بالباب طراق نعم أولا
فقلت من فرط وجدى فى محبته   يا نور عينى ويا روحى نعم أولى(٣)

وسعيا إلى هذا الاقتراب من ذوق العامة راح الشعراء يستخدمون أيضا الكلمات العامية .

واقرأ معى البوصيرى متهكما بأحد المستحدبين قوله :

قالت البغلة التى أركبته   أنا مالى على العيون مراره
إن هذا شيخ له بحورا   ريه مع الناس كل يوم مهاره
قلت لا تفترى على الشاعر الفقيه . قالت : سل الفقيه حماره

---

(١) الغيران ص ٢٥٤ .
(٢) سلوك المسن لوحة ٣ ، ٤ .
(٣) الغيران ص ٩٩ .

لو أنه في عرسه شطر فلس   لرأى البيع رجلة وشطاره
قلت هذا شاد الدواوين . قالت   ما أولى هذا على الخراره (١)

فنى هذه الأبيات استخدم البوصيرى كثيراً من الألفاظ العامية مثل «رجلة» بمعنى رجولة ، و «شطارة» بمعنى مهارة ، ثم كلمة «خرارة» . ولا يعوتنا هذا التعبير الذى التقطه البوصيرى من أفواه العامة «أنا مالى على العيون مرارة»

وأخذت كلمات كثيرة من قاع المجتمع المصرى تطفو على سطح التعبير الشعرى . فهذا ابن دانيال يذكر «القمة» و «قرص الجلة» فى معرض حديثه عن فقره :

ذاب قلب الطاحون شوقاً والقـصعة دمع لها بدى ألف غسله

ورأيت الأطفال من عدم الخبز تلظى ولو على قرص جله(٢)

وانظر إلى هذه الألفاظ التى يستخدمها وهو يصف حال الخلاع حينما أبطل حسام الدين لاجين المنكرات :

وكل قواد له صرطة   من شدقه يلبعها شخره
يطلو على العاشق فى سومه   مطالبا لما اقتضى جزره
يقول والكيماخ من خلفه   وصده فى قوله هجره
زن ألف دينار اذا رمتها   إن كنت ما ترضى بها بعره (٣)

واستخدم الشعراء بعض ألفاظ تركية وفارسية . وقد مر بنا شىء من ذلك فى أبيات الجزار ، وأخرى لتقى الدين السروجى ، ونضيف إلى ذلك

---

(١) الديوان ص ٨٤ .
(٢) التذكرة الصفدية جـ ١٤ ورقة ٥٣ .
(٣) التذكرة الصفدية جـ ١٤ ورقة ٦٤ .

بعض شواهد من شعر سيف الدين المشد ، فمثلا نراه يستعمل «البغلطاق» في قوله :

ولما بدا في بغلطاق مقمص   غزال حكى ضوء الهلال جبينه(١)

ومرة أخرى نراه يستخدم لفظة «خشداشيه» التي تعني الزملاء :

يأيها المولى الأمير الذي   يرعد قلب الجيش من خاشيه
إن كان عذرك تقضي نحبه   الله يبقيك لخشداشيه (٢)

ويستخدم لفظي «الوالك» و «الشاشك» في قوله

تقباه صلب ماسك   فلتعجب الوالك
ما ذاك عما تشتكي   من صعبه الشاشك(٣)

ولعل هذه الألفاظ وغيرها كانت من الألفاظ التي تسربت إلى العامية المصرية من المماليك ، وامتزجت بلغة الناس .

وكان من أثر اقتراب الشعراء من الذوق العامي أن بعض الشعراء صاروا لا يكترثون باللحن يقع في عباراتهم ، ولا يعبأون بالخروج على قواعد اللغة ، وصار كل هدفهم إرضاء ذوق العامة حتى ولو كان ذلك على حساب النحو واللغة . فسيف الدين المشد يحذف نون الأفعال الخمسة دون ناصب أو جازم في قوله .

قامت تؤنبني وتزعم أنني   ناسي الوداد فقلت : ما أنساك
كم تمضي حبلا لقلبك موعدا   الصبح موعدنا فما أنساك

---

(١) الديوان ص ١٠٠ .
(٢) الديوان ص ١٠٢ .
(٣) الديوان ص ٧٧

ولقد ظننت بأن عندك رقة فتجيبي ظني فيا أشكاك (١)

ويدخل «كأنه» على الجملة الفعلية وهي مختصة بالجملة الإسمية في قوله :

ومبجل أهدى لنا رزءا ولقبه بأزر

لم يدر ما هو في الطعام كأن أنعاه بلغز (٢)

أما ابن دانيال فلا يحذف عين الفعل الأجوف حال جزمه كما نرى في قوله :

دن تنادى حريفها لا وداع لا عناق لا ... لا لا تبوس (٣)

ويحذف الحسن بن عبد الله الأسعردي أيضا نون الأفعال الخمسة دون ناصب أو جازم كما في قوله :

ومن يحسبهم لا أكثر الله منهم يسبوا أبا بكر ولم ينتهوا عمر (٤)

وربما كانت بعض هذه الأمور النحوية واللغوية راجعة إلى تأثير لهجات القبائل العربية التي سكنت مصر ومعظمها يمني ، فإن من هذه القبائل من كان يحذف النون في الأفعال الخمسة دون ناصب أو جازم ، كما أن منها من كان يلحق علامة التثنية أو الجمع بالفعل إذا أسند إليه مثنى أو جمع . (٥)

(ب) واقعية التصوير :

وراح الشعراء في شعر هذا القرن من الذوق يستمدون مادة صورهم وأخيلتهم من واقع المجتمع المحيط بهم ، ومن تجريات أحداثه ، فيستمد البهاء

---

(١) الديوان ص ١ ٨٤
(٢) الديوان ص ٤٢ .
(٣) خيال الظل ص ١٠٣ .
(٤) الطالع السعيد ص ٢٢٧ .
(٥) انظر تاريخ اللغة العربية في مصر د. أحمد مختار عمر ص ١٢٣ — ١٢٩

زهير صورته من لعبة النرد في حديثه عن خامل الرجال

لا تطرح خامل الرجال فقـد　　تضطر يوما إلى ارادتـه

فاليك في النرد وهو محتقر　　خير من الشيخ عند حاجته (١)

ونراه في أبيات أخرى يستمد صورته من دار الإمارة ومراسمها ودفاترها فيقول :

صار القلب إلا داره　　ضربت لـه فيهـا البشائـر

يـا تاركي في حبـه　　مثلا من الأمثال سائـر

أبـدا حديثي ليس بالمنسوخ إلا في الدفاتـر (٢)

ويستمد سيف الدين المشد مادة صورته من المواكب السلطانية فيقول :

وبـدرتم جاءنـا زائـرا　　كالشمس إذ تبدو من المشرق

يلسع خـداه على قـده　　كطلعة تنشر على سنجق (٣)

أما الجزار فيستمد كثيرا من صوره من عمله بالجزارة ومن ذلك قوله .

حسبي حرافـا بحرفتي حسبي　　أصبحت فيهـا معـذب القلب

موسخ الثوب والصحيفة من　　طول اكتسابي ذنبا بلا ذنب

خلا فؤادي ولي فم وسخ　　كأنني في جزارتي كلبي (٤)

بل إنه استمد مادة بعض صوره من حرف أخرى ، فنراه مثلا يستمد صورة من مهنة القصار وهو يصف حاله القصة :

أكلف نفسي كل يوم وليلـة　　هموما على من لا أفوز بخيره

---

(١) الديوان ص ٥١ .

(٢) الديوان ص ١٢٤ .

(٣) الديوان ص ٦٥

(٤) فوات الوفيات جـ ٤ / ص ٨٦ .

كما سود القصار في الشمس وجهه   حريصا على تبييض أثواب غيره(١)

أما ابن نباته فراح يستمد صوره من ألوان السكر وهو يثني على صديقه وعلىه بقوله :

حلا ثنائي على علي   كما حلا جوده المراقي
فرحت فاسكر ياصحبي   وراح فاسكر باقي (٢)

ويأخذ مادة صورة أخرى من بعض الأعياد القبطية فيشبه قلة حلاوة خطابه بحلاوة خميس العدس :

كتاب مع المطل أحضرته   قليل الحلاوة إذ يلتمس
كأن حلاوة إحضاره   حلاوة يوم خميس العدس(٣)

وراح القيراطي في شعره الذي غاطب به ذوق العامة يستمد صوره من الحياة المحيطة ، فمرة يستمدها من أحوال النيل كما في قوله :

جفني وجفن الحب قد أخررا   وصفين من نيلك يا مصر
جفني له يوم الوداع الوفا   وجفنه الساجي لي الكسر(٤)

ومرة أخرى يستمدها من حياة المماليك ورتبهم ومراسمهم كما نرى في قوله :

يا أمير الجمال قل   فالمراسيم تتبع
أنا مملوكك الذي   لك قلبي غدا تبع(٥)

---

(١) فترات الشعب جـ ٥ / ص ٣٦٥ .
(٢) الديوان ص ٨١ .
(٣) الديوان ص ٢٦٥ .
(٤) خزانة الأدب ص ٣٨٢ .
(٥) خزانة الأدب ص ٣٨٢ .

ومرة ثالثة يستمدها من دوائر الخدمة السلطانية وما بها من وظائف وجرايات فيقول

حلمت بالأعزال أبوابه   لما تبدى حسنه الباهر

ولي من الدمع على خده   جراية أطلقها الناظر (١)

ولسنا نعني بواقعية التصوير مجرد استمداد الشاعر مادة صوره الجزئية من واقع المجتمع ، بل نعني به أيضا أن الشعراء راحوا يصورون في أعمالهم واقع مجتمعهم في شتى الحالات . فصوروا الجوع والفاقة والحاجة ، ووصفوا حياة الحرافيش ، وأبرزوا واقع التحلل الخلقي والاجتماعي . وقد أوردنا في ثنايا هذا البحث نماذج لكل هذه الألوان .

(ج) العزوف عن البديع :

وكان الميل إلى السهولة دافعا للشعراء في مخاطبتهم ذوق العامة لأن يعزفوا عن البديع ، وما يترتب عليه من معاظلة التركيب وغموضه أحيانا ، وقد أدرك نقاد العصر هذا الاتجاه عند أصحاب النزوع الشعبي فابن حجة في معرض حديثه عن المدرسة الغرامية يقول : «فإنهم ما أثقلوا كاهل سهولته بنوع من أنواع البديع اللهم إلا أن يأتي عفوا من غير قصده» (٢) . وألمح إلى ذلك الباحثون المحدثون ، ومنهم من وسم هذا الاتجاه الشعري بمدرسة المعاني (٣) .

ولسنا ننكر أننا سنقع في بعض هذا الشعر على ألوان من البديع ولكننا سندرك أن الشاعر ما لجأ إليها إلا تظرفا وتفكها ، فالظرف هو المدخل إلى البديع ، أو قل هو المدخل الذي يدخل منه البديع إلى شعر هذا اللون ، فنجد

---

(١) خزانة الأدب ص ٣٨٢ .

(٢) خزانة الأدب ص ٢٣٦ .

(٣) الحركة الفكرية في مصر في العصرين الأيوبي والمملوكي د. عبد اللطيف حمزة ص ٢٨٩ .

الكريم السهروردي التوصي يأتي بجناس في هجائه بعض التجار حيث يقول :

طلبت منك جوزة منصفي من قرجما
وكم طلبت زوجة منك فلم تبحل بها(١)

فالجناس بين (جوزة) و (زوجة) لم يدفع الشاعر إليه — فيما أظن — إلا التطرف والتفكه .

وعلى هذا أيضا نأخذ هذه المجانسة التي ذهب إليها يوسف بن هلال الصلاحي في قوله :

كم قلت للحائك الظريف وفي راحته طاقة يخلصها
هل لك في رد مهجة لفتى ليس له طاقة يخلصها (٢)

ومن هنا أيضا كان شغف الشعراء في شعر هذا اللون التام بالتورية دون غيرها من فنون البديع ، لأن التورية بما تحدثه من مفارقة ترتبط بالفكاهة ارتباطا وثيقا .

وكثيرا ما راق الشعراء في توريتهم أن يستغلوا بعض الكلمات ذات — الدلالات المزدوجة بين الفصحي والعامية ، كأن يكون للكلمة مدلول في الفصحي وآخر في العامية ، وتكون المفارقة بين الدلالتين موطن الفكاهة وآية الظرف ، فابن دانيال مثلا يلعب على مدلولي كلمة «يقط» في كل من الفصحي والعامية في قوله :

عنانها برقيق النسج تخرجه فما يقط إلا كل من رشحا (٣)

ونرى هذا الصنيع أيضا في تورية القيراطي بكلمة «وصل»

---

(١) الطالع السعيد ص ٣٣٤ .
(٢) الدرر الكامنة جـ ٥ / ص ٢٣٧ .
(٣) خزانة الأدب ص ٣١٠

قلت . صلى فقد تقيدت فى الحب بأمر والأمر فى الحب ذل
قال . يا من تجيد علم القوافى لا تغالط ما المقيد وصل (١)

وهذا ما صنعه المعمار بكلمة «عاشم» مستغلا فى ذلك ما لها من مدلول فى الفصحى وآخر فى العامية :

وإن من الخدام من ليس يرتجى مكارمه فالبعد عنه غنائم
ولا تسلك ممن يتهمهم عشيمة فليس له بين الرجال عاشم (٢)

وقريب من هذا ما نراه فى قول شهاب الدين العطار :

طلبت رزقا قيل رح ناظرا جيوش سيس قلت رأى تعيس
لو أن ذى الحكام فى سلطنة ما طلبوا أى أبق بسيس (٣)

والحقيقة أن الشعراء شغفوا بالتورية شغفا شديدا سواء فى شعرهم الذى يمثل الذوق العام أم فى شعرهم الذى يمثل الذوق الخاص ، ولكن فتنتهم بها فى الشعر الذى يمثل الذوق العام كانت أشد ، وارتباطها بالفكاهة والظرف كان أوضح وأبرز . ولا ريب أنهم فى ذلك كانوا يرضون ذوق العامة من أهل مصر الذين عرفوا بميلهم إلى الفكاهة :

ومن غلبة الظرف على فن التورية ما نراه من استغلال بعض الشعراء لألقابهم وصناعاتهم فى هذا الفن . وقد أكثر من ذلك سراج الدين الوراق حتى قيل له . لولا لقبك لذهب نصف شعرك . ويتضح من توريات الوراق بلقبه (السراج) ميله إلى ارضاء ذوق العامة بما يخلقه من فكاهة متجددة ، فانظر إليه مثلا يورى به وقد أصابه الرمد فرأى أن السراج تحول إلى فانوس ·

شعريق مذ رمدت قد حبست طرق صكم فصرت محبوسا

---

(١) الغيث المنسجم جـ ١ / ص ٥٣
(٢) خزانة الأدب ص ٢٨٧
(٣) خزانة الأدب ص ٤١١ .

الحمد لله رادني شرمساً   كنت سراجاً فصرت فانوساً (١)

ومرة أخرى يورى بهذا اللقب في معرض الحديث عن عجزه :

طوت الزيارة إذ رأت   عصر الشباب طوى الزيارة
ثم انثنت لما انثنى   بعد الصلابة كالحجارة
وبقيت أهرب وهي تسأل جارة من بعد جاره
وتقول يا ستي استرحنا لا سراج ولا سماره (٢)

ومرة ثالثة يورى بلقبه في مجال فخره ببراعته وبعده عن الهجاء :

أثنى على الأنام أنى   لم أهج خلقاً وإن هجاني
فقلت لا خير في سراج   إن لم يكن دائم اللسان (٣)

وراح الحمامي أيضاً يستمد كثيراً من تورياته من عمله في إحدى الحمامات ومثال لذلك توريته في كلمتي «ذا العذر» و «الجب» في قوله :

في مسرل معروفه   ينهل غيثاً كالسحب
أقبل ذا العذر به   وأكرم الجار الجنب (٤)

وذهب ابن دانيال هذا المذهب فيما استمده من توريات من عمله كحالا كقوله :

يا سائلي عن حرفتي في الورى   وصيعتي فيهم وإفلاسي
ما حال من درهم إنفاقه   يأخذه من أعين الناس (٥)

---

(١) خزانة الأدب ص ٣٠١ .
(٢) خزانة الأدب ص ٣٠٢
(٣) فض الختام عن التورية والاستخدام ص ١٢٨ .
(٤) فض الختام ص ١٣٠ .
(٥) فض الختام ص ١٣١ .

وهكذا نرى أن الشعراء فى شعر هذا اللون تمسكوا بالتورية ، وعزفوا عما سواها من ألوان البديع ، أما عزوفهم عما سواها فرغبة فى السهولة، وأما شغفهم بالتورية فلارتباطها بالظرف والفكاهة وهما من سمات الشخصية المصرية

(د) غلبة الأوزان القصيرة والمقطعات والقطعات :

وتتمثل السهولة أيضا فى عزوف الشعراء فى شعر هذا اللون عن الأوزان الطويلة ، وإيثارهم الأوزان القصيرة ومجزوء البحور الطويلة ، ونظرة سريعة فى ديوان البهاء زهير تثبت صحة هذا الزعم ، ففى شعره الذى ينزع منزعا شعبيا نراه يؤثر البحور القصيرة أو مجزوء البحور الطويلة ، فنراه مثلا يختار البحر المجتث فى قوله :

تعيش أنت وتبقى	أنا الذى مت حقا
حاشاك يا نور عينى	تلقى الذى أنا ألقى
قد كان ما كان منى	والله خير وأبقى(١)

ويختار مجزوء الرجز فى قوله :

أحبابنا حاشاكم	من غضب أو حنق
أحبابنا لا عاش من	يغضبكم ولا بقى
هذا دلال منكم	دعوه حتى نلتقى (٢)

والشواهد كثيرة فى الديوان .

وهذه الظاهرة نراها أيضا فى شعر الجزار فنراه يختار البحر المجتث فى قوله مخاطبا ناصر الدين بن المنير :

---

(١) الديوان ص ١٨٧ .

(٢) الديوان ص ١٨٨ .

قد أصبحت البرايا   كثيرة وتساوي
فمنهم من يساوي   شيئاً ومن لا يساوي
هم الدراهم فيها   محاسن ومساوي
من لم يكن ناصريا   فإنه هكاوي (١)

ويكتب على بحر الهزج هذه الأبيات التي يفتخر فيها بعمله في الجزارة :

ألا قل للذي يسأل عن قومي وعن أهلي
لقد تسأل عن قوم   كرام الفرع والأصل
ترجيهم بنو كلب   وتخشاهم بنو عجل (٢)

ويختار ناصر الدين بن النقيب مخلع البسيط لينظم عليه هذه الأبيات الغزلة

حدثت عن ثغره المحلى   فمل إلى خده المورد
خد وثغر فجل رب   بمبدع الخلق قد تفرد
هذا عن الواقدي يروى   وذاك يروى عن المبرد (٣)

ويختار مجزوء المديد لينظم عليه هذه الأبيات :

سلك الشوق بقلبي   بعدكم صعب المسالك
ورى قلبي بنيرا   ن ولا نيران مالك
هذه بعض صفاتي   طالع العبد بذلك (٤)

وتشيع الأوزان القصيرة والمجزوءة فيما نراه من شعر فخر الدين بن مكانس الذي يمثل هذا الذوق ، فيقول مثلا على مجزوء الرجز :

---

(١) فوات الوفيات جـ ١ / ص ٥٠ .
(٢) نفس الكلام ص ١٢٧ .
(٣) فوات الوفيات جـ ١ / ص ٢٢٥ ، ٢٢٦ .
(٤) خزانة الأدب ص ٢٥٥ .

أهلا وسهلا ومسير . حبل بوجه القمر
بسطر قلوب الورى يهدى له بالبدر
إنسان يمقته سنا ء يمش البصر
بسرق ولكنه لم يبد الا سحر (١)

وإيثار الشعراء مثل هذه الأوزان كان ترضيا لذوق العامة ، وتشدانا لشيوع مثل هذه الأشعار في أوساطهم . فهي خفيفة على السمع ، سهلة الحفظ فيها رشاقة ، وليس فيها توعر البحور الطويلة وثقل وقعها

ويعث إلى السهولة ما نراه من ايثار الشعراء لعدم التطويل ، فشاعت المقطعات القصيرة . وشاعت أيضا القطعات السريعة التي لا تتعدى البيتين أو الثلاثة ، يسجل فيها الشاعر حادثة من الحوادث . أو خاطرا من الخواطر ، فغالبا ما تصطبغ بالفكاهة ومن مثل هذه القطعات ما نراه من قول محي الدين بن عبد الظاهر يسخر بأحد العور :

وأعور العين قال يكشفها بلا حياء منه ولا خيفه
وليس يلوى الحياء عند متى عورته لا تزال مكشوفه (٢)

وتكثر في شعر ابن دانيال القطعات التي كثيرا ما تكون تعليقا ساخرا على الأحداث . ومثال لذلك قوله معلقا على قتل ابن البقى بعد اتهامه بالزندقة

لا تلم البقى في فعله إن زاغ تضليلا عن الحق
لو هذب الناموس أخلاقه ما كان منسوبا إلى البق (٣)

وقوله حين أبطلت المنكرات :

---

(١) الديوان ص ١٤
(٢) المنهل الصافي جـ ٢ ورقة ٨٨ .
(٣) فوات الوفيات جـ ١ / ص ١٥٢ .

العمر يا إبليس إن لم تعد وتوسع الحيلة في ردهما
لانفقت سوق المعاصي ولا أفلحت يا إبليس من بعدها (١)

ومن القطعات ما يصاغ صياغة النادرة إذ يبدأ بداية جادة ثم تمضي إلى النهاية فتكون المفارقة التي تثير الضحك ، ومن ذلك قول فخر الدين بن مكانس :

كم مرة قالت أني تريد كثرة رزقي
يا رب وسع عليه فكان لي ثقب علق (٢)

ولا ريب أن هذه القطعات كانت تلقى رواجا لدى العامة بما تتميز به من روح الفكاهة ، وسرعة الخاطر ، ثم إنها بعد لا تحتاج إلى كبير جهد في حفظها وروايتها .

تلك ظاهرة السهولة بجوانبها المختلفة في ميدان الشعر ، فاذا انتقلنا إلى ميدان النثر وجدناها متمثلة في الكتابات النثرية التي تنحو منحى شعبيا . وينحو تاج الدين السبكي في كثير من كتابه «معيد النعم ومبيد النقم» هذا المنحى ، وبخاصة حينما يتوجه بقوله إلى الطبقات الدنيا من الشعب كأصحاب الحرف من جزارين وحاكة وأساكفه ومكارين . فيقول مثلا متوجها بالحديث إلى المكارى :

«ومن حقه التحفظ فيمن يركبه من الدواب ، ولا يحل لمكار يؤمن بالله وباليوم الآخر أن يكرى دابته من امرأة يعرف أنها تمضى إلى شيء من المعاصى فإنه إعانة على معصية الله تعالى . وكثير من المكارية لا يعجبه أن يكارى إلا الفاجرات من النساء ، والمعاق منهن لمالاً من في الكراء ، فإنهن يعطين من

---

(١) فوات الوفيات جـ ١ / ص ٢٤٦ .
(٢) الديوان ص ٢١٥ .

الأجرة فوق ما يعطيه غير من فقره للنساء . (١)

ويقول موجها الحديث إلى سائس الدواب :

ومن حقه النصح في خدمتها ، وتنقية العليق لها ، وتأدية الأمانة فيه ، فإنه لا لسان لها يشكوه إلا إلى الله تعالى . وقد كثر من السواس تعليق حرز مشتمل على بعض آيات القرآن على الخيل رجاء الحراسة ، مع أنها تتمرغ في النجاسة» . (٢)

وفي هذا القول نرى السبكي لا يحاول الارتقاء بعبارته ، ولا التأنق في لفظه ، ولا يتعب فكره بتصيد تشبيه أو استعارة أو تلفيق لون من ألوان البديع ، وإنما هو أسلوب فيه عفوية وتلقائية . هدف السبكي منه مجرد الإفهام والموعظة الحسنة ، وربما استخدم السبكي اللفظة العامية إذا كانت أعون على قصده .

وتتمثل لنا السهولة أيضا في بعض الروايات الصوفية التي تحكي الخوارق والكرامات وهي تمثل فنا من فنون النثر في هذا اللون العام من الذوق إذ قصد بها أصحابها أن تشيع في أوساط العامة . وعبارة هذه الروايات لا تتميز في كثير من الأحيان عن لغة العامة إلا بالإعراب . وقد مر بنا جانب من هذه الروايات

٣ — التحامق والإفحاش :

ألمعنا فيما سبق إلى أن الفكاهة سمة بارزة في الشخصية المصرية ، وفي أدب أدبائها ، ونضيف هنا أنها أشد بروزا في الأدب الذي يخاطب ذوق العامة . إلا أننا نلاحظ في هذا الأدب الذي يمثل الذوق العام أن الأديب كثيرا ما يعمل

---

(١) معيد النعم ص ١٤٠ .
(٢) معيد النعم ص ١٤٤ .

من نفسه موضع السخرية فيصور نفسه في صورة الجاهل أو الأحمق أو الأبله الذي لا يكاد يعي شيئاً وهذا ما نقصده بالتحامق .

وفي شعر الجزار أمثلة لهذا التحامق . وقد مرت بنا أبيات له يصور فيها جهله ، أو يصور فاقته جاعلا من نفسه محور الإضحاك . ولكن هذا التحامق يصل إلى مداه عند ابن دانيال الموصلي . فانظر إليه يصور حاله مع زوجه التي شوشت عليه عقله حتى ما عاد يدري من أمر نفسه شيئاً

بت أشكو من زوجة صيرتني   غالبا بين سائر الحضار
غيبتني عني بما أطعمتني   فأنا الدهر مفكر في انتظار
خبت حتى لو أنهم صفعوني   قلت كفوا بالله عن صفع جاري
فنهاري من البلادة ليل   في التساوي والليل مثل النهار
دار رأسي عن باب داري فبالله أخبروني يا سادتي أين داري
ملكتني عبارة وعيارا   حين زادت بالدرهمين عياري
أين مخ الجمال من طبع مخي   في التساوي وأين مخ الحمار
غفر الله لي بما رحت في البحر من البرد أصطلي بالنار
وتجردت للسباحة في الآل   لظني به الزلال الجاري
ولكم قد عديت وحلي برجليا   أوطأتني حليا على مسمار (١)

ويستمر ابن دانيال في تحامقه هذا في أبيات طويلة يصف نفسه بالبلادة حتى إنه ينسى أنه ينسى ، ويشبه نفسه بمغفل الشرائحي ، ثم يصور هذه المعركة التي أدارها مع صورته في مياه الزير وهو يظن الصورة شخصاً آخر . ولا ريب أن مثل هذا التحامق كان يعجب العامة ، وربما كان مصدر ذلك

---

(١) فوات الوفيات جـ ٢ / ص ٣٣٦ .

ضيقهم بالعقل وقيوده أمام ضغوط من الكبت والإرهاق عجز العقل عن كشفها أو النفاذ منها .

وقريب من التحامق الصفاع الذى فتن الشعراء بتصويره ، ونعتقد أن الصفاع كان يمثل لونا من مداعبات العامة الثقيلة ، وقد رأينا صدى من هذا الصفاع فى أبيات الجزار التى وصف بها النيروز ، وفى شعر المعمار تسمع صدى آخر له فيقول مثلا :

وصاحب أنـزل بى صفعـة ... فاغتظت إذ ضيع لى حرمتى
وقال فى ظهرك جاءت بسدى ... فقلت لا والعهد فى رقبتى (١)

ويقول فى أبيات أخرى :

ومغـنٍّ يهوى الصفـا ... ع ولم يكن إذ ذاك فنى
سلمته صفق الثقيـل فراح يحفظه بغبن
ما كـان منى بالرضى ... لكنه من خلف أذنى
لولا يد سبقت له ... لأمرته بالكف منى(٢)

أما الإفحاش فكان دأب الشعراء فى شعرهم الذى اتجهوا به إلى العامة ، وقد يأتى هذا الإفحاش خصبا يكنى فيه الشاعر عما يريد ذكره من عورات كما نرى فى قول الوراق مداعبا الجزار :

ركبت أتـنى ولم تجـد سوى ذكر ... ما لى أراك على المركوب مقلوبا
فالقنا قد تبدلت العنان بليال يظل لريق الأرض مسحوبا
ونم ميم وصاد إن قرأتها ... قرأت منى وكم فسرت مكتوبا(٣)

(١) فوات الوفيات ج ١ / ص ٥١
(٢) فوات الوفيات ج ١ / ص ٥١ .
(٣) فوات الوفيات ج ٤ / ص ٢٨٣ .

غير أن هناك من الشعراء من لم يتورع عن ذكر العورات بأسمائها، والأفعال بأوصافها . ومن أسرف فى ذلك ابن دانيال الموصلى والجزار وفخر الدين ابن مكانس ، وطبيعى أن الافحاش يمثل ذوق العامة . وميلهم إلى ذكر العورات وطربهم لسماع أوصاف الأفعال الفاضحة ، والشعراء فى ذلك كانوا يصدرون عن هذا الذوق ، ويعبرون عنه .

هذا عن الشعر ، أما فى النثر فرعا أعوزتنا النصوص التى تمثل هذه الظاهرة تمثيلا كاملا ، وهذا طبيعى لغلبة المنظوم على المنثور فى أدب هذا اللون من الذوق .

وعلى أى حال فإننا نقف فى بعض ما لدينا من نصوص نثرية على ميل الأدباء إلى الإضحاك ، وإسرافهم فى الافحاش ، وعدم تورعهم عن ذكر العورات ، وكما كان ابن دانيال ميالا إلى الافحاش فى شعره ، كان كذلك فى نثره ، وانظر إليه فى بابته طيف الخيال يتملق الأمير وصال بهذا التهديد لشاعره ضربعر :

«وهذا ظاهر الحال . ولأعلمن على انقلاب دسته ، ولأكسرن يده وأدسها فى استه » (١)

وانظر إليه يصف على لسان أم رشيد الخاطبة العروس التى سيتزوجها الأمير وصال :

«يا ولد عندى صبية ، كأنها الشمس المضية ، إلا أنها نفرت من زوجها الأول من ألم الافتصاص ، وداوتها القوابل بدواء مصاص ، وكانت بسلامتها. قد ألفت السحاق ، وتعودت به من دار معلمتها أم اعتق ، والعهد عسى

---

(١) خيال الظل ص ١٦٠ .

مطورة إذ نفرت من البعل ، وألقت النعل على النعل» . (١)

وإذا كان ابن دانيال قد التزم السجع فى نثره هذا ، فما أظن ذلك منه كان شغفا بالبديع بقدر ما هو محاولة لإثارة المفارقة بين هذا القول الهازل ، وبين السمت الذى ينتحله كتاب الديوان فى نثرهم ، وربما كان فى هذا أيضا سخرية بالكتاب وأدبهم .

الفنون المستحدثة

أ ــ الموشح :

الموشح فن شعرى من الفنون الشعبية التى كانت وليدة مجالس الأنس والطرب ، وخرجة الموشح خير شاهد على صلة هذا الفن الشعرى بالذوق العام ، فقد اشترط فيها أن تكون «حجاجية من قبل السخف ، قزمانية من قبل اللحن ، حارة محرقة منضجة من ألفاظ العامة ولغات الداصة» . (٢)

وإذا عرفنا أن الخرجة فى الموشح هى المركز الذى يسبق إليه الخاطر ، أو هى «الذنب الذى ينصب عليه الرأس» كما يقول ابن سناء الملك (٣) ، أدركنا مدى صلة فن الموشح بذوق العامة ومزاجهم .

وقد نظم الموشح عديد من الشعراء المصريين ومنهم على سبيل المثال الجزارى ، ونصير الدين الحمامى ، وابن دانيال الموصلى ، وصدر الدين بن الوكيل ، وابن القرية ، وفخر الدين بن مكانس .

وقد ذهب بعض هؤلاء الوشاحين إلى معارضة بعض الموشحات المشهورة

---

(١) عيال الظل ص ١٦٣ .

(٢) دار الطراز ص ٣٠ .

(٣) دار الطراز ص ٣٢ .

فترى ابن دانيال الموصلي يعارض موشح أحمد الموصلي الذي يقول فيه :

لي رشأ عندما رنا وسرى   بالحظ العاشقين إذ أسرا   قيد

عبا بأجفانه من الوطف

وما بأعطافه من الهيف

وما بأردافه من الترف

ذا الأسمر اللون رقّ معتمرا   ولى فؤادي من قده جبرا   أملد

فيقول ابن دانيال :

غصن من البان مثمر قمرا   يكاد من لينه إذا خطرا   ينعقد

بديع حسن سبحان خالقه

مسك ذكي الشذا لناشقه

أبيض ثغر يبدي لعاشقه

تمل عذار بعنبر الشعرا   وفوق شعر بتوقد الشعر أسود(١)

ويعارض صدر الدين بن الوكيل السراج الوراق في موشحه :

مذ لمحت عينا البرق من نعمان   بانت حرق

يذكي بمسيل دمعها الهتان   نار الحرق

ما أومض بارق الحمى أو خفقا

إلا وحدا لي الأسى والحرقا

هذا سبب لمهجتي قد خلقا

بموشحة يقول فيها :

---

(١) فوات الوفيات جـ ٣ / ص ٣٣٧ ، ٣٣٨ .

ما أعجل قده غصون البان   بين الورق
إلا وسبا المها مع غزلان   سود الحدق
قاسوا غلطا من حاز حسن البشر
كالبدر يلوح في دياجي الشعر
لا كيد ولا كرامة للقمر
الحسن جماله مدى الأزمان   معناه بقي
يزداد سنا وخص بالنقصان   بدر الأفق (١)

ويأتي بها تامة في سبعة أقفال وستة أبيات .

والواقع أن تطور فن الموشح على أيدي المصريين يعد تطورا محدودا . ولا نستطيع أن نقول : إن المصريين ابتعدوا بالموشح عن أصوله الأندلسية كما ذهب بعض الباحثين . (٢)

فمثلا في الخرجة لم يكد المصريون يخرجون عن تلك القواعد التي حددها ابن سناء الملك في دار الطراز مترسما الموشحات الأندلسية . وكل ما للمصريين في هذا المجال أنهم استبدلوا في بعض الأحيان العامية المصرية بالعامية الأندلسية سواء كانت عربية أم رومية . فابن القوبة يمدح ابن نباته بموشح يجعل خرجته عامية مستعارة على لسان إحدى النساء ، يمهد لها في البيت السابق عليها فيقول

وغادة دون حسنها الوصف ..
يثقلها عند خطوها الردف
قالت وأمواج ردفها تقفو

---

(١) المنهل الصافي جـ ٣ / ص ١٥٩ ، ١٦٠ .
(٢) انظر : أحمد صادق الجمال : الأدب العامي في مصر في العصر المملوكي ص ١٠٥ ...

هـذا الثقيل ردفي – يحسد حلقي – امشي يقطع قلبي (١)

وجعل محمد بن فضل الله بن كاتب المرج القوصي خرجته قولا مستعارا على لسان إحدى النساء عهد لها بقوله :

بالله يا من يتطلل   عليك أو من تألفين
ابن عمل بعمل   قالت نعم يا مسلمين

ثم يقول في الخرجة :

لولا على انطلا   تركت أبي وأبي   من شانو
كفاه والله البلا   يبيت سواى ذا الصبي   في أحضانو (٢)

وجعل فخر الدين بن مكانس خرجته قولا مستعارا على لسان أحد الغلمان عهد لها أيضا في البيت السابق :

وقلت : يا من سباني   وزاد تيها وهجرا
دع عنك هذا التواني   واخلع لباسك جهرا
فقال لما رآني   على القبيح مصرا
إيش ما يقطع قلبي   أنا أحل لباسي (٣)

فجهد الوشاح المصري في الخرجة – كما رأينا – اقتصر على إحلال اللهجة العامية المصرية محل اللهجة العامية الأندلسية . ولا نستطيع أن نقول إن هذا ابتعاد عن الأصل الأندلسي ، ولكنه الطابع المصري يطبع به الوشاحون المصريون فن الموشح .

---

(١) الوافي بالوفيات جـ ٢ / ص ١٠٥ ، ١٠٦ ، ١٠٧ .
(٢) الطالع السعيد ص ١٠٩ ، ١١٠ .
(٣) الديوان ص ٢٠٩ .

كذلك راح الوشاحون يتصرفون في عدد الأبيات والأقفال وفي أجزاء كل منها بالزيادة والنقصان ، فبينا ترى الموشحة تقصر قصرا ملحوظا فلا تتعدى أربعة أقفال وثلاثة أبيات عند نصير الدين الحمامي في مدحه الوراق إذ يقول :

أهوى رشا في مهجتي مرتعه   أفديه ربيب
لا بل قمرا في ناظري مطلعه   لم يبد مغيب
حقف وغزال وهلال وغصن   إن قام وإن رنا وإن لاح وإن
والمؤمن ليس كما قيل فطن   قلبي أبدا إلى محياه يحن
ما أبعده وفي الحشا موضعه   ناء وقريب
قد راق به شعري لمن يسمعه   إذ كان حبيب
يا خجلة غصن البان لما خطرا   يا حيرة بدر التم لما سفرا
يا غيرة ظبي الرمل لما نظرا   يا رخص غزال فتيق المسك لما نشرا
من لؤلؤ ثغر لمن يجمعه   زاه ورطيب
ما أسعد ، ما أغنى من يضمه   عقد الربيب
دمعي فحديث العشق إفك ومرا   عندي أبد الزمان والحق أرى
مدحي لسراج الدين نور الشعرا   والكاتب عند الأمرا والوزرا
كم فيه فضيلة ضمنت ترضه   عن قدر أديب
الله بما قد حازه يمتعه   والله مجيب (١)

نراها تطول طولا شديدا عند فخر الدين بن مكانس ، فتبلغ واحدا وخمسين بيتا وواحدا وخمسين قفلا في تلك القرعاء التي يقول فيها :

---

(١) المنهل الصافي جـ ٣ / ص ٢٦٣ .

أنعــم صباحا في ظــلال الجــــد

واركــب إلى المــنزل جواد الجـــد

ولا تبــع عاجلـــه بنقــد

وخــل نعــت بــازى وفهــد   واستجلب الأنس بطرد الطرد (١)

كذلك لم يراع بعض الوشاحين التساوى فى عدد الأجزاء بين أقفال — الموشحة ، فمرة يتكون القفل من جزئين ، ومرة من أربعة أجزاء ، ومثال لذلك ما صنعه فخر الدين بن مكانس فى موشحته التى أوردنا خرجتها ، فهو يبدؤها بقفل من جزئين :

يــا مــن يطــوف بــكاس   بالــه كـن لى مواســى

ثم يأتى بالقفل الثانى من أربعة أجزاء :

يــا عاطــر الأنفـــاس   عانـــى غيــر ناســى

حــتى صفيــت حواســى   وزال عمــى وباســى

ثم يعود فيأتى بالخرجة قفلا من جزئين :

إمــا يقطــع قاســى   أنــا أحــل لباســى (٢)

وحاول بعض الوشاحين التجديد فى أوزان الموشح . ومن ذلك ما صنعه شهاب الدين العزارى إذ كتب موشحا على وزن «الدوبيت» يقول فيه :

أقسمت عليك بالأصيل القانى   أن تنظر فى حال الكئيب العانى

أو تقصر عن إطالة الهجران   يا من سلب المنام من أجفانى

---

(١) روض الآداب للحجازى ق ١٠٧ — ١١٢ .

(٢) الديوان ص ٢٠٨ ، ٢٠٩ .

ما أليــق هــذا اللحــن بالإحســـان(١)

وإذا كان اللحن في الموشح لا يغتفر إلا في الخرجة ، ولعله من أجل هذا أطلق عليها هذا الاسم ، إذ هي خروج من الفصيح إلى الملحون ، فإنا نرى الوشاحين المصريين لم يلتزموا بذلك ، فالعزازى مثلا في موشحه الذي يبدؤه بقوله :

كأس رويه   جلا علينا النديم   أم سنا مصباح

يسكن ما حقه النصب في أحد الأبيات ، فيقول (غائب عنا) بدلا من (غائبا عنا) في قوله :

لنا خليل   تراه منذ ليالى   غائبْ عنا
وما الشمول   لليلة وهو سالى   أليس منا (٢)

ونرى اللحن يقع في أثناء موشح لنصير الدين الإدفوى يقول فيه :

فكم من الإسراف — إسراف — كفيه من خطر

عقل وحلمو الجافى — الجافى — ركوبه الخـــرر

أزرى الحبس الخـــالى — بالخـــال — ممــن قــد اعتــــدى

إذ فـــاق بالكـــال — كـــالى — أســـما وأنكـــــــدا

ممــن أتتــه الـعوالى — دوالى — قبلى ممــن الـــــــردى

وعد بذلت مــالى — أو مــالى — باللحظ إذ نظر

وقال إذ لوى لى — الوالى — يرفع له الخبر (٣)

---

(١) فوات الوفيات جـ ١ / ص ١٠١ ، ١٠٢
(٢) فوات الوفيات جـ ١ / ص ١٠٠ .
(٣) فوات الوفيات جـ ٤ / ص ٢١٦

ضحى يرى الإدفوى أثر استخدام كلمة عامية فى قفل المطلع هى « حلو » كما سكن الفعل دون جازم فى القفل الثانى «يرفع له الخبر» .

ولعلنا لحظنا فى هذا الجزء الذى أوردناه من موشح الإدفوى احتفاءه بالجناس . وهذا يقفنا على ظاهرة أخرى فى الموشحات المصرية . وهى احتفاء الوشاحين بالجناس خاصة من فنون البديع . ومثال آخر لذلك من موشح نصير الإدفوى :

يا طلعة الهلال	حى لا لى	فى الحب منتظر
يا غاية الآمال	أمـــالى	من الهوى مفر

أما لدائى راقى من راقى	قد عدوا عـــلى الأنسام
زها بحسن الساق والساقى	مـــن ريقـــه المـــدام

يا ــه فؤادى بــاقى	والبــاقى	فى لجــة الغــرام (١)

وعلى هذا النسق يمضى نصير الادفوى مراعيا التجنيس فى كل أجزاء الموشح . ولعل هذا الاهتمام بالتجنيس راجع إلى ارتباط الموشح بالموسيقى والغناء وغنى عن البيان ما للجناس من أثر موسيقى .

تلك سمات اللذوق المصرى على فن الموشح . وهى لا تعد كسر الأصول التى قام عليها فن الموشح . أو ابتعادا عنها . ما زال الموشح فى هيكله العام ونظام أقفاله وأبياته أندلسى البناء . أما أن يقصر مرة أو يطول أخرى . أو أن تسرى عدوى اللحن من الخرجة إلى الأبيات . أو أن يسرف الوشاحون فى التجنيس . فهذا طابع مصر تضفيه على هذا الفن الجديد

---

(١) الطالع السعيد ص ٦٨٢ .

٢ - الزجل :

الزجل توأم الموشح ، أو هو - كما يقول أستاذنا الدكتور محمد زغلول سلام - الصورة العامية الخالصة له . (١) وقد اتخذ الزجل في بداية نشأته شكل القصيدة العربية من حيث الالتزام بقافية واحدة ، وبقيت نماذج تمثل هذه المرحلة من حياته . (٢) ولكنه استقر في النهاية على بناء شبيه ببناء الموشح حيث يبنى على أدوار كل دور منها له أغصان وقفل تماما كما نرى في الموشح كل ما هنالك أن الموشح معرب . أما الزجل فلحنه إعرابه وخطأ نحوه صوابه على حد قول صفي الدين الحلي . (٣)

وإذا كان الزجل قد نشأ نشأة أندلسية ، واشتد عوده على يد ابن قزمان فان مصر حينا تلقفته أوفت به العناية فأساغت إليه ، ووسعت من موضوعاته وأضفت عليه من روحها . ومن طبيعة لغتها ما يمكننا أن نقول معه إن مصر هي الأم الثانية لهذا الفن .

ولمعت في سماء هذا الفن أسماء مصرية عديدة لعل أبرزها شرف الدين بن أسد ، وابراهيم المعمار ، وأبو عبد الله بن خلف الغباري ، وبلغ هذا الأخير مرتبة سامقة ، وكان لهؤلاء الزجالين مكانة عظيمة في نفوس الشعب ، لدرجة أن من يلمع اسمه في هذا الفن كانوا يسمونه «قيا»

وكان القيم الغباري مسموع الكلمة لدى العامة والخاصة ، وقيل : إنه كان يكتب أزجاله في برود موشاة بالذهب ، ومموهة بالفضة ، وكان الحكام يقدرون أزجاله بالهدايا والزيارات . (٤)

(١) الأدب في العصر المملوكي - ١ ص ٣٠٦ .
(٢) انظر العاطل الحالي والمرخص الغالي لصفي الدين الحلي ص ١٨ - ٢٥
(٣) العاطل الحالي ص ٦ .
(٤) انظر الفنون الشعرية غير المعربة (الزجل) . رضا محسن حمود القريشي ص ٤٢ .

وفي حديث صفي الدين عن الزجل نراه يقصره على ما يتضمن الغزل والنسيب ووصف الخمر والزهر ، (١) ومن هنا نستطيع أن نتبين دور مصر في تنمية هذا الفن ، وتوسيع إطاره بحيث صار يعبر عن كل الأغراض ، ويصور شتى نواحي الحياة . حتى لقد شارك الزجالون بزجلهم في السياسة وأحداثها ، فالعباري مثلا يقول مستبشرا بعهد السلطان الأشرف شعبان :

حب قلبي شعبان موفق رشيد   وجبالو أشرق ومالو حدود
وأبوه لحسن وعمه الحسين   وارث الملك من جدود الجدود
سل لحظك صارم لقتل العدا   وأنت منصور طول المدى والسني
زعق السعد بين يديك ثاريسش   فرح القلب بعد ما كان حزين (٢)

وحينما مات رثاه بقوله :

عن منازل طالع القلعة   كوكب السعد اختفى حين بان
اقتران زحل مع المريخ   كسوف شمس انتقل شعبان

ثم يمضي فيصف في منظومة طويلة ما جرى من أحداث ، ومن حصار لشعبان انتهى بمقتله ، ويقف وقفات فنية معلقا على الأحداث ، مبينا ما انتهى إليه أمر مصر على يد هؤلاء الأمراء المتصارعين :

دا يكن راكب فرس عزوا   عالبه فرحان يعود في احمرار
والذي في الحاشية يسلق   يقتل حتى يصير فرزان

... ...

مصر وادي تيه وصارت غاب   وسكنوا أبراج حوت رغبه

---

(١) العاطل الحالي ص ١٠ .
(٢) بدائع الزهور ص ١٨٢ ، ١٨٣ .

واماريتها الذين كانوا   في هنا من قبل ذي الوقعه
الملك خلان وهم عرلان   وأسود واقبار لهم طلعه (١)

ولم يترك التبارى وقعة من الوقائع إلا وسجلها بشعره ، فسجل الصراع بين بركة وبرقوق :

جعل الله لكل وقعه سبب   وتقول لك سبب هذه الوقعه
بركة راد يعمل على ايتمش   ولل الشام يسيروا سرعه
طلب الصلح بينهم برقوق   فارسلوا له أخلع عليه خلعه (٢)

وسجل أيضا وقعات الدولة مع العربان ، ومع زعيمهم بدر بن سلام سنة ٧٨١ هـ ، في منظومة زجلية طويلة يبدؤها بقوله :

باسم رب السما أبتدى   فارج الهم والكرب
ويفيد الذى حضر   قصة الترك والعرب

. . . .

جا الخبر يوم الاربعا   بأن في ليلة الأحد
جا دمنهور عرب خذوا   سوقها واخربوا البلد
وابن سلام أميرهم   هو الذى للجميع حشد (٣)

ولعل مما يلفت النظر في أزجال المصريين هذا الطول المسهب ، فمثلا منظومة التبارى هذه التى نظمها في تصوير وقعة العربان تبلغ أربعة عشر دورا غير المطلع ، وكل دور يتكون من ثلاثة أغصان وقفل من خرجتين ، ويقارب هذا الطول منظومته في رثاء شعبان .

---

(١) انظر المنظومة كاملة في بدائع الزهور ص ٣٠٢ — ٣٠٥ .
(٢) بدائع الزهور ص ٢١٤ .
(٣) بدائع الزهور ص ٢١٦ .

وطول النفس هذا ظاهرة لا نجدها عند الغباري وحده بل نجدها أيضا عند غيره ممن عالج هذا الفن ، ولسنا نعتقد أن ابن قزمان أو غيره من زجالي الأندلس بلغ في زجله هذا المدى .

وقد يكون السر في هذا الطول ما نراه من ميل بعض الزجالين إلى السرد والحكاية ، وفي بعض الأحيان يأخذ الزجل شكل القصة كما نرى عند هارون بن موسى بن محمد الرشيد المعروف بابن المصلي الأرمنتي ، ففي إحدى منظوماته يحكي قصة غرامه بإحدى البدويات :

بدويـة في بيوتـه ساكنـه   صيرت عندي المحبة كامنـه
اسمها ست العرب   هيجت عندي طـرب

أنا قاعد بين جماعه نتربع
صبرت واحده لها وجه مليح
بقوام اعدل من الغصن الرجيح

ويبدأ في ملاحقة هذه البدوية النافرة ، فتحذره من هواها ، ومن فعل أحداثها بعشاقها ، وهو لا يزداد إلا رغبة وهياما بينما هي تمعن في نفورها ، وأخيرا يتوسط لديها في أمره بعض الناس فتقبله عاشقا ، وتضرب له موعدا ، ويتم الوصال في النهاية :

عندما غاب القمر   واظلم الليل واعتكر   جف قلبي وانكسر
وعربيا في حديثي واهنا   آمنا في سربها مطامنا
والفؤاد مني اضطرب   ونبت ذاك الطرب

صرت نرعى النجم للوقت الصباح
اذ بدا لى الكوكب السارى ولاح

وإذا جبى قد أتت ست الملاح(١)

وعلى هذا النهج القصصي أيضاً يمضي فخر الدين بن مكانس في منظومته التي يصف فيها عشقه لأحد الغلمان :

قد هوى قلبي مشيق ... حبشي أحمر أهيف

محجل الغصن الرشيق ... كيف لا مشتق وتلف

أي قمر أي غصن يانع ... تسأل الله السلامه

بلصوط حفنا بدامع ... وعذار في الخد لا مه

الغزالة لم جد طابع ... والغزالة لو ملامه (٢)

والمنظومة فيها كثير من عناصر الفن القصصي من تشويق وإثارة وحوار وحبكة فنية .

وظاهرة أخرى تستلفت النظر في الأزجال المصرية هي ما نراه من حرص الزجالين على تسجيل أسمائهم ، والافتخار بنسبهم ، والتأريخ لمنظوماتهم في ختام أزجالهم ، وهذا ما عرف لديهم ببيت الاستشهاد ، فنرى المعمار في منظومته التي تحدث فيها عن إبطال المنكرات والتي تبدأ بقوله :

صبحونا ماء العنب باسمين ... رب مسلم لم يصبحونا الحسين

يختمها بقوله :

أرخشوا بالله توبة المعمار ... واكتبوها بالتبر طول الأعمار

قولوا من هجرة النبي المختار ... سبعمائة سنة خمس وأربعين (٣)

---

(١) الطالع السعيد ٦٨٧ — ٦٨٩ .

(٢) المنهل الصافي — ٢ / ص ٢٠١ ، ٢٠٢ .

(٣) بدائع الزهور ص ٨٩ .

وسار الغبارى أيضا على هذا المنوال فيقول فى خرجة زجله الذى سجل به واقعة العريان :

حسن صلب منى راجعى	وانكسر كسر ما انجبر
قالت أقوام بعد حسره	أبتى غنيم ديار مصر
جا الحكم طابق وقال	يا غبارى جرى خبر
لديار مصر تنسب	فى الزجل دا يكن عجب
قلت دا قسم النقه	وأنا قسم الأدب (١)

وعد الزجالون الإعراب فى الزجل من المستكرهات ، وصفى الدين الحلى يراه من أقبح العيوب ، ويسمى ذلك الفن الذى عرب ببعض ألفاظه ومزعاه أى دخيلا على الفن ، ومن قبل صفى الدين الحلى كان ابن قزمان رائد هذا الفن فى الأندلس قد نهى عن الاعراب وتتبع قوانينه ، وقال فى وصف زجله «وقد جردته عن الإعراب كتجريد السيف من القراب»(٢) أما فى مصر فلم يلتزم بعض الزجالين بهذه القاعدة ، وراح يمزج فى أزجاله بين الإعراب واللحن كما نرى فى هذه المنظومة الزجلية لعبد الملك بن الأعز الإسنائى :

جفونى ما تنام إلا	لعلى أراك
فنزوتى قد بسرائق الشوق	يا غصن الأراك
وطرفى ما رأى مثلك	وقلبي قد حواك

فهواك لم يزل مسكن ـ فسبحان الذى أسكن ـ وحسنك كم به أفتن،
وما قصدى سواك (٣)

---

(١) بدائع الزهور ص ٢١٢ .
(٢) العاطل الحالي ص ١٤ ؛ .
(٣) الطالع السعيد ص ٢٤٢ – ٢٤٣ .

والقارىء لهذه المنظومة يرى أن الإعراب يغلب عليها . ولا يكاد يفرقها عن الموشح إلا بعض ألفاظ ملحونة ، ويرى أستاذنا الدكتور محمد زغلول سلام أن الإسنائى فى هذه المنظومة أتى بالفصيح تملحا وتوشية وسط الغلط الملحون . (١)

ولعل استخدام الفصيح والقصد إلى الاعراب فى الزجل تملحا وتفكها هو الدرب الذى يمضى بنا إلى فن البليق ، والبليق لو نمن الزجل يتضمن الهزل والخلاعة والإحماض كما يقول الحلى . (٢) وربما كان مما يكمل تعريف الحلى لفن البليق ما ذهب إليه الشوطى فى معرض كلامه عن الفرق بين الزجل والبليق إذ يقول : «إن الزجل متى جاء فيه الكلام المعرب كان معيبا ،والبليقة ليست كذلك ، فيجىء فيها المعرب وغير المعرب ، ولذلك سميت بليقة من البلق وهو اختلاف الألوان» . (٣)

ونستطيع أن نصوغ من كلام الحلى والشوطى تعريفا كاملا لفن البليق ، فنقول إنه فن من الزجل يمزج فيه الإعراب باللحن ، ويقتصر على الهزل والخلاعة والإحماض .

ومن الجدير بالذكر هنا أن نشير إلى أن فن البليق فن مصرى خالص ، ذهب إلى ذلك الدكتور رضا محسن مستندا إلى قول الرافعى « ان اختراع البليق تم فى القرن السابع وبالتالى فهو من مخترعات المصريين . (٤) ولعل مما يعضد هذا الأساس التاريخى تناسب البليق مع طبيعة الشخصية المصرية التى تميل إلى الفكاهة .

---

(١) الأدب فى العصر المملوكى ج ١ / ص ٣٠٩ .

(٢) العاطل الحالى ص ١٠ .

(٣) نقلا عن الفنون الشعرية غير المعربة (الزجل) ص ٣٥ .

(٤) الفنون الشعرية غير المعربة (الزجل) ص ٣٥ .

ويعمد الزجالون فى البليقة إلى الأوزان الخفيفة والأسلوب السهل ، ولهذا كانت أكثر انتشارا من الزجل على الألسنة ، وتتمثل هذه الخصائص فى بليقة ابن مولاهم التى ضمنها نقده لأحوال جند الحلقة ، واختار لها وزنا راقصا ، حتى قيل إنه كان يرقص بها بين يدى السلطان حسن ، وتلك هى التى يقول فيها :

من قال أنا جندى حلق   لقد صدق
عندى قبا من عهد نوح   على المفتوح
لو صادفو شمس الصطوح   كان احترق
من تحت ذاك البطاق   قبا مشاق
كانو إلا بالبصاق   قد التزق
وفرقه خلعه من قشير   ما فيه حرير
لو يطلو اسكان يسير   مع المرق (١)

ولضرورة البليق وخفته على الألسنة عمد الزجالون إلى تضمينه آراءهم ، وتقديم اللاذع للنواحى السياسية والاجتماعية . ومن ذلك ما كان العامة يتغنون به فى سلطنة بيبرس الجاشنكير «سلطاننا ركين» وقد مر بنا فى ثنايا هذا البحث ، ومن ذلك أيضا ما رواه من قول المعمار فى «طشتمر» الذى كان العامة يطلقون عليه «حمص أخضر» .

أوردت نفسك ذلا   ورد اللصوص المهانه
وبالرشا حزت مالا   ملأت منه الخزانه
وكم قلوب عليك   يا حمص اخضر ملانه (٢)

---

(١) المنهل الصافى ج ٢ / ورقة ٢١٠ .
(٢) بدائع الزهور ص ١٥٤ .

وفي بليقة أخرى نرى الحسن بن هبة الله ينتقد الطريقة التطبيبية في عصره نقدا لاذعا ، وذلك إذ يقول :

يا قوم وايش هذا الفضول	تفسروا الأصـــــول

. .....

الملحة تفسرا يا فلان	أو عصر شيث والبسـبان
هـذا يجي بالفشيان	لسائر أرباب العقـول

......

من قوله مصدى كرب	القلب أضحى مكـرب
وبيت عضل قد خرب	وشرح حال فيه يطول

......

من صراوات مع حليات	ومد وشد مع حات وبات
من الذي عنده ثبات	يفهم مفاحيل مع فصول(١)

وظل للملاحة والمجون نصيبها الأكبر من فن البليق ، ولنقرأ شاهدا على ذلك من قول المعمار :

مثال حشيش من ذي الخضرا	يساوي عندي التين جـرا

ما لذ عيشي حين تكسرا
بذي البريزه وعكرا
ومن يلبق في الأخضرا
فصلو بتورلي الصفـرا

(١) الطالع السعيد ص ٢١٢ .

تذكــر نهــار فى بســاتين الورق

وأنــا مــن الطلــة غــــرق

دى مـسرى فتنــة مخلــوق

ناديت لوصــور قــبل أرا (١)

ويستمر الحوار فى تماجنه وعبثه مع غلامه إلى أن يصل إلى نهاية البليقة فتعرى ألفاظه ، وتسفل لهجته .

وهكذا كانت البليقة تصدر عن روح الشعب ، وتعبر عن سخرياته وميله إلى الدعابة والتندر .

٣ – الموالـيا :

المواليا من من فنون النظم الشعبي تلقفه المصريون من المشرق حيث يقال إنه نشأ بواسط ، ويقول صفى الدين الحلى إن أهل واسط اخترعوه من بحر البسيط حيث واقتطعوا منه بيتين وقفوا شطر كل بيت منها بقافية منها، وسموا الأربعة صوتاه (٢) ويقول : إن هذا الفن انتقل بعد ذلك إلى بغداد فلطفه البغداديون ، وتفصحوه ورققوا ودققوا وحذفوا الإعراب فيه ، واعتمدوا على سهولة اللفظ ورشاقة المعنى» . (٣)

ويبدو أن مصر كانت فى العصر الذى نحن بصدده قريبة عهد بمحاولة فى الموال ، إذ نرى نماذجه ما تزال بسيطة الطابع ، وغاية المنشىء أن يقول

---

(١) الفنون الشعبية غير المعربة (الزجل) ص ٣٩ .
(٢) العاطل الحالى ص ١٣٢ .
(٣) المرجع نفسه ص ١٣٤ .

صوتا لا يزيد عليه ، متغزلا أو شاكيا أو ماجنا ، فيقول ابراهيم بن محمد بن طرخان متغزلا :

البدر والسعد ذا شبهك وذا نجمك

والقد والسيف ذا رمحك وذا سهمك

والبيض والحسب ذا قسمي وذا قسمك

والمسك والحسن ذا خالك وذا عمك(١)

ويقول المعمار مماجنا :

يا من على الخمر أنكر غاية النكران

لا تمنع النفس بملا الدن والمطران

وامر بزرع الحشيشة تكتسب امران

وتغتنم دعوة المسطول والسكران(٢)

وراق لبعض الصوفية أن يستخدموا الموال في التعبير عن مواجدهم ، كما نرى في قول عبد العزيز بن أبي الأفراح :

لم تدعي الذوق والوجدان والأحوال

وانت خالي من الإخلاص في الأعمال

ارجع لجسمك فسم البين لك قتال

ترى حجر ما يشيله خيت طال(٣)

ونلمح بداية اتجاه الموالين إلى البديع وبخاصة الجناس في قول صوبان بن مسعود :

---

(١) النجوم الزاهرة جـ ٨ / ص ٢٨ .
(٢) الفترة الشعرية غير المعربة (الزوايا) ص ٦٦ .
(٣) الدرر الكامنة جـ ٢ / ص ٣٧٥ .

افارقـه وأقول لى قـد انسليـت
ورجعت قـلبي وزال الهم وانجليـت
واذكر مساويه فى حـق إذا وليـت
وانا رجـع جانبيـت الشـكل واغليت(١)

وكل هذه النماذج تعد صورة بسيطة للمواليا إذا قيست بالتطور الذى حدث فيا بعد من ظهور أنماط جديدة فى بناء الموال من أعرج ومن نعمانى ، ومن التزام التجنيس فى نهاية الأشطار ، ومن ارتباط الموال بالقصة وبنائه بناء قصصيا ، وأيا ما كان الأمر فى هذه الصورة البسيطة التى رأيناها للموال فى العصر المملوكى الأول استطاع الموالون أن يعبروا عن جوانب كثيرة من حياتهم وعواطفهم .

٤ — الدوبيت :

الدوبيت شكل من أشكال النظم الفارسى ، وكلمة «دوبيت» كلمة فارسية معناها «بيتان» وعلى هذا فهو فن أخذه العرب عن الفرس .

والدوبيت بحر من بحور الشعر المهملة ، وشطره «فعلن متفاعلن فعولن فاعلن» ويتكون من أربع شطرات على قافية واحدة ، أو ثلاثة على قافيـة واحدة مطلقة وفى هذه الحالة يسمى أعرج ، أو يكون مردوفا بأربع أيضا ، والشائع من أشكال الدوبيت الأعرج .

وقد استخدم الدوبيت فى كل الأغراض الشعرية من غزل وشكوى ، ودعابة وتصوف .

فمن قول ابن دقيق العيد يشكو ما يعانيه من عذاب جسدى وروحى :

---

(١) الدرر الكامنة — ٢ / ص ٢٢٤ .

الجسم تذيبه حقوق الخدمه — والقلب عذابه علو الهمه
والعمر بذاك ينقضي في تعب — والرحمة ماتت فعليها الرحمة (١)

ويتجه ابن تاج الخطباء القوصي اتجاها صوفيا .

يا غاية منيتي ويا مقصودي — قد صرت من السقام كالمفقود
إن كان بدت مني ذنوب سلفت — فيها لكريم عفوك المعهود (٢)

وإذا كان صفي الدين الحلي قد جعل الدوبيت من الفنون المعربة التي لا يغتفر فيها اللحن ، فإن المصريين لم يلتزموا بذلك ، ولحنوا في الدوبيت ، ومن ذلك قول علي بن محمد بن جعفر القوصي :

يا صب بحق من تحبي ناسي — ناي لهواه في فؤادي ساي
والله وما قلت ارقدني عن ملل — إلا لعسى تريه في الأحلام (٣)

ولكن الملحوظ أن المصريين أقلوا من نظم الدوبيت ، وربما كان ذلك لأن هذا الوزن يجري على بحر لم يعرف في الشعر العربي

٥ ـ الكان وكان :

هذا لون عراقي النشأة أيضا ، اخترعه أهل بغداد ، وسمي بذلك لأنهم أول ما اخترعوه لم ينظموا فيه سوى الحكايات والخرافات والمنصوبات، والمراجعات فكان قائله يحكي ما كان وكان . (٤)

والكان وكان يسير على نمط ثابت من البناء بوزن واحد وقافية واحدة ، ولكن الشطر الأول من البيت أطول من الشطر الثاني (٥)

---

(١) ابن شقيق الخيف . عن حاشية سعيد (الشعر الفكاهي) ص ١٥٣ .
(٢) الطالع السعيد ص ٩٢٣
(٣) العاطل الحالي ص ١٤٨
(٤) الطالع السعيد ص ٣٩٤ .
(٥) العاطل الحالي ص ١٤٨ .

ويقرر أستاذنا الدكتور محمد زغلول سلام أن هذا الفن انتقل إلى مصر في عهد الفاطميين وسموه بالزكالش . (١)

وعلى أي حال فلم نعثر على نموذج لهذا الفن في أدب العصر المملوكي اللهم إلا ما وجدناه من تسجيل ابن الوردي لطاعون الشام ، وقد سبق أن أوردنا طرفا منه ، ويبدو أن المصريين لم يشغفوا بهذا اللون .

---

(١) الأدب في العصر المملوكي جـ ١ / ص ٣٢٩ .

خاتمـــة

والآن وقد آذن البحث بالانتهاء يجدر بنا أن نقف فنسجل أهم ما توصلنا إليه من نتائج .

ولعل أبرز هذه النتائج أن أدب العصر المملوكي أعطانا صورة نابضة ، واضحة القسمات لمجتمع مصر المملوكية بكل أبعاد حياته وقضاياها وما كان يخوض فيه الناس آنئذ من جد الحياة ولهوها .

فى حديثنا عن الحكم استطعنا أن نستشف من الأدب صورة هذا الحكم ، وموقف المحكومين من الحكام ، وإذا كانت النصوص الرسمية وبعض المدائح قد أظهرت لنا الصورة التي أحب المماليك أن يظهروا بها لأعين الناس فقد وقفنا على جملة من النصوص تعكس لنا ظاهرة الانفصام بين الحكام والمحكومين كذلك أبرز لنا الأدب الصراع الدائر حول كرسي السلطنة وموقف الناس منه ، وأبرز لنا صراعا آخر مستخفيا كان يدور حول كرسي الوزارة — على ضعفها وضآلة شأنها — بين أرباب السيوف وأرباب الأقلام .

كما أبرز لنا الأدب أصداء التيارات والحركات المعارضة ، ولعل أهمها التيار العربي الذي تصدت له السلطة بضراوة أحســنا أثرها أنغاما حزينة تبكي الماضي العربي ، وتندب مجده .

أما الجهاد فقد أبرز أدب هذا العصر المنطلق الديني الذي صدر عنه ، ورأينا كيف امتزجت الأنغام الدينية بأنغام الحماسة والحرب ، كما أبرز الأدب النظرة إلى المغول والصليبيين ، فرأينا الأدباء يصمونهم بالشرك والكفــر والوثنية دون تفرقة ولا ريب أنهم فى ذلك كانوا يصدرون عن نظرة المجتمع ،

وعرض الأدب علينا صورة نابضة للمعارك ، وما اتسمت به من قسوة ، وضراوة ، وصور أساليبها ، وما كان يصحب النصر من أفراح ، وما كان يصحب الهزيمة من فتك وتخريب ، إلا أننا لاحظنا شحوب عنصر البطولة فى أدب الحرب ، وعللنا لذلك بالنظرة المتعالية على الحكام .

وسجل هذا البحث للأدب موقفه من تهافت المماليك على الثروة ، وما صحب ذلك من انهيار القيم ، ففشت الرشوة ، وتأخر أصحاب الفضل واستشرت الأمراض الخلقية من نفاق ووصولية ، وراح الأدباء يصورون كل هذا الفساد ورأينا تباين طرائقهم فى معالجة هذه القضية : فمنهم المنكر المتشدد ، ومنهم الباحث عن العلل والأسباب ، ومنهم الساخر .

وحاولنا من خلال الأدب أن نقف على التيارات العقلية ، واتضح لنا قوة تيار التصوف ، كما اتضح لنا تباين نظرة الناس إلى المتصوفة ، وحينما حاولنا النفاذ إلى ما وراء أدب المتصوفة من فكر صوفى خرجنا بمفهوم مؤداه أن التصوف كان حركة مغتربة تولدت نتيجة ظروف تاريخية ، سياسية واجتماعية ، ثم استحالت إلى غربة كونية ، وهذا المفهوم يضىء لنا كثيرا من جوانب عالم المتصوفة الذى نطل عليه من خلال أدبهم ، فهو عالم مثالى ينشده الصوفى إذ يرى فيه تحقيقا لسعادة المثل والحرية

كذلك وقفنا فى أدب هذا العصر على تيار آخر — وإن كان خافتا — هو تيار التشيع وقد عكس الأدب بعض الجدل الذى كان ما يزال دائرا حوله ، كما وقفنا على بعض النصوص الشعرية تعكس المعتقد الشيعى ، ولحظنا تسرب كثير من معتقدات التشيع إلى أوساط المتصوفة .

وعكس أدب هذا العصر أيضا جو التوتر الدينى بين المسلمين وأهل

الذمة الذى كان نتيجة الحروب الصليبية من جانب ، ولاعتماد المماليك على أهل الذمة من جانب آخر .

ولم يقف جهد الأدباء عند تسجيل الأحداث ، بل تعدى ذلك إلى ألوان من الجدل الدينى ، ورأينا من الأدباء من تصدى لتفنيد معتقدات النصارى واليهود ، وربما كان من أهم ما توصلنا إليه بهذا الصدد أن المدائح النبوية التى شاعت فى شعر هذا العصر كانت ثمرة من ثمار هذا الجو الدينى المتوتر ، كما كان تركيز الشعراء على المعجزات المادية الرسول — صلى الله عليه وسلم — وإلحاحهم فى تفضيله على بقية الرسل صدى من أصداء الجدل الدينى الدائر فى هذا العصر .

وفى حديثنا عن ملامح الشخصية المصرية والحياة العامة ، رأينا كيف تميزت شخصية مصر ، وكيف طبعت الأدب بطابعها ، فترددت أمثالها العامية فى شعر الشعراء ، واتسم كثير من أدب الأدباء بروح الفكاهة والسخرية كما رأينا رجعا لحضارة مصر القديمة أسطورة وتاريخا ، فضلا عن تصوير الأدب البيئة المصرية ، ولحياة الناس وعاداتهم ، ومعتقداتهم وأفراحهم وأتراحهم ، ومآكلهم ومشاربهم ، كذلك أعطانا الأدب صورة المرأة ولمكانتها الاجتماعية وشأنها زوجة وابنة ومحبوبة ، ومعايير الجمال النسائى وفنون الزينة .

وصور الأدب ما شاع فى هذا العصر من فنون اللهو ، كما أبرز تيار المجون متمثلا فى الخمر والحشيشة والشذوذ والغلمان ، وكان مما ألمنا إليه أن بعض أدب الخمر كان يمثل تمردا على الواقع ، ومحاولة الهروب من دمامته .

ووقف البحث عند الذوق الأدبى وقفة طويلة متأنية ، وقد تبين لنا أن هناك لونين من الذوق ، لونا خاصا ، وآخر عاما ولكل منها سماته وملامحه .

فأهم سمات الفن الخاص الابتهالات إلى القديم ، والشغف بالبديع ، والإغراب والتعمية ، وأهم سمات الفن العام الثورة على التراث ، والسهولة والتحامق والإضحاك .

وتحدثنا عن الموشح والزجل والمواليا والدوبيت والكان وكان باعتبارها فنونا من الفن العام ، وتبين لنا مدى ما أضفته مصر على كل فن من هذه الفنون .

وبعد ، فربما كان من المزيد أن أشير إلى أن هذا البحث نفض الغبار عن عديد من الأعمال الأدبية ، فضلا عن أنه قدم قراءة جديدة لعديد من النصوص فهذا أمر أترك للقارىء الحكم عليه .

والله الموفق إلى سواء السبيل ...

ثبت بالمصادر والمراجع

أولا : المصادر المخطوطة :

١ — الإلمام بما جرت به الأحكام المقضية فى وقعة الإسكندرية النويرى السكندرى . مخطوط بمكتبة كلية الآداب جامعة الإسكندرية (ميكروفيلم) تحت رقم ٧٣٥ م .

٢ — التذكرة الصفدية ، صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدى ، مخطوط (ميكروفيلم) بمكتبة كلية الآداب جامعة الاسكندرية تحت رقم ٢٧٧٩ م .

٣ — تأهيل الغريب ، شمس الدين النواجى ، نسخة مصورة بمعهد المخطوطات تحت رقم ٢٤٠٦ .

٤ — تشنيف السمع فى انسكاب الدمع ، صلاح الدين بن أيبك الصفدى نسخة بمكتبة كلية الآداب جامعة الإسكندرية تحت رقم ١٤٣٥ م مصوره عن دار الكتب .

٥ — جلوة المذاكرة وخلوة المحاضرة ، صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدى ، مخطوط بالمكتبة التيمورية تحت رقم ١٩٨ أدب .

٦ — الحسن الصريح فى وصف مائة مليح ، صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدى ، مخطوط (ميكروفيلم) بمعهد المخطوطات تحت رقم ١٩٥ أدب .

٧ — ديوان أحمد بن عبد الملك المعروف بالشهاب العزازى . مخطوط بالمكتبة التيمورية تحت رقم ٢٨٢ شعر .

٨ — ديوان سيف الدين المشد : مخطوط بالمكتبة التيمورية تحت رقم

٩٠٢ شعر) ومنه (ميكروفيلم) بمكتبة كلية الآداب جامعة الاسكندرية تحت رقم ١٥٥٣ م .

٩ — ديوان شهاب الدين محمود . مخطوط بمعهد المخطوطات (ميكرو فيلم) تحت رقم ٣٠٩ أدب .

١٠ — ديوان عفيف الدين التلمسانى . مخطوط بدار الكتب تحت رقم ١١٤٧ شعر تيمور .

١١ — ديوان معز الدين بن مكانس . (ميكروفيلم) بكلية الآداب جامعة الاسكندرية تحت رقم ٢٥٣٤ م مصور عن دار الكتب

١٢ — ديوان برهان الدين القيراطى (مطلع النيرين) مخطوط بدار الكتب تحت رقم ٥٢٩ شعر .

١٣ — ديوان محمد بن وفا السكندرى المصرى مخطوط بمكتبة جامعة الاسكندرية تحت رقم ١٨٠٣ د .

١٤ — ديوان محيي الدين بن عبد الظاهر . (ميكروفيلم) بمكتبة كلية الآداب جامعة الاسكندرية تحت رقم ٢٥٣١ م مصور عن دار الكتب .

١٥ — رسالة ابن عبد الظاهر إلى الأمير ناصر الدين بن النقيب. مخطوط بدار الكتب تحت رقم ٣٩١١ أدب .

١٦ — روض الآداب ، شهاب الدين الحجازى مخطوط بمكتبة كلية الآداب جامعة الاسكندرية تحت رقم ٢٧٨١ م مصور عن دار الكتب .

١٧ — زبدة الفكر فى تاريخ الهجرة . بيبرس الدوادارى ، مخطوط مصور بمكتبة جامعة القاهرة تحت رقم ٢٤٠٢٨ .

١٨ — سلوك السنن إلى وصف السكن ، ابن أبي حجلة التلمساني ، مخطوط بمكتبة كلية الآداب جامعة الاسكندرية تحت رقم ١٣٤٨ م .
١٩ — الضراعة الناجعة والبضاعة الرابحة ، أبو الحسين الجزار ، مخطوط بمكتبة كلية الآداب جامعة الاسكندرية تحت رقم ١٤٤٧ م مصور عن المكتبة التيمورية .
٢٠ — عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان ، بدر الدين العيني ، مخطوط بدار الكتب تحت رقم ١٥٨٤ تاريخ .
٢١ — المنمة في استعمال أهل اللمة ، محمد بن علي بن النقاش ، مخطوط بدار الكتب تحت رقم ٣٩٥٢ تاريخ .
٢٢ — مسالك الأبصار ، شهاب الدين بن فضل الله العمري ، مخطوط بدار الكتب تحت رقم ٥٩٤ معارف عامة .
٢٣ — منتخب الجزار ، مخطوط (ميكروفيلم) بمعهد المخطوطات تحت رقم ٨١٤ أدب .
٢٤ — منتخب الوراق ، مخطوط (ميكروفيلم) بمعهد المخطوطات تحت رقم ٨١٥ أدب .
٢٥ — منثور الصاحب فخر الدين بن مكانس ، مخطوط (ميكروفيلم) بمعهد المخطوطات تحت رقم ٨٣٤ أدب .
٢٦ — المنهل الصافي والمستوفى بعد الوافي ، ابن تغري بردي ، مخطوط بمكتبة كلية الآداب جامعة الاسكندرية تحت رقم ١٦٨٧ م .
٢٧ — النوادر والطرف في الوظائف والحرف ، محمد بن مسلم الشافعي مخطوط بدار الكتب تحت رقم ٥٦٤٩ أدب .
٢٨ — نهاية الأرب في فنون الأدب ، شهاب الدين أحمد بن عبدالوهاب النويري ج ٣٠ مخطوط بدار الكتب تحت رقم ٥٤٩ معارف عامة

ثانيا : المصادر المطبوعة :

٢٩ — ابن دقيق العيد (حياته وديوانه) د. على صافى حسين ط دار — المعارف ١٩٦٠ م .

٣٠ — الأدب الصوفى فى مصر فى القرن السابع الهجرى . د. على صافى حسين ط. دار المعارف ١٩٦٤ م .

٣١ — إغاثة الأمة بكشف الغمة ، تقى الدين المقريزى ، نشر زياده — الشيال ط. لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٥٧ م .

٣٢ — إنباء الغمر بأبناء العمر ، ابن حجر العسقلانى ، تحقيق حسن حبشى ط. القاهرة ١٣٨٩ هـ — ١٩٦٩ م .

٣٣ — بدائع الزهور فى وقائع الدهور ، ابن اياس ط. الشعب .

٣٤ — البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع ، محمد بن على الشوكانى ط. السعادة ١٣٤٨ هـ .

٣٥ — البيان والاعراب عما بأرض مصر من الأعراب ، تقى الدين أحمد بن على المقريزى ، تحقيق وتأليف د. عبد المجيد عابدين . ط. القاهرة ١٩٦١ م .

٣٦ — تاريخ ابن الفرات ، ناصر الدين محمد عبد الرحيم بن الفرات ، تحقيق قسطنطين رريق — جلاء عز الدين بيروت ١٩٣٩ م .

٣٧ — تاريخ ابن الوردى ، زين الدين بن الوردى ، المطبعة الوهبية ١٢٨٥ هـ .

٣٨ — تاريخ الخلفاء ، جلال الدين عبد الرحمن بن أبى بكر السيوطى ، تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد . ط. المكتبة التجارية .

٣٩ — تاريخ الملك الناصر محمد بن قلاوون ، شمس الدين الشجاعى ، تحقيق بربارة شيفر . ط. فيسبادن ١٣٩٨ — ١٩٧٨ م .

٤٠ — تأهيل الغريب ، ابن حجة الحموى ، فى ذيل ثمرات الأوراق ، ط . المطبعة الوهبية ١٣٠٠ هـ .
٤١ — تحرير التحبير فى صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن ، ابن أبى الاصبع المصرى ، تحقيق د . حفنى محمد شرف ط القاهرة ١٣٨٣ — ١٩٦٣ م .
٤٢ — تحفة النظار فى غرائب الأمصار وعجائب الأسفار (رحلة ابن بطوطة) ط . المكتبة التجارية ١٩٥٨ م — ١٣٧٧ هـ .
٤٣ — التعريف بالمصطلح الشريف ، شهاب الدين بن فضل الله العمرى ط . مصر ١٣١٢ هـ .
٤٤ — ثمرات الأوراق ، ابن حجة الحموى ، ط المطبعة الوهبية ١٣٠٠ هـ .
٤٥ — حسن التوسل إلى صناعة الترسل ، شهاب الدين محمود الحلبى ، المطبعة الوهبية ١٢٩٨ هـ .
٤٦ — حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة ، السيوطى ، ط . المطبعة الشرفية ١٣٢٧ هـ .
٤٧ — حكم ابن عطاء الله السكندرى ، شرح عبد المجيد الشرنوبى . ط . القاهرة بدون تاريخ .
٤٨ — حلبة الكميت ، شمس الدين النواجى ، ط . الأميرية ١٢٧٦
٤٩ — خزانة الأدب وغاية الأرب ، تقى الدين أبو بكر بن حجة الحموى ط . بولاق ١٢٧٣ هـ .
٥٠ — خيال الظل وتمثيليات ابن دانيال ، دراسة وتحقيق ابراهيم حماده ط . المؤسسة المصرية العامة ١٩٦١ م .
٥١ — دار الطراز فى عمل الموشحات ، هبة الله بن سناء الملك ، تحقيق

جوده الركابي . ط. دمشق ١٣٦٨ هـ — ١٩٤٩ م .
٥٢ — الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة ، ابن حجر العسقلاني، تحقيق محمد سيد جاد الحق ط. دار الكتب .
٥٣ — ديوان ابن نباته المصري ، جمال الدين بن نباته ، بيروت ، دار احياء التراث .
٥٤ — ديوان أبي تمام تحقيق محمد عبده عزام ط. دار المعارف
٥٥ — ديوان البوصيري (شرف الدين محمد بن سعيد البوصيري)، تحقيق محمد سيد كيلاني ، ط البابي الحلبي ١٣٧٤ هـ — ١٩٥٥ م .
٥٦ — ديوان البهاء زهير ، تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم ، محمدطاهر الجبلاوي ، ط دار المعارف ١٩٧٧ م .
٥٧ — ديوان زين الدين بن الوردي ورسائله ط الجوائب ١٣٠٠ هـ .
٥٨ — ديوان الشاب الظريف (محمد بن عفيف التلمساني) ط بيروت ١٨٨٥ م .
٥٩ — ديوان الصبابة ، ابن أبي حجلة التلمساني . ط. القاهرة ١٢٧٩ هـ .
٦٠ — ديوان صفي الدين الحلي . ط بيروت ١٣٨٢ هـ — ١٩٦٢ م .
٦١ — ديوان المتنبي ، شرح عبد الرحمن البرقوقي ط بيروت .
٦٢ — الرسالة القشيرية ، القشيري ، ط القاهرة ١٣٦٧ هـ — ١٩٥٧ م .
٦٣ — سكردان السلطان ، ابن أبي حجلة التلمساني ، على هامش المخلاة ط. الأميرية ١٣١٧ هـ .
٦٤ — السلوك لمعرفة دول الملوك ، المقريزي ، تحقيق محمد مصطفى زياده ط ١٩٤١ م .
٦٥ — شذرات الذهب في أخبار من ذهب ، ابن العماد الحنبلي ، ط القدسي ١٣٥١ هـ .

٦٦ — صبح الأعشى فى صناعة الإنشا ، أبو العباس أحمد بن على القلقشندى ط وزارة الثقافة .
٦٧ — الطالع السعيد الجامع أسماء نجباء الصعيد ، كمال الدين الإدفوى ، تحقيق سعد محمد حسن ، ط الدار المصرية للتأليف والترجمة ١٩٦٦ م .
٦٨ — طبقات الشافعية الكبرى ، تاج الدين السبكي ، ط المطبعة الحسينية
٦٩ — الطبقات الكبرى ، عبد الوهاب الشعرانى ط مصر ١٣٠٥ هـ .
٧٠ — العاطل الحالى والمرخص الغالى ، صفى الدين الحلى ، بعناية ولهلم هرباخ ، ط فرانزشتاينر ويسبادن (ألمانيا) ١٩٥٥ م .
٧١ — الغيث المنسجم فى شرح لامية العجم ، الصفدى ، المطبعة الوطنية ١٢٩٠ هـ .
٧٢ — فض الختام عن التورية والاستخدام ، الصفدى ، دراسة وتحقيق د. محمد عبد العزيز الدماوى ط ١٣٩٩ — ١٩٧٩ م .
٧٣ — فوات الوفيات والذيل عليها . محمد بن شاكر الكتبى ، ٤ أجزاء تحقيق د. احسان عباس ، ط. بيروت .
٧٤ — الكلمات المهمة فى مباشرة أهل الذمة ، جمال الدين الاسنوى،نشر موشى برلمان ، ط بروكلين ١٩٦٩ .
٧٥ — لسان التعريف بحال الولى الشريف ، أحمد جلال الدين الكركي، تحقيق أحمد عز الدين خلف الله — القاهرة ١٩٦٩ م .
٧٦ — لطائف المنن فى مناقب الشيخ أبى العباس المرسى وشيخه الشاذلى أبى الحسن ، ابن عطاء الله السكندرى ، ط ١٣٩٩ هـ — ١٩٧٩ م
٧٧ — لوعة الشاكى ودمعة الباكى ، الصفدى ، ط مطبعة الشروح الأدبية

٧٨ — مطالع البدور فى منازل السرور . علاء الدين الغزولى، ط ادارة الوطن ١٢٩٩ هـ .
٧٩ — معالم القربة فى أحكام الحسبة ، محمد بن محمد القرشى المعروف بابن الاخوة ، بعناية روبن ليوى . ط كيمبرج ١٩٣٧ م .
٨٠ — معيد النعم ومبيد النقم ، تاج الدين عبد الوهاب السبكى ، تحقيق النجار وشلبى وأبى العيون ، ط دار الكتاب العربى ١٣٦٧ هـ — ١٩٤٨ م .
٨١ — المغرب فى حلى المغرب ، تحقيق كنوت تلكوست . ط ليدن ١٨٩٨ م .
٨٢ — مقدمة ابن خلدون ، عبد الرحمن محمد بن خلدون ط الشعب
٨٣ — المنهل الصافى والمستوفى بعد الوافى ، ابن تغرى بردى ، الجزء الأول ، ط دار الكتب ١٣٧٥ هـ — ١٩٥٦ م .
٨٤ — المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار ، المقريزى ، ط العرفان
٨٥ — النجوم الزاهرة فى أخبار ملوك مصر والقاهرة ، ابن تغرى بردى، نسخة مصورة عن ط دار الكتب .
٨٦ — النجوم الزاهرة فى حلى حضرة القاهرة (القسم الخاص بالقاهرة من كتاب المغرب فى حلى المغرب) تحقيق د. حسين نصار . ط دار الكتب ١٩٧٠ م .
٨٧ — نهاية الأرب فى فنون الأدب ، شهاب الدين أحمد بن عبدالوهاب النويرى ، ط المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر .
٨٨ — الوافى بالوفيات ، الصفدى ، باعتناء س ، ديدرنغ ، ط دار النشر ، فرانزشتاينر ١٣٩٤ هـ — ١٩٧٤ م .

ثالثا : المراجــع :

٨٩ — ابن سناء الملك ومشكلة العقم والابتكار فى الشعر . د. عبد العزيز الأهوانى . ط الأنجلو ١٩٦٢ م .
٩٠ — أدب الدول المتتابعة ، عمر موسى باشا ، ط دار الفكر الحديث بيروت ١٩٦٣ م .
٩١ — الأدب العامى فى مصر فى العصر المملوكى ، أحمد صادق الجمال ، ط الدار القومية ١٣٨٦ هـ — ١٩٦٦ م .
٩٢ — الأدب فى العصر الأيوبى ، د. محمد زغلول سلام ، ط دار — المعارف ١٩٦٨ م .
٩٣ — الأدب فى العصر المملوكى ، جزءان ، د. محمد زغلول سلام ، ط دار المعارف ١٩٧١ م .
٩٤ — الأدب فى العصر المملوكى ، د. كامل الفقى ، ط الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٦ م .
٩٥ — الأدب والمجتمع ، محمد كمال الدين على يوسف . القاهرة ١٩٦٢ م
٩٦ — الأسس الجمالية فى النقد العربى . د. عز الدين اسماعيل ، ط دار الفكر العربى ١٩٥٥ م .
٩٧ — الأسس النفسية للابداع الفنى فى الشعر خاصة ، مصطفى سويف ط دار المعارف ١٩٥١ م .
٩٨ — أشكال التعبير فى الأدب الشعبى . د. نبيله ابراهيم ط القاهرة .
٩٩ — الاغتراب ، د. محمود رجب ، ط منشأة المعارف ، الاسكندرية
١٠٠ — ألف ليلة وليلة ، د. سهير القلماوى . ط مطبعة المعارف ١٩٤٣ م

١٠١ — أهل الذمة فى مصر فى العصور الوسطى (دراسة وثائقية) . د قاسم عبده قاسم ، ط دار المعارف ١٩٧٧ م .

١٠٢ — عار الحب عند الصوفية ، أحمد بهجت ط المختار الإسلامى ١٣٩٩ هـ — ١٩٧٩ م .

١٠٣ — البذل والبرطلة زمن سلاطين المماليك . د. أحمد عبد الرازق أحمد ط . الهيئة المصرية العامة ١٩٧٩ .

١٠٤ — تاريخ الأدب العربى ، كارل بروكلمان ، ترجمة رمضان عبد التواب ، عبد الحليم النجار ، دار ط المعارف .

١٠٥ — تاريخ آداب اللغة العربية ، جورجى زيدان ، مراجعة د. شوقى ضيف ط . دار الهلال .

١٠٦ — تاريخ دولة المماليك ، وليم موير ، ترجمة محمود عابدين وسليم حسن ط القاهرة ١٣٤٢ هـ — ١٩٢٤ م .

١٠٧ — تاريخ اللغة العربية فى مصر . د. أحمد مختار عمر ط الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر ١٣٩٠ هـ — ١٩٧٠ م .

١٠٨ — تراث الإسلام (ثلاثة أجزاء) تصنيف شاخت وبوزورث ، ترجمة السمهورى ، حسين مؤنس ، إحسان صدقى ، ط الكويت ١٩٧٨

١٠٩ — التصوف ثورة روحية فى الإسلام ، د. أبو العلا عفيفى ، ط دار المعارف ١٩٦٣ .

١١٠ — جمالية الفن العربى ، د. عفيف بهنسى ، ط الكويت ١٩٧٩ م .

١١١ — الحركة الفكرية فى مصر فى العصرين الأيوبى والمملوكى الأول د. عبد اللطيف حمزة الطبعة الأولى . دار الفكر .

١١٢ — الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى . آدم متز ، ترجمة أبو ريده ط . القاهرة ١٣٥٩ هـ — ١٩٤٠ م .

١١٣ - المصادرة . د. حسين مؤنس ، ط الكويت ١٩٧٨ .
١١٤ — الحكاية الخرافية ، فردريش فون ديرلاين ، ترجمة د. نبيلة ابراهيم ط. دار نهضة مصر ١٩٦٥ .
١١٥ — الحياة الأدبية فى عصر الحروب الصليبية بمصر والشام . د. أحمد بدوى . ط مكتبة نهضة مصر .
١١٦ — الحياة العقلية فى عصر الحروب الصليبية بمصر والشام . د. أحمد أحمد بدوى . ط. مكتبة نهضة مصر .
١١٧ — حياتى والتحليل النفسى ، سيجموند فرويد ، ترجمة زيور والمليجى ط دار المعارف ١٩٥٧ م .
١١٨ — دراسات فى تاريخ المماليك البحرية . د على ابراهيم حسن ، ط مكتبة النهضة المصرية ١٩٤٨ م .
١١٩ — دراسات فى الشعر فى عصر الأيوبيين . د. محمد كامل حسين . ط دار الفكر العربى ١٩٥٧ م .
١٢٠ — دولة بنى قلاوون فى مصر . د. محمد جمال الدين سرور . ط دار الفكر العربى ١٣٦٦ هـ — ١٩٤٧ م .
١٢١ — الرمز الشعرى عند الصوفية . د. عاطف جودة نصر ط بيروت ١٩٧٨ م .
١٢٢ — الشخصية المصرية فى الأدبين الفاطمى والأيوبى . د. أحمد سيد محمد ط . دار المعارف ١٩٧٩ م .
١٢٣ — شخصية مصر . د. نعمات أحمد فؤاد . القاهرة ١٩٦٨ م .
١٢٤ — الشعر العربى فى القرن الثانى الهجرى . د. محمد مصطفى هدارة . ط دار المعارف .

١٢٥ — الشعر وطوابعه الشعبية على مر العصور . د. شوقي ضيف ط دار المعارف ١٩٧٧ م .

١٢٦ — الصيغ اليديس في اللغة العربية . د. أحمد ابراهيم مرسى . ط دار الكاتب العربي ١٣٨٨ هـ - ١٩٦٩ م .

١٢٧ — عصر سلاطين المماليك ونتاجه العلمي والأدبي . محمود رزق سليم ط وزارة الثقافة ١٣٨١ هـ — ١٩٦٢ م .

١٢٨ — العقيدة والشريعة في الاسلام ، جولد تسهير ، ترجمة محمد يوسف ، عبد العزيز عبد الحق ، على حسن عبد القادر ط القاهرة ١٩٤٦ م .

١٢٩ — العلاقات السياسية بين المماليك والمغول . د. فايد عاشور ط دار المعارف ١٩٧٤ م .

١٣٠ — الفكاهة في مصر . د. شوقي ضيف . ط الهلال . فبراير ١٩٥٨ م.

١٣١ — الفن والحياة ، ايردل جنكز ، ترجمة أحمد حمدى محمود ، على أدهم ط وزارة الثقافة ١٩٦٣ م .

١٣٢ — الفنون الشعرية غير المعربة (المواليا — الزجل) د. رضا محسن حمود ط العراق ١٩٧٦ م ، ١٩٧٧ م .

١٣٣ — الفنون والإنسان (مقدمة موجزة لعلم الجمال) ارون إدمان.ترجمة مصطفى حبيب . ط دار مصر للطباعة .

١٣٤ — فى الأدب المصرى . أمين الخولى . الطبعة الأولى ١٩٤٣ م .

١٣٥ — قصصنا الشعبي . د. فؤاد حسنين على . ط دار الفكر ، القاهرة ١٩٤٧ م .

١٣٦ — الكيسانية فى الأدب والتاريخ د. وداد القاضى ، ط بيروت١٩٧٤

١٣٧ — لمحات من تاريخ الحياة الفكرية المصرية قبل الفتح العربى وبعده ، د. عبد الحميد عابدين ط ١٩٦٤ م .

١٣٨ — ما الأدب ، جان بول سارتر ، ترجمة وتعليق محمد غنيمى هلال ط الأنجلو ١٩٧١ م .

١٣٩ — المجتمع المصرى فى عصر سلاطين المماليك د. سعيد عبد الفتاح عاشور ط. دار النهضة ١٩٦٢ م .

١٤٠ — محى الدين بن عربى فى ذكراه المئوية الثامنة لميلاده ، ط الهيئة المصرية العامة ١٣٨٩ هـ — ١٩٦٩ م .

١٤١ — المخطوطات العربية لكتبة النصرانية ، لويس شيخو ، بيروت — ١٩٢٤ م .

١٤٢ — المدائح النبوية فى الأدب العربى ، د. زكى مبارك . ط الشعب ١٣٩١ هـ — ١٩٧١ م .

١٤٣ — مشكلة الفن . د. زكريا ابراهيم — ط القاهرة ١٩٧٦ م .

١٤٤ — مطالعات فى الشعر المملوكى والعثمانى . د. بكرى شيخ أمين ، ط دار الشروق ١٣٩٢ هـ — ١٩٧٢ م .

١٤٥ — مقامات الحريرى ، أبو محمد القاسم بن على الحريرى ، طالقاهرة ١٣٢٦ هـ .

١٤٦ — مقدمة فى صناعة النظم والنثر ، شمس الدين النواجى ، تحقيق محمد ابن عبد الكريم ، ط مكتبة الحياة بيروت

١٤٧ — الملابس المملوكية لى. أ. ماير ترجمة صالح الشيتى ، ط الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٢ م .

١٤٨ — ملامح الشخصية المصرية فى الدراسات البيانية . د. مصطفى الصاوى الجوينى . ط الهيئة المصرية العامة ١٩٧٠ م .

١٤٩ — الملل والنحل . الشهرستانى ، ط الحلبى .

١٥٠ — نشأة الفكر الفلسفى فى الاسلام . د. على سامى النشار ، ط دار المعارف ١٩٦٤ م .

١٥١ — نفسية أبى نواس ، د. محمد النويهى ط الخانجى ١٩٧٠ .

١٥٢ — النقد الأدبى فى العصر المملوكى . د. عبده عبد العزيز قلقيلة ، ط الأنجلو ١٩٧٢ م .

١٥٣ — النيل فى الأدب المصرى . د. نعمات أحمد فؤاد . ط دار المعارف

١٥٤ — وصف مصر لعلماء الحملة الفرنسية ، ترجمة زهير الشايب ط الخانجى ١٩٧٨ م .

رابعا : مراجع أجنبية .

١٥٥ — Arabic Literature , H.A.R. Gidd, London 1926

١٥٦ — A History fo Egypt in The Middle Ages , vol.VI, Stanly Lane-Poole , London.

١٥٧ — A Literary History of Arabs, Nicholson,R.A, Cambridge 1969.

١٥٨ — The Priests to Ancient Egypt, Serge , Sanuran, New York 1040.

خامسا : دوريات :

١٥٩ — الثقافة والمجتمع د. على أدهم . مجلة الكاتب المصرى ، نوفمبر سنة ١٩٤٥ م .

فهـــرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
المرأة	٢٩٥ — ٣١٤
الفصل السابع	
اللهو والمجون	٣١٥ — ٣٧٥
١ — الصيد	٣١٥ — ٣٢٤
٢ — المناقرة والمناطحة	٣٢٤ — ٣٢٦
٣ — النرد والشطرنج	٣٢٦ — ٣٢٨
٤ — الألغاز والأحاجي	٣٢٩ — ٣٣٢
٥ — المجون :	٣٣٢ — ٣٣٦
أ — الخمر	٣٣٧ — ٣٥١
ب — الحشيشة	٣٥١ — ٣٥٧
ج — الشذوذ والغلمان	٣٥٧ — ٣٦٩
٦ — الغناء والرقص	٣٦٩ — ٣٧٥
الفصل الثامن :	
الذوق الأدبي	٣٧٦ — ٣٧٨
أولا . اللون الخاص	٣٧٨ — ٤٣٠
ثانيا : اللون العام	٤٣٠ — ٤٧٧
خاتمة	٤٧٩ — ٤٨٢
ثبت بالمصادر والمراجع	٤٨٣ — ٤٩٦
فهرس الموضوعات	٤٩٧ — ٤٩٨

طبع بمطابع جريدة السفير
٥ شارع الصحافة
ت ٨٠٢٩٦٤٠ إسكندرية





٥٠٠

٧/١١٦٤٩١

دار المعارف – ١١١٩ كورنيش النيل – القاهرة
الناشر منطقة الإسكندرية ٤٢ ش سعد زغلول